

الموسوعة الشامية في تاريخ الخبز والطبليّة

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (٣)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث عشر

دمشق
١٩٩٤ ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السادس

-- من البرق الشامي للعماد الاصفهاني
-- الفتح القسي في الفتح القدسي -- للعماد الاصفهاني

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلف لنا التعرف الى بعض المؤرخين المسلمين الذين عاصروا وصول الغزاة الفرنجة الى بلاد الشام ، ولدى استعراضنا لأخبار الصراع مع هؤلاء الغزاة أدركنا كم هي هامة السدوات التي تولى فيها قيادة المسلمين كل من نور الدين وصلاح الدين ، وأرخ لأحداثها من جانب الفرنجة وليم الصوري ثم صاحب النيل على تاريخه ، وكان العماد الاصفهاني - وفيما بعد ابن شداد - قد شارك في صنعها والتأريخ لها ، وبناء عليه ان ما كتبه العماد فائق الاهمية ، لكن مما يؤسف له ان هذه الاهمية بددتها صنعة الكلام التي ابتلي بها العماد أكثر من سواء من معاصريه .

والعماد هو : محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني ، ولد في اصفهان سنة ٥٩٧هـ / ١١٢٥ م ومات بدمشق سنة ٥٩٧ هـ ١٢٠١ م ، وهو بعمره المئيد كان شاهد القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد .

انحدر العماد من اسرة رفيعة المكانة ، عمل رجال منها بالادارة ، وشهروا بسعة الثقافة ، واتقنوا العربية والفارسية ، وكان العماد قد نشأ في اصفهان ، وفيها تلقى علومه الاولى ، وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م التحق ببغداد حيث تولى بعض الأعمال الادارية ، وتمتع بالسلطة وعانى من تقلباتها ، وكانت كثيرة مفاجئة آنذاك في بغداد ، وهكذا بعدما أمضى بالاعتقال قرابة العامين التحق بدمشق سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ، وكان على معرفة بنجم الدين أيوب وبعده شخصيات في دولة نور الدين ، مما هيا له السبل للعمل في ادارة نور الدين ، وفي عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، تسلم ديوان الانشاء في دمشق ، وظل يعمل

به حتى وفاة نور الدين ، واثّر هذا بامد وجيز استخدمه صلاح الدين ، وظل مرافقا لهذا السلطان العظيم وقريبا منه حتى وفاته .

وفي مواد موسوعتنا اشارات مفصلة للعماد وللادوار التي تولّاها ، لايل حتى لاسماء بعض ما صنفه او ترجمه ، وكان العماد خصب الانتاج في ميداني الادب والتاريخ ، اهتم - بحكم كونه اتقن نظم الشعر - بشعراء العربية في عالم الاسلام في ايامه شرقا وغربا ودون اخبارهم في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » ونيولها له . وفي حقل التاريخ كان اهم ما صنفه :

١ - كتاب « نصرة الفترة وعصرة القطرة » أرخ به لسلطين السلاجقة ووزرائهم واعيان دولهم ورجالاتهم ، وبنى أصل هذا الكتاب على كتاب صنفه بالفارسية الوزير ادو شروان بن خالد ، وعنوانه « فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور » ، ونظرا لصعوبة التعامل مع لغة العماد فقد قام الفتح البنداري في العصر الايوبي بتهنيبه ، مثلما هذب غيره من كتبه ، والمتداول المطبوع في ايدي الناس ، هذبه البنداري ، علما ان هناك نسخة خطية من اصل العماد محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس .

٢ - كتاب « الفتح القسي في الفتح القدسي » ويقال « الفيح القسي » وهي الذي نقدم له اليوم ، وواضح من عنوانه أن العماد استهدف من تصنيفه التاريخ لفتح القدس وازالة المملكة اللاتينية من الوجود ، وفي الحقيقة أرخ به العماد للفترة الممتدة من سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م حتى سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣ م ، السنة التي توفي بها صلاح الدين ، وما دونه العماد في هذا الكتاب ، دونه بشكل او آخر في كتابه .

٣ - « البرق الشامي » ويفترض ان العماد جعل هذا الكتاب في سبعة اجزاء ، أرخ فيها من تاريخ قدومه الى الشام سنة ٦٢ هـ / ١١٦٧ حتى وفاة صلاح الدين ، اي أرخ فيه للدولتين الذورية والصلاحية ، المهمة سيقوم بها بشكل اوسع ابو شامة في كتابه الروضتين .

ولم يصلنا كتاب البرق الشامي بأكمله ، بل وصل إلينا من أجزائه الثالث والخامس ، وقطعة كبيرة تتضمن جل المتبقي من الكتاب ، وجرى نشر الجزء الثالث في عمان ١٩٨٦ ، وكذلك الخامس في السنة نفسها والمكان نفسه ، وذلك اعتمادا على المخطوطة الوحيدة لهما المحفوظة في مكتبة البودليان في أكسفورد ، ووقفت على القطعة المتبقية في الخزانة العامة بالرباط ، وهي مصدرة على شريط ، كان قد أودعه فيها المرحوم المختار السوسي ، ولا نعرف الآن مكان الاصل المصور ، ونشرت في مجلدنا هذا نموذجا من هذه القطعة .

لم يكن من السهل التعامل مع كتاب العماد هذا لصعوبة لغته ، فقد تغيبت المعاني وتبددت أخبار الوقائع داخل صنعه السجع الممل . مع ان بعض جمل هذا السجع رائعة التصوير ، دقيقة جدا ، لكن هذا نادر الوجود صعب التحصيل ، والاقدام على تحقيق هذا الكتاب مغامرة محذوفة بالمخاطر ، ربما سيكون الخطأ في قراءة النص أكثر من الصواب ، وبالنهاية ان المحصلات قليلة القيمة لاتضمن ولا تغني من جوع ، واضرب هنا مثلا انني قمت بمقارنة سريعة للصفحات : ١٧٠ - ١٧٩ من الجزء الخامس المنشور في عمان فوجدت فيها / ١١٥ / كلمة صحفت ولم يحالف المحقق التوفيق في ضبطها مع انه بذل جهودا طيبة في هذا المجال .

وقديما واجه ابو شامة وسواه مثل ابن واصل هذه المصاعب فاقترضوا بالنقل بتصرف من نصوص العماد ، وحاول الفتح البنداري حل هذه المعضلة فذهب كتاب البرق الشامي ، ودعا الكتاب الجديد المذهب « سنا البرق الشامي » وسلف للباحث التركي رمضان ششن ان عثر منذ ثلاثة عقود من الزمن على مخطوطة غير كاملة من هذا الكتاب فنشر الجزء الاول منها في بيروت عام ١٩٧١ ، ثم جرى نشر المخطوط كاملا في القاهرة عام ١٩٧٩ مدققا بشكل معتدل من قبل فتحية نبراوي .

وبناء على هذه المعطيات وجدت انني لن احقق فوائد تذكر في تحقيق الوجود من كتاب البرق الشامي ، وان الاقتصار على الفتح القسي فيه كفاية . والقارىء لما كتبه العماد يلاحظ مدى اعتدائه بنفسه وبالادوار التي قام بها ، وافاد هذا حيث تولى وهو كاتب الانشاء - ايداع كتابيه عددا كبيرا من الوثائق ، ولحسن الحظ قام ابو شامة بنقل نصوص هذه الوثائق وغيرها وادعها في كتابه الروضتين كما اقتبس ما كتبه العماد عن الوقائع التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين وعليه لم نلقد شيئا بعدم نشر كتاب البرق الشامي .

سيكون مفيدا مقارنة ما كتبه العماد بما كتبه وليم الصوري وصاحب النيل على تاريخه وايضا بما كتبه ميخائيل السوري ، ففي هذا مجال لرسم الصورة بشكل اكمل واصح ، وهذا ما توفره موسوعتنا هذه للمرة الاولى للقاريء العربي ، وسواه .

من الله أسأل العون والسداد ، وله جل وعلا المزيد من الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى اله وصحبه اجمعين .

سهيل زكار

دمشق ١٦ - ذي القعدة - ١٤١٥ هـ
١٥ نيسان - ١٩٩٥ .

من

كتاب البرق الشامي

للعلماء الأصفهاني الكاتب

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

وهي السنة المحسنة ، والعام الذي عامت به في بشار الانعام
بالاخلاص والحمد القلوب والالسنه ، والزمان التي تقضت على
انتظار احسانه الازمنة ، والعصر الذي أحسننت به الأمة
المؤمنة ، وظهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته
الامكنة ، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة .
وتمكنت من رقاب أعداء الله به الاسنة بأيدي أوليائه المتملكة
المتمكنة ، وتبسمت من غرار الغرور باحتباء حبرات الحبور الاجفان
المتوسنة .

وفي هذه السنة نزل نص النصر ، وكفت كفا الكفر ، وعلت
اعلام الاسلام ونفذت احكام الاحكام ، وكفى الله شر الشرك وحكم
على دماء الكفرة واسارهم بالسفك ، والهتك ، وتمكنت فيهم ايدي
الايد بالفتك ، وضائق بهم رحاب الملك ، وطمت للدين بالسواحل
بحصار الملك ، ونصرت الدولة الناصرية ، وخسدت الملة
النصرانية ، وحق الاعداء بالحق ، ودخل من قر فوق الأمرة من تلك
الأسرة تحت الرق ، وطالت ألوية الأولياء ، وسالت أودية
الاولياء ، ونال الاحماء فضل رب السماء ، وتجلت مآزير
النعماء ، وظهر سر السراء ، وتميز الطيب من الخبيث ، وانتقم
التوحيد من التثليث ، وبنيت للدين اعانة العين ، واغاثت
المغيث ، وشاع في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن
الاحايث ، وبلي الفرنج الفجرة بما أثاروه وأثاروه في البلاء من
التأثير والتأريث ، وأحسوا من المصيبات التي فجأتهم فعمتهم
بالكسر الكريث ، واقتضت بالذكور اليمانية في الحرب العوان الفتوح
الابكار ، وحلبت هدى الهدي ، في ندى الندي ، وحليت بحلى الحلبي
وتليت الاذكار ، واعترف من عادته الجحود وأقر من دأبه

- ٥٧٨٩ -

الانكار ، وملكك من معاقل الكفر على من باض فيها وفـرخ
الأوكار ، واعتري ليلهم يوم الاعتراك الاعتكار .

وتناهت بالفتوحات الممنوحات في هذا العام عشي ايامه
والابكار ، وكاذوا كما قال الله تعالى : « وترى الناس سكارى
وما هم بسكارى » فبالله ذلك العذاب الشديد والاسكار ، وقد
وصفت في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي هذه الاحوال ، ووسعت
ووشعت الاقوال ، وحليت الفتوح ، وأملت الشروح ، وأهديت
المذوح ، ونفخت في أجسام تلك الايام باحياء ذكرها الروح

وأنا أورد في هذا الكتاب مما أوردته جملته الجميلة وجلالته
الجليلة ، وحالته الحالية ، وقيمتة الغالية ، وفضيلته
الفاضلة ، وعدالته الشاهدة وشهادته العادلة .

ذكر مقدمة لذلك مباركة ومكرمة من لطف الله
متدركة .

كان السلطان قدم الكتب لاستقدام الكتائب واستدعت الغرائب
بالرغائب وقرب جنحية الأقارب والأقاصي . . . مظهرات
مكرماته والجوهم على عادات علاء عاداته (١) . . . وسمات
حسناته ، وواصل الموصل بالبر البري من المر ، وسنجار استجرى
المذاكي الخلية الوهن ونصيبين للأسعاف نصيب الأسعاف ، وأمد
ديار بكر بالامداد بعد الامداد ، واستدعى عساكر ممالك الشام من
الأطراف والأوساط ، وأمرهم بالاحتياط ، وصانهم للاقتصاد في
القضم من التفريط والافراط ، وبرز من دمشق يوم السبت أول
محرم في العسكر العرمم ، والعزم المصمم للفرض المحتم والرعب
الى العدو والباس المقدم ، ومضى بأهل الجنة بالجهاد الى أهل
جهنم ، فلما وصل الى رأس الماء (٢) اتخذها مذبح نحو الهيجاء
ومضمار خيل الاجراء ومثار العجاج المكرر على نهار الروع ليل

الظلماء ، وجعلها مطلع فلق فيالقته ، ومحيط مضارب
سراقة ، ومجال رواده على بوارقه ، ومجر سوابغه مجرى
سوابقه ، ومجمع جموع خلائقه ، ومحمى حماة حقايقه ، ومحشر
معاشره ، ومريض أساده وقساوره ، ومخيم جيوشه ومجثم
عساكره ، وأمر ولده الملك الأفضل نور الدين عليا بالاقامة هناك
ليستدني اليه الأمراء الواصلين والاملاك ، ويجمع الأعراب
والاعاجم والأتراك ، ويذاوم لما... (٣) فرط الاستدراك ولايفارق لما
يلزمه الاحاطة بعمله الادراك ، ويضم لمجمع الاجناد
الاشتات ، ويجم لموسم الجهاد الاوقات ، وسار السلطان الى
بصرى ، وخيم على قصر السلامة ، وقد استقبل من الله
الكرامة ، والاستقامة .

ذكر السبب في ذلك

وقد سبق ذكر غدر ابرنس الكرك • وفسخه للهدنة • واعتماده
من قطع الطريق وخافة السبيل كل ما في المكنة • وهو على طريق
العسكر المصري والحاج • شديد الالتجاء • وفي بحر
اللجاء • وكان في الحج حسام الدين محمد بن عمر بن
لاجين • ووالدته اخت السلطان مع جملة من الخواص
المقربين ، وأقام الى تلقى الحجيج • واستقبل محيا لقائهم
البهيج • ورأواهم الأريج • وخلا من منعلم سره • وتجلي
ليشرى سلامتهم بشره • وذلك في آخر صفر • ووجه صباخته
لاسفار صبيحة الظفر سفر • ثم لما فرغ باله • جم الى الكرك
استقلاله • وتقدم بمن معه من العساكر حتى نزل على حصنها
نزول الحاص الحاصر • وأقمنها هناك نرعد ونبرق • ونوقد
ونحرق • ونرمق ونومق • ونهرق ونزممق • ونغرب
ونشرق • ونضايق ونضيق • ونجمع البلاء على تلك البلاد
ونمزق ، حتى اجتثت أصولها وفروعها ، واستأصل كرومها

وزروعها ، وقطع ما وجد من لينة ، وأذهب مآراقه من زينة ، وفري
وقري وفصم العري ، وابسط الذرى ، وهجم على ظهر
الثرى ، وحلب حر النجج هدى ، وشب الشوبك نار الوعيد بإشارة
رأس الوليد ، وقطف ثمر النصر من ورق الحديد ، ووصل العسكر
المصري متصل المدد ، محتفل العدد والعدد متضج الجد
والجدد ، ومضطرم اللهام ، ملتهم للضرام ، ملتهب الجمر ، ملتهج
الجمع ، أخذه بوارقه ورواعده ، بالبصر والسمع ، فقوي
الاستظهار واستظهرت القوى ، وسأقت وراقت مزاينه المجلوبة
ومحاسنة المجلوة ، وأقمنا على الحالة الحالية والجلالة
الجالية ، والمهابة المرهبة ، والمحبة المرغبة .

ذكر ظفر السرية التي بعثها الملك الأفضل وعودها
بالنصر الأكمل والغنم الأجل .

أما الملك الأفضل فإنه اجتمعت عنده الجذود من كل فريق ، وأتوه
من كل فج عميق وضاق بوفودهم القضاء ، وفاض بوفورهم
القضاء ، واجتمع من دجى عتيرهم ومشى بنورهم الظلام
والضياء ، واشتبكت الأرض والسماء ، وطفا على بحار الرحاب
من القب والقباب الحباب ، وطما بأمواج العوامل وأفواج الجفاف
من الكمت والكماء العباب ، وانقضى من السنة شهران ، وطال بهم
انتظار السلطان ، والدين يتقاضاهم بدينه ، والكفر يتحاهم على
حينه ، فرأى الملك الأفضل أن يشغلهم بغزوة يعودون منها
بحظوة ، فأنهض منهم سرية سرية نخية على ذوي البسالة والبأس
والشدة والمراس ، ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق
وسيار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران الأغلب الأعز ، وعلى
عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرد بن ياروق . وهو الذي
بحماسته يرتق من الاسلام بالفتوح الرتوق . وعلى عسكر دمشق
وبلادها صارم الدين قايماز . وهو يفوق غضاء مضاربه الصارم

الهرماز والعضب الجراز • فأسرجوا الخيل • وأدلجوا
الليل • وجروا من السابريات النيل • وأجروا من الأعوجيات
السيل • وجلبوا الى العداة الويل • وصبحوا صفورية في أواخر
صدفر • وصباح النصر قد افتقر • فخرج اليهم الفرنج في حشود
جهنم وريويلملم • وجنود ابليس واسود تحمي العريس
وسراحين على سراحيب • وأهـاضيب تتحلل
أهـاضيب • وتعتقل انايبب وتشتمل شأيبب • في الداوية
بأدواتها • والاسبتار بأسوائها • والبـارونية
بـلاوائها • والتـركبولة وأربائـها • والفـرنجية
بـضـرائها • ووثبوا في وثبات الآساد • وحملوا في ثبات
الاجواد • فلولا ان الله قد اصحب اصحابنا التوفيق وهدى أهل
هذه الطريق • لكاد الكفر ينجو والاسلام لا يعترز بالاجر • لكن
أمرائه الكرام استطابوا الحمام • فلاقوهم بقلوب
الصخور • وجبور الصقور • وباشروا بصدورهم صدور
الأسنة • وغامروا بنحورهم نحور الأعنة ، فاتاهم الله النصر
المني ، والظفر السني ، وسقوا منهم حنين الحنايا • وأدركوا
فيهم منى المنايا • وقازوا وظفروا • وحازوا وانتصروا • وقتلوا
وأسروا • وهلك مقدم الاسبتار • وحصل جماعة من فرسانهم في
قبضة الأسار • وعادوا سالمين ساليين • غانمين غالين • وقد
كبسوا وكسبوا • وسحبوا زيول الاختيال بصدق مادسبوا • وكانت
تلك الذوبية الحلوة • والخطوة الصفوة • باكوره
البركات • ومقدمة مابعدا من ميامن الحركات • واندرج ان الله
يعلي لأوليائه الدرجات • ويسـوق زمـر اعدائه الى
الدركات • وجاءتنا البشرى ونحن في نواحي الكرك والشوبك ندور
ونجول • ونجور ونذور وعلى الأعداء منا الدحور والثبور • فلما
قرأنا الكتب بالاستنهاض والانبجاث حللنا حبلى اللبث وعقدنا عزم
الانبجاث • واستمهلنا مهول الأوعات .

ذكر الاجتماع بالعساكر .

وعدنا واجتمعنا بالعساكر ، وانتظم عـــــــل الاوائل
والاواخر ، وخيمنا على عشترا ، والقدر يقول لاسلطان تعيش
وتري ، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى ، واشتمل المعسكر
على فراسخ عرضا وطولا ، وملا بالملأ حزونا وسهولا ، فما يرى الا
خيل صفون رحض كأنها حصون ، وزحف موضون ، وغضب
مسـونون ، وفيض مـكدون ، وحركة وسـكدون ، وركوب
وركون ، وجنات وعيون ، وفلك في بحر من العسـكر في البر
مشدون ، وضافت الايام عن عرضها ، وتقاضت الليالي
بقرضها ، ونزلت جنود سمائها الى جنود ارضها ، فللمقانب
مناقب ، وللمواكب من الخرصان كواكب ، وللكائب من الشجعان
مناكب ، وللذوائل ذوائب ، وللعصب من البيارق عصائب ، وللريح
سحائب ، وللوهج مشارق ومغارب ، وللمراكب مراقب وللسلاهب
جنائب . وللحقائق حقائق ، وللمواهب مـذاهب ، وفي كل يوم انفاق
وارقاد وارفاق ، واشراف واشراق ، واعتلاء واعتلاق ، واعتناء
واعتناق ، واجتماع لا افتراق ، وانطلاق واندلاق ، وامـتراء
وامتراق ، وايلاف وائتلاف ، واستباق والتحاق ، واختفاق من
ألوية الاولياء واصطفاق ، وضمـر وعـتاق ، وسمر ودقاق ، وبيض
رقاق ، وعطاء حساب ، وكأس من الجود دهاق ، وعرض العسـكر
في اثني عشر الف مدجج ، في ليل العجاج مدلج ، يشتمل على عدة
جنائب اسعاد أنت في الجري شمائل ، وجنائب سواغب تجري بها
الرياح ، ورماح شـيلها المراح ، ورواسي سـواري ، وأعلام
جواري ، من كل كاف بلام ، وراء لعين حمام ، وضارب بـضرام
وهام لهام لهام ، وضلفم ضرغام ، ومصمم بصمصام ، وحاسم
بحسام ، ومقدام لهمام قمقام ، وفارس للأسد فارس ، وللروع
ممار ممارس ، وللصبح بما يثيره حابس ، وباشر بالكريهة غير
عابس ، قاذح لسنا السنايك قابس ، مناف لعداة الاسلام في الدين

منافس ، وكل مجاهد بسر الصدق مجاهر ، ومظافر لأولياء الله
مظاهر ، ولعاشر الحق معاشر ، وباسل للبأس باسر ، والفتخ
الكواسر كاسر ، وكأس النجيع حاس وعن ساعد الجسد
حاسر ، ناصب لنصرة الدين ماله غير الله من ناصر .

ذكر الدخول الى الساحل للقاء الفرنج ، وكان الرحيل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر

ولما انقضى العرض . اقتضى الفرض . وسالت بأفلاك السماء
الأرض . والتطم البحر . والتمم الجمع . والتهب الجمر .
واضطرب المجر . واحتبس الفجر . واقتبس الأجر . وقربت
الضمير . وبرقت البيض والسمير . وردت بالردى العداة الزرق المنايا
الحر . ونشرت للأواء بني الأصفر الألوية الصفر . وراقت لنصرة
ثمر النصر أوراق الحديد الخضر . وأنارت بالأيامن الغر الأيام
الغبر . وتمكن في قلب الكفر من بأسنا الذعر . وانصف الدهر .
واسعف النصر . وكان السلطان قبل يوم رحيله . وعزم الجهاد لله
في سبيله . اركب العسكر بعدته وعدته . وحيدته وحدته . وبيضه
ومجره ولجبه . ورتبه اطلابا . وحزبه احزابا . وعين رجال القلب
ومن يقف بالقرب . والميمنة وحماتها . والميسرة وولاتها .
والجناحين وقوادهما من ذوي الاقدام . والمقدمة والساقة على سنن
النظام . وعين مواقف الرجال ومواضع الابطال . وعين الجاليشية
من كل طلب ورماة احداقها وحذاق رماتها . وعين لكل امير
موضعه . ولكل منير مطلعه . ولكل اسل مركزه ولكل سحبل
منهزه . ولكل اسد عرينه . ولكل قرن قرينه . ولكل جحدم
مقامه . ولكل مرام مرامه . ولكل عازم مذهبه ولكل حازم
موكبه . وقرر مـظانـهن في الركوب والنزول والـثبـوت
والحلول . ومعارض الصفوف . ومدارج الزحوف . ومناهج
الحتوف . ومخارج المئين . وموالج الألوف .

وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر بالعساكر . والاسد
القساور . والفتخ الكواسر . والقضب البواتر . والفلك
المواخر . والسحب المواتر . والسحدم الدياجر . والحمس
الزوائر . والغر السوافر . والبيض الزواهر . والسمر
الشواجر . والبيض المغافر . والقوم المعاشر . والبلاد
والحاضر . والخف والحافر . والصلب والمساجر . والأكارم
والأكابر . والسباعي والسمائر . والعسالي
والفاخر في عايات سفره . وعن الرعن لعابيات كفره . حزن الحزن
وهى . مغاوير هدى . دان لها التقدير الخماير عدى . بنا منها
التدمير . وسارت على ترتيبها وتعبئتها وتنكيبها وتنقيبها محدشورة
عصائبها مندشورة ذوائبها . سائلة أوبيتها . جائلة أرضها . فهي
تخرق الخرق . وتغرق الغرق على الفرق . تملأ الوهاد
بهوائها . وتكأ من العوادي بعوايها . وأناخت ليلة السبب على
خسفين والكفر مخسوف . والشرك مكسوف . وكل جبل بلجها
مذسوف ونسيم النصر من قوتها مسوف . وللأقدام في لج الأقدام
رسوب ورسوف . وللبين في فضله وعدله والكفر عسوف . وباتت
تلك الليلة والرماح مركوزه والصفاح مهزوزة . وللمقربات
تصال . وللمضروبات صقال . وللمنسوجات اجراء . وللشريجات
اغراء . وللعوج رنان . وللأعوجيات رهان . وللقساطل
اقساط . وللصواهل أصوات . وللسلامة امراط . وللأسواق
صراط . ولأوراد المنايا قراط . ولأقطار الجو من جوانب الأسنة
اقراط . ولحكم الظفر من مقتضيات القدر مناط . وللقيام
اشتراط . وللقناد اختراط . والعسكر بساط . وللعثير
اضباط . وللهم اعباط . وللهم ارتباط . وللهم
اختباط . وللأمم احتياط . وللعزم نشاط . وللحزم
يشاط . وللغامم اختلاط . وللصوارم اشتطاط . وللنجم
مماط . وللأفق منه سماط .

فلما بكروا ركبوا وكبروا . واخذ بحرهم في الالتجاج . وبرهم في
الارتجاج والجو في الارتجاج . والدو في الامتراج . وقلب الكفر في

- ٥٧٩٦ -

الانزعاج . وجند السماء والأرض في الامتزاج . والصبح في الانبلاج
لولا معارضة العجاج . وخضرم الخضراء من غبرة الغبراء ذو
الأمواج والأفواج . وتلتها افق العجاج . وقوس الترائك لامعة في
الأبراج . ومضايق الزحام داعية الى الانفراج . والأسد سابحة في
غاب القنا الى الهياج . وأجنة الحنايا مشرفة على
الاحراج . وأسنة المنايا مشرعة للانشاج . وأعنة السرايا مسرعة
للادلج . وليل الخيل داج . وطرف الغزالة ساج . ورعب الجيش
يخامر الدهر شاج . ونقود الرواحل من عقود الرواغب في
رواج . والشوارع نازعة للآجاء واسراء من الجوام
واسراج . ونزلوا بثغر الاقدوانة حروض راء . وعقد غير
واء . وعزم غير باء . وعزم متباء . وسعد متناء . وحكم أمر
ناء . وعيون ذات اسباء . ووجوه نضر ذي اتجاء . ومضاء للفضاء
مضاء . وشفار بيض لها مع الأعداء شفاء شفاء . وضربت
الخيام . وغصت الوهاد والآكام . واشتد الغرام . وامتد
الضرام . ووجد بالجد العرام . وتقدمت المساعي وسعت
الاقدام . وعلت الأعلام الأعلام . وزها الاسلام . وأمكن من الكفر
الانتقام . وحمي للتحزب الحمام . وشد للتخرم الحزام . وأقام
الطيف . وطاب المقام . وزاد في الكف اكفاء الكفاح مراح
الرماح . وتصافح الصفايح . وعرف كيف ركوب الجبال
للرياح . ووعدت الظباء الظلماء بإروائها من الأرواح .

وأقام السلطان هناك خمسة ايام الى يوم الخميس . في ذلك
الخميس بضراغم الخيس . وقساور العريس . وبنات قواعد
التأسيس . وأساة المضايق بالتفيس . وحماة الحقائق في طوري
الايحاش والتأسيس . وولاة الفيالق المباشرة بالبشر يوم
التعبيس . ورماة المآزق في ادارة العذاب البئيس من بلاد الشرك
بدار الدرييس . واقتداح زناد الأفراج . وانهاض جناح
النجاح . الى ارداء اهل الجناح . وكيف وأين ومتى يكون
اللقاء . وهل يفترق الاحباب . وقد اجتمع الأعداء . ثم صممنا

العزائم على تثبيت الأقدام للأقدام . وسلب لبس السلامة من ملابس عادة الاسلام .

ذكر ما اعتمده الفرنج

أول ما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام . ووصول امداد العساكر المصرية والجزيرية الى الشام فرغوا من هجوم حين حينهم . وشرعوا في اصلاح ذات بينهم . وزحفوا عن التغاير والتنافس الى التضافر والتوادس . وقالوا : نحن انصار النصرانية . واصلاب الملة الصليبية . وقيام القيام بها . وعصب العصبية . وعمدة المعموية . وداروا بدرافاويق الوفاق . ونزعوا الى نزع شقق الشقاق . وأثار القوم صلح القومص (٤) ووصلوا على مرابه مطلع امانيه بالمخلص . ثم تزاوروا وتوازروا . وتضافروا وتظاهروا . وحشدوا وحشروا . ونصروا واستنفروا . والتأموا واشلاموا . وقدمروا وتذمموا . وتخبطوا وتورطوا . واخترموا واخترطوا . واشتطوا وافرطوا . وندموا على ما فرطوا . وخطبوا وخبطوا . وامتزجوا واختلطوا . وقبضوا وبسطوا وقسطوا وفي ايديهم اعطوا . وجمعوا عبدة الناسوت واللاهوت . ورفعوا صليب الصليبوت . وثار اليه كل ملتاح الى الثأر مرتاح . الى النار دار بالجب الجرار . وار يفلح الاوار . ضار بلا ضرار . مستمر مع اسرار . غمر من الأغمار . وكل مغومقوار . وباد بادبار . وناز بزناز . وكافر فجار . وناكث غدار . وباسل ذي بأس * وفارس للأساد فراس * وداوي داء خبيته عضال * واسبتاري له دون تباره نضال . وباروني يبارى البوار . وتركبولي لا يترك الغوار ، وينزع النزاع الى الاوتار الاوتار . وكل متدرع بجلد أرقم يهـز أفعوانا . وكل شيطان يجبر لهتهج ماء الأرواح أشطانا . وكل متميز في الوغى متمرن على الردى مترنم . بصليل الظبا مترنح . بكهوب القنا متوقع . بضراورة الشر على ضاربي الشرى متوقد . يفض

الجمع الجم كأنه حمر الغضا . مقتحم للطبيعة النارية شواظ
لظى . ضرب كالغضب المنتضى . تنحت كالشبا . وكل جحيمي
جاحم . وضرامي ضارم . وجهنمي بجهامة . وممتري
بصرامة . وناري يافح . وحجري يقح . ومارد مارج . وصرف
للشر مرازج . وسعري ذي استعار . كأس من عار . حاس من دم
جار . عاس على العجم جاس في الهجوم . خاس في الرجم . قاف
اثر الغي . كاف بعين البغي . جاف على النشر والطي . حاف في
الزحف راد بالزحف . ساق بالحذف . ناصب بالفعل جازم
بالحذف ، وشارب نجيع شار ، وضريب قريع ضار ، وكل مجترم
مجترح محترف للموت مقترح ، حقيق بالروع مصطبح ملتفع ماثم
الخطوب ملتفع مصطلم لثلم الخطوب مصططح ، وكل ذي فضفاض
وسابغ ونضناض لادغ ، وعاو زائغ ، وعار في الدماء
والغ ، وسالب باسل ، وطالب باطل ، وعامل ناصب ، وعاسل
لاسع بعاسل ، وكلب نابح وثعلب ضابح ، وسرحان سارح ، وذئب
جارج ، وزرق تمزش بزرق الاسنة ، وشقر تعبى الشقر بصرف
الاعنة ، وكل رامح رام ، ونابل ناب ، وراحض عاب ، وحاضر
غاب ، ومرتكب كبائر ، ومرتبك جرائر ، ومبتكر جرائم ومشارك
عظام رثبال ، وأمعط مغتال ، وأمرط ضال ، فعاموا في بحر
العمى ، وحاموا من الردى حول الحمى ، وغاروا للاقتحام
الوغى ، وأصحروا بصحراء صفورية في غيل القنا ، وطلبوا في نهج
المنيا نجع المنا ، ومشوا الى المدانة ، ونأوا عن الونى ، وطمى
سيل خيلهم على الوهاد والثرى ، ودب راجلهم كرجل الدبا ، وحلوا
لحب الموت الحبا ، وقال الظلال في ظلام العجاج ، وضاق الفضاء
عن مجال الضحضاح ، وبدا خرق الصبح فوقى النقع
بالوقع ، وشكا الثرى الى الثريا من الحواجر الحوافر شدة
الوقع ، واحتابوا مواقع واجتنبوا سوابق ، والمعوا والبوارق •
واسمعوا الصواعق • وقربوا السوابق • وأبعدوا الخوانق •
وحملوا الطوراق الطوارق ، وشبوا نار الفرق ، وأشأبوا
المفارق ، واعتقلوا القنطاريات قناطر العبور العير ، وانتزوا لحماية

السلب في العوامل كعاسلات النحل مسدساتها بالأبر ، وطال الشر
وطار الشرار ، وشق الأمر ، وسقت المرار ، وأخضرت الغبراء من
الحديد ، واغبرت الخضراء من الصديد ، وساحت
السيول ، وسالت الشهاب ، وتفايشت البحار ، وتضايقت
الرحاب ، وتموج بضراغة الغاب ، وأرعبت أيماض البروق
وأصعد الرعود ، فالكفر منهم ظلمات بعضها فوق بعض ، وختم
القتام بالفضاء في فض ، وغدران الفران في فيض ، والنجوم في
انقاض ، والرجوم في ارفضاض ، والذوابل في ارتفاع ، والعوامل
في ارتعاض ، والعواهل في اضطراب ، والصواهل في اصطخاب
والجيش شاك ، والعيش شاك ، والاشراك ناصب واشراك وخاطب
ادراك ، وطالب بوار ، وحاطب ليل خسار ، وثائر ثار ، ونيران
المذاكي مذكي نار .

عاد الحديث الى افتتاح السلطان بفتح طبرية وذلك عشية الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وذكر المشاورات

ومازال السلطان لله مستخيرا ، وبعونه مستجيرا ، ولأعوانه
مستشيرا ، فأشار الأمراء ذؤوا الآراء بالصمود عن اللقاء
والمحافظة على نضار الاسلام بصون الذمء وحقن الدماء
وقالوا : لم يسبقك أحد الى مضايقة القوم ، ومحاققة المزم في
الرقم ، ومابلغ الأملاك قبلك الا ما بلغت ، ولم يريغوا من هذا المراد
ما أرغت ، وهذه جمرة الاسلام ، ونخبة رجال الشام فلا تفركم
تذقل المعركة ، ولا تلحق بأيديهم الى التهلكة ، وهذه بلادهم قد خلت
منهم ، ونأت بقربهم ضياعهم ، فذشتغل بالاغارة على بلادهم
الخالية ونقدم بأقدامنا عطل احوالها الحالية ، وترجع بالغنائم
والسبايا والمرباع والصفايا ، وما نزال نزيدهم حتى نضعفهم بامداد
البلايا ، ونخلص من انسانهم عاجلا أو آجلا ، بالقود والسبايا .

فقال السلطان : ان الايام غير مأمونة ، والأعمال غير مضمونة ، والجهاد قرض فـرضه رسول الله في أرضه وسمائه ، وندير بطوله وعرضه عرضه ، ولا بد من هذا اللقاء أما وإمسا وإن الله اصدق القائلين : « ولينصرن الله من ينصره » فقالوا : خصك الله وأفردك بهذه الفضيلة ونجح الوسيلة ، وحيث استخرت الله في الاقدام فاننا نبذل المنح بين يديك للاسلام.

فلما أصبح يوم الخميس • سار الخميس • وزحف بأسده العريس. وطلبت اطلاب احباب لآله لقاء الاعداء • وجرت السوابق على الأردن أربيان الوبيان في الاجراء. واعتضدت أملاك الأرض بملائكة السماء • ولوت أولياء الله على العبدى ألوية اللاواء • ورمدت عين الفلك من ملابسة الأقداء • وحارت غزالة الفلق من أسد الفيلق • وتقيد عنان الجو من عنان الجواد • ولاح سنا الموت الأحمر في السنان الأزرق • وأشرف على الفرنج في معسكرها العسكر • وقام الحشر • وعاث العير • وماج البيض والسذور • ومار المورد والمصدر • وغام اليوم الأغبر. وراغ الحديد الأخضر • وراق الأبيض والأسمر • ووقف مع المثير المعشر • وحال المغيث وهال المحضر • وهاب المنظر والمخبر • وظهر الحق وحق المظهر • وارتفعت الأصوات بقول : « الله الأكبر » فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف لكنهم ربضوا وما نبضوا • وقعدوا وما نهضوا وأخذوا الى الأرض • وشدوا نواجذ العض • ولم يدعوا مـرابضهم في ذلك المكان • ولم يشيموا ما في الأجفان • وثبتوا ونبتوا ، وسكنوا وسكتوا • وأشفقوا في البروز من الخطر • وفي الخروج من الغرر • وحذروا من القدر لو دفع القدر بالخطر .

فلما عرف السلطان أنهم لا يبرحون • ومن قرب صـفورية لا ينزحون وأنهم لا يهيجون الى الهياج • ولا يخوضون معه بحر العجاج • أمر أمراءه أن يقيموا على مقابلتهم • ويذموا على عزم

مقاتلتهم • ونزل هو في خواصه العيسية على مدينة طبرية • وعلم
أنهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا بالوصول اليها • فحينئذ يتمكن
من قتلهم • ويجهد في استئصالهم • فحضر طبرية
وحصرها • وابتدأ بها وابتدئها وجمع الرجال على أحد أبراجها
وأخلاها مما حمى أهلها من أعلاجها • فوق ذلك البرج • وانتزع
عنه الفرنج • ونصبت عليه سلالمة الاسلام • وبخلوها في جنح
الظلام • فاستضاءوا بما أعلق من الضرام • وعاد ليله معدومة من
الأيام • ووقعت النار في مخازن كتان وأهراء غلال • فاحتقرت
أمتعة بأموال • وكيسوا رباعا وكسبوا متاعا • وأرهجوا
وأوهجوا مرضا وضرما • وأخرجوا وأخرجوا نعمما
ونعما • وبقيت الدور فارغة شاغرة • وأفواه الأطماع الى ازدراد
ماتحويها فاغرة • وتحصنت القومسية ست طبرية في
قلعتها • ومعها بذوها وحموها بسيوفهم وعصموها • ووقع
الاشتغال بحصارها • ونقب جدارها وطم جوارها • وفصم
سوارها .

فجاء من أخبر بأن الفرنج قد بكروا وركبوا • وأجلبوا بخيلهم
ورجلهم وتحربوا وتحزبوا وتصلبوا وصلبوا • وتعصبوا
وتصعبوا • وثاروا وفاروا • ورازوا وزأروا • وجاءوا
واجئين • بالفجائع ماجئين • وفي ليل القتام مدجين • وفي بحر
اللام ملججين مدجين • والى حزب التوحيد بحزب التثليث
مخرجين • ومن كل جبل تحرقه الريح • ومشيع شعاعه
المسيح • وذمر يخفر الزمان ويبيع ، ونصب الى الموت
يستريح • ومشتاق الى ملاقة المذون قد حثه التبريح • ومخرج
الى التورط في الردى من هول ماهوله يصيح • ومرتجج يؤذسه
المارق اللجج • ويوحشه الفضاء الفسيح • ومن كل بطل
مكره • وحبل مد مده ، وقرم قرم • وضرغام ضرم • وكل معاند
للبلاء معاق وكل حان لثمر العناء جان .

ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء .

فلما سمع السلطان بحركتهم • أيقن بهلكتهم • وقال : الحمد
لله الذي أنجـز وعده • وأيد جنده وأبنا منــ مــــرادنا
القطاف • وأصغى من مرامنا النطاف • وأسنى لنا الالطاف
ونهض بجباله الى جبالهم • ويرجاله الى رجالهم • وسار
لقتالهم • وضيق عليهم سعة مجالهم • وأخذ عليهم بذوي الاقدام
قدامهم • ووقف بصفوفه امامهم • وصد طـرقهم • وسد
فلقهم • ورد عن الزحف فيلقهم • وأغرى غرامهم • وأضرى
ضرامهم ذاك والله ذاك ، والجيش شاك والقيظ عليهم فيض • وما
للغيظ منهم غيظ وقد قد الحر ، واستشرى الشر • ووقع الكر
والفر • وللأوار تأجج • وللأرام توهج ، وللعدى شعل • وللردى
شغل • والسعير واقـد • والهجير عاقـد • والآل شايـط
غرار • وماآل الشيطان قرار • والسراب طافح • والظمأ
لاقح ، والجو محرق • والجوى مقلق • ولأولئك الكلاب من اللهب
لهث • وبالعيث عبث ، وفي ظنهم أنهم يردون الماء • ويردون
الزماء • ، فحالاتهم الحالة الحالية • وغالتهم الغلة
الفائلة • واستقبلتهم جهنم بشرارها • واستظهرت عليهم الظهيرة
بنظارها • وذلك يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة • ووراء
عسكرنا بحيرة طبرية • والورد عد وما فيه بعد • وقد قطعت على
الفرنـج طـريق الورد • وبلوا من العطش بالنار « ذات
الوقود » فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين ، فكلبوا
على ضراوتهم • وشربوا ما في ادواتهم • وشفها ما حولهم من
موارد المصانع • واستنزفوا حتى ماء المدامع • وأشرفوا على
المصير الى المصارع • وبخل الليل وسكن السيل • وباتوا على
شغف البحيرة بحيرة • وحيقت ظذونهم • ولم يبق بهم غير
غيرة • وباتوا بقريحة وقرح • وظماء برح • وقووا أنفسهم على
الشدة • واستعدوا بالعزائم والضرائم المحتدمة المحتدة • وارتووا
من ماء الفرند • واكتفوا بماء جداول الأغمد من الورد

العد • وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ونقاضيهم الى
القواضيب القواضي • ونقتضي بحقوق الحقود أشد
التقاضي • ونبليهم في برد الصباح بحر الكفاح • ونظهر لارواء
الأرواح نجاح النجاح، وشدوا حزم الانتشاء • وأعدوا حرم
الغناء • وأجدوا عزم البلاء • وطلبوا البقاء بالتوسط في
العناء • وأما عساكرنا فانها قد اجتزأت • ومن كل مايعوقها
برئت • وهذا لسنانه شاحذ • وهذا شهم موفوق • وهذا لحده
ممه • وهذا لحده منه • وهذا لسهمه موفوق • وهذا شهم
موفوق • وهذا مكثر التكبير • ومنتظر للتبكير • وهذا مجر
ضامر • ومعر بائر • ومغر مؤمن بكافر • وهذا يقول : أنا المبارز
المناجز • والمحاجز للحاجز • وهذا ناج للسعادة • وهذا راج
للسعادة • فياله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحرة انعامها
الطاف الله المتداركة • ومن دجنة أضاء بها نور الجنة • ومن دجنة
أنارت بها نجوم الأسنة • ومن هزيع تجره بالحق صديق • ومن
ظلام ممله بالضياء جميع • ومن جنح كل جناح تحت مغافره
مغفور • ومن ينجور ما بعده لا شراق سنا النصر ينجور • ومن
ألوية أولياء الله عقدتها بخمرها الدور • وقد قابل بها فيها ظلمة
الكفر من الايمان والنور • فهي ليلة القدر « خير من ألف
شهر » تنزل فيها الملائكة والروح • وفي سحرها نثر الظفر
يفروح • وفي صباحها الفتوح • فما ابهجنا بتلك الليلة
الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله فيهم : « فاتاهم الله ثواب الدنيا
وحسن ثواب الآخرة » وبتنا والجنة معروضة • والسنة مفروضة
والكوثر واقفة سقاته • والخلد قاطفة جناته • والسلسيل واضحة
سبيله • والاقبال ظاهر قبوله • والظهور قائم دليله • والدين
متقاضي بالشفاء عليه • راع رياض الرضا رعيه • والله ناصر
الاسلام ومديله .

طلوع الحنايا الى احناء الضلوع. مـارجات لدى الروع الراد
الروع . قارعات ابواب القراع . قالعات انياب القلاع . بالغات
الشعور . عالقات بالتامور . محالقات للدحور . غاربات الغروب في
النحور . ورادات الصدور الى الصدور . قـاطعات
للحجاب . واقعات بالعذاب . مدمجات على الالتهاب. مغنيات
بالدماء على الطعان والضراب . ومـراسيل تـروى امام
العوالي . ومعاريض مالها مندوحة من التوالي من كل فريض يؤدي
به فرض الجهاد . ورميض يعرض بياضه من العين في السواد
ومعتدل تحذوله العـوج . وبرق خاطف حمس وراءها
المهوج . ومنزع لنزع المهج وقطع الود . اخـطف مـن
الوميض . والحق من المريض . وأنظم من القريض . واشجى من
الحريض . واشبى من الطرف الفضيز . وأعمل من السمر
والبيض . والسـلطان يأمر . والحنايا تـسـوتر . والمنايا
تـؤثر . والاعنة تصرف . والأسنة تـرهف . والحقائب
تنعض . والمقانب تعرض . والجاليشية تشمر . والجاووشية
تنصر . والسـوابق تـضمـر . والسـوابغ تـذر . والصلادم
تنضى . والصوارم تنقضى . والسـلاهب تـجمـع . والجنائب
تمرح . وايم الضراء تـدسـاب . وغيم الغماء تنجاب . والذفوس
مرتاحة الى التعب . والهمم مشتاقة الى النصب . والجد شاغل عن
العب . والعزم غالب باللغب . وصب بالوصب .

ذكر يوم حطين وهو يوم السبت الخامس
والعشرون من شهر ربيع الآخر .

وأصبح الجيش على تعبته . والنصر على تلييته . ووقف
العسكر في قلبه وجناحيه وميمينته وميسرته أطالبا متقاربة
متباعدة . وأنجادا متعايدة متساعدة و الأفا متضافرة . وأضعافا
متضاعفة متظاهرة . وبرز رجال الجاليش . وارتجز دعاء

التحريض والتحريض . وصفا لباس الناس على الكمي
الكميش . وشرعت ثعالب الشرع في رعي الحشاشات رعي
الحشيش . وتطائر في الجو على سنابك الهمام جراد النصل
المريش . وكان طيور النصال ضلت ركونها فخربت حجب الأرواح
للتقيش . وقامت الحرب على ساقها . ووفت بميثاقها . وأسرت
اعنة عتاقها . وشرعت اسنة دقاقها . وأطالت رقاب
رقاقها . وأبانت غايات سيقاقها . وأعلت رياحات
احتفالقها . وأحلت مذاق مذاقها . وأغلت أوساق
أوساقها . وأغرقت سهام اطلاقها . وأطلقت لهاام اعراقها . ومدت
ظلال رواقها . ودارت كؤوس اصطباحتها للاعتباط
باغتباقتها . وتحملت بغرم اجتماعها لغنم افتراقها . وأذهبت فرق
مذهبنا لساعة افراقها . ذلك والفرنج راكبة الجرد . متراكبة
المدد . متكاثفة العدد . أخذت طريق البحيرة . بطوارق الحيرة . قد
احاط رجلها بخيلها . جارية الى القرار بسيلها . أمواجها
ملتظمة . وأفواجها مزحمة . واطلابها منتظمة . ونيرانها ملتهبة
ملتهمة . ودفعها مديد . ووقعها شديد . وحدها حديد . وجدها
جديد . يأمدون المذنون . ويجذون الجذون . ويجرون الشمول
والحزون . فاعترضهم مدنا . واعتراهم صدنا . وردت سيولهم
بيضاتنا . وخيولهم عرابنا . ووقعت لنا برمم حبالنا . وشوتهم
بنيرانها نصالنا . فعرفوا انه لا سبيل الى الحياة الا سلوك نهج
الموت . وأنه لا مطمع في البقاء الا باستحلاء مطعم
الفوت . والسلطان قد رفق قلبه . ووقف الى الوثوق بنصر الله
قلبه . وهو يمضي بنفسه على الصفوف . ويحضهم على حظهم من
الفتوح او الحتوف . ويعدهم من الله بنصره المألوف . ويغري المئين
يالآلوف . وهم بمشاهدته اياهم يجيدون ويجدون . ويصدون العدو
ويردون . وكان له مملوك اسمه منكورس من اقمار الفلك . ومن
شموس الترك . وأسود الفتك . ورماة الحدق . وكماء الخلق . قد
علقته الدور العين لحسنه . واستبشر رضوان بيمنه . وقلوب القبول
في رهنه . وعقود العقول في وهنه . والكواعب الأتراب يشتقنه في
جهات عدة . وكان الله برأي الاقامة منته . والمقام في جنته . ودعاه

الى قصور الجنان والحدور الحسان . وكان ظريفا طريفا . نظيفا
عفيفا . طاهر النبل للنزاهة . ظاهر الميل الى النباهة . قد كمل الله
له حسن الخلق والخلق . وفضله في الفروسية والسبق . وركب عنقه
في الرق . وألهمه نصرة الحق . وهو راكب امام العسكر . شائم
غمام العثير . نامق عرف الكوثر . مستغفر تحت المغفر . مستنير في
سنا الستور مشرق كالقمر الأزهر . وأراد ان تكون له فضيلة السبق
في الأقدام . فوثب بحصانه وثوب الضرغام . معتقلا الى الردي
ربينيا . ومشتملا للترف مشرفيا . وممتطيا للاستقامة
اعوجيا . وحمل حملة جرى فيها عنانه . وفرس سنانه . وماد فيها
ميدانه . وشكر لها احسانه . وذل عنها اقارانه . ونفذ
طعانه . وظن انه موافق في الركض اعوانه . فجذبه لقوة رأسه
حصانه . وخلا خلانه . وخانه اخوانه . فلما راه الفرنج
وحيدا . ووجدوا المدد عن نصرته بعيدا . عطفوا عليه . وزحفوا
اليه . ورموه عن ظهر حصانه . وأحاطوا به في مكانه . فأثبت في
مستنقع الموت رجله . وقاتل الى ان بلغوا قتله . فلما أخذوا رأسه
ظنوا انه احدا اولاد السلطان . وزعموا ظهور الكفر على
الايمن . فأما الشهيد فإنه انتقل الى جوار الرحمن في غرفات
الغفران . وأما عساكرنا فإنها لما شاهدت استشهاده وجلده
وجلاله حميت حميتها . وأبت غير الغيرة ابيتها . وخلصت لله في
ارداء اعدائه بنيته . وصممت الجاليشية تصمي سهامها وتشوي
اهل النار بنار ضرامها وتلفحهم بلوافحها . وتقذحهم
بقوايحها . وتسقيهم بجداول مناصلها . وترميهم بجنادل
صواهلها . وتربيهم بأربية رداها . وتغريهم بما يغرون من المذون
عن مناهها . وقد قست عليهم قلوب القسي لاوتار اوتارها . وتمور
من الضوامر بجبالها . وتموج في البواتر في بحارها . وبرج بالفرنج
العطش . وأبست عثرتها تنتعش . ولانث تنتشور
وتتشوش . وتتحري وتتحرش . وتتوشح بالضراء والضراب
وتتودش . وتنشط على أنها تبطش . فتجد الطررق
مصدونة . والسبل مسدونة . والمسالك محدونة والمهالك
مورودة . وكان النسيم أمامها . والحشيش تحت اقدامها . فرمى

بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش . فتأجج
استعارها . وتوهج اوارها . فبلوا وهم اهل التذليث من نار الدنيا
بالثلاثة الاقسام : في الاصطلاء والاصطلام نار الضرام ونار
الاورام . ونار السهام . فخلصوا من ورطة الاحتواء
والاجترام . وضايقت ذمائم دماء الضراغم . وعارضت صقور
بأستهم القشاعم . ولقيت العظائم العظائم . ودارت بمساعير
الجحيم دوائر السعر الحواجم والجأناهم الى حملات اعجزوا بها
وأزجوا . وهاجوا وأوهجوا . وماجوا ومـوجوا وأجـوا
وأجـوا . وارهبوا وارهجوا . فما ضعضعوا رواسينا الرواسخ
ولا خلخلوا من مقامنا الشم الشوامخ .

ونظر القومص يومئذ الامر الى غايته . وراه غيه انه متورط في
غيايته وان القوم في عين الوقم . وان صحتهم مفضية الى السقم .
وانه تداعى بنيانهم ودعاهم خذلانهم . وخانهم اخوانهم . واهت
اصلابها صلبانهم . فافكر القومص كيف ينجو ويتخلص . فقال
لهم : انا اسبق بالحملة . وافصلهم من الجملة . فاجتمع هـو
وموازروه . وجملة من المقدمين هم مضافروه . وصاحبه صاحب
صيدا وباليان بن بارزان . وتوامروا على انهم يحملون ويلغون
الطعان . فحمل القومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر
تقي الدين . وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكن . ونجوا بذقوسهم .
وخلصوا من باس القوم وبؤسهم . ولما عرفوا ان القومص اخذ
بالعزيمة ونفذ في الهزيمة . وهذوا وهاندوا ثم اشتدوا وما لادوا .
وثبوا على ما كانوا . وقالوا : انما فر في شرنمة هم شرنمة .
وعصبة قليلة بغير عصبة . واستقبلوا واستقبلوا . واستلحموا
وحملوا فما وجدوا للنجح نهجا . ولا اصابوا لمن جاء لمصابهم
شجى . وحملوا حملات راضوا بها جماح الحرب . وخاضوا فيها
غمار الطعن والضرب . وعدموا فيها استطاعة الغدر . بل طاعة
القدر . واستعرنا النصر عليهم من النصل المستعر .

ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء . وصببنا ماء الحديد

للاطفاء . فزاد في الانكاء . وافترت مباسم البيض من استعمار
عيون مقاتلهم في البكاء . وعبت دأماء الدماء . وشبت شبا الهندية في
الفرنجية ضرام الضراء . وباح لنا سر السراء . فخطوا خيامهم على
غارب حطين حين رأونا بهم محيطين . فاعجلناهم عن ضرب الخيام
بضرب الهام . وازلنا اقدامهم عن مداحض الاقدام .

وخاطبناهم بكلام الكلام . وزحفنا زحفا مرتزا . وحفزنا زحفا
ملتزا . ونقضنا من اطرافهم . وحضضنا من اكنافهم . واحتست
انية الظبا طلاء الطلى . وارتعت ثعالب القنا كلاً الكلا . واكتست
عرائس الهدى للعلى من دم الكفر الحلى . وخالطهم الفريق
المستطيل . والحريق المستطير . ومطروا وبل الوبيل . قالهب عليهم
يومهم المطير . فما زالت اللجج تفيض . والمهج تفيض . ومنابع الكفر
تفيض . وملاحم الاسلام تفيض . والنفوس تقع . والرؤوس تطير .
والقضب تدير . والقب تغير . ورحى الحرب تدور . وقوى الشرك
تغور وتدور . واسد الوغى تجول وتجور . ومراحل الراجل والافارس
تفور وتثور . حتى كست اشلاء مهلوكيهم عرى العراء . وحست
شفاه الشفار من افلاذ مملوكيهم احساء الدماء . ورسست منا
الهضاب حول ذلك القل . ورضيت اسدنا الغضاب بظهور القتلى
بطون الذمل . وتداعى جناب الاضطراب . وكشف الرائب شك
الحجاب . وتفتحت ابواب الطعان والضراب . وكثر مرعى الثعلب
والذئب . وتقطعت اشراك الاشراك . وتوزعت منه اكتاف الفتاك .
وانكسر من الصليبي صلبه . وبطل طلبه . وعليت وغلبت غلبه .
وقلب قلبه . وخذل حربه . وجرت الحرب عليه حزنه . وجيرت كمامته
وكمية وقبابه وقبه . واحتلأت بملاهم جهنم . ومالك عليهم الصليب
الاعظم . وذاك مصابهم الاعظم . ولما شاهدوا الصليب ساليا .
ورقيب الردى قريبا . ايقنوا بالهلاك . واتخذوا بالضرب الدراك .
فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخمدون ويحملون والوئوب يخفون .
وبالجراح يثقلون . ومن مصارع القتل الى معاصر الاسر ينقلون .
ويردون وهم لا يدرون . ويعقلون وهم لا يعقلون . وقرم بقوي
القواطع مطعون . وقوم بجوى الجوامع يوصلون . والحديد تارة

يحل الاعناق وتارة يغلقها . واونه بالبيري يعررها . ومرة بالسبي
يذلها . ونكبوا في ارواحهم وانفسهم . ووصلنا الى مقدمهم وملكهم
وايرنسههم . فتم اسر الملك . وابرنس الكرك . واخي الملك جفري .
واوك صاحب جبيل. وهنفري . ابن هنفري ، وابن صاحب اسكندرونة
وصاحب مرقية ، واسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها . ومن
الاسبتارية ومعظمها . ومن البارونية من اخطا به البال لما عز
الدين . ودر البأس . ودارت عليهم بعقار عقرهم الكاس . وقوي بنا
الرجاء ومنهم اليأس . وعروا من ملابس العز . وضفا عليهم من
ملابس الصغار اللباس . وتعرضت للسوء في السوا في طول
حسومهم الادراس . ووجبت في اجناس غنائمهم الاجناس . ولما جد
بهم حكم القضاء لم يجدهم الاحترار والاحتراس . ورسفت
وارسفت الانفس والانقاس . وانعقد الاجماع بتحليل تركيب
جمعهم . ونص النصر وصح القياس . وجبر الاسلام بكسرهم .
وقتلوا واسروا باسرهم . فمن شاهد القتل قال : ما هناك اسير .
ومن عاين الاسرى قال : ما هناك قتيل . ومذا استولى الفرنج
بساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل . فآله عز وجل
سلط السلطان واقدره على ما اعجز عنه الملوك . وهده من التوفيق
لامتثال امره ، واقامة فرضه النهج المسالوك . ونظم له في حتوف
اعدائه والفتوح لاوليائه السلوك . وخصه بهذا اليوم الاغر . والنصر
الاير . واليمن الاسر . والنجح الادر . ولو لم يكن له الا فضيلة هذا
اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة . فكيف ملوك العصر في السمو
والسوم . غير ان هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمة .
ولعاهد النصر وقواعده مبرمة محكمة .

ومن عجائب هذه الواقعة . وغرائب هذه الدفعة . ان فارسهم ما
دام فرسه سالما لم يذل للصرعة . فانه من لبسه الزردي من قرنه الى
قدمه كانه قطعة حديد . ودراك الضرب والرمى اليه غير مفيد . لكن
فرسه اذا هلك فرس وملك . فلم يغنم من خيلهم ودوابهم - وكانت
الوفا - ما هو سالم . وما ترجل فارس الا والطعن والرمي لمركوبه
كالم وثالم . فما سلمت لهم دابة ولا ذابة . ولا مورد الروح سائبة

ولالنار الروح شابة . وغنمنا ما لا يحصى من بيض مكذون وزغف
موضون . وبلد وحصون وسهول وحزون . وابتذلنا منهم بهذا الفتح
كل اقليم مصون . وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون .
واستخرج من كنز مدقون . و حاصلة . و ... (٦) تحقق اهله .
ومصاحبة قديمة . ومناصحة كريمة . ومراوحة في عمارة القلب .

واتفق انه سرقت لي في طريقنا الى حمص ثلاثة اجمال بما لها من
عدة ورجال . وكنت قد سلوتها . وتمكن عني فوتها . فجاءنا هذا
الامير بعد يومين . وقد اتانا من الجمال المسروقة بقطارين . وقال :
لما سرتم عرفت ان وراءكم لصوصا وانهم ان ظفروا بجناح غادروه
محصوصا . ورتبت اصحابي على الطرق . وفي الدواضع البعيدة من
العمارة ليتوصلوا الخارجين من اهل الذعارة . فوجدوا هذه الجمال
التي احضرتها . وقد حرمت على المفسدين الحركة وحظرتها .
فتاملتها واذا جمالي بأعيانها . فشكرت همته الكريمة على
احسانها . ونشد كل من له ضالة . فوجدها لاجل امن الطرق التي
حفظ هذا الامير ورصدها . ولم تزل الثغور بسداده مسدودة
والخطوب بصنده مصدودة . والظلال باشتماله ممدودة . والرعايا
بسياسته محروسة . والبلاد بحراسته مسوسة . ورايات الكفر
بنكاياته مذكوسة . وايات الدين بهدايته مانوسة . والمواضع
معمورة . والمنافع موفورة . والصنائع مشكورة . والشرائع
مشهورة .

وهؤلاء الذين قرضتهم ووصفتهم وعرفتهم وعرفتهم تذكرت
معرفتهم . وتذكرت صفوتهم بعد الايام السلطانية . وانقلبست
سجيتهم بعد الدولة الصلاحية . فهم صادقوني لصدق الحاجة .
وصادقوني مقدما للذب عنهم تحت العجاجة . غائضا لاستخراج
جواهر مقاصدهم لجج اللجاجة . فلما استفنوا عني جهلوا معرفتي
وانكروا عارفتي . وهذه سنة اخلاء الدنيا في بين الاخلال . وملة
الملال . واستحالة الحال . وتعريض عرض الود لذلة الزوال . فما
ابعدوا غريبا وما ابعدوا قريبا . ولا اعجبوا بانبا . ولا ابدا عجيبا (٧) .

كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي

للعلماء الأصفهاني الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد ما يبلغ قضاء حقه وإن حقه لعظيم . ومن
الرشد ما يكتب سلامة نياتنا في الطريق إلى كرمه وإنه لكريم .
ونشكر بسر القلب وجهر اللسان إحسانه إلينا بأنهما حادث
وقديم . ونستزيده ونستنيمه نعمه ولن يخيب على الشكر والرضا
مستزيد ومستنيم . ونستعين به على الدهر وقد فعل فإنا وهو الذي
بيننا (وبينه عداوة كأنه ولي حميم) (فصلت : ٣٤) . والحمد
لله الذي بدأ بنعمه متطولا . وبمزيده متفضلا . وعلمنا شكر فضله
الموقور . وقبل منا عفو خواطرنا المنزور . فلا يكلفنا من الشكر فوق
الطاقة . ولا يطلع من النعم الطبيعة إلا وراءها من المزيد الساقه .
وقد وصف المشكور منه نفسه بأنه شاكر عليم . فرب غافل منا عن
الشكر ما غفل عنه فضله العظيم . فلا عدمن ينتاب منتابه راجيا
وداعيا . ومستيقظا وساهيا . وصامتا ومتقاضيا . لنا منه على كل
حال كل حال من مواهب ربما عطل عنها . لسان شكرنا وضمير
ذكرنا . وباتت سارية إلينا لاطيفا بل حقيقة على نوم فكرنا . ثم إن
الله سامحنا في حقه من الشكر فقبله من عينا وبليغنا . ومتجرعنا
ومسيغنا . فتارة يقبله ضميرا مجمما . وتارة يحيط به قدولا
مترجما . ومرة يعلمه نظرا من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات
ضلوعه . ومرة يسمعه همسا من لسان يناجي ملكه بنغمات
مسموعة . وكيف لا (يعلم السر وأخفى) (طه : ٧) من بعينه
مسارحه . وكيف لا يعلم الغيب من عنده مفاتحه . ونرغب إليه في أن
يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإننا لانرضى بعفو
استحقاقه من الوصف جهدنا . فنصل إليه صلاتنا ونؤدي إليه
ودنا . ونعظم موقعه حين كان منه كقاب قوسين أو أدنى . ونشكره
على أن فتح علينا الدار التي كانت إلى الله طريقه ليلة أسري به .
فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين في إقترابه .

ما كذب الفؤاد . ولا خاب المراد . ولا صدق المراد . وأين من أخبر عنه أنه رآه بالأفق الأعلى ممن امتن عليه بأذك بالواد . فمن كان في روض القرآن يسرح . فرق بين المنزلتين من رب اشرح وألم ذشرح . ونصلي على آله وأصحابه ولاة الحق . وقضاة الخلق . ورتقة الفتق . وغرر السبق . وألسنة الفرق . وفتحة الغرب والشرق . منهم من رد ردة العرب عن اسلامها . ومنهم من استنزل أرجل العجم عن أسرتها وتيجانها عن هامها . وأحمد عبدة نيرانه أن يطعموها حطباً ولو وصلت إليهم لاكتلهم . وأحمد عبدة أوثانه عن أن يقعوا لها سجداً ولو وقعت عليهم لقتلتهم . ومنهم من أنفق في سبيل الله وجهز . ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز . ومنهم الأشداء على الكفار . ومنهم الأسداء إذا زاغت الابصار . ومنهم الساجدون الراكعون . ومنهم السابقون ومنهم التابعون . ومنهم نحن أهل الزمن الآخر . وقد سلم علينا سلام الله عليه في زمنه الحاضر . وسمانا أخوانا . واشتاق إلى أن يلقانا . فنحن الآن إنما نرد عليه تحيته والبادى أكرم . وإنما نرجو شفاعته بالوادة التي قدمها والفضل للأقدم .

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون الى الفرر المتجلية . وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية . يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول . ويكون حظ المستخبر أن يسمع واللايب أن يقول . فان فيه من الالفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التي نولدها . ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من السنة العجائب التي نوردها . وإنما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسماية لأن التواريخ معتادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى . وإما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى . فلا أمة من الأمم ذوات الملل . وذوات الدول . إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه . ويعولون عليه . ينقله خلفها عن سلفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الأيام . وتنصب به معالم الأعلام . ولولا ذلك لانقطعت الوصل . وجهلت الدول . ومات في أيام الآخر ذكر الأول . ولم يعلم الناس انهم لعرق الثرى . وأنهم نطف في

ظلمات الأضلاب طويلة السرى . وأن أعمارهم مبتدأة من العهد الذي تقدم . لأدم . وقد أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم . ذرياتهم . لما أرادهم من ظهورهم . فليعلم المرء قبل انقضاء عمره . وقيل نزول قبره . ما استبعده أهل الطي من حقيقة النثر . وتقبل في واحدة من الأطوار شهادة عشر . فقد قطع عمرا بعد عمر . وسار دهرًا بعد دهر . وثنى وأنشأ في الف قبر . وإنما كان من الظهور في ليل إلى أن وصل من العيون إلى فجر . ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة . ولم تكن المدايح بينهم وبين المذام هي الفاصلة . ولقل الاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها . وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها وما وراء سهولتها من صعوبتها . فأرخ بذو آدم بيومه . وكان أول من اشترى الموت نفسه وقام النزع مقام سومه . ثم أرخ الأولون بالطوفان الذي بلل الأرض وأغرقها . ثم بالعام الذي بلبل الألسن وفرقها ، وأرخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها أولهم كاشاه ، ومعني هذا الاسم ملك الطين . فإليه ترجع الفرس بأنسابها . وعليه يذوق عقد حسابها . وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذي بزى الاسلام تاج إيوانه . واطفاً نور الله بيت نيرانه . وأرخ اليونان من فيلبس أبي الاسكندر والى قلوب بطره آخرهم وهؤلاء المسمون بالحففاء وهم الصابئون ، وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره . وشهرة أثره . وأرخ النبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة في الكتب التي خلدوها . والازياج التي رصدوها . وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم . وبعمارة البيت المقدس وبخرابه على ما اقتضاه نقل أوائلهم وأبائهم . وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقبل . وكانت غسان تؤرخ بعام الاسد حين أرسل الله عرم السيل . وأرخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه ، وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليق وأخرجهم عن الحرم ، ثم أرخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فذقلوا منها . واقترقوا عنها . ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل

وهي حرب البسوس ، ثم أرخوا بحرب عبس وذبيان ابني بغيض
وهي حرب داحس والغبراء ، وكانت قبل المبعث بستين سنة . ثم
أرخوا بعام الخناب قال النابغة الذبياني :

فمن يك سائلا عني فإني
من الفتیان في عام الخناب

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخالق وعام
الذنائب ويوم ذي قار وبحرب الفجار . وهي أربع حروب ذكرها
المؤرخون . وأسندها الراون ، وأدنى ما أرخوا به قبل الاسلام
بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع . وبحلف المطيبين
وهو قبل حلف الفضول . ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ
الاسلام . وبعده خرج امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الأقلام .
وأظهر الله على الألبان الدين القيم . ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ
متقدم . فأمن وقوع الخلف الواقع في تواريخ الأمم .

وجبت الهجرة ما قبلها جب الأنوار للظلم . ودفع الله الناس
بعضهم ببعض . واستدار الزمان كهياتة يوم خلق الله السموات
والارض . وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأموال والأنفس
ما يعيده إليهم مضاعفا من القرض . ووقت هذه الهجرة الوقت الذي
أمر به أمر الاسلام . ويومها اليوم الذي ما ولدت الليالي مثله من
بنها الأيام . وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعد من عوام
الأعوام .

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الاولى بأن الاولى أمدها
بالقيامة معذوق . وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع
والصريح غير المذوق . وهذه الهجرة هي هجرة الاسلام الى البيت
المقدس وقائمه السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب
وعلى عامها يحسن أن يبني التاريخ وينسق . وتسفر عن أهلتها
دادىء المداد وتنشق . وهي وإن كانت هجرة الاسلام إلى القدس

ثانية . فقد كان اذنتي عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية . وهذه الهجرة أبقي الهجرتين . وهذه الكرة بقوة الله أبقي الكرتين . فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قالت كأنه كسر ثم جبر . والحق أن نقول إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر . والعيان يشهد أن أمتع السورين ما عمر بعد أن ثغر . والفرق بين فتوح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الامر . فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فإن الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم فغير بعيد . والوحي ماكاد يتعطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد . والعيون التي شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسلي سيوفها من أجفانها . والقلوب التي شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره في الفتح منها بعيانها . ورسول عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة . ونجدات السماء إلى الأرض متصلة باللائكة منزلة ومسومة ومردمه . وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الأرض زويت له مشارقها ومغاربها . وأنه سيبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استنسر . والفرس يومئذ رخم ما استبصر . والحديد ما تذوعت أشكاله الرائعة . ولا طبع سيوفه هذه القاطعة . ولا نسجت ثيابه هذه المانعة . والبروج لا تعرف إلا مشيدة لمجلدة . والمنجنيقات لا يتوثب ما يتوثب اليوم من خشبها المسندة . والأقران لا تتراجع بالنيران المذكاه . والأسوار لا تتناطح بالكباش المشلاه . وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لو كانوا عزلا . والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون إلى الموقف حفاة عزلا . وكانوا أحرص على الموت منا على البقاء . وكان شوقهم إلى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بذلك اللقاء . والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستشن أديمه وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا . وقد أطلع شرف الستمائة وهي للملك المعترك . وكثرت معائنه بما نصب الشرك من الشرك . وأخلق الجديان ثوبه وكان القشيب . وذوى غصنه وكان الرطيب . ونصلت كفه وكانت الخضيب . وطال الأمد على القلوب فقسست ورانت الفتسن على

البصائر فطمست . وعرض هذا الأبنى قد أعمى وأصم حبه . ومتاع هذه الحياة قليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه . والكفار قد خشنت عراذكهم . واتسعت ممالكهم . واستبصروا في الضلال . واستبضعوا للقتال . وخرجوا من بيارهم يخطبون غاشية الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية الصوت . وقاتلوا جندا ورعية . واستباحوا الانفس متورعين فلا ترى أعجب من أن تري استباحة ورعيه . وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . وأمدهم في طغيانهم يعمهون . ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح . واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها إلا مزور الشفاه على القطوب بلا بشر ولا مزج . شقرا كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالدون . زرقا كأنما عيونهم من فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون . قد نزع الله الرقة من قلوبهم . ونقلها إلى غروبهم . وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم . واشتعلت نار جهلهم في فحم نذوبهم . تستعيز المردة من مردتهم . ويدعى النار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ . جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ . (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف : ١٧٩) . خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكني عنهم بوقود جهنم حين قال (وقودها الناس والحجارة) (البقرة : ٢٤) والا فالحجارة لا تستحق الوقود . إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجمود في الجمود . ومضت ملوك الاسلام . ومضت أيامهم كالبارق وإن لم تخلع الاظلام . وزابت أيامهم الايام خبالا ففتنازع الناس طرائف الاحلام . وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين كمسالمين . وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما نسبيهم ظالمين . اللهم غفرا (لكل أجل كتاب) (الرعد : ٣٨) و (كل يوم هو في شان) (الرحمن : ٢٩) ولكل مقدور أجل ولكل ما خلق له تيسير . ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير . والايام تمخض وتمطل بالزبدة . والاسود تتلى إلى أن تأتي بالسجدة .

والناس يريدون الخروج ولكن ما أعدوا له عدة . والعذر على كل لسان لكل قوم مدة .

إننا عجزوا قالوا مقادير قدرت
وما العجز إلا ما تجر المقادير .

وأبى الله من يقبل عذرا صحيحا . وكفى بلفظة النبوة لوما صريحا . فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتها . وأظهر الآية التي لا أخت لها فذوق هي أكبر من أختها . أفضت الليلة الماطلة إلى فجرها . ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها . وجاءت بواحدتها الذي تضاف إليه الأعداد . وما لكها الذي له السماء خيمة والحبك أطناب والأرض بساط والجبال أوتاد . والشمس دينار . والقطر دراهم . والأفلاك خدم . والنجوم أولاد . صلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق إليه كونا . ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا . فهو سبحانه أكرم بالذوال . منا بالسؤال . والكريم بكرم الله مجزي . والساكت عن الدعاء له مكفي . فان قلنا أحسن الله إليه فقد قال (إننا لانضيع أجر من أحسن عملا) (الكهف : ٣٠) وأن قلنا جزاه الله بالاحسان فقد قال : (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) (الرحمن : ٦٠) وإن قلنا هداه الله سبيله فقد قال : (والذين جاهدوا فينا لنهـدينهم سـبـلنا) (العنكبوت : ٦٩) وأن قلنا لاضيع الله عمله فقد قال (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل) (آل عمران : ١٩٥) وإن قلنا لا جعل الله لدهر عليه سبيلا فقد قال : (ما على المحسنين من سبيل) (التوبة : ٩١) وإن قلنا زاده الله هدى فقد قال : (والذين اهتدوا زادهم هدى) (محمد : ١٧)

كل مسؤول سائل

في معاليه قد كمل

لايسل فيه سائل

سبق الجود ما سأل

وليصح تأملا

يجد الله قد فعل

ونعود إلى ذكره أعز الله ذكره . فجاد إلى أن لم يبق مال ولا أمل . وجاهد إلى أن لم يبق سيف ولا قلل . فلا كفتح على يديه فتح وما هو فتح واحد ما هو إلا فتحة فتح والدم ذائب وفتح والذهب جامد . فما البلاد التي جمعها فاتحا . بأغرب من البلاد التي فرقها مانحا . فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن جديدا وزاد لأنه ضرب بالسيف التي كسرهما ثم ضربها . واستوعب جوده ما ولدت المعادن ذهباً وزاد لأنه نقل إلى الأعداء ثمن سلع تم نهبها فوهبها . فكل معاد معادي إلا هذا المعاد . وكل مداد يكتب به أسود إلا هذا المداد . (أفسح هذا أم أنتم لاتبصرون) (الطور : ٦٥) أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح . وما على يد الجود من قبل المدائح .

الناس أكيس من أن يمدحوا ملكا .
ولم يروا عنده آثار احسان

وإننا لنرجو أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصادقين الذين أمر الذين أمروا أن يكونوا معهم . وأن نكون قد كتبنا مع المحسنين لأننا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده ولم يقطع بنا ما قطعهم . وإن كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقه . وإن القلم في أيدينا ليهتز طرباً لذكره كأنه جان وكأن السيف يشنع بانه فروقه . ولأسنا نسميه قصيرا وإن جدع أنفه . ولكنا نركبه كما ركب قصير العصا إلى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه . ونقول للقلم إذا فاخره السيف (إن شانتك هو الأبت) (الكوثر : ٣) . ونريد إذا أوردناه وصف مولانا (أنا اعطيناك الكوثر) (الكوثر) . على أن هذا القلم يلزم الأدب لذكره أعلاه الله فيذكس رأسه . ويقبل بين يديه كما يقبل حامله الأرض قرطاسه . ولست ببعيد في تقييد هذه الفاخر . وتشبيد هذه المآثر . من رجال الطعن والضرب الذين

فتحوا بين يديه . ووجبوا الحق عليه . بل حقي من حقوقهم أوجه
وأوجب . وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب . ومن رماحهم أخطى
وأخطب . ومن سهامهم أنجى وأنجب . ومن قسيهم أكسى وأكسب .
ومن جياهم أسرى وأسرب . ومداي من نفعهم أغلى وأغلب .
وقرطاسي من راياتهم أجلى وأجلب . وسيوفهم قد أغمدت وجردت
منه مالا يعمد ولا يعمد . وأثار السيف من الجراح قد رقا دمها
وأثاري من الذكر لا تخمل ولا تخمد .

وما السيف أشوى ضربه من لسانيا .

فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته وينقطع صيت الأثر
بانقطاع صوته . والذي أخبر أنا به عنه روض يزهر وإذا أقلت
الأيام سحباً . ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهباً .
فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله . لا قول يؤثر مهما عاش اليوم
عالمه ثم لا يأتي في غد إلا جاهله . فهذه الكتب نهب الأعمار الثانية .
وتفاخر الألسنة القائلة بها الأيدي الكاتبة البانية . فانظروا إلى
أيوان كسرى وسينية البحري في وصفه تجردوا الأيوان قد خرت
شعقاته . وعفرت شرفاته . وتجدوا سينية البحري قد بقي بها اسم
كسرى في ديوانه . أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه . وإنما نراوح
بين الأوصاف الغابية . وتناوب بين السمات السامية . للإشارة إلى
من يذبه على مسماه . ويذوه بسيماه . فأما من يقول الله لا سمه أنت
من معقبات حمدي . ويقول الدهر لذكره أنت الباقي من بعدي فانما
يلزم الأدب بوصف فضله العظيم . ويرفع قدر القول بفضل وصفه
الكريم ، ويسر الله هذه الفتوح . وأنزل بها الملائكة والروح . في أيام
سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبي العباس
أحمد بن الامام المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن الامام
المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن الامام المقتدي بالله عبد الله بن
الخير محمد بن الامام القائم بأمر الله عبد الله بن الامام القادر
بالله أبي العباس أحمد بن الامير اسحق بن الامام المقتدر بالله أبي
الفضل جعفر بن الامام المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق

بالله أبي أحمد طلحة بن الامام المتوكل على الله أبي الفضل جعفر
ابن الامام المعتصم بالله أبي اسحق محمد بن الامام الرشيد بالله
أبي جعفر هرون بن الامام المهدي بالله أبي عبد الله محمد بن الامام
المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين . وهي
الايام التي زواهر أيامها ذواه ومضاء مضاربيها للقضاء مضاه . فما
أجلها فضلا وأفضلها جلالة . وأقبلها جدا وأجدها قبالا وأقربها
ندى ونوالا . وأبعدها مدى ومنالا . وما أعلى سني مجدها . وأحلى
جني رفسها . وأفهم ريا رياض فضائلها . وأفهم حيا حياض
قواضلها . واسع سماء سماحها أمطارا . وأصح جناح نجاحها
مطارا . والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب
ناصر دعوته . وداعي نصرته . وولي الطائع . وسيفه القاطع
والمحكم بأمره . والمؤمر بحكمه . فرأيت إبداء ميامن هذه الايام الفر
على الآباد بفرر الآداب . وقيدت شوارد معانيها وسيرت محامد
معاليها بهذا الكتاب . وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ
والتوأم در السحاب ودر السخاب . وسميته الفتح القدسي تنبها على
جلالة قدره . وتدويها بدلالة فخره . وعرضته على القاضي الأجل
الفاضل . وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل . فقال
لي سممه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه
بفصاحة قس وبلاغته . وصاغت صيغة بياذك فيه ما يعجز ذوو
القدرة في البيان عن صياغته . ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث
وثمانين وخمسمائة بدأت بها . وأنشأت رياضي بسحبها . وما
شهدت إلا بما شاهدته وشهدته . وما استمطرت إلا عهاد العهد الذي
عهدته . وما عنيت إلا بايراد ما عاينته ، ولا بنيت القاعدة الا على
أس ما تبينته فبينته، وما توخيت إلا الصدق وما انهيت إلا الحق . ولا
ذكرت كلمة تسقط . ولا اعتمدت إلا ما يرضي الله ولا يسخط .
وبالله التوفيق والعصمة . وله الحمد ومنه النعمة

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة؛ وكتب الملك الناصر صلاح
الدين يوسف بن أيوب إلى الاقطار والبلاد . يستدعي من جميع

الجهات جموع الجهاد . وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد .
واستحضر الغزو . من الحضر والبدو . وبرز من دمشق يوم السبت
مستهل المحرم قبل استنجد الجنود . واستحشاد الحشود .
وإصهار الأسود . واحضار البيض والأسود . مضيء العزم ماضي
العزم . صائب السهم ثائب الفهم . ثابت السعود . كابت الحسود .
وخيم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج
اليد القصرى . وأقام علي ارتقاب اقتراب الحجاج . وقد رتب
الفرنج من الارصاد أفواجا على تلك الفجاج . لاسيما ابرنس
الكرك . فانه كان حريصا على الدرك . ناصبا شر الشرك نصب
الشرك . فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد . عاود دخول حصنه حذار
خروج روحه من الجسد . ووصل الحاج في أول صفر . وقد قضوا
حاجهم . ورضوا منهاجهم . وخرجوا عن فرضهم . وبخلوا إلى
أرضهم . وفرغ القلب من شغلهم . وخف مالزم من ثقلهم . وانتظر
السلطان وصول العسكر المصري المستدعى . ورعى منه حصول
العدد المسترعى . فأبطا عليه وروده . واختلفت في الاسراع وعوده .
فأمر ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين عليا . ولم يزل مكانه عنده
عليا . أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء . وتجتمع العساكر
الواصله منه تحت اللواء . وتقدم السلطان في اتباعه وأشياعه . إلى
الكرك وضياعه . فأقام عليها يرهق ويزهق . ويحرب . ويحرق .
ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتي الحق الموجود بالمعدوم . وأتي
بالقطع على البساتين والكروم . ورعى الزروع وعرى الضروع .
واستأصل الأصول والفروع . حتي أقوت من الأقوات . واستعرت
الغلة بغلاء سعر الغلات . وحلت أجال الأرزاق . وانحلت عرا
الأرماق . واقفر بلد الشرك . وامتلا من الكرد والترك . وسار إلي
الشوبك فأسار به شوبا . وأحفه من عريه ثوبا . وأخلاه من زرع
ونبات . وفرغه من أقوات وقوات . وأذهب ضياء تلك الضياع .
وأزال بقاء تلك البقاع . وجاس الخلال . وداس الغلال . وقشر
الثرى وبشره . وحشر الردى ونشره . وسلب قرار القرى وسكون
مسكونها . وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها . فقد عدم ليلها
المصباح . وصباحها الاصباح . ووصل عسكر مصر فتلقاه

بالقريتين . وفرقه على أعمال القلعتين . وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين . والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء . في جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة . والحواصل الواصلة والعساكر الكاسره . والقساور القاسره . والبواتر الواتره . والخضرم الضرم . والعمرم العرم . والهام الملتهم . والجيش الجأش . والترك والأكادش . والجود والبزود . والاسود السود . والفيالق الفواق . والبيارق البوارق . وبنات الاغماد قد برزن من خدورها حبا لمعاذقة العدى . ظامئات إلى ورد الوريد وما أحسن حلي نجيع الكفر على عرائس الهدى . والعزم يستنهضه . والعز يحرضه . والدين يستبطيه . والنصر يستعطيه . والقدر يحركه . والظفر يدركه . والكفر قد مات من زعره . والاسلام قد مت بعذره . وهو ينتظر أمرا من أبيه يأتيه بما يأتيه . ويكتب إليه ويقتضيه من رأيه بما رأيه يقتضيه . ولما استمر تأخر الأمر استمر التأخير وقدم في الاقدام التبكير والتكبير . وانتهاز الفرصة واحراز الحصه . وانتحي وانتخب الاجناد الانجاد . وجرد الجرد . واستجاد الجياد . وسرى السرية السرية . وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طبرية . ومظفر الدين بن زين الدين علي كوجك المقدم المقدام . والهام الهام . والاسد الاسد . والأرشد الأشد . وعلى عسكر دمشق قايمان النجمي ، وعلى عسكر حلب دلدريم الياروقي . فساروا مدججين . وسروا مدلجين . وصباحوا صافورية (فساء صباح المنذرين) (الصافات : ١٧٧) . فخرج اليهم الفرنج في جمع شاك . وجمر ذاك . وقنطاريات طائرات . وسابريات سابغات . ولداوى دوي وللاسبتاري هوي . والباروني يقدم على البوار والتركبولي يلقي نفسه على النار . وقد ثاروا والثار قد وقد والجو قد عقد . وقد انصدع زجاج الزجاج . وارتجز عجاج العجاج . وانفض الفضاء وانقض القضاء . وكادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل . ويحلون العقد ويعقدون ما انحل . فثبت قايمان النجمي في صدورهم . وأشرع الاسنة الى نحوهم . وروى اللهازم من تامورهم . وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم . ولايكثر بكثرتهم ويستقلهم . ولقيهم دلدريم بالوجه الابيض . والعزم الانهض . والجد

الأجد . والحد الأحد . وانجلى الغبار . وقد عم الفرنج القتل
والاسار . وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار . وأفلت مقدم الداوية وله
حصاص . ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهالك محاص . واخلفت
رنة السراء أنة الاسراء . وكانت هذه الذوبة بلا نبوة . والهبة بلا
هبة . وسكنت القلوب بهذه الحركة . وركنت النفوس إلى هذه
البركة . وسارت البشرى وسرت . ودارت النعمى ودرت . وعد ذلك
من إقبال الملك الافضل . وفضل الملك المقبل . وحسنت السنة
بالنصر . وأحسنت الالسنه في الشكر . هذا العساكر في كل يوم
يفدون ويفيدون . وفيما يجدون الطريق إليه من الزكايه في العدو
يجدون ويجيدون . وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك . فأيقنت الآمال
بالتجج والدرك . وسار سلطاننا الملك الفاصر صلاح الدين ووصل
السير بالسرى وخيم بعشتر . ففصت بسيول الخيول الوهاد
والذرى . واجتمع به ولده . وقر عينا بشبل العرين أسده . وما
رأيت عسكريا أبرك منه ولا أكبر . ولا أكرث للكفر ولا أكثر . وكان
يوم عرضه مذكرا بيوم العرض . وما شاهده الا من تلا (والله جنود
السموات والأرض) (الفتح : ٤٠) . في ألوية كأنما عقدتها حور
الجنان بخمرها . وبيارق كأنما حبها أنف الرياض بزهرها . ويوم
كالليل عجا . وليل كالיום ابتلاجا . ومناصل بالمنى صلت .
وقساطل بالقسي طلت . وفيلق لهام يفلق . وقلوب يمانية رقاق في
صدور الاغماد تقلق . وطيور سهام من أوتار الحنايا إلى أوكار
المنيا تمرق . وسوابغ مفاضه . وسوابق مرتاضه . وهضاب
راسيات . وهواضب ساريات . ولما تم العرض . حم الفرض .
وتعين الجهاد . وتبين الاجتهاد . واضطربت السهول والوعوث .
وانبعثت الهمم وهمت البعوث . وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم .
وزخرة اليم الخضم . وبرز التوحيد إلى التثليث . وانتهاض الطيب
لأبحاض الخبيث . فخافوا وخابوا . وهبوا وهابوا . وعرفوا أن
حزبهم مخذول . وأن غريبهم مفلول . وأن حدهم مذلوم . وأن جندهم
مهزوم . وأنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله . وأن الايمان كله برز
إلى الشرك كله . وقد كان بينهم حيثن خلف مذبح . وحلف منتكث .
ووقع نثار بين الأنفار . ووقود شرار بين الشرار . ولما استندوا

حين حينهم . سـعـوا في إصلاح ذات بينهم . وبخـل المـلك على القـومـص . ليتـقـمص له بالود الأـخـلص . ورمى عليه بـنـفـسـه . واستبدل وحشته بأذنة . فاصطحبا بعدما اصطلحا . وأصبحا بعد ما جمحا . وتزاورا الفرنج وتوازروا . وتأمروا ما بينهم وتشاوروا . وقالوا هذا بين متى لنا منه الوها هوى . وعود إذا عاد الأذى ذوى . فالمسيح لنا . والصليب معنا . والمعمودية عمـدـتنا . والنصرانية نصرتنا . ورماحنا مراحنا . وصحافتنا صفاحنا . وفي لوائنا اللاواء . ومع أوبائنا الداوية الأدوية . وطوارقنا الطوارق . وبيارقنا البوائق . وسيف الاستتار بتار . ولقرن الباروني من مقارنته بوار . ومعنا الدلاص والصلاد . والصعاب والصعاد . وفي كل قنطاري قنطار . ولكل سابري من اسنتنا مسبار . وقد عم بحرنا الساحل . وشددنا به المعاهد والمعازل . وهذه الأرض تسعنا نيفا وتسعين سنة وما تضيق بنا في هذه السنة . وأرماحنا إلى هذه الغاية من الأسواء أسوار هذه البقاع والامكنة . وسلاطين الاسلام ما صدقوا أن يسلموا إلينا ويسالمون . ويبذلوا لنا القـطـائع ويقاطعوننا . وطالما ناصفونا وما صافونا . وهادونا وهادونا . وفي جمعنا تفريقهم . وفي وقعتنا تعويقهم . فقال القومص وكان محربا مجربا . متدبر متدبرا . هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد من السلاطين لتسلطه . واقدامه على المخاوف وتورطه . وإن كسرهم مرة فلا يصح لكم الجبر . وليس إلا المراوغة والمفاورة والصبر . والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه . ولا نخالفه ونقبل شرائطه . فقال له الملك : أنت قد قلبتك الآفة . وفي قلبك المخافة . وأنت للخور رخو . والخشية حشو . وأنا لا بد أن أصدمه وأصده . وأكدمه وأكده . وأراد به حتي أربه . وأقيم صليب الصابوت فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد . وأمد يد الأيد لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد . فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض . ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق . وعدم الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق . اشتغلوا بالحشد والحشر والطبي والنشر .

ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف

لما هلك الملك أماري بن فلك في آخر سنة تسع وخمس مائة خلف ولدا مجذوما، وكان مع الوجود معدوما • قد أعضل دأؤه • وأيس شفاؤه • وطال بلاؤه • فوضع الافرنج التاج على رأسه • وتمسكوا مع امراضه بامراسه • ونفذوا في ضرمه • وتسمنوا بورمه • وصحوا بسقمه ورقوا في سلمه ، ورضوا بتقدمه • واكبروه وأركبوه • وأقدموا به وقدموه • وهم يكرثون بجذا (١) ملكهم هذا ولا يكرثون بجذامه • ويحمون حماه ان يحم حلول حماه • وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا • معاررا من اشفاقهم واتفاقهم مراعى • فلما احس بهلاكه • وسكون حراكه . احضر البطررك والقسوس • والمقدمين والرؤوس • وكان له ابن اخت صغير • عن التناول الى الملك قصير • وقال لهم الملك في هذا ولكن القومص (٢) يكفيه مدة سني صغره • وهو يستقل به بعد كبره • فهو الان لا يستبد • ومن أمر القومص يستمد • فقبل القومص الوصية • وجمع اليه الاطراف • الدانية والقاصية • وسكن بطبرية فان صاحبها كانت تزوجت به ، وطمعت في قوته وقربه • وهلك الملك المجذوم • وظهر المكتوم وطمع القومص في الملك استقلالا فعدم موافقة الداوية • وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصية فكفل بالامر وهو مغلوب • وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب • ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدين ليقوى بجانبه • ويحظى من مواهبه • فاشتد ازره واشتد امره • واستقل بذفسه ، واستولى على جذسه • حتى مات الملك الصغير • فانتقل الملك منه الى امه • وبطل ما كان في عزم القومص برغمه • وانتقل الملك اليها • واجتمع الافرنج عليها • فقالت لهم زوجي أقدر وهو احق بالملك واجدر • واخذت التاج من رأسها فوضعتة على رأسه • وعاش رجاءه بعد يأسه • ورأى غناه بعد افلاسه • وانتاش إبليس بعد ابلاسه • وقامت قيامة القومص باجلاسه • وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاها • فما اجاب دعوته

مرتضى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه • ولا يغيب جمعه ولا يبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماسة من كل طلب • ووصى كل حزب بما بقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا ، وصورة موارينا ومصادرنا • ومواضع اطلالنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع اعنتنا • وميادين جردنا • وبساتين وردنا • ومواقف صروفنا • ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالي مجالنا • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • وهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونثر الكنائن • وانفق الذخائر • واستنفذ كرائمها والاخير وقسم احمال الذخاب • ففرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابرامله • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلغ محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية للتأمين • وتيمن باوضح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء بين الدين • واذس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراح للاسراء • والجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مساييره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد مكائره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكركه • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيئة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقتبسة • والكتائب المكتبة • والماراتب

مرتضى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه • ولا يغيب جمعه ولا يبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماسة من كل طلب • ووصى كل حزب بما بقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا ، وصورة مواردها ومصادرها • ومواضع اطلالها • ومطالع ابطالها • ومصارع اسنتها • وشوارع اعنتها • وميادين جريدها • وبساتين وريدها • ومواقف صروفها • ومصارف وقوفها • ومرامي مرامها • ومجالي مجالها • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • وهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونزل الكنائس • وانفق النخائر • واستنفذ كرائمها والاخير وقسم احمال الذخائب • ففرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابرامله • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية للتأمين • وتيمن باوضح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء بين الدين • واذنس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراح للاسراء • وأجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مساييره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد مكائره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيئة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقتبسة • والكتائب المكتبة • والماراتب

المرتبة • والمذاهب المهدية • والسلاهب المجنبية • والصوائب
المجعية • والقواضب المقرية • والثعالب المنزبية • واللهانم
الهزيمة • والصلادم اللازمة • والضراغم الضاغمة • وخيم على
خسفين • وقد انبى الله الخسف بالعدو وخسوفه • وكسف الكفر
ونكسوفه • وبات والوجوه سافرة • والعيون في سبيل الله ساهرة •
والايدي لسيوف الايد شاهرة • والالسن لانعم الله شاكرة •
والقلوب بالاخلاص عامرة • والاذفس للانس مسامرة • والاقدام
بالاقدار متضافرة متظاهرة .

ثم اصبحت سائرا ونزل على الاربن بثغر الاقحوانة • بعزم
الصيال وعز الصيانة • واحاط ببجيرة طبرية بحره المحيط •
وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط • وبرزت الارض في قشب
اثوابها • وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من ابوابها • ورست سفن
المضارب على تلك الانباج • وطمت الاطلاب امواجا على امواج •
وانعقدت سماء العجاج • وطلعت فيها انجم الخرصان والزجاج •
واعاد الاقحوانة رياضاً نضرة • وحدائق مزهرة • من فرس رد
وفارس كالاسد الورد • ومشرفيات كبطاقات الرياحين • ويزنيات
كأشجار البساتين • ورايات صفير تخفق بعذابات الياسمين •
والوية حمر كشقائق النعمان • وموضوعة زغف كالغدران •
ومصقولة بيض كالخلجان • ومريشة زرق كالاطيار • ومحنية عوج
كالافنان • وبيض تلمع كثغور الاقحوان • وجبب ترائك على بحور
الدارعين • وعقبان صواهل ترووق وتروع الناظرين والسامعين •
والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية • ولووا الالوية على مدود
الضوامر الزواجر قناطر القنطاريات • واوقدوا في ظلام القتام
الثائر سروج السريجات • وصوبوا الى صوب قرا الاقران نيات
اليزنيات • واحاطوا حول مراكزهم بسدواتهم • وحاطوا
بواشرهم • وجمعوا الاوشاب والاباش • ورتبوا الجيش •
وثبتوا الجاش ، وحشدوا الفارس والراجل • والرامح والنابل •
ونشروا الذوابل • وحشروا ابطال الباطل • ورفعوا صليب
الصلبوت • فاجتمع اليه عباد الطاغوت • وضلال الناسوت

واللاهوت • ونادوا في نواحي اقاليم اهل الاقانيم • وصـالـبوا
الصليب الاعظم بالتعظيم ، وماعصاهم من له عصا • وخرجوا عن
العد والاحصا • وكانوا عدد الحصى • وصاروا في زهاء خمسين
الفا ويزيدون • ويكيدون مايكيدون • قد تواقوا على صعيد •
ووافوا من قريب وبعيد • وهم هناك مقيمون • لا يرومون حركة
ولا يريمون • والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير اليهم
ويشرف عليهم • ويراميهـم • وينـكـى فيهم • ويتعـرضـلهم
ليتعرضوا له • ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله •
فربضوا ومانبضوا • وقعدوا ومانهضوا • فلو برزوا لبرز اليهم
القتل في مضاجعهم • وعايذوا مقام صارعهم • في سـوقهم الى
مصارعهم • وفزعوا مما فيه وقعوا • وجبذوا عما له تشجعوا •
فرأى السلطان ان يطيب ربه • من طبرية ويشرف على خطتها
بالخطية والمشرفية • ويحوز حوزتها ويملك مملكتها • فجر على
الاردن اردان الربينيات • واطلع الذقع المثار من البحر بجوافر
الاعوجيات • واستسهل عليها ولم يستوعر عربيات العربيات •
فأمر عساكره • وامراء جيشه واكابره • ان يقيموا قبالة الفرنج •
ويضيقوا عليهم واسع النهج • فان خرجوا للمصاف بادروا الى
الانتقام منهم والانتصاف • وان تحركوا الى بعض الجوانب • وذبوا
بهم واثوب الاسود بالارانب • وان قصدوا طبرية لصدونها وان يكونوا
في عونها • عجلوا الاعلام ليعجل عليهم الاقدام .

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية في خـواصه ، وذوي اسـتـخلاصه . واحضر
الجندارية والنقابين . والخراسانية . والحجارين . واطراف
بسورها • وشرع في هدم معمرورها . وصدقها القتال . وماصـدف
عنها النزال . وكان ذلك يوم الخميس . وهو يؤم الخميس . واخذ
النقابون النقب في برج فهدوه وهدموه . وتسـالـقوا فيه وتسـالـموه .

وبذل الليل وصباح الفتح مسفر . وليل الويل على العدو معتكر .
وامتنعت القلعة بمن فيها . من القومصية . ست طبرية وبنيتها . ولما
سمع القومص بفتح طبرية واخذ بلده . سقط في يده . وخرج عن جلد
جلده . وسمح للفرنج بسببه ولده . وقال لهم لاقعود بعد اليوم .
ولا بد لنا من وقم القوم . واذا اخذت طبرية اخذت البلاد . وذهبت
الطراف والتلاد . وما بقي لي من صبر . وما بعد هذا الكسر . لي جبر
وكان الملك قد حالفه . فما خالفه . ووافق . فما ناقه . وما حظه فما
مازقه ووادده فما رادده . وواعده فما عاوده . ورحل بجمعه . وبصره
وسمعه . وثعابينه وشياطينه . وسراجينه وسراحيه . واتباع غيه .
واشباع بغيه . فمادت الارض بحركته . وغامت السماء من غبرته .
ووصل الخبر بان الفرنج ركبوا . وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا .
وعبوا وعبوا . ودبوا حتى يذبوا . وشبوا النار . ولبوا الثأر .
وقدموا للنزل بالدار البدار . وذلك يوم الجمعة رابع عشرين ربيع
الاخر . فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه . بما سبق به حكمه .
وسر حين احاط بمسيرهم علمه . وقال : قد حصل المطلوب . وكمل
المخطوب . وجاءنا مانريد . ولنا بحمد الله الجد الجديد . والحد
الحديد . والبأس الشديد . والنصر العتيد . واذا صحت كسرتهم .
وقتلت واسرت اسراتهم . فطبرية وجميع الساحل . مادونها مانع .
ولا عن فتحها وازع . واستخار الله وسار . وعدم القرار . وجاء يوم
الجمعة رابع عشرين شهر ربيع الاخر والفرنج سائرون الى طبرية
بقضهم وقضيضهم . وكانهم على اليفاع في حضيضهم . وقد ماجت
خضارهم . وهاجت ضراغمهم . وطارت قشاعهم . وثارت غماغمهم
وسدت الافاق غماثمهم . وشاقت ضاربها جماجمهم . وهم كالجبال
السائرة . وكالبحار الزاخرة . امواجها ملتزمة . وافواجها مزبحة .
وفجاجها محتدمة . واعلاجها مصطلمة . وقد جوى الجو . وضوى
الضو . ودوى الدو . والفضاء مذفض . والقضاء مذقض . والثرى قد
استزار الثرى . وجر نيل الخيل قد برى البرى . والحوافر الحوافر
للارض حوافر . والفوارس اللوابس في البيض سوافر . وذئاب
النباد واجلاد الجلال قد حملوا كل عده . وكملوا كل عدة . فرتب
السلطان في مقابلتهم اطر اطلابه . وقصر على مقاتلتهم اربابه .

وحصل بعسكره قدامهم . ورقب على الحملة اقدامهم . وحجز بينهم وبين الماء . ومنع زمامهم على النماء . وحلأهم عن الورد . وصدعهم بالصد . ذاك واليوم قيظ . والقوم غيظ . وقد وقدت الهاجرة . فوقدتها غير هاجرة . وشربت ماكان في اداوتها فهي على الظما غير صابرة . وحجز الليل بين الفريقين . وحجرت الخيل على الطريقين . وبات الاسلام للكفر مقابلا . والتوحيد للتذليل مقاتلا . والهدى للضلال مراقبا . والايمان للاشرك محاربا . وهيثت دركات النيران . وهنئت درجات الجنان . وانتظر مالك واستبشر رضوان . حتى اذا اسفر الصباح . وسفر الصباح . وفجر الفجر انهار النهار . ونفر النفر غراب الغبار . وانتهت في الجفون الصوارم . والتهبت في الضوامر الضوارج . وتيقظت الاوتار . وتغيظت النار . وسل الغرار . وسلب القرار . خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال اهل النار . ورنق القسي وغنت الاوتار . ورقصت مران المراد . لجلاء عرائس الجلال . وبرزت البيض من ملائها في الملا عارية . ورتعت السممر لكلها من الكلى راعية . فرجا القرنج فرجا . وطلب طلبهم المحرج مخرجا . فكلما خرجوا جرحوا . وبرح بهم حر الحرب فما برحوا . وحملوا وهم ظماء . ومالهم سوى ما بأيديهم من ماء الفرند ماء . فشوتهم نار السهام واشوتهم . وصممت عليهم قلوب القسي القاسية واصمتهم . واعجزوا وازعجوا . واحرجوا واخرجوا . وكلما حملوا ردوا وارادوا . وكلما ساروا وشدوا اسروا وشدوا . ومادبت منهم نملة . ولاذبت عنهم حملة . واضرموا واضطربوا . والتهفوا والتهبوا . وناشبههم النشاب فعادت اسودهم تنفذ . وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذة . فأووا الى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار . فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشفتهم الظبا . وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا . وقشرتهم المنايا . وقشرتهم البالايا . ورقشتهم الرزايا . وصاروا للردى درايا . والقضايا رمايا . ولما احس القوم مص بالكسرة . حسر عن ذراع الحسرة . واقتال من العزيمة . واحتال في الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر . واحتداد الحرب واحتدام الحر . فخرج بطله يطلب الخروج . واعوج الى الوادي وماود ان يعوج .

ومضى كومض البرق . ووسع خطا خرقة قبل اتساع الخرق . واقلت في عدة معدودة . ولم يلتفت الى ردة مردودة . وغاب حالة حضور الوعي . ونابه الرعب الذي نوى الهزيمة به وماونى . ثم استجرت الحرب . واشتجر الطعن والضرب . واحيط بالفرنيج من حوالىهم بما حووا اليهم . ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا في ضرب خيامهم وضم نظامهم . فخطوا على حطين مضاربهم . وقلت حدود الرماة مضاربهم . واعجلوا عن نصب الخيم ورفعها . وشغلوا عن اصل الحياة وفرعها . وترجوا خيرا فتسرجلوا عن الخيل . وتجلدوا وتجادوا فجرفهم السيف جرف السيل . واحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها . ولجأوا الى حزم الارض فبلغ حزامهم الطبيين من سهلها . واسر الشيطان وجنوده . وملك الملك وكذوده . وجلس السلطان لعرض اكابر الاسارى . وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية . ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاسبترية . واحضر الملك كي واخوه جفري . واوك صاحب جبيل وهذفري . والابرذس ارناط صاحب الكرك . وهو اول من وقع في الشرك . وكان السلطان نذر دمه . وقال لا عجلن عند وجدانه عدمه . فلما حضر بين يديه اجلسه الى جنب الملك والملك بجذبه . وقرعه على غدره وذكره بنذبه وقال له:كم تحلف وتحذث . وتعهد وتتكث . وتبرم الميثاق وتذقض . وتقبل على الوفاق ثم تعرض . فقال الترجمان عنه ان يقول قد جرت بذلك عادة الملوك . وما سلكت غير السنن المملوك . وكان الملك يلهث ظميا . ويميل من سكرة الرعب منتشيا . فأذسه السلطان وحاوره . وفتا سورة الوجل الذي ساوره . وسكن رعبه . وامن قلبه . واتي بماء مثلوج ازال لهثة وأزاح من العطش ماكرثه . وناوله الابرذس ليخدم ايضا لهبه . فأخذه من يده وشربه . فقال السلطان للملك لم تأخذ مني في سقيه أننا • فلا يوجب ذلك له مني أمنا • ثم ركب وخلاهما • وبنار الوهل اصلاهما • ولم ينزل الى ضرب سرادقه • وركزت أعلامه وبيارقه • وعادت عن الحومة الى الحمى فيالقه • فلما بخل سرادقه • استحضر الابرذس فقام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه • وحين صرع . امر برأسه فقطع وجر برجله قدام الملك حين اخرج . فارتاع وانزعج . فعرف السلطان انه

خامره الفزع . وساوره الهلع وسامره الجزع . فاستدعاه واستدناه
وامنه وطمنه . ومكنه من قربه وسكنه . وقال ذاك رداً عليه اودته .
وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغيه ونباذند حياته ووردها
عن وريه وريه . وصحت هذه الكسرة . وتمت هذه النصرة يوم
السبت وضربت ذلة اهل السبت على اهل الاحد . وكاذوا اسودا
فعادوا من النقد . فما اقلت من تلك الالاف الا احاد . ومانجا من
اولئك الاعداء الا اعداد . وامتلأ الملا بالاسرى والقتلى . وانجلى
الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى . وقيدت الاسارى في الحبال واجبة
القلوب . وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب . وحطت
حطين تلك الجيف عن متنها . وطاب نشر النصر بنتنها . وعبرت
بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاه . بالعراء عراة . ممزقة
بالمازق . مفصلة المفاصل . مفرقة المرافق . مفلقة المفاقر .
محذوفة الرقاب . مقصوفة الاصلاب . مقطعة الهام . موزعة
الاقدام . مجدوعة الأناف . منزوعة الاطراف . معضاة الاعضاء .
مجزاة الاجزاء . مفقوعة العيون مبعوجة البطون . مخصوبة
الضفائر . معضوبة المرائر ، مبرية البنان . مفرية اللبان مقصومة
الاضالع . مفصومة الاشاجع . مرضوضة الصدور . مفضوضة
النحور . منصفدة الاجساد . مقصقة الاعضاء . مقلصة الشفاه .
مخلصة الجباه . قانية الذوائب . دامية الترائب . مشكوكة الاضلع
مفكوكة الاذرع . مكسورة العظام . محسورة اللثام . بائدة
الوجوه . بانية المكروه . مبشورة الابشار . معشورة الاعشار .
منشورة الشعور . مقشورة الظهور . مهدومة البنيان . مهتومة
الاسنان . مهركة الدماء . مرهقة الذماء . هاوية الذرى . واهية
العرى . سائلة الاحداق . مائلة الاعناق . مفتونة الافلاذ . مبتوتة
الافخاذ . مشدوخة الهامات . مسلوخة اللبسات . عديمة الارواح .
هشيمة الاشباح . كالأحجار بين الاحجار . عبرة لا ولي الابصار .
وصارت تلك المعركة بالدماء أدماء . وعادت الغبرة حمراء . وجرت
انهار الدم المنهمر . وسفر تلك الخباثت المظلمة وجه الدين المطهر .
فما اطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث . وما الهب عذابات العذاب
في تلك الجثث . وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث . وما

أجزى صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث • هذا وحساب من قتل فقد
حصرت السنة الأمم عن حصره وعده • وأما من أسر فلم تكف
أطناب الخيم لقيده وشده • ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين
يقودهم فارس • وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس •
وهناك العتاة عناة • والعداة عراة • وذوو الأسيرة أسرى • وأولو
الآثرة عثرى • والقوامص قنائص • والفوارس فرائس • وغوالي
الارواح رخائص • ووجوه الداوية الداوية عوابس • والرؤوس تحت
الآخامص • ومطالع الأجسام ذوات المقاطع والمخالص • فكما أصيد
صيد • وقائد وقيد • ومشرك مكشر • وكافر مفكر • ومثلث —
منصف • ومكيف مكثف • وجارح مجروح • وقارح مقروح • وملك
مملوك • وهاتك مهتوك • ومتبر مبتور • ومحسر محسور • وكاب
في الكبول • ومغتال في الغلول • وحر في الرق • ومبطل في يد الحق •

ذكر الصليب الأعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصليبوت • وأهالك دونه أهل
الطاغوت • وهو الذي إذا نصب وأقيم ورفع • سجد له كل نصراني
وركع • وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها
معبودهم ومسجودهم • وقد غلفوه بالذهب الأحمر • وكللوه بالدر
والجواهر • وأعدوه ليوم الروع المشهود • ولموسم عيدهم الموعود •
فإذا أخرجته القسوس • وحملته الرؤوس • تبادروا إليه • وأنثالوا
عليه ولا يسع لأحدهم عنه التخاف ولا يسوغ للمتخاف عن اتباعه في
نفسه التصرف • وأخذ أعظم عندهم من أسر الملك وهو أشد مصاب
لهم في ذلك المعترك • فإن الصليب السليب ماله عوض • ولا لهم في
سواه غرض والتأله له عليهم مفترض • فهو إلههم • وتعفر له
جباهم • وتسبح له أفواههم • يتغاشون عند احضاره • يتعاشون
لابصاره • ويتلاشون لأظهاره • ويتفاضون إذا شاهده •
ويتواجدون إذا وجدوه • ويبذلون دونه المهج • ويطلبون به الفرج بل
صاغوا على مثاله صلابنا يعبدونها • ويخشعون لها في بيوتهم

ويشهدونها • فلما اخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم . ووهت
اصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيما . والموقف المنصور كريما .
فكانهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف احد من يومهم
العصيب . فهلكوا قتلا واسرا وملكوا قهرا وقسرا . ونزل السلطان
على صحراء طبرية كالاسد المصحر . والقمر المبدر .

ذكر فتح حصن طبرية

ونذب الي حصنها من تسلمه امانا . واسكنه بعد الكفر ايمانا .
وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته . ونقلت اليه كل ما ملكته
ودوته . فأمناها على اصحابها واموالها . وخرجت بذنائها ورجالها
ورجالها . وسارت الى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها
وحالها . وغادرت طبرية أهلة آمنة باهل الايمان . وعين لولايتها
صارم البين قايماز النجمي ، وهو من الاكابر الاعيان . وهذا الملك
الناصر نازل ظاهر طبرية . وقد طب البرية . وعسكره طبق البرية .

ذكر ما اعتمده في الاسارى الداوية والاسبثارية من ضرب رقابهم واعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الاخر بعد الفتح
بيومين . طلب الاسارى من الداوية والاسبثارية ، وقال : أنا أظهر
الأرض من الجذسين النجسين . وجعل لكل من يحضر منهما اسيرا
خمسين . فأحضر العسكر في الحال مئتين . وأمر بضرب اعناقهم .
واختار قتلهم على استرقاقهم . وكان عنده جماعة من اهل العلم
والتصوف . وعدة من ذوي التعفف والتعيف . فسأل كل واحد في قتل
واحد . وسل سيفه . وحسر عن ساعد . والسلطان جالس . ووجه
باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف . والامراء في السماطين

وقوف . فمنهم من فرى وبرى وشكر . ومنهم من أبى ونبا وعذر .
ومنهم من يضحك منه . ويذوب سواه عنه . وشاهدت هناك الضحوك
القتال . ورأيت منه القوال الفعال . فكلم وعد انجزه . وحمد احرزه .
واجر استدأمه بدم اجراه . وبر اعنق اليه بعنق براه . ونصل
خضبه . لنصر خطبه . واسل اعتقله . لاسد عقله . وداء داواه
لداوي ادواه . وقوة اهداها لهداة قواها .

ولواء نشره للأواء طواها . وكفر أماته لاسلام أحياء . وشرك
هدمه لتوحيد بناءه . وعزما مضاهها . لامة ارضاهها . وعدو قصمه .
لولي عصمة . وسير ملك القرنج وأخاه وهذفري وصاحب جبيل
ومقدم الداوية وجميع اكابرهم المأسورين الى دمشق ليودعوا
السجون . وتستبدل حركاتهم السكون . وتفرقت العساكر بما حوته
أيديهم من السبي ايدي سبأ وخمد جمر جمع الكفر وخبا .

ذكر فتح عكا

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على اهل التثليث مديلا
الطيب . مزيلا للخبث . وسار عسكره . وثار عثيره . وظهرت
راياته . وبهرت آياته . ونعرت كوساته . وصاحت بوقاته . وجالت
خيوله . وسالت سيوله . وطلعت في سماء العجاج نجوم خروصاته
وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه . وحفرت مدواف الصلاد م
أصلاب الصلاد الصلاب . وفصحت باعراب الحمام صواهل
الجياد العراب . والاسنة مشرعة . والأعنة مسرعة . وبحور السوابح
متموجة وغدران السوابغ مترجرجة . وبوارق البيارق متبرجة .
وأوضح الجرد وغررها كأوضح النصر وغرره متبلجة . ونزل عشية
بأرض لوبية لداعي الفتوح ملييا . ولجيش النصر معيا . ولولود
الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا . وبات بها معرسا بانيا
على عروس الظفر البكر . جانبا ثمار الاماني من غروس البيض

والسمر • وأصبح وقد اصحب جماح الدهر • وصح نجاح الأمر •
وحص جناح الكفر • واسفر فجر الفرج • وسفر وجه البهج • وسار
سارا سره بارا بأرباب الدين بره • زائرة أسوده • طائرة بذوده •
ظاهرة جنوده زاهرة جدوده • سامية أضواؤه • هامية أنواؤه • رائعة
مواكيه • رائقة مراكيه • مجنبة عتاقه • فكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم سير للفقير الى نصرته من يثري به • وهذا الأمير عز
الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسنى قد وفد في تلك السنة أوان
عود الحاج • وهو ذو شيبة تقد كالسراج • وما برح مع الملك الناصر •
مأثور المأثر • ميمون الصحبة • مأمون المحبة • مبارك الطلعة •
مشارك في الوقعة فما تم فتح تلك السنين الا بحضوره • ولا أشرق
مطلع من النصر الا بذوره • فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسائرا •
ورأيت السلطان له مشاورا محاورا • وأنا أسير معهما • وقد بذوت
منهما ليسمعاني وأسمعهما • ولاحت أعلام عكا وكان بيارق الفرنج
المركوزة عليها السنة من الخوف تتشكى • وكان عذبات النيران
تصاعدت لعذاب أهلها • وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من
وعرها وسهلها • فلما قرب منها خيم وراء تلها • وأننت عروش
معاشر الشرك بذلها • وعقود معاقدي الكفر بحلها • وأصبح يوم
الخميس وركب في خميسه • ووقف كالأسد في عريسه • فخرج أهل
البلد يطلبون الامان • ويبذلون الانعان فامنهم وخيرهم بين المقام
والانتقال • ووهب لهم عصمة الانفس والاموال • وكان في ظنهم أنه
يستبيح دماءهم • ويسبي ذريتهم ونسائهم • وأمهلهم أياما حتى
ينقل من يختار الذلة • واغتدوا تلك المهلة • وفتح الباب
للخاصة • واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوي الخصاصة •
فان القوم ما صدقوا من الخوف المزعج • والفرج المخرج • كيف
يتركون دورهم بما فيها ويسلمون • وعندهم أنهم إذا نجوا بأنفسهم
أنهم يغزمون • فترك معظمهم المدينة • وعندهم انه ما كسب السكينة •
الا من ركب السفينة • وذلك ان الجند لما دخلوها • استولوا على
الدور ونزلوها • وركز كل منهم بيرقه على دار • وقال صاحبها كيف
يصح المقام مع الأسد في غابه ولا مقام على زار • وكان السلطان
جعل للفقيه عيسى الهكاري كل ما يتعلق بالدأوية من منازل وضياع •

ومواضع ورباع • فأخذها بما فيها من غلال ومتاع . ووهب عكا
لولده الملك الأفضل • فأجراها من نظره على الاحسن الاجمل •
ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فاقمنا بها الجمعة •
ووصلنا فريضتها المنقطعة • وأعدنا الكنيسة العظمى مسجدا
جامعا • وعاد نور الهدى الخافي بالضلالة لامعا • وحضر القاضي
الاجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمذبر ، وتبسم بميامنه للاسلام
بعد الاظلام سني الصبح المسفر ، وخطب جمال الدين عبد اللطيف
ابن الشيخ أبي النجيب السهروردي ، فإنه تولى بها القضاء
والخطابة ، وملأنا بعد الذئاب بالاساد السادة السادة تلك
الغابة ، وخلي سكان البلد دروهم ، ومخزونهم ومنخورهم وتركوا
لن أخذها ، ونبذوا ما حووه لن حواها ما نبذها ، وافترق من القرنج
أغنياء ، واستغنى من أجنادنا فقراء ، ولونخرت تلك الحواصل
وحصلت تلك النخائر ، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع
الوافر ، لكان عدة ليوم الشدائد ، وعمدة لنجح المقاصد ، فرتعت في
خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروج الأطماع ، وطال لمستحليها
ومستحليها الأمتاع بذلك المتاع ، وأقام السلطان بباب عكا على التل
مخيما ، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمما ، ولملكتها
متمما ، وكان قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر
وهو بمصر ، بما اتاحه الله من النصر ، وقبضه له من اقتضااض
الفتح البكر ، فوصلت البشرى بوصله باشرا ، ولواء الحمد
ناشرا ، ولاستفتاح ما في طريقه من الحصون مباشرة ، وأنه فتح
حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة ، واغتنمها غزوة ، وتسلمها
حظوة ، فقصده من عساكرنا القصاد ، ووفد اليه من عندنا
الوفاد ، فحباهم بالحباء من السبايا ، وآتاهم المرباع
والصفايا ، وخصهم من الحاصل بالنقود ، ووعدهم مما سيحصل
بالنسايا ، وشرع يستضيف حصنا فحصنا ، ويستضيف حسننا
وحسنا ، ويستزيد بلدا ، ويستزير مددا ، ويستزير من الكفر
يدا ، ويستميل الى الهدى هدى ، والدين بسيف سيفه
منصور ، والاسلام بنصر ناصره مسرور ، والملك العادل مالك
بعده ، سالك نهج النجاح بفضله ، فائز العزيمة حائز

الغنيمة ، ماضي الضريبة قاضي الكتيبة ، ميمون النقيبة مأمول
الرجبة .

ذكر فتح عدة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه ، ظافرا بمغذمه ظاهرا بكرمه ، شاكرا
عرام عرمرمه ، ملهبا ضرام مخذمه ، مرويا أوارلهذمه ، وأمر
أمرائه بقصد البلاد المجاورة ، وأمدهم بالضراغم المراوغة
المغاورة .

فتح الناصرة وصفورية

فسار مظفر الدين كوكبـوري الى الناصرة فاستباح
حماها ، واستبى دماها ، وحلها واستحلها ، وأزالها
وأزلهـا ، وخف اليها واستخفها ، واستشفها وشفها ، وشافها
بشفار البواتر ، فشفه منها موارد النخائر ، واجتلى
عرائسها ، واجتني مغارسها ، وجمع نفادسها ونزع
ملايسها ، واستدر طبيها ، واسترد سبيها ، واستقل منها بما
استقل به من كل غانية عانية • ورقيقة رقيقة • ومصابة
مصيبة ، ومسببة مصيبة ، ومجلوة مجلوبة ، وسالبة
مسالوبة ، ودمية دامية ، وجارية لطيفة بالعنف جارية ، واسيرة
من أسره ، وحاسرة عن حسره ، وثاكلة لواحدـها ، وأكلة
لساعدها ، وعاضة على يديها ، وفاضة ختم الدمع على خديها •
وناهدة متنهدة ، وفريضة متفردة ، وناعمة شقية ، وقينة
نقية ، وعذراء مفترعة ، وحسناء منتزعة ، ومخطفة ، وقوية
مستضعفة ، وعزيزة ذليلة ، وصحيحة علية ، وساجية
عبرى ، وصاحبة سـكرى ، وغريرة غراء ، وظبية

والآلات . وأعادته مشهدا ، ورده مسجدا ، ووضع فيه من بره بالاسلام منبرا ، وأصبح الدين به مثرىا والكفر مقترا ، ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب ، وطرف حده غير كاب ، وحد بأسه طرير . وناظر الدولة به قرير . وكان من قبل سلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون . وأيقنوا أنهم ان اقاموا لايأمنون المنون ، فان المسلمين بها وباعمالها نهضوا اليهم في مواطنهم ، فأجفلوا من مساكنهم ، وانتقلوا من أماكنهم ، وخلوا دورهم وأخلوها ، وتسألوا منها وسلوها ، وتحول الاقوياء الى قلعتها ، وتحصنوا بتلعتها . ونازلها حسام الدين وحاصرها . وطال عليه حصرها وصابرها ، ولم يزل عليها مقيما . ولقاتلها مديما ، الى أن وثقوا بأمانه ، وعلقوا باحسانه . وسلموا وسلموا . واستأمنوا وأمنوا ، وخلصت له نابلس واعمالها . وحليت به احوالها . ولكون معظم اهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين ، لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم الا ان يكونوا لحصنهم مسلمين ، فاندحى بالسعود رسم النحوس . ونزعنا عنها لبوس البوس ، واستبشرت وجوه اهلها بعد العبوس . وقام جاه الأذان وانكسر ناموس الناقوس .

فتح الفولة وغيرها

وكانت الفولة احسن قلعة واحصنها . واملاها بالرجال والعدد واشحنها . وهي الداوية حصن حصين . ومكان مكين وركن ركين . وفيها مشتاها ومضيفهم . ومقراهم ومضيفهم . ومربط خيولهم . ومجر نيولهم . ومجرى سيولهم . ومجمع اخوانهم . ومشروع شيطانهم . وموضع صلبانهم . ومورد حمتهم . وموقد جمرتهم . فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم الى مصرعهم . واثقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم . فلما كسروا واسروا . وخسروا وتحسروا . خلت طلول الفولة . بحدود

اهلها المفلولة . وماء داويتها المفلولة . ولم يجتمع شمل غموودها
بالسيوف المسالولة . ولم يبق بها الا رعايا رعا . وغلمان
واتباع . واشياع شعاع . فعدموا مكان حماية المكان . ووجدوا
امنهم في الاسستثمان . فسلموا الحصن بمافيها الى
السلطان . وكانت فيه اخاير الذخائر . ونفائس الاعلاق . فوثقوا
بما احكموه من الميثاق . وخرجوا ناجين . وبخلوا في الزمام
لاجين . وللسلامة راجين . وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من
البلاد مثل دبورية وجينين وزرعين والطور والجبون . وبيسان
والقيمون . وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات . والزيب ومعليا
والبعنة واسكندورنة ومذوات .

فتح تبنين

ولما خلصت تلك الممالك والأعمال ، وقلصت من الضلال تلك
الظلال ، وصفت الممالك ، ووفت المدارك ، أوعز السلطان الى ابن
أخيه الملك المظفر عمرا بن شاهنشاه تقي الدين بقصد حصن
تبنين ، وأن يتوكل على الله فيه ويستعين ، فالقى عليه جرار
بأسه ، ولقي بالتذليل جرار ناسه ، وأخذ في مضايقته
بأنفاسه ، ولح مالمع من قبس فتحه فشفت باقتباسه ، وسنح له
قنصه فاشرب باقتناصه وافتراسه ، وكتب الى السلطان يبعثه على
الوصول اليه بعسكره ، والنهوض نحوه بأبيضه وأسمره . فضرب
الكوس ، وسمت الذفوس ، والنهوض في ظلام القتام من الترك
والترائك الأقمار والشموس ، واشتعلت من شبيب البيارق في شعاع
تلك البوارق الرؤوس ، وتحرك السواد كمهيل الذقا ، واشتبك على
الأساد غيل القنا ، وسالت الاودية بالساحات العتاق ، وطالت على
السير أعناق الاعناق ، ومالت الى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر
رقاب الرقاق ، وجرت الفجاج ، وتموجت الأفواج ، وتفوجت
الأمواج وتحركت غدران السوابخ ، من رياح السوابخ ، وتدركت
ضوا من الضوا من بالأرفاد في أرداف الحق اللاحق ، وأسفر من بريق

البيض والبيض فلق الفيالق ، وترنمت الصواهل ، وترنحت الذوابل
وساح الساحل ، وراح الراحل ، ووصلنا الى تبنين في ثلاث
مراحل ، فرمينا أهل التذليل فيها بثلاثة الاثافي ، وأوطأناهم بشفاه
الشفار على حدود الاشافي ، ونزلنا عليها بالنوازل ، وبسطنا من
المجانيق عليها أيدي الغوائل ، فتبدلوا من الرعب ، وتجلدوا على
الحرب ، ثم خاروا وشاروا ، وجأروا وجأروا ، ورغبوا
ورهبوا ، وصحوا من سكر الجماع وأصبحو ، وعجزوا
فجزعوا ، وفزهم الحصر وفزعوا ، وشكوا الندوب وندبوا فدانوا
ودنوا ، وأذغذوا إذغذوا ، واعتذروا مما جندوا ، ورأسوا
السلطان ، وسألوا الأمان ، واستمهلوا خمسة ايام لينزلوا بأموالهم
فأمهلوا ، وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا ، واقلع من
بالقلعة عن الجهلة ، وتعلق لبت العلق بالمهلة ، وتقربوا باطلاق
الاسارى المسلمين ، فخرج المأسورون مسرورين ، وأصبح الصحب
المكسورين مجبورين ، محبوسين بالقرج بعد الشدة محبوسين ، وسر
بهم السلطان وسر بهم ، وأقرهم وقربهم ، وكساهم
وحباهم ، وآتاهم بعد ردهم الى مغانيهم غنائهم ، وهذا دأبه في كل
بلد يفتحه وملك يربحه ، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها ، ويعيد
بعد عدمها وجودها ، ويحيي بعد اليأس آمالها ، ويوسع أرزاقها
بعدما أجال عليها ضيق الأسر آجالها ، فخلص تلك السنة من الأسر
أكثر من عشرين ألف اسير للقيود الف ، ووقع في أسرنا من الكفار
مائة الف ، ولما خلوا القلعة ، وأخلوا البقعة ، سيرهم ومعهم من
العسكر المنصور ، من أوصلهم الى صور ، ورتب في الموضع مملوكه
سنقر الدوي ، فأرشد به ذلك الصقع القوي ، فان أعمال جبل
عاملة مجبولة على الشر ، وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا
لأهل الكفر ، فوصى سنقر بتأنيديس النافر ، وتعييس
الكافر ، وتأليف الجافل ، وتعريف الجاهل ، وقال له تبني بتبنين
ماهدم بالمنجنيق ، وتجد لسورها وخذقها كل مايمكن من التوثيق
والتعميق ، ورحل ومعه رفيق التفويق ، وكان النزول على تبنين
يوم الأحد حادي عشر جمادى الاولى وتسلمها يوم الأحد الثامن
عشر منه .

فتح صيدا

يوم الأربعاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى يوم النزول عليها . وسنحت له صيدا فتصدى لصيدها ، وكانت همته في قيدها وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها ، وسرنا وسرنا مرتاح ، ونصرنا متاح ، والجد جديد والمزاح مزاح والعزم جزم ، والحكم حتم ، ونفحات الفتوح لما شق أهل الهدى تفوح ، ونفحات الردى لأعين العدى تلوح ، ونص النصر قد تنزل ، وقصد الصدق قد تعدل ، وفكر الكفر قد توزع ، وشرك الشرك قد تقطع وتقلع ، وظل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف ، والقدر عون والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر ، وأوجهنا وأوجه البشائر باشر ، وقد جفت أجفانها البواتر الواطرة ، وجلت بياجير الذقع من لعمان الحديد السوافر الوافرة ، واتصلت للممالك من الملائك أمداد النصر المتواترة المتواترة ، ووصلنا في يومين الى صيدا الى منهل فتحها صابن ، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صابن ، ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ماتوعر ، وصفا من الأمر ماظن أنه تكدر ، فصرنا الأعنة الى صرند ، وأسمننا في مسارحها الجند ، وهي مدينة لطيفة على الساحل ، موروثة المناهل ، ذات بساتين ، وأزهار ورياحين ، وأشجار النارج والأترنج ، تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان القرنج ، فجسنا خللالها ، وكل قلب مشغول خللالها ، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية ، وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القرية ، ولم نخرج عليها حتى خيمنا على صيدا وقد حصلنا على صيدها ، وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها ، فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها ، وانهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصاييحها وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها ، وجلت غياهب تلك المذاهب بذوارها ، وفتحت أبوابها ، وأنجحت آرابها ، وعادت معالمها

مأهولة ، بعد أن كانت مقفرة مجهولة ، وصدق منبرها ، وصدق
مفخرها ، وربح متجرها ، ووضح منظرها ، وأقيمت بها الجمعة
والجماعة ، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة ،

فتح بيروت

وكان النزول عليها يوم الخميس ثاني
عشري جمادي الأول وتسلمها يوم الخميس
التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيداء وتبين ، وجمع لهما التحصين
والتحصين ، قال لعصمة الله شبيدي مابصيدا وتبين
تبين ، والحفيهما رداء الحماية فما يضيع ماتحفظين ، ولايطرق
ماتحمين ، ثم صرف عنانه ، وارهف سنانه ، ورحل على سمت
بيروت ، مالئا بعسكره الآكام والمروت ، وسار على الساحل ، بتلك
الجحافل ، يجر على البحر مائج ، ومجرر مجرالى الهياج
هائج ، ونقد من عقد الجد رائج ، وعزم على صدق القصد
عائج ، ووصل اليها ونزل عليها ، وبنيت القباب ، وطفا على
خضم المعسكر من الخيم الحباب ، وزحف الى الأعداء
الآخاب ، وضويق البلد ، وفورق الجلد ، وأحاط الرجال
بأرجائه ، ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال في
سمائه ، وانقضت نجوم السهام من أبراجه ، وتلاطم عباب ذلك
الجمع الجم بأفواج أفواجه ، وترجل دونه الناس ، وتعجل نحوه
الباس ، واصططقت التراس ، واشتد المراس ، واحتد
القتال ، واحتدم النزال ، وامتد المصاع والمصال ، واتصل خروج
الجروح للجروح ، ودام احتراق الروح على اقتراح القروح ، وامت
الجفاتي ، كأنها أعناق البخاتي ، وأتى العاتي وعتا الآتي ، وأحمد
النصر المواتي المواتي ، ودارت كؤوس المنايا للأرواح بخذي

وهاتي ، وطارت القوارير ، وثارت المساعير ، واشتعل
الذفت ، واشتغل الرهط ، والتهم الزارق والتهب الحراق ، ومرق
الشهم الكمي ، مروق السهم من الرمي ، وأتي الوادي فطم على
القرى ، ودبت الدبابة بليوث الرجال ، وصبت الصبابة غيوث
النبال ، وارتجزت رواعد الأبطال ، وأنجزت مـواعـد
الآجال ، وجالت في الضمائر ضوامر الأوجال ، وهالت بالذوازل
نوازي الأهـوال ، ورعدت بـوارق البـوار ، واسـعدت
الاقدار ، بالأقدار ، وشغلت الرقاب ، قواضي القواضب ، وحملت
الذواكب على المناكب ، وخفت للأثقال اكتاف الفتاك ، وهتكت
ستائر السـور فـوهت أشراك الأشرار ، ودام
القتال أياما ، يتضاعف اصطلاء واصطلاما ، ويتظاهر اضطرابا
واضطرابا ، وبنات الحنايا هائجة ، وأمات المنايا ناتجة ، ورجمت
بشهب الذفافات شياطين الداوية المردة ، وتعاتت الاسود
العادية ، على أولئك القرية ، حتى خرق الخندق وطرق ، وعلق
الذقاب بالسور فنقب وعلق ، وكاد النقب يتسع ، والبرج
يقع ، والجدار ينقض ، والحجار بالحجار تذفض وترفض ، وسوار
السور ينكسر ، وقناع الذقع لا ينحسر ، وخرج من البلد رجال ، الى
الموت عجال ، وقفوا دون الباشورة مباشرين ، ولمعشر أصحابنا
بمعاطاة كؤوس المذون معاشرين ، فتلاقوا بسلام السلام ، وكلام
الكلام ، وتصافحوا بالصفائح ، وتجاروا بالجرائح ، وتواصلوا
بالقواطع ، وتعانقوا بالمقامع ، وتصارعوا على المصارع ، وتجلدوا
وتجادلوا وتواقحوا وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا ، والبيض
يقد ، والبيض تقد ، والباسل يرد ، والباس يرد ، والصقيل
الصادي يصدأ بالدم ويروي ، وحزب الكفر يضعف وحزب الاسلام
يقوى ، ثم انحصروا في البلد ، وانحشروا على الدد ، وضافهم
الرعب ، وضاق بهم الرحب ، وذلوا وخاروا ، وضلوا
وحاروا ، ولما خام المقاتلة وخذلوا ، ظن أهل بيروت ان المسلمين
دخلوا ، فأجفلوا الى البحر اذ عدموا سكينتهم ، ليركبوا
سفينتهم ، ويخلوا مدينتهم ، فخرج أحد المقدمين يستدعي
الامان ، ويستعدي الايمان ، ويطلب مثالا يعصمهم ، وذماما

يحرّمهم ، وعهدا يسلمون به ويسلمهم ، وعقدا في عقد الأمن
ينظمهم ، وكنت يومئذ في مرض قد أزعجني وأعجزني ، ومضض
أجفاني ولعيون العواد ابرزني ، واندقطعت عن الحضور عند
السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الأمان ، فطلب السلطان كل
كاتب في بيواني ، وكل من يمسك قلماً من أفاضل الملك
وأعيانه ، فلم يرضه ما كتبوه ، ولم يكفه ما رتبوه فجاءني في تلك
الحالة من استملاء مني ومرضت انهان الأصحاء ولم يمرض
نهنني ، فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطي ، وكان
الناس قد اندسوا بما أسطره وأزبره ، وأنسوا سوى ما أنكره
وأحبره ، وألفوا الصحة فيه فألفوه ، ولقوا السقم في غيره
فأنفوه ، فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق ، بل كله بتوفيق من الله
توثيق ، فما فتح إلا بمفتاحه ، ولارتق فتق إلا باصلاحه ، ولاجلي
ظلام إلا باصباحه ، ولاوري زند إلا باقتداحه ، وكانت يومئذ جمره
الحر متوهجة ، ووقدة القيط متأججة ، وضررم مرضي
ملتهب ، وروح روحي منتهبا ، وبقيت مضطربا ، ولقيت من ذلك
الوصب نصيبا * وحصلت من الإقامة أو السفر على الخطر أو
الحذر ، وتعذر المقام لعذر السقام ، واشتغلت عن الآء شغلي بالآلام
وحملني اختلالي بنصبي ، على اخلالي بمنصبي ، وعزت علي
مفارقة السلطان ، وهو باعزازي على مواصلة الاحسان ، فمضيت
على مضض وانصرفت بمضرة ومرض ، وحملت الى دمشق في
محفة ، وحصلت بفضل الله من طيب هـوائها بعد
الثقل ، بخفة ، فتفضل الله بالشفاء ، وبذل الكدر بالصفاء ، وعدت
الى السلطان يوم فتح القدس ، وانتهت الودشة الى
الأنس ، وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من
جمادى الاولى مطاع الامر ، مذاع السر في تضوع الذشر * وتوضع
البشر ، مستفيض الزيادة ، ناجح الارابة ، راجح العبابة ، رابح
المتجر ، واضح المدخر ، قد شب غرب الهدى ، وجب غارب العدى
واستجدي من من الله منحا ، واستجد باستفتاحه فتحا ، واستفاد
ملكا ، واستزاد ملكا ، وبرر بيروت ان برت ، وحفلت له اخلاف

الفتوحات قدرت • واستمرى صوب من عزائمهم وصرائهم
فاستمرت .

فتح جبيل

يوم الثلاثاء سابع عشرين جمادى الاولى

ووصل كتاب الصفي ابن القابض . وهو يومئذ قد فوضت منه
دمشق الى الكافي الناهض . يتضمن ان اوك صاحب جبيل أسر اليه
في أسره . واستشاره في أمره . وقال له ان قنع مني بتسليم جبيل
سلمت وسلمت . وابحتها لكم وتحرمت . واخرجتها من عصمتي
وخرجت واعتصمت . فأنا اطلقها ان اطلقت . وأزيلها من وثاقي
اذا وثقت . فأجيب باحترازه من كيد . واحضاره في
قيده . فأحضر في صفده وسامح ببليه . فخلص ناجيا وملص
راجيا . وملك مدينة جبيل وجرت عليها الفتوح النيل . ونحن
يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون . ولاعداء الله مصابرون
مكابرون . وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل
مسلمين . مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين . فذاقوا العزة بعد
الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة . وصدقت البشائر . وصبحت
المنابر . وترنمت المحاريب . وترنحت المطاريب . وتليت
الآيات . وجلت الغيايات . وخربت الكنائس . وعمرت المدارس
وظهر غيب البيع . وشهر جمع اجمع . وقرىء القرآن . واستشاط
الشیطان . ونطقست الأعواد . وحقت الأعياد . وخرست
النواقيس . وبطلت الذواميس . ورفع المسلمون رؤوسهم وعرفوا
نفوسهم . وانتعشوا من شكاة عثارهم . وانتفشوا من شوكة
عارهم . وقروا في بيارهم . وقروا ابصاراً بأنصارهم . وكان كل
من استأمن من الكفار . يمضي الى صبور محمي الذمار . وصارت

صور عش غشهم . ووكر مكرهم . وملجأ طريدهم . ومنجأ
شريدهم . ومأمن خاشيهم . ومكمن عاشيهم . وهي التي فر
القومص اليها يوم كسرتهم . بل يوم حسرتهم .

ذكر هلاك القومص وبخول المركيس الى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها اخلاها وخلاها . وأوى
الى طرابلس وتوأتى . فما متع بما ملك . وكان مما قيل :

راح يبغى نجوة من هلاك فهاك

فما انجاه الفرار من القضاء . وفر من البلاء الى بلاده فوقع في
البلاء . وظن ان صور خلّت . وان مجانيها حلت . وان جماحها
اذعن . وان كفاحها امكن . وان فرصتها انتهزت . وان حصتها
احرزت . وان قيادها اطاع . وان مرتادها استطاع لكنها تعوضت
عن القومص بالمركيس . كما يتعوض عن الشيطان بابليس . فادرك
نماء الكفر بعدما اشفى . وايقظ روع الروع بعدما اغفى . وضبط
صور بمن فيها . من مهزموي الفرنج وبمنفييها . وكان المركيس من
اكبر طواغيت الكفر واغوى شياطينه . وأضرى سراحينه . وأخبث
ذئابه . وانجس كلابه . وأنهش صلاله . وافدش ضلاله . وأعوى
اعوانه . وأخون اخوانه . وأبغى بغاته . وأجفى جفاته . وأرعى
حماته . وأحمى رعاته . وشر شراره . وأنكر نكاره . وافجر
فجاره . وأروغ ثعالبه . وألسب عقاربه . وأخذث
معاهديه . وأنكث معاقبيه . وهو الطاغية الداهية . الذي خلقت له
ولأمثاله الهاوية . ولم يكن وصل الى بلاد الساحل قبل هذا
العام . ولا خلف مقدمي الكفر غيره في الاقدام على خلاف
الاسلام . واتفق وصوله الى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل . وعمن
فيها من المسلمين زاهل . فعزم على ارساء الشيني بالمينا . ثم

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصه الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعازل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة. ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والارض النيل والسييل . وعاد عابرا على صيدا وصرفند . وقد اورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند . وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها . ولا معتقد في تعقدها . ولا متند في تدويرها . وعلم ايضا انها ممتنعة . وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس بالساحل بلد منها أحسن . فعطف الأعنة الى ما هو منها أهون . وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية . وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بها محصور محصور . فلما أرخى من وثاقه . واتسع ضيق خناقه . حلق في مطار اوطاره . وحرك لغواته أوتار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل . وحل معاقد المعازل . وسل قواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشييدها قد لان . وقد آتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخادرة من الاصهار . وتربصوا وتصبروا . وتقرسوا وتستروا . وحاصروا وصاحوا . وحانوا ونادوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصه الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعازل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة . ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والأرض النيل والسيل . وعاد عابرا على صيدا وصرفند . وقد أوى فيهما باقتداح اقتراحه الزند . وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها . ولا معتقد في تعقدها . ولا متند في تدويرها . وعلم ايضا انها ممتنعة . وعن سومتها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس بالساحل بلد منها أحسن . فعطف الأعنة الى ما هو منها أهون . وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية . وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلىة . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بها محصور محصور . فلما أرخى من وثاقه . واتسع ضيق خناقه . حلق في مطار اوطاره . وحرك لغواته أوتار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل . وحل معاقد المعازل . وسل قواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشييدها قد لان . وقد آتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخادرة من الاصهار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصروا وصاحوا . وحاذوا ونادوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت

واستقفلوا . وتعقدوا على الفتح وماتحالفوا . واحزنوا في الالباء وما
اسهلوا . وجهدوا وجهلوا . فأقام السلطان عليها مجانيق مجت
نيقها . وفرجت بالحجار طريقها . ورجت بالتفريق
فريقها . ووسعت بالتضييق ضيقها . وأضعفت بالتوثيق
وثوقها . وجمع شمل الحجارة ب (النار التي وقودها الناس
والحجارة) (البقرة ٢٤) ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد
الشرارة . وخربت منهم العمارة . ووجبت بالجسارة منا لهم
الخرارة . وتهدمت الصخور بالصخور . ولزم عيث بـورهم
بالثبور . وجسر النقاب فحسر النقاب . وباشر الباشورة فرفع
الحجاب . واشتد القتال . واحتد المصال . وراسلهم عند ذلك الملك
المأسور . وقال قد بان عذركم حين نقب السور . وجرت
حالات . وتكررت حوالات . وترددت رسالات . وقال لهم الملك
الاسير . لا تخالفوا ما به اشير . واطيعوني ما
استطعتم . واسمعوا مني اذا سمعتم . واحفظوا رأسي فهو رأس
مالككم . وحلية حالكم . ولا تخطروا غيري ببالكم . فاني اذا
تخلصت خلصت . واذا استنفذت استنفذت . وخرج . مقدمون
وشاوروا الملك . ونهجو في التسليم نهجا سلك . وسلموا عسقلان
على خروجهم بأموالهم سالمين . واستوفوا بذلك الميثاق
واليمين . وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة . وتلالت
السعود في أوجها بالأوجه السافرة . وممن استشهد على عسقلان
من الامراء الكبراء ابراهيم بن حسين المهراني وهو اول امير افتتح
بالشهامة . واختتم بالسعاية . وكان السلطان قد أخذ في طريقه
اليها: الرملة، ويبنى، وبيت لحم، والخليل . واقام بها حتى تسلم
حصون الداوية: غزة، والنطرون، وبيت جبريل . وكان قد استصحب
معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاقلم اطلقه . فسلم
هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقته . واجتمع بالسلطان ولده
صاحب مصر الملك العزيز عثمان . على عسقلان . بشارة
وبشارة . وراية وآية . وهياة وهيبة . وثرة وثروه . وهزة وعده .
وجدة وجده . وشد وشدة . وحد وحدة . وضوغة . وروعه . ونخوه .
وسطوه . وصوت وصيت . ومصاعيب ومصاليت . ومساعير .

ومغاوير . ودهم . وذهم . وشهب وكمت وصلاب وصلاد . وانجاب
وانجاد . وجلب ولجب * وبيض ويلب . وبيض وسود واساود
وسود . وجرد . ومرد . وكهول . وفحول . ورقاق . وعقاق .
وقود . واطلاب وابطال . وفوارس . ورجال . وخفاف
وئقال . وعراب واعاريب . وسراحين وسراحيب . وحدلا يكل .
وجد لا يمل . وجمر يتقى . وجمع لا يلتقي . ومعه رماة الاحداق
كمأة الاتراك . وهداة التوحيد عادة الاشراك . فقررت عينه
بولده . واعتضد بعضده . ووضع يده بتأييد الله . في يده . وكان قد
استدعى الاساطيل المنصورة فواقت كالفتخ الكواسر . بالفلك
المواخر . وجاءت كأنها امواج تلاطم امواج . وافواجا تزامم
افواجا . تدب على البحر عقاربها . وتخب كقطع الليل
سحائبها . وتجر بالذوابل ذوائبها . وتزامم مناكب الاطواد
مناكبها . والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدمها * وضرغام غابها
وهمامها * فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب . ويقطع الطريق
على سدف العدو ومراكبه . ويقف له في جزائر البحر على
مذاهبه . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه . ويظهر في وقائعه حسن
موقعه .

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا . وبالعزم غالبا . والنصر
مصاحبا ولنيل العز ساحبا . قد اصحب ريش مناه . واخصب
روض غناه . واصبح رائج الرجاء . أرج الأرجاء سيب العرف .
طيب العرف . ظاهر اليد . قاهر الايد . سني عسكره قد فاض
بالفضاء فضاء . وملا الملا فافاض الآلاء . وقد بسط عتير فيلقه
ملائته على الفلق . وكأئما اعاد العجاج وأد الضحى جنح
الغسق . فالأرض شاكية من اجحاف الجحافل * والسماء حاذية
بأقساط القساطل * وسار سارا بالاحوال الحوالي . مروية

احاديث فتوحه العوالي من العوالي . مطوية مدارج مناجحة على
ماتشره الآمال من الامالي . وقد حلت وعلت من مفارس النصر
ومطالعة المجاني والمجالي . والاسلام يضطرب من القدس
عروسا . ويبذلها في المهر نفوسا ويحمل اليها نعي ليحمل عنها
بوسي . ويهدي بشرا .

ليذهب عبوسا . ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعنية
لاعدائها على اعدائها . واجابة دعائها . وتلبية ندائها . واطلاع
زهر المصاييح في سمائها . واعادة الايمان الفريب منها الى
وطنه . ورده الى سكونه وسكنه . واقصاء النين اقصاصهم الله
يلعنته من الاقصى . وجذب قياد فتحه الذي استعصى . واسكات
الناقوس منه بانطلاق الاذان . وكف كفا الكفر عنه بايمان
الايمان . وتطهيره من نجاس تلك الاجناس . واناس اننى
الناس . وافحام الافهام باخراس الاجراس . وطار الخبر الى
القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت . وخففت افئدتهم خوفا
من جيش الاسلام وجاشت . وتمنت الفرنج لما شاعت الاخبار انها
ما عاشت . وكان به من مقدمي الافرنج باليان بن بارزان والبطرك
الاعظم . ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم . فاشتغل
بال باليان . واشتغل بالنيران . وخدمت نار بطر البطرك . وضاعت
بالقوم منازلهم فكان كل دار منها شرك للمشرك . وقاموا بالتدبير في
مقام الادبار . وتقسمت افكار الكفار . وايس الفرنج من
الفرج . واجمعوا على بذل المهج .

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس . ونسبك النفوس . ونسفك
الدماء . ونهلك الدهماء . ونصبر على اقتراح القروح واجتراح
الجروح . ونسمح بالارواح شحا بمحل الروح . فهذه قمامتنا فيها
مقامتنا * ومنها قيامتنا * وتصيح همامتنا * وتصيح

ندامتنا . وتسبح علامتنا . وتسبح عماقتنا . وبها غرامنا . وعليها
غرامتنا . وبأكرامها كرامتنا . وبسلامتها سلامتنا . وباستقامتها
استقامتنا . وفي استدامتها استدامتنا . وإن تخلينا عنها لزمنا
لامتنا . ووجب ملامتنا . ففيها المصلب والمطلب . والمذبح
والمقرب . والمجمع والمعبد . والمهبط والمصعد . والمرقي
والمرقب . والمشب والمصب . والممويه والمذهب . والمطلع
والمقطع . والمربى والمربع . والمرخم والمخرم . والمحال
والمحرم . والصور والاشكال . والانظار والامثال . والآساد
والاشبال . والاشباه والاشباح . والاعمدة والالواح . والاجسام
والارواح . وفيها صور الحواريين في حوارهم . والاحبار في
احبارهم . والرهبايين في صوامعهم . والاقساء في
مجامعهم . والسحرة وحبالها . والكهنة وخیالها . ومثال السيدة
والسيد . والهيكل والمولد . والمائدة والحوت . والمنعوت
والمندوت . والتلميذ والمعلم . والمهد والصبي المتكلم . وصورة
الكبش والحمار . والجنة والنار . والنواقيس . والنواميس . قالوا:
وفيها صلب المسيح . وقرب الذبيح . وتجسد اللاهوت . وتآله
الناسوت . واستقام التركيب . وقام الصليب . ونزل النور . وزال
الليجور . وازدوجت الطبيعة بالاقنوم . وامتزج الوجود
بالمعدوم . وعمدت معمودية المعبود . ومخضت البتول
بالمولود . وأضافوا الى متعبدتهم من هذه الضلالات . ما ضلوا فيه
بالشبه عن نهج الدلالات . وقالوا دون مقبرة ربنا نموت . وعلى
خوف فوتها منا نفوت . وعننا ندافع . وعليها نقاتل . وما لنا لا
نقاتل . وكيف لاننازع ولا ننازل . ولاي معنى نتركهم حتى يأخذوا .
وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا . وتأهبوا
وتباهوا . وما انتهوا بل قناهوا . ونصبوا المجانيق امام الاسواء
على الاسوار . وسبوا بسفاهات السفاهات وجوه
الانوار . واستشاطت شياطينهم . وسرحت سراحينهم وطففت
طواغيتهم . وأصلت مصاليتهم . ونشرت طواميرهم . وتسعرت
مسايرهم . وهاج هائجهم . وماج مائجهم . ودعت
دواعيهم . وعدت عواينهم . وسعت افاعيهم . وحضت

قوسوسهم . وحرضتهم رؤوسهم . وحركتهم نفوسهم . وجاءتهم
بجوى السوء جواسيسهم . واخبرتهم باقبال العساكر الناصرية
منصورة الجنود . منذورة البذود . موصولة القواطع بالاشاجع
مهجورة الغمود . مشهورة القواضب . مشهورة الكتائب . مقبولة
الضوامر الى نار العدى . موقدة الضمائر بنار الهدى . مشدوبة
العزائم . مجذونة الصلادم . مسلولة الطلبا . مطلولة
الربا . مجذوبة أجنة اغمادها . مسذونة اسنة صعادها . مطاوعة
اعنة جيادها . محقة مظنة طرادها . قد سالت الوهاد
باكامها . وجالت الاعلام في اعلامها . وسدت الفجاج
امواجها . وحجبت الغزالة عقبانها . والهبت الذبالة
خرصانها . وجرت بالجبال رياحها . وجرت كالجبال رماحها
واشتمل على الضراغم غيلها . واقبل بالعظائم قبيلها . ووافى كل
واف بعهد ربه . كاف لكف خطبه . شاف لهم قلبه . ضاف بفيض
شربه . خاف في لبوسه . باسل بيباسه . عاسل بأمراسه . ناسل
بنت الغمد من جفنه . غاسل نبت الحد بدم قرنه . واصل بيض الهند
بسواعه . فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعه حاد بجهه . جاد
بجده . وكل شاب لنار الحرب شاب . ورب بين لبين الرب
راب . وكل جيش كالبحر عباب . وكل سال ذي نباب عن الهدى
ذاب . وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال . سائل من الله الشهادة
عن حب البقاء سال . مائل في سبيل الله الى انفاق مال . واقبل
السلطان باقبال سلطانه . وابطل شجعانه . واقيال أولاده
واخوانه . واشبال مماليكه وغلمانه . وكرام امرائه . وعظام
أوليائه . في مقانب بالمناقب مقنبيه . وكتائب بالموالك
مكتبة . وذوابل بالكواكب منصله . وجحافل بمضاء المضارب
محفله . وألوية صفير للأواء بني الأصفر . وبيض وسمر تزررق
العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل . وقنا وقنابل . وصوافن
صواهل . وعوامل وعواسل . وفوارس فوارس . وكل من يبذل
للشع بينه النفوس والنقائس . وأصبح يسأل عن الاقصى وطريقه
الادنى . وفريقه الاسنى . يذكر مايفتح الله عليه بحسن فتحه من
الحسنى .

وصف البيت المقدس

وقال ان اسعدنا من الله على اخراج اعدائه من بيته المقدس فما اسعدنا . وأي يد له عندنا اذا ايننا . فانه مكث في يد الكفر احدي وتسعين سنة . لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه . ودامت همم الملوك دونه متوسنة . وخلت القرون عنه متخلية . وحلت الفرنج به متولية . فما ابخر الله فضيلة فتحه . الا لآل ايوب . ليجمع لهم بالقبول القلوب . وخص به عصر الامام الناصر لدين الله ليفضله به على الاعصار . ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار . وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الاقوى . والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى . وهو مقام الانبياء . وموقف الاولياء . ومعبد الاتقياء ومزار ابدال الأرض وملائكة السماء . ومنه المحشر والمذشر . ويتوافد اليه من اولياء الله بعد المعشر . وفيه الصخرة التي صينت جنة ابهاجها من الانهاج . ومنها منهاج المعراج . ولها القبة السماء التي على رأسها كالتاج . وفيه مضى البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق . ومن ابوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الخلود . وفيه كرسي سليمان ومحراب داود . وله عين سلوان التي تمثل لوازيها من الكوثر الحوض المورد . وهو اول القبلتين . وثاني البيتين . وثالث الحرمين . وهو احد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد اليها الرحال . ويعقد الرجاء بها الرجال . ولعل الله يعيده بنا الى احسن صوره . كما شرفه بذكره مع اشرف خلقه في أول سورة . وقال عز من قائل : « سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى » . وله فضائل ومناقب لا تحصى . واليه ومنه كان الاسراء . ولأرضه فتحت السماء . وعنه تؤثر انباء الانبياء وآلاء الاولياء . ومشاهد الشهداء . وكرامات الكرماء . وعلامات العلماء . وفيه مبارك المبار . ومسارح المسار . وصخرته الطولى . القبلة الاولى . ومنها

تعالت القدم النبوية . وتوالت البركة العلوية . وعندهما صلى نبينا
صلى الله عليه وسلم بالذبييين . وصحب الروح الامين . وصعد منها
الى اعلى عليين . وفيه محراب مريم عليها السلام الذي قال الله
فيه : « كلما دخل عليها زكريا . ونهاره التعبد واليله
المحيا . وهو الذي اسسه داود واوحى ببنائه سليمان . ولاجل
اجلاله انزل الله « سبحان » . وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به
سورة من الفرقان . فما اجله واعظمه . واشرفه وافخمه . واعلاه
واجلاه . واسماه واسناه . وايمن بركاته وابرك ميامنه . واحسن
حالاته واحلى محاسنه . وازين مباهجه وابهج مزايينه . وقد اظهر
الله طوله وطوله . بقوله : « الذي باركنا حوله » . وكم فيه من الآيات
التي اراها الله نبيه . وجعل مسموعنا من فضائله مرئية . ووصف
السلطان من خصائصه ومزاياه . ما وثق على استعانة الآله
مواثيقه والاياه . واقسم لا يبرح حتى يبر قسمه . ويرفع بأعلاه
علمه . وتخطو الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه . ويصغي الى
صرخة الصخرة . ويبغي بالبشرى بشر اسرة الاسرة . وسار واثقا
بكمال النصره وزوال العسرة . وحسر الفرنج قناع العسرة . ونزل
على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب . وقلب الكفر قد
وجب . وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب . والقدر قد
اظهر العجب . وكان في القدس حينئذ من الفرنج سـتـون الف
مقاتل . من سائف ونابل . وبطل للباطل . وعاس عاسل
بالعاسل . قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون . ويعاجزون
ويناجزون . ويرمون ويدمون . ويحمونه ويحمون . ويحتدون
ويحتدمون ويضطربون ويضطرمون . ويذودون ويذبون . ويشببون
ويسبون . ويصرخون ويحرضون . ويلهثون ويتغوثن . ويلوذون
ويلوبون . ويجولون ويجوبون . ويقدمون ويحجمون . ويتململون
ويألمون . ويتعاونون . ويتضاعفون ويحترقون بالبلايا . ويقترحون
المنايا . وقاتلوا اشد قتال . وناضلوا أحد نضال . ونازلوا اجد
نزال . وطافوا بصحاف الصفا . لارواء الظبا الظماء من ماء
الارواح . وجالوا بالأوجال . واجالوا قداح الأجال . وصالوا لقطع

الأوصال . والتهموا . والتهبوا . وتأشبهوا ونشبهوا . واستهدفوا
للسهام . واستوقفوا الحمام . وقالوا كل واحد منا بعشرين . وكل
عشرين بمئتين . ودون القمامة تقوم القيامة . ولحب سلامتها تقل
السلامة . ودامت الحرب . واستمر الطعن والضرب . فانتقل
السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالي وخيم
هناك . وضيق على الفرنج المسالك . ووسع عليهم المهالك ونصب
المجانيق . ومري من أفاتها الافاويق . واصرخ الصخرة
بالصخور . وحشر حشر السوء منهم وراء السور . فما عادوا
يخرجون من السور الرؤوس . الا ويلقون البوس . واليوم
العبوس . ويلقون على الردى الذفوس . فلداوية دوي . ولبارونية
من البوار في الهاوية هوى . وللاسبتار تبار . وما للفريرية من
الموت فرار . وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى اليهم
حجاب . وفي كل قلب من الفتتين من نار حرصه التهاب . اذ الوجوه
لقبل النصال مكشوفة . والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة . والايدي
على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة . والذفوس لاستبطاء الهمم
في الاهتمام مهمومة . وقواعد السور ونواجز شراريفه بالاحجار
الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة . فكائن المجانيق مجانين
يرامون . ومناجيد لا يرامون . وجبال تجذبها حبال . ورجال
تنجدها رجال . وأمات الدواهي والمنايا . وحوامل تلد البلايا . لا
حجر عليها في حجر . ولا أمن عندها من حذر . ولا تخطر سهامها
الا بالخطر . ولا خطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر . فكمن نجم
من سمائها ينقض . وصخر من أرضها يرفض . وجمر من شرارها
ينفض . وما شيء كآفات كفاتها . وآيات نكاياتها . وركات
ادراكاتها . ولفات فلتاتها وجذبات عذباتها . فما زالت تقلع
بمقالعها . وتقرع بمقارعها وتمتج بأشطانها . وتمرح في
ارسانها . وتصدم . وتهدم . وتصرع . وتصعد . وتنهز
بدلائها . وتجهز ببلائها . وتحل تركيب الجلاميد بأفراد
جلاميدها . وتفل شمل المباني بتفريقها وتبييدها وتقوض القواعد
بضربها من اساه . وتدنقض المعاهد بجذبها في أمراسها . وتشفه

الموارد بشرها من كأسها . حتى تركت السور سورا . وجعلت
الذاب عنه محسورا . وعاد العدو من نظمه المبتور مبتورا . وخرق
الخندق وحفر الزحف . وظهر للاسلام الفتحة والكفر الحذف . واخذ
النقب . وسهل الصعب . وبذل المجهود . وحصل المقصود . وكمل
المراد . وكلم المراد . وثغر الثغر . وأمر الأمر . وأربى
الأرب . واستتب السبب وخاف القوم الوقم . واستعاضوا من
الصحة السقم . واسلم البلد وقطع زنا خندقه . وبرز ابن بارزان
ليأمن من السلطان بموثقه . وطلب الامان لقومه . وتمنع السلطان
وتسامى في سومه . وقال لا أمن لكم ولا أمان . وما هو الا أن نديم
لكم الهوان . وغدا نملككم قسرا . ونوسعكم قتلا . ونسفك من
الرجال الدماء . ونسلط على الذرية والنساء السباء . وابى في
تأمينهم الا الالباء . فتعرضوا للتضرع . وتخوفوا وخوفوا عاقبة
التسرع وقالوا اذا آيسنا من أمانكم . وخفنا من سلطانكم . وخبنا
من احسانكم . وأيقنا ان لا نجاة ولا نجاح . ولا صلح ولا
صلاح . ولا سلم ولا سلامة . ولا نعمة ولا كرامة . فانا نستقتل
فنقاتل قتال الدم . ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم اقدام المستشري
بالشر . ونقتحم اقتحام المستشري من الضر . ونلقي انفسنا على
النار . ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة والعار . ولا يجرح واحد منا
حتى يجرح عشرة . ولا تضمننا يد الفتك حتى ترى ايدينا بالفتك
منتشرة . وانا نحرق الدروب ونخرب القبة . ونترك عليكم في سبينا
السبه . ونقلع الصخرة . ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل من
عندنا من اسارى المسلمين وهم الوف . وقد عرف ان كلامنا من
الذل عزوف وللعز الوف . واما الاموال فإنا نعطيها ولا
نعطيها . واما الذراري فانا نسارع الى اعدامها ولا
نستبطيها . فأية فائدة لكم في هذا الشح وكل خسر لكم في هذا
الربح . ورب خيبة جاءت من رجاء النجح . ولا يصلح السوء سوى
الصلح . ورب مدلج اضله ظلام الليل قبل اسفار الصبح . فعقد
السلطان محضرا للمشورة . وأحضر كبراء عساكره
المنصورة . وشاورهم في الأمر . وحاورهم في السر

والجهر . واستطلع خبايا ضمائرهم . واستكشف خفايا
سرائرهم . واستورى زندهم . واستعلم ما عندهم . وراوضهم
على المصلحة المترجحة . وفاوضهم في المصلحة المربحة . وقال ان
الفرصة قد امكنت فنحرص في انتهازها . وأن الحصنة قد حصلت
ونستخير الله في احرازها . وأن فاتت لاتستدرك . وان افلتت لا
تملك . فقالوا قد خصك الله بالسعاية . واخلصك لهذه
العبادة . ورأيك حاشد . وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع
الشريف مناشد . واستقر بعد مراديات ومعاودات . ومفاوضات
وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات . على قطيعة تكمل بها
الغبطة . وتحصل منها الحوطة اشترى بها منا انفسهم وأموالهم
وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم . على انه من اعجز بعد
اربعين يوما عما لزمه . أو امتنع منه وما سلمه . ضرب عليه
الرق . وثبت في تملكه لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة ننانير
وكل امرأة خمسة وكل صغير أو صغيرة نيناران . وبخل ابن
بارزان والبطرك ومقدا الداوية والاسبتار في الضمان . وبذل ابن
بارزان ثلاثين الف دينار عن الفقراء . وقام ابالاداء ولم يذكل عن
الوفاء . فمن سلم خرج من بيته آمنا . ولم يعد اليه
ساكنا . وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على
هذه القطيعة . وردوه بالرغم رد القصب لا الوديعة . وكان فيه أكثر
من مائة الف انسان . من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم
الابواب . ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم الذواب . ووكل بكل
باب أمير . ومقدم كبير . يحصر الخارجين ويحصى الوالجين فمن
استخرج منه خرج . ومن لم يقدم بما عليه قعد في الحبس وعدم
الفرج . ولو حفظ هذا المال حق حفظه . لفاز منه بيت المال بأوفر
حظه . لكنما تم التفريط . وعم التخليط . فكل من رشا مشى .
وتنكب الامناء نهج الرشد بالرشا . فمنهم من ادلى من السور
بالحيال . ومنهم من حمل مخفيا في الرحال . ومنهم من غيرت
لبسته فخر بزي الجند . ومنهم من وقعت فيه شفاعاة مطاعة لم
تقابل بالرد . وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة . في عبادة

الصليب متصلبة . وعلى مصابها به متلهية . وفي التمسك بملتها
متعصبة . انفاسها متصاعدة للحن . وعبراتها منحدره تحدر
القطرات من المزن ولها حال ومال واشياء واشياع ومتاع
واتباع . فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج . وانن في
اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج . فراحت فرحى . وان كانت
من شجنها قرحى . وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك
اماري . مقيمة في جوار القدس . مع مالها من الخدم والخول
والجواري . فخلصت هي بمن معها ومن تبعها . ومن ادعى انه
ممن صاحبها وشيعها . وكذلك الابرنساسة ابنة فليب ام هنفري
اعفيت من الوزن . وتوفر مالها عليها في الخزن . واستطلق صاحب
البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده . وان الواصل منهم
الى القدس لأجل متعبده . وطلب مظفر الدين بن علي كوجك زهاء
الف ارمني ادعى انهم من الرها . فأجراه السلطان من اطلاقهم له
على ما اشتهى . وكان السلطان قد رتب عدة دواوين . في كل ديوان
منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين . فمن اخذ
من أحد الدواوين خطأ بالأداء انطلق مع الطلقاء . بعد عرض خطه
على من بالباب من الامناء والوكلاء . فذكر لي من لا أشك في
مقاله . انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله . فربما كتبوا
خطا لمن نقده في كيسهم . ويلبس امر تلبيسهم . فكانوا شركاء بيت
المال لا امناء . وخازنوه على ما حصل لكل من الغنى والذفق وبقي من
بقي تحت رق واسار . ينتظر به انقضاء المدة المضروبة . والعجز
عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة .

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه
المعراج . وتم بما وضع من منهاج النصر الابتهاج . وزاد من
الالسة بالدعاء والابتهاج الالتهاج . وجلس السلطان للهناء . للقاء
الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيئة

التواضع وهيبة الوقار . بين الفقهاء واهل العلم جلسائه
الأبرار . ووجهه بذور البشر سافر . وأمله بعز النجح ظافر . وبابه
مفتوح ورفده ممزوح . وحجابه مرفوع وخطابه مسموع . ونشاطه
مقبل . ومحياه يلوح . ورياه يفوح . ومحبتة ترزق ومهابته
تروع . وأفاقه تضيء ، وأخلاقه تضوع . ويده لفيض امواء
السخاء . وفض أفواه العطاء . ظاهرها قبلة القبل . وباطنها كهبة
الامل . قد حلت له حالة الظفر . وكأن دسسته به هالة
القمير . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون . والشعراء وقوف
ينشدون وينشدون . والاعلام تبرز لتنشر . والاقلام تزبر
لتبشر . والعيون من فرط المسرة تدمع . والقلوب للفرح بالنصرة
تخشع . والاسنة بالابتهاال باله تضرع . والكاتب يذشي ويوشي
ويوشع . والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع . فما شبهت قلبي
الا بشائر أري البشائر . ولا وجهت قلبي الا لطائف وحي
اللطائف . وما ارسلت يراعي الا ليراعي الرسائل . ويشيع
الفواضل . ويشيع القول . ويسبغ الطول ويطول بالحجة وان كان
في حجه قصر . ويصول بالهجة وان كان في هججه حصر . ويسمن
الملك به وهو نحيف . ويثقل الجيش به وهو خفيف . ويبدي بياض
الفرقة من سواد . ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة . ويجري
بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق . والخلف والوفاق . والارفاق
والاعناق . والعدة والانجاز . والجنة والاعواز والفتق
والرتق . والرقع والخرق . وهو الذي يجمع الجيوش . ويرفع
العروش . ويوحش المستأنس المستوحش . وينعش العاثر ويعثر
المتنعش . يجري بالاعداء على الاعداء وبالايلاء للاولياء . فبشرت
باقلامي اقاليم البشر ، وعبرت باعاجيبي عن عجائب العبر وملأت
البروج بالدراري والدروج بالدرر . ورويت تلك البشر حتى اطابت
ريا الري وسمر سمر قند . واطربت وحلت حتى فاقت القنيد
والقند . وعلقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت . وشرحت
فضيلتها وبينت . وابيت فريضة زيارتها وتعينت .

ذكر حالي في العود الى الخدمة

وكننت قد انقطعت من الصحبة لما عرض لي في المرض من الذوبة
فأقمت بدمشق اداوي مزاجي واداري منهاجي واعالج تدييري وادبر
علاجي الى ان وصل الخبر بان السلطان نزل على القدس فوجدت
خفة في النفس وأندست بابلالي بعض الانس وامنت لو ذوقي بالصحة
والاستقامة من الذكس ، فواجهت الى تلك الجهة وسرت بطاعة
النفس المتنزهة ، وعصيان الطبيعة المذكرة واخترت تعب السفر
على راحة الإقامة ورأيت في ركوب طريق العطب وجه السلامة
ووصلت بكرة السبت ثاني يوم الفتح بالسعد واليمن والنجاح
فوصلني السلطان عند وصولي باجلى بشاشة واحلى هشاشة
وسرى عنه سر وبر وقال: اين كنت. ولم ابطأت. وحيث اصببت في
المجىء فما اخطأت وقد كنا في انتظارك. والسؤال عن اخبارك. وهذا
اوان احسانك. فايين احسان اوانك. فاجر بنانك بجرأة بياذك. واجر في
ميدانك. وما للبشائر الا واصفها. والفرائد الا راصفها . وللقصاحة
الا قسها . وللحصافة الا قيسها .

وكان قد جمع امس كتاب دواوينه على اذشاء كتب ما ارتضاها .
واقترضاب معان وما اقتضاها ، وكانوا سألوه في كتاب الديوان
العزیز. فقال لهذا من هو اقروم به وعناني. فلما راني ناداني
واستلناني . فصرفت الى امتثال امره عناني . وسلم إلى الكتب
التي كتبوها . بالالفاظ التي رتبوها . وقال :
غيرها . ولا تسيرها . وغرضه اني اعدل معوجها . وابدل مثبجها .
واقترح المعنى البكر للفتح البكر . واوشح ذكر اياته بايات الذكر .
فاستجديتها فمما استجديتها . واستجديتها فمما
استملحتها . وشمممتها وبها سهك . وكشفتها وسترها هتك . وكانوا
قد تعاونا عليها وفيها لهم شرك . فشرعت في افتضاض الابكار .
واقترضاء الافكار . واقتراح القريحة . واقترءاء رحاب الكلم

الفصيحة . وافتتحت في بشرى الفتح . وكتاب الديوان العزيز
واوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز . ووشحت ووشعت وشعبت
واشبعث . واطلت واطنبت . وصبت واصبت . واعجزت واعجبت .
واطريت واطربت . وابدعت وابدعت وصرعت وصرعت . وطابقت
وجانست . ووافقت واندست وبيئت فضل عصر الامام الناصر على
الاعصار السابقة بالابصار الصادقة . وان هذا الفتح اخبره الله
لزمانه ومكن منه لكانه . وسلط عليه بسلطانه . وحسنه لنا
ياحسنه . فقد عبرت القرون الماضية على حسرته . وظفر وهو
واشياعه بمسرته . وما حصل لنا الا ببركة ايامه وحركة اعتزامه .
وذكرت من هذا كل مارق وشاق . ونور الافاق . وان هذه الفتوح
تفوح بارح نشره . وتحيا بركة . فما ايمن ايامنا بايامه .
وما اسعد اماننا بانعامه . وكتبت الى كل ذي طرف بمعنى طريف .
ولفظ فصيح حصيف . وسهرت تلك الليالي حتى نظمت اللآلي .
وحليت المعالي . وقدرت المعادي . وفرحت الموالي . وسارت
شواردي الى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر
المذهب . وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلوت :
(شرع لكم من الدين ما وصى) (الشورى ٤٢) وهنأت الحجر
الاسود بالصخرة البيضاء . ومنزل الوحي بمحل الاسراء . ومقر
سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء . ومقام ابراهيم
بموضع قدم محمد المصطفى صلى الله عليه وعليهم اجمعين . وادام
اهل الاسلام بشرف بيتيه مستمتعين . وتسامع الناس بهذا النصر
الكريم . والفتح العظيم فوفدوا لزيارته من كل فج عميق . وسلكوا
اليه في كل طريق . واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق .
وتنزهوا من ازهار كراماته في الروض الانيق .

ذكر ماجرى عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الافرنج في بيع الامتعة واستخراج ذخائرهم المودعة .
وباعوا بالمجان في سوق الهوان . وتقاعد الناس بهم فابتاعوها

بارخص الاثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مايساوى اكثر من عشرة . وجدوا في ضم ما وجدوا من امور لهم منتشرة . وكذبوا كنادسهم . واخذوا من نفائسهم . ونقلوا منها الذهبيات والفضيات . من الاواني والقناديل والحريريات والمذهبات . من السطور والمناديل . ونقضوا من الكنادس الكنائس . واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصدوعات اللجين . وجمع ما كان في قمامة من الجذسين والنسجين . فقلت للسسلطان بهذه اموال وافره . واحوال ظاهرة . تبلغ مائتي الف دينار . والامان على اموالهم لاموال الكنادس والاديار . فلا تتركها في ايدي هؤلاء القجار . فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولانتركهم يرمون اهل الايمان بذكث الايمان بل يتحدثون بما افضناه من الاحسان . فتركوا ما ثقل وحملوا ما عز . وخف ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم الي صور . وكذبوا بالديجور . وبقي منهم زهاء خمسة عشر الفا امتنعوا من مشروع الحق فاختصوا بمشروط الرق . فاما الرجال وكانوا في تقدير سبعة آلاف فانهم افوا ذلا لم يكونوا به بالاف . فاقدستهم ايدي السبي ايدي سبا . وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهاد والربا . واحصيت النساء والصبيان ثمانية الاف نسمة . عادت بيننا مقتسمة * واصبحت ببيكاتها وجوه الدولة مبتسمة . فكم محجوبة هتكت . ومالكة ملكت . وعزباء ذكحت . وعزيزة منحت . وبخيلة تسمحت . وخيبة توقحت . ومجدة مزجت . ومصونة ابتذلت . وفارغة شغلت * وعقيلة امتهنت . وجميلة امتحت . وعذراء افتدعت . وشماء فرعت . ولياه رشفت . وظمياء فرشت . وريضة اصحبت . ورضية اصبحت . فكم تسرى منهن سري . وتجرا عليهن جري . وقضى وطره عزب . ونفى نهمه سغب * وفأسورته شغب . وكم غانية استخلصت . وغالية استرخصت . ووالية اعتزلت . وعالية استنزلت . ووحشية صيدت . وعرشية قيدت . ولما تقدس القدس من رجس الفرنج اهل الرجز .

- ٥٨٧٠ -

وخلع لباس الذل ولبس خلع العز . ابى النصارى بعد اداء القسطية ان يخرجوا . وتضرعوا في ان يسكنوا ولايزعجوا . وبذلوا خدما وخدموا ببذل . وقابلوا كل مالزموا به بالتزام وقبول . واعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وشحت افواههم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون . وبخلوا في الذمة . وخرجوا الى العصمه . وشغلوا بالخدمه . واستعملوا في المهنة . وعدوا المنحة في تلك المحنة .

ذكر ماظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس امر باظهار المحراب . وحتم به امر الايجاب . وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا . وقيل كانوا اتخذه مستراحا عدوانا وبغيا . وكانوا قد بنوا من غربي القبلة دارا وسبعة . وكنيسته رفيعة . فاوعز برفع ذلك الحجاب . وكشف النقاب . عن عروس المحراب . وهدم ماقدامه من الابنية . وتنظيف ماحوله من الافنية . بحيث يجتمع الناس في الجمعة . في العرصة المتسعة . ونصب المنبر واطهر المحراب المطهر . ونقض ماحدثوه بين السواري . وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري . وعلقت القناديل . وتلى التنزيل . وحق الحق وبطلت الابطاطيل . وتولى الفرقان وعزل الانجيل . وصفت السجادات . وصفت العبادات . واقيمت الصلوات . واديمت الدعوات . وتجلت البركات . وانجلت الكربات . وانجابت الغيابات . وانتابت الهدايات . وتليت الايات . واعليت الرايات . ونطق الاذان وخرس الناقوس . وحضر المؤذنون وغاب القسوس . وزال العبوس والبوس . وطابت الانفاس والنفوس . واقبلت السعود وادبرت النحوس . وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه . وطلب الفضل من معدنه . وورد القراء وقرىء

الاوراد . واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاولاد . وعبد الواحد .
ووجد العابد . وتوافد الراكع والساجد . والخاشع والواجد .
والزاهي والزاهد . والحاكم والشاهد . والجاهد والمجاهد . والقائم
والقاعد * والمتعهد الساهد . والزائر والوافد . وصدق المنبر *
وصدع المذكر . وانبعث المعشر . وذكر البعث والمحشر . واملى
الحفاظ . واسلى الوعاظ . وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء . وتحدث
الرواة . وروى المحدثون . وتحذف الهداة وهدى المتحذفون .
واخلص الداعوان ودعا المخلصون . واخذ بالعزيمة المترخصون .
ولخص المفسرون * وفسر المخلصون . وانتدى الفضلاء وانتدب
الخطباء . وكثر المترشدون للخطابة . المتوشحون بالاصابة .
المعروفون بالفصاحة * الموصوفون بالحصافة فما فيهم الا من خطب
الرتبة * ورتب الخطبة . وانشأ معني شائفا . ووشى لفظا رائفا .
وسوى كلاما بالموضع لائفا . وروى مبتكرا من البلاغة فائفا .
وفيهم من عرض علي خطبته . وطلب مني نصيبته * وتمنى ان ترجع
فضيلته . وتنجح وسيلته . وتسبق منيته فيها امنيته . وكلهم طال
الى الانتهاء بها عذقه . وسال من الالتهاب عليها عرقه . وما منهم الا
من يتأهب ويترقب . ويتوسل ويتقرب . وفيهم من يتعريض
ويتضرع . ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه .
وضرب في اخماسه اسداسه . ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان
لايعين . ولايبين . ولايخص . ولاينص . ومنهم من يقول ليتني
خطبت في الجمعة الاولى . فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان .
اصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان * وامتلا
الجامع * واحتفلت الجامع * وتوجست الابصار والمسامع *
وفاضت لركة القلوب المدامع * وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك
البهجة الروائع * وشاعت من سر السرور بلبس حبر الحبور
الشوائع * وغصت بالسابقين اليها المواضع * وتوسعت العيون *
وتقسمت الظنون * وقال الناس: هذا يوم كريم * وفضل عميم *
وموسم عظيم * هذا يوم تجاب فيه الدعوات * وتصاب البركات *
وتسال العبرات * وتقال العثرات * ويتيقظ الغافلون * ويتعظ
العاملون * وطوبى لمن عاش * حتى حضر هذا اليوم الذي فيه

انتعش الاسلام وارتاش • وما فضل هذه الطائفة الحاضرة •
والعصبة الطاهرة • والامة الظاهرة • وما اكرم هذه النصرة
الناصرية • والاسرة الامامية • والدعوة العباسية • والمملكة
الايوبية • والدولة الصلاحية • وهل في بلاد الاسلام اشرف من هذه
الجماعة • التي شرفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة • وتكلموا
فيمن يخطب • ولن يكون المنصب • وتفاوضوا في التفويض •
وتحدثوا بالتصريح والتعريض • والاعلام تعالى • والمنبر يكسى
ويجلى • والاصوات ترتفع • والجماعات تجتمع • والافواج
تزدحم • والامواج تلتطم • والعارفين من الضجيج • ما في عرفات
للحجيج • حتى حان الزوال • وزال الاعتدال • وحيعل
الداعي (١) • واعجل الساعي • فنصب السلطان الخطيب
بنصه • وابان عن اختياره بعد فحصه • واوعز الى القاضي محيي
الدين ابي المعالي محمد بن زكي الدين على القرشي بان يرقى ذلك
المرقى • وترك جباه الباقيين بتقديمه عرقى • فأعرتة من عندي اهبة
سوداء من تشريف الخلافة • حتى تكتمل له شرف الافاضة
والاضافة • فرقى العود • ولقى السعود • واهتزت اعطاف المنبر •
واعتزت اطراف المعشر • وخطب وانصتوا • ونطق وسكتوا • وافصح
واعرب • وابدع واغرب • وابدع واغرب • واعجز واعجب •
واوجز واسهب • ووعز في خطيبته • وخطب بموعظتيه • وابان عن
فضل البيت المقدس وتقديسه • والمسجد الاقصى من اول تأسيسه •
وطهيره بعد تنجيسه • واخراس ناقوسه واخراج قسيسه • ودعا
ال خليفة والسلطان • وختم بقوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل
والاحسان » (النحل ٩٠) ونزل وصلى في المحراب • وافتتح ببسم
الله من أم الكتاب • فائتم بذلك الامة • وثم نزول الرحمة • وكمل
وصول النعمة • ولما قضيت الصلاة انتشر الناس • واشهر
الايناس • وانعقد الاجتماع واطرد القياس • وكان قد نصب للوعظ
تجاه القبلة سرير • ليفرعه كبير • فجلس عليه زين الدين ابو الحسن
علي بن نجا • فذكر من خاف ومن رجا • ومن سعد ومن شقي • ومن
هلك ومن نجا • وخوف بالحجة ذوي الحجا • وجلا بذور عظاته من
ظلمات الشبهات مادجا • واتي بكل عظه للراقيين موقظة • وللظالمين

- ٥٨٧٣ -

محفظة . ولا ولياء الله مرققة ولا عداء الله مغلظة . وضج المتبساكون .
وعج المتشاكون . ورققت القلوب . وخفت الكروب . وتصاعدت
الذعرات . وتحدرت العبرات . وقاب المذنبون . واناب المتحويون .
وصاح التوابون . وناح الاوابون . وجرت حالات جلت . وجلوات
حلت . ودعوات علت . وضراعات قبلت . وفرص من الولاية الالهية
انتهزت . وحصص من العناية الربانية احرزت . وصلى السلطان في
قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصله . والامة الى
الله بدوام نصره مبتهلة . والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبلة .
والايدي الى الله مرفوعة . والدعوات له مسموعة . ثم رتب في المسجد
الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصيبته .

وصف الصخرة المعظمة عمرها الله

واما الصخرة فقد كان الفرنج قد بذوا عليها كنيسة ومذبحا . ولم
يتركوا فيها للايدي المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا . وقد
زينوها بالصور والتماثيل . وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط
الانجيل . وكملوا بها اسباب التعظيم والتبجيل . وافردوا فيها
لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة . باعمدة الرخام منصبة . وقالوا
محل قدم المسيح . وهو مقام التقديس والتسبيح . وكانت فيها صور
الانعام . مثبتة في الرخام . ورأيت في تلك التصاوير . اشباه الخنازير .
والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره .

وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة . فامر السلطان بكشف نقابها .
ورفع حجابها . وحسر لثامها . وقشر رخامها . وكسر رجامها
ونقض بنائها . وفض غطائها . وابرزها للزائرين . وأظهرها
للناظرين . ونزع لبوسها . وزفاف عروسها . واخراج درها من
الصدف . واطلع بدرها من السدف . وهدم سجنها وفك رهنها .

واراءة حسننها . واضاءة يمنها . وابداء وجهها الصبيح . وجلاء شرفها الصريح . وردها الى الحالة الحالية .

واشرقت القناديل من فوقها نورا على نور . وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد والاعتناء بها الى الان كل يوم في مزيد . ورتب السلطان في قبة الصخرة اماما من احسن القراءة تلاوة . وازينهم تلاوة . وانداهم صوتا . واسماهم في الديانة صيتا . واعرفهم بالقراءات السبع بل العشر . واطيبهم في العرف والنشر . واغناه واقناه . واولاه لما ولاه . ووقف عليه دارا وارضا وبستانا . واسدى اليه معروفا دارا واحسانا . وحمل اليها والى محراب المسجد الاقصى مصاحف وختامات . وربعات معظمت . ولاتزال بين ايدي الزائرين على كراسيها مرفوعة . وعلى اسرتها موضوعة . ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامه . قدومه تشمل مصالحها ضامه . فما ترتب الا العارفون العاكفون القائمون بالعبادة الواقفون . فما ابهج ليلها وقد حضرت الجموع . وزهرت الشموع . وبان الخشوع . ودان الخضوع . ودرت من المتقين الدموع . واستعرت من العارفين الضلوع . فهناك كل ولي يعبد ربه ويأمل بره . وكل اشعث اغبر لايوبه له لوا قسم على الله لابره . وهناك كل من يحيي الليل ويقومه . ويسمو بالحق ويسومه . وهناك من يختم القرآن ويرتله . ويطرد الشيطان ويبطله . ومن عرفته لمعرفته الاسرار . ومن الفتته لتهجده الاوراد والاذكار . وما اسعد نهارها . حين تستقبل الملائكة زوارها . وتلحف الشمس انوارها انوارها . وتحمل القلوب اليها اسرارها . وتضع الجنة عندها اوزارها . وتستهدي صبيحة كل يوم منها اسفارها . وما اظهر من تولى اظهارها . واظهر من باشر اظهارها . وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطينية . ونقلوا منها الى صقلية . وقيل باعوها بوزنها ذهبيا . واتخذوا ذلك مكسبا . ولما ظهرت ظهرت مواضعها . وقطعها القلوب لما بان مقاطعها . فهي الان مبرزة للعيون بحزها . باقية على الايام بعزها .

مصونة للاسلام في خدرها وحرزها . وهذا كله تم بعد انفصال
السلطان . والشروع في العمران • وامر بتدعيم محراب الاقصى وان
يبالغ فيه ويستقصى . وتنافس ملوك بني ايوب فيما يؤثر بها من
الاثار الحسنه . وفيما يجمع لهم ود القلوب وشكر الاسنة . فما
منهم الا من اجمل واحسن . وفعل ما يمكن . وجلى وبين وحلى وزين .
واشفق وانفق . واغنى واقنى . واعتنى وابتنى . ووفى واوفى .
واصفى واضفى . واتى الملك العادل سيف الدين ابو بكر . بكل صنع
بكر . موجب لكل شكر . وكل فعل جميل ورفد جزيل . ومن جلى ومنح
جليل . ومكرمة حميدة . ومحمدة كريمة . وفضيلة بها ترجع .
ووسيلة بها نجح . واتى الملك المظفر تقي الدين عمر . بكل ماعم به
العرف وغمر . ونهى وامر . وبني وعمر . ومن جملة افعاله
المشكورة • ومكرماته المشهورة • انه حضر يوما في قبة الصخرة .
مع جماعة من السراة الاسرة . ومعه من ماء الورد احمال . ولاجل
الصدقة والرغد مال . فانتهاز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها
بالافتراض . وتولى بيده كدس تلك الساحات والعراض . ثم غسلها
بالماء مرارا حتى تطهرت . ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت .
وكذلك طهر حيطانها . وغسل جدرانها . ثم اتى بمجامر الطيب
فتبخرت . وتوضعت وتعرفت وفغمت مناشق اهل الهدى • وأرغمت
أناف العدى • ومازال مع قوته • في تطهير البقعة المباركة طول
يومه • حتى تيقنت طهارتها • وبينت عمارتها • وراقب
نضارتها • ووقفت عليها الاستحسان نظارتها • ثم فرق ذلك المال
فيها على ذوي الاستحقاق • وافتخر بأن فاق الكرام بالانفاق •
وجاء الملك الافضل نور الدين علي . بكل نور جلي • وكرم ملي •
واحسان سني • وانعام هني وعرف زكي وعرف ذكي • وعطاء
مبتدع • وانطلق بحمده الالسن • وبسط بها الصنيعة وفرش فيها
البسط الرفيعة • وهدي واهدي • واعاد بعد ما ابدى • وانا
واسدى • وافاض الندى • وفض الجدا • ونفض الاكياس • حتى
خلنا به الانفاض والافلاس • وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء اسوار
القدس وحفر خنادقه • واعجز بما اعجب من سوابق معروفة

ولواحدة • مالم يشق احد فيه غبارة • ولا ملك سابق فيه مضماره •
واما الملك العزيز عثمان • فانه اتى بالاحسان الذي استظهر به
الايمان • وذلك انه لما عاد الى مصر • وقد شاهد الفتح والنصر •
ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها • ولم ير بعد حصولها به نقلها •
وكانت احمالا باموال • واثقالا كجبال • ونخائر وافية • وعددا
واقية ودروعا سوابغ • ونصولا دوامغ • وخوذا وتراثك •
ورماحات ونيازك • وقنا وقنابل • وصواقل وذوابل • وجروخا
وقسيا • ويمانيا وهنديا • يزنيا • وربينيا ومشرفيا • وزيارات •
ونفاسات وقطاعات • وعدد النقوب • وجميع ادوات الحروب •
فاستظهرت بها المدينة • وتوثقت بها عراها المتينة • وكان من جملة
ما شرط على الفرنج ان يتركوا لنا خيلهم وعدتهم • ويخرجوا قبل ان
يستوفي الباقون في اداء القطيعة مدتهم • فتوفرت بذلك عدد البلد •
واستغني بذلك عما يصل من المدد •

ذكر محراب داود عليه السلام • وغيره من المشاهد
الكرام وتبطليل الكنائس • وانشاء المدارس

واما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه في حصن
عند باب المدينة منيع وموضع عال رفيع • وهو الحصن الذي يقيم به
الوالي • فاعتنى السلطان باحواله الحوالي ورتب له اماما •
ومؤننين وقواما • وهو بمثابة الصالحين • ومزار الغادين
والرائحين • فاحياه وجدده • ونهج لقاصديه جدده • وامر بعمارة
جميع المساجد • وصون المشاهد وانجاح المقاصد • واصفاء الموارد
للقاصد والوارد • وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما
السلام • وكان ينتابهما فيها الانام • وكان الملك العادل نازلا في
كنيسة صهيون • واجناده على بابها مخيمون • وفاوض السلطان
جلساؤه من العلماء الابرار والاتقياء الاخيار في مدرسة للفقهاء
الشافعية • ورباط للصالحاء الصوفية • فعين للمدرسة الكنيسة

المعروفة بصند حنة عند باب اسباط . وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة الرباط . ووقف عليهما وقوفا . واسدى بذلك الى الطائفين معروفا . وارتاد ايضا مدارس للطوائف . ليضيفها الى ما ولاه من العوارف . وامر باغلاق ابواب كنيسة قمامة . وحرم على النصارى زيارتها ولا الالمامة . وتفاوض الناس عنده فيها .

فمنهم من اشار بهدم مبانيها . وتعفية اثارها . وتعمية نهج مزارها . وإزالة تماثيلها . وإزاحة أباطيلها . واطفاء قناديلها . واعفاء اناجيلها . وانهاب تساويلها . واكذاب اقاويلها . وقالوا اذا هدمت مبانيها . وألحقت باسافلها أعاليها . ونبشت المقبرة وعفيت . وأخمدت نيرانها وأطفيت . ومحيت رسومها ونفيت . وحرثت أرضها . ودمر طولها وعرضها . انقطعت عنها امداد الزوار . وانحسرت عن قصدها مواد اطماع أهل النار . ومهما استمرت العمارة . استمرت الزيارة . وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها ولا هدها . ولا يؤنن بصد ابواب الزيارة عن الكفرة وسدها . فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء . ولا يقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء . ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان . ولم يأمرهم بهدم البنيان .

ومما كتبه الى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهر زوري من رسالة :

قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم . والنصر العميم . والعرف الجسيم . والفضل الوسيم . واليوم الاغر الأعز الكريم . والشرف الذي نخره الله لهذا العصر ليفضله . على الاعصار . وأراد تأخير فخاره الى هذه الايام ليكون بها تاريخ الفخار . فقد اعجز الملوك عن اقتضاء نصرته . وافتضاض عذرتة . وخص من اجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته . وأعاد به القدس الى قدسه . وأظهره وطهره من رجس الكفر ورجسه . وقد رجع

الاسلام الغريب منه إلى داره . وخرج قمر الهدى به من سراره .
ونهب ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض المقدسة الى ماكانت
موصوفة به من التقديس . وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح
السرى ومناخ التعريس . وقد أقصي عن المسجد الأقصى الاقصيون
من الله الابعدون . وتوافد اليه المصطفون الاقربون . والملائكة
المقربون . وخرس الناكوس بزجل المسبحين . وخرج المفسدون
بدخول المصلحين . وقال الحراب لأهله مرحبا وأهلا . وشمل
جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة ما جمع للاسلام فيه
شملا . ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوف
نصيب . وتلت بالسنة عذبة : « نصر من الله وفتح قريب » .
(الصف ١٣) وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من نذس
المشركين . وبعد أهل الاحد من قربها بقرب الموحدين . فذكر بها ما
كاد ينسى من عهد المعراج النبوي . وقامت بدلالتها براهين الاعجاز
المحمدي . وصافحت الايدي منها موضع القدم . وتجدد لها من
البهجة والرسالة ما كان لها في القدم . فهو ثاني المسجدين . بل
ثالث الحرمين . فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من
الأسر . واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر . وتطهير
مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من أناس الارجاس . وتضوع
أرج الرجاء في أرجائه بعد اليأس . فالحمد لله الذي أبدل الايحاش
بالايناس . ونزع عنه بافاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس .
وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه على العصر
مفضلا . وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر الدين
والدنيا به مكمل . ويسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية
بأسرها . وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها
وأسرها . ولقد حل الكفر عروة عروة . وهدد ذروة ذروة وعادت
حباله رثا . وعقوده انكاثا . ومساكنه اجداثا . وصار حديثا بعد
أن شوهد أهل الذمة أحداثا . فالرتاج مستفتح . والرجاء
مستج . والبلاد مستخلصه . والقيم الغوالي منها بسوم العوالي
مسترخصة . والعقائل مفتضة . والمعائل منفضة . ومناهل المنى

بمياه النجاح مرفضه . ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف
أهل الايمان منقضه . والثغور مبدسه . والأمور منتظمة .
والحصون متسلمة . والخصوم مذعنة مستسلمة . وأرض الكفر
يذقها الاسلام كل يوم من أطرافها . بل يستولى على اوساطها
وأكنافها ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها . ولقد أينع زرعها
وثمرها من رؤوس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة
بحمد الله عظيمة . والموهبة وأن خصت هذا الاقليم فهي في جميع
أقاليم المسلمين عميمة . فلو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة
ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى : « قل
لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفذ كلمات ربي
ولو جئنا بمثله مددا » (الكهف: ١٠٩) والقاضي ضياء الدين القاسم
الشهر زوري قد توجه لهذه النعمة واصفا . وعندما يأمر به من إنهاء
البشرى بها واقفا . وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه
عارفا . وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفى بشرح الصدور
مصادر شرحة . ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بتأنهاء ما تسنى
من فتحه . ويحدث وهو الضياء بإسفار صبحه .

عاد الحديث الى ما جرى بعد فتح القدس

واقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون .
واستباح كل ما للكفر بها من مصون . ورحل ولده الملك الافضل قبله
الى عكا عائدا . وعن حوزتها ببأسه وجوده نائدا . ثم تبعه الملك
المظفر فرحل . وسار الى عكا . وبها نزل . ثم عمد السلطان الى ما
جمعه ففرقه . وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقته . وفرضه
بعوارفه . وفضه في مصارفه . فسد خلة المعيل . وأسهم منه ابن
السييل . وحمل به عن الغارم . وأحى به سنن المكارم . ووضع
في أهله . وأحله في محله . وصرفه في حله . وقدم التوسعة على ذوي
الاضافة . والانفاق في أهل الفاقة . واجنى الاجناد منه مقاطف .

وجعل المجاهدين منه وظائف . وأبقاه بأفئته ذخرا للأخرة .
وكسبا للمحامد الفاخرة . فأكثروا عذله على بذله . واستكثروا ما
فضه بفضله . فقال كيف أ منع الحق مستحقه . وهذا الذي أنفقته هو
الذي أبقيه . وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه . فإنه
يخلصني من الامانة ويطلقني من وثاقها . فان الذي في يدي وبيعة
أحفظها لذوي استحقاقها . فما عاد الوفد إلا بوفر ودثر . والافاضة
في نظم من حمده ونثر . وحاز كل ذي فضيلة منه فضلا . وتفيأ كل
فئة ظلا . وكثر السائلون بالفضائل . والقائلون بالسائل .
والقاصدون بالقصائد . والوافدون بالفوائد . والواردون بالفوائد .
والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق . والسالكون للطرائق .
والمالكون للحقائق . فما ترى الا قارئا باللسان الفصيح . وراويا
للكتاب الصحيح . ومتكلما في مسألة . ومتفحفا عن مشكلة وموردا
لحديث نبوي . وذاكرا لحكم مذهبي . وسائلا عن لفظ لغوي .
ومعنى نحوي أو مقرضا بقريض . أو معرضا بتصريح أو مصرحا
بتعريض أو جالبا لمحله . أو طالبا لمنحه . أو مستضعفا بفاقه . أو
مستسعفا بأفاقه . أو ناشدا بنشيد . أو مسمعا بتغريب وتغريد .
وما فيهم الا من أحظي بسهم . أو ارضي بقسم . وأصيب وأجيب .
وأجيز بتقرير وتقرير . ففيل له لو نخرت هذا المال للمال . لشفيت
به مايقع من الاعتلال . وكفيت بالحقيقة ما يسئح من الاختلال .
فقال أ ملي قوي من الله الكافل بنجح الآمال . وجمع الاسراء
الطالقين . وكاذوا الوفا من المسلمين . فكساهم وأساهم .
وأساهم . وأذهب أساهم . فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره .
ناجيا من ضرره . ووضره ومكث السلطان عليه مقيما . للنظر في
مصالحه مستقيما . ففيل ما قعودك عن صدور . فأنهض اليها
عسكرك المنصور . وانت تنخلها يوم وصولك . وتحظى منها بمرادك
وسؤالك ، فأنو السير . وأخو الخير . وأحصر الخبر . واحظر
التأخير . وفي تعجيل النهضة . تحصيلها في القبض . وفي بدار
الامام بدارها . بشرى أهلة الفتوح المقمرة بآبارها . فأسر
بالعسكر وأسرع . واقطع عن الكفر تلك الاعمال واقطع . وأكثر من
كان يستحثه . وعلى النهوض يبعثه . الامير علي أبو أحمد المعروف

بالمشطوب . وكان من اكابر الامراء الكافين للخطوب . الكافين في الحروب . وكانت معه صيدا وبيروت . وهما بقرب صور وقد أشفق ان فتحها يفوت . فرأى الحظ في الحضر . وحرص على القرص . ولم يفكر في قوتها بانتقال رجال الساحل إليها . وأنه يشق في هذا الوقت النزول عليها . وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صور مشغلا . وعلى الاستهتار بتحصينها مشغلا . وقد استجد قدامها من البحر الي البحر خندقا . وجعل الطريق إليها مضيقا . واحكم اسباب الاحكام . واخذ بالحزم في الاهتمام .

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار

صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان . وقد عنا لامره كل ناس ودان ودان . وودعه ولده عزيز مصر في اول منزله . وسايه لكرامية فراقه مقدار مرحلة . ثم اوصاه وشيعه واستصحب اخاه الملك العادل معه . مستظفرا بأخائه . ومستبشرا بالآله . مستبصرا بآرائه . مستنصرا بمضائه مستفنيا بغنائه . وموفيا بوفائه . وهو بعقده يعقد وبحله يحل . وبشده يشد وبحلوله يحل . والعساكر بالقضاء فائضه . والخطوب الريضة رائضه . والى استنهاض النصر لانصارها ناهضة . ومن هواها انها في دماء الدماء من اهل الكفر خائضة . فوصل الى عكا في اول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه . باهرا بتاخيرته وتقديمه . قاهرا بشباه الميبر . زاهرا بسناه المنير . جاهرا بسره . ظاهرا في بحره . وأقام أياما يتفكر ويتدبر . ويستشير ويستخير . والمشطوب يستعجله . ولا يمهل . ويحرص بالبعث . ويحذر من المكث . ويقول الفرصة تدرك بالحث . وتفوت باللبث . فسار لندائه مليا . ولجيش النصر معيا . ولرأيه مقلدا . وبالله عز وجل

متأيدا . فوصل الى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعة .
بالجحافل المحفلة والجموع المجتمعة . فنزل بعيدا من سورها .
سعيدا في ترتيب أمورها . مضروبة قبابه . مجذوبة عرابه . محجوبة
بالبنود والجنود أرضه وسماؤه . مذشورة راياته منصورة أراؤه .
خافقة على الاعداء عذبات عذابه . دافقة في ثرى النجح في الانحاء
ثرات صوب صوابه . قد كست خيامه عري العراء . وفشت أشعة
بيضه وسمره الفضة بالقضاء . واحتوت مضاربه المضيئة بالائه
وأرائه على مضارب المضاء . وباحت استباحه حمى المشركين
للموحدين بهر السراء . فمكث أياما حتى تواصل المدد . وتكامل
العدد . واستحضر آلات الحصار . واستكثر من المجانيق الصفار
والكبار . ثم تقدم اليها وخيم عليها الثاني والعشرين من الشهر يوم
الخميس . في خميس يسير في الوشيح كالأسد في الخيس . ونزلت
الذوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس . فوقع في
الدرديس . والعذاب البيدس . فكانما نفخ في صور صور . فحشر
أهل جهنم وملأوا السور . واتصلت زيارة الزيارات للجروح
بالجروح . وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ . وأرسلت
الحجارات حجارة جاجزه . وألسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء
راجزه . وكانت صور على السوء مستوية . وعلى كل من خرج من
القدس وبلاد الساحل محتوية . فضجوا وارتجوا . وعاجوا
وعجوا . ولجأوا ولجوا . ونصبوا على كل نيق منجنيقا . وشدوا من
كل جانب ركنا وثيقا . وشدوا في الجبال . ومدوا في الحبال . ورموا
من الشرافات الشرفات . بالشروور والافات . وسلب الحجار
حجاها . وامت الامة وجاءها وجاها . فكم من رؤوس اطارت .
ونفوس ابارت . وبر خسفت . وبدر كسفت . وبحر نذفت . وطود
نذفت . فحول السلطان الى قربها له خيمة صغيرة . وانفض ينات
الحنايا بالمنايا عليها مغيرة . وصف الجفاتي . فصدف اتيها
الاتي . وعارض بحرها بعرض بحره . ورد كيد الكفر من المنجنيق
بما نصبه من المنجنيق في نحره . فاحبط اعمالهم باعماله . واهبط
رجالهم برجاله . وقابل الابراج بالابراج . وحاول بالردى علاج
العلاج . ووالاها حجارات وصخورا . حتى جعلت سور صور

سورا . وجد في امرها . واجساد في حصرها . ووصل اليه في تلك
الايام . من قوي به ظهر الاسلام . ولده الملك الظاهر غياث الدين
غازي . وهو الذي جل في سماحته وحماسته عن الموازن والموازي .
فقدم مبارك القدم . متدارك النعم . عالي الهمم . غالي القيم . ومعه
عسكر مجر لجب جلبه من حلب . قد استصحب البيض والسمر
والبيض واليلب . فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب
واغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب ، ورأى نصب خيمته
وراء خيمة ابيه المنصوبة ، وجد في استرجاع مدينة الاسلام
المفصوبة ، وقدم بين يديه كل حجار راجح ، وكل نقاب
ناجح ، لصم الصفاق مصافح ، وكل جاندار جان در الردى
للكفار ، وكل زراق رزق الجسارة على اهل النار بالنار ، وكل
منجنيقي من جناته تقتبس ذبالة البسالة ، وكل جرخي رخي البال
بالهدى لاصماء اهل الضلالة ، وكل رام رام النجم في الافق
فراماه ، وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه ، وكل مقدم قرنه
دام ، وكل ضرغام صريعته في رغام . وكل قمقام ضارب
بصمصام ، وكل حام شارب بكأس حمام ، وكل زمر
مشيح ، لذار الكفر مبيع ، ولروح الجد مريح ، ولذماء المزاح
مزيح ، وكل فاذك لحبل الوريد باتك ، ولستر الحياة هاتك ، ولدم
العداة سافك ، وكل شجاع الى الموت داع ، والى المجد
ساع ، وللإسلام راع ، وللإشراك ناع ، وكل فارس للفوارس
فارس ، وللذوابل في النحور غارس ، وفي اليوم العابس غير
ناج ، وكل راجل لقهر العدو راج ، وبسر البأس مناج ، ومن شر
الناس بشجاعته ناج ، وبباغت المنون لمن يلاقيه شاج ، وكل عتال
عات ، ونجار ونشار ونحات ، وحداد وقين وكل زائر للعدى بحين .
فاجتمعوا وزحفوا . وجفوا على القوم ورجفوا واصموا وصمموا .
وأوقدوا نارا واضرموا . وأطاروا من اعشاش الأقواس الى أوكار
الاحداق أفراخا . واستصرخوا الأقدار لأقدارهم فحببتهم حين
أحببتهم اصراخا . وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرقاق . وأولوا
الشقاء لأولى الشقاق . وتساعدوا وتناصروا وتطاولوا وماتقاصروا
ومافيهم الا من أبان عن جد . وأبان بجد . والان الشديد . وأعان

السيد . وأفلح ففلح الحديد بالحديد . أوجد الحديد ومد الحديد
وصور مرتجة أبوابها . مرتجة أبوابها . مغتصة جوانبها . ومرتصة
عصائبها . مشحونة أبراجها مسجونة أعلاجه محصورة كلابها .
محصورة ذئابها محشورة ثعالبها مدشوبة كتائبها . والمركيس بها
متجههم . وأبليس عليه متحكم . وقد سقط في يده . وسخط لبلده .
وارتبط بجلده واختلط بكمده . وغلت مراحل غلوائه وعدت غواذل
عدوانه . وطاش وجاش وأوخش الأوباش والأوخاش (٢) .
وتوشح بالشر وتودش . وترشح للردى وتحرش . واشتعل بجمره .
وبعل بأمره وضرى بضره . وجال بوجهه في مكر مكره . وكر في وكره
وعشا عشه . وثبت على لجاجه . ونبت في اجاجه . وتعسر وتسعر .
وتربص وتصبر . والسلطان مصيب حكمه . صائب سهمه . ماض
عزمه . قاض حزمه بار حده . ساطع سنى ايناسه . قد اتسقت
اسبابه . واتسعت رحابه . واجتمع اصحابه . فازدحم على بابه
وحول قبابه كل مبارز بار . وكل ضارب ضار . وكل حجار جار .
وكل رامح ورام . وكل حامل سلاح وحام . وكل سائف حائف . وكل
عاصف قاصف وكل أكل للحرب شارب . وكل طالع بالضرب غارب .
وكل هاجم هائج . وكل راجم رائج . وكل معتقل متقلد . وكل مجرب
مجرد . وكل ذكر مذكور . وكل غضنفر مشكور . وكل ليث ملاث .
وكل غيث غياث . وكل سفاك لدم الكفر سفاك . وكل جراد لسيف
الفتك جراح وكل مكتتم في درعه . مكتتم في نقهه . ملتئم بزغفه . مثلم
بحرفه . مقنع بلامه . ملقع بقتامه . سايع في بحر الموت بسابحة .
سامع في الصباح صوت صائحه . فجمع اليه أمراءه . واستحضر
عظماء ملاكه وكبراءه . وقالوا هذا بلد حصين . ومكانه من الأرض
مكين . في البحر ثلاثة ارباعه . وفي السماء ارتفاع بقاعه . وطريقه
الذي يسلك من البر اليه . قد احاط به البحر من جانبيه . وقد قطعوا
بخندق في عرضه . وعمقوا ونزلوا في أرضه . وكان من احكام
الحزم . واتمام العزم . تكميل الآلات وتتميمها . وتحصيل
المنجنيقات وتقنيها . وتركيب الأبراج والدبابات وتآليفها . وتقريب
الجفاتي وتصفيها . وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها . وتنحية
أثقال العسكر وتخفيفها . وتنحية نخب الرجال

وتصريفها ، وتسنية الأسباب ، وتهية الأخشاب ، واستحضار كل مايراد للحصار ، واستنفار كل من يرام من الأنصار ، فاذا حضرت هذه الأشياء والأشياء ، وتيسرت وتوفرت الأصول والاتباع ، رحب الذرع في الحصر والمضايقة وطال الباع ، وإذا حالت الاحوال وضاعت الأوضاع ، واختل واعتل النزال والنزاع ، وأمر السلطان بازاحة العلل ، وإزالة الخلل ، وشغل الصناع بالعمل . ونقل الأمل الى طريق الأجل . وتقدم بقطع أشجار الغياض . وحمل مايتلك النواحي من الانقاض ، فاجتمع هناك كل آلة وآلة ، وذباب وذبالة ، وقضيب ومقضب ، ومجرب ومحرب ، وسم وشهم وشهب ودهم وأحمال ، وأثقال ، ونظمت الستائر من القضيب ، وصفت من سور سور بالمكان القريب ، وكمنت من ورائها الكماة ، واستترت بالجفاتي قدامها الرماة ، واشتغل كل صانع بصنعه ، وكل جامع بجمعه ، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه ، فمن جان بمنجنيق ، ودان الى نيق ، وداب بدبابة ، وذاب بذبابة ، ونازع في حنيه ، وناز بمنيه ، وقاذف بشراره ، وحاذف بحجاره ، وهاتك من ستاره ، وفاتك بجساره ، وجاذب في حبال ، وجالب لوبال ، ومرو في قلع ومسو لمقلع ، ومدبر بايجاف ومدمر بايجاع . ولم تزل المنجنيقات ترمي ، والحجارات تدمر وتدمي ، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروح ، وأطباق البرج تبني وتغطي بالسلوخ ، حتى امتد الزمان ، واشتد الحران ، وضاق الحصر واعتاق النصر ، وكان العسكر قد ألف تيسر الفتح ، وتسرع النجح . فصعب عليه حين صعب ، وتبع هواه لما تعب ، ولم يألّف الناس الا ارواء ظمأهم بنهله والحصول على اكساب سهله ، وفتح مايقصدونه من البلاد بغير مهله ، فلمّا توفى هذا الفتح توفىوا ، وملوا وضجروا وتأفوا والسلطان مع ذلك يزداد في حده وجده ، وفي شدة شدة ، وفي جده جده ، يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ، ويقويهم بجوده ويوجد لهم القوات ، ويقول ان الله أمر بالمصابرة . ولا مصابرة الا بالمثابرة . فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا .

ذكر ماتم على الاسطول

وكان السلطان قد نفذ من صدور ، واحضر اليها من عكا ما كان بها من مراكب الاسطول المنصور ، فوصلت منها عشر شوان ، على العدى جوان ولردى لهم جوان ، فعمرها بالرجال ، وجهازها للاقتال واتصلت بها مراكب لنا من بيروت وجبيل ، فاستشعر المراكيس واشياعه منها الويل ، وعمروا لهم مراكب ، ورفعوا بها مناكب ، وسفننا بالساحل عندنا مربوطة ، وبحفظنا مضبوطة محوطة ، ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواريتها ، وتجري سواريتها وتسري جواريتها ، وتطير للقنص بـزاتها ، وتغير للفرس غزاتها ، وتكسر بكواسرها ، وتدور بدوائرها ، وتلاطم الأمواح بأمواجها ، وتزاحم الأثباج بأثباجها ، وترفع شرع الهداة بشراعها ، وتقلع عرش الغواه باقلاعها ، وتنفذ على شياطين الكفر شهبها ، وترفض بشأبيب الذعر سحبها ، فكأنها الاساود والسود ، وركبتها الاسود ، من كل افـعـوان يحمله افـعـوان ، وشجاع امتطته شجعان ، وغراب بشتات العدى ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق ، فيالها من اغربة دارت بعقبان . واجنحة طارت بظلمان . ورواس سوار ، وغواز بفوار ، وقد ملئت برماة الحدق وحماة الحلق ، وزراقى النار وطراقى النار ، والخطافين بالخطاطيف . والقاذفين بالمقانيف والكالمين بالكلايب . والساليين بالاساليب والصاربين بالمحاريب والراجمين بالرجام ، والمعلمين على الاعلام فاندشت مراثر الفرنج وازاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانية . وتقلصت جناة الجذوية ، وكثرت ادواء الداوية . وكثرت اسواء الاسبتارية . وزادت الام الألمانية، وعادت أسقام الافرنسية . وصارت مراكبهم في المينا لاتبيين ، وشدتهم بشد شوانينا تكاد تلين . وقد ربطوا عندهم السفن فلو خرجت كانت جبـالا تسفن . واندس اصحابنا بعلو الامر ، وخلوا البحر . وأمدوا من الخوف ، وأمدوا على الطوف . ودام

تطوافهم. واستقام ايجافهم . واغثروا بالسلامة. وسروا بالاستقامة .
وباتت لنا شوان خمس . لها بزوال الوحشة انس. وربطت بقرب
مينا صور راصدة ، ولاخذ ما يخرج من شوانها قاصدة ، والنياجي
مدلهمة والدواهي ملتمة. وعيون الزهر راقدة. وعيون الكفر
ساهدة ، وللمكايد مصايد. وللعوادي عوائد. وللغوائل طوائل.
وللمسائل دلائل ، وللمقايير مقادير. ولاولئك المراد مراد ، فحفظ
اصحابنا الى السحر الحرس ، وسهروا الى أن شارفوا الغلس
وكل منهم لما استأنس نعس. وغاص في النوم وما تنفس. فما انتبهوا
الا وسفن الفرنج بهم محدقة ونيرانهم محرقة . فولجوا في البحر
والتجوا . وتطافروا (٤) الى الماء لينجوا وعدت العداة وأخذت تلك
الشواني الشناة واسروا منها عدة. ولقي الباؤون شدة. فاغتم
السلطان بسبب هذه النكبة. وفرح الكفار بتلك الضربة. وكانت تلك
اولى حادثة كرثت. وكارثة حدثت. ونائبة رابت. ورائبة نابت. فضاقت
القلوب. وضافت الكروب. وحصلت تجربة الفارين . واتصلت حركة
القارين . واستيقظ الناعس. واستوحش الانس . وهب الراقد. ودب
الراكب ، وذاب الجامد . وشب الخامد. وهاج الزائر. وماج الزائر.
وتحرك الساكن. وتورك الراكن. وعقل من غفل. وذهن من ذهل. وتيقظ
من غفا ، وتحفظ من هفا. وتقبض من انبسط. وتقيد من نشط. وهم
من عف. وألم من كف. ورجفت الآفاق بالمرجفين. وطالت السنة
المعنفين. فمنهم من يؤنب ويذنب. ومنهم من يقول ويطنب . والعاقل
ينجنب . ويقيم العذر لمن يذنب. ويقول هذه من الله موعظة. وآية لنا
موقظة.

واشار الناس بانفاذ الشواني البواقي ، وقطعوا بان هذه القطع
لا تكفي للاقاة في يلاقي ، فجهزوها نهـارا وصـيروا سرها
جهـرا . واما
بتسييرها الى بيروت . ورجوا ان تسبق وتفوت . وركب العسكر في
الساحل يباريها . وهي بالقرب تجارية في البحر وهو في البر
يجاريها . فابصر ملاحوها شواني الفرنج لبارزتها مبرزة .
وللاجهاز وراءها مجهزة . وكانوا رجالا من بحرية مصر مجمعه .

واصبحت قلوبهم بما جرى على انظارهم مروعه . فتواقعوا الى
الماء . وخافوا على دمائهم في الدماء (٥) . وخرجوا الى البر على
وجوههم . وخافوا مكروهم في مكروهم . وفروا وفاروا . وطاروا
وثاروا . ولم يلفت احد منهم لبتا . ولم يزدحم دعاؤهم الى التجمع
الا تشتيتا . فظهر بهذه النوبة الواقعة . والنبوة الرائعة . ان نواب
مصر لم يجر منهم بالاسطول احتفال . ولم يرتب فيه على ما يراد
رجال . وانما حشدوا اليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة .
ومستضعفة غير آلفة ولا مألوفة . فلا جرم لما شاهدوا الروع
ارتاعوا . ولما الزموا بالطاعة ما استطاعوا . وكان في جملة شوانينا
قطعة يتولاها رئيس جبيل . وفيها بحرية من ذوي التجربة والتجري
والتجربة ما لها حين ولا ميل . فطال بأسلحة الدفاع . وطار بأجنحة
الشرع . وفاز بالسبق وفات . وهيئات ان يدرك هيئات . فنجا
النجباء . وأب بهم الالباء . فبقيت المراكب الباقية . وقد اخلاها
حماتها الواقية . فرفعناها الى البر . ورأينا الصحة منها في
الكسر . وفرغنا من شغل المراكب في البحر . وهذا والمنجنيقات
ترميمهم . والمفوقات الموفقات تعميهم وتصميمهم . والقنائل
قائم . والنزال دائم . والصخور تفلق . والصدور تقلق . والاحجار
تقلقل . والاسوار تحلل . والاطوار تضعضع . والابراج القيام
تسجد وتركع . والاصلاذ تقدح . والاجلاذ تقسرح . والالواح
تصدع . والارواح بين اكفاء الكفاح مقسومة . والقروح بها قوارح
القوارع موسومة . والحنايا واترة موترة . والمنايا مأثورة
مؤثرة . وظعائن الضغائن تحدي بصليل البواتر . وصهيل
الضوامر . وحقوق الحقود تقتضي بالسنة الاسنة . وعنت الاعنة من
الغريم الكافر . والاولاد شاخبة كالعيون البواكي . والابشار
دامية من الزنبوركات والناوكات النواكي . وهناك العقل معزول
بالتهور . والرأي مشغول عن التدبير . والعلم والحلم خالطهما
الجهل والسفاه والجرحي يبتدىء ببسم الله . والمنجنيقي يختم بلا
اله الا الله . والزراق بالنار يطيب القاروره . ويحسرق
الساورة . والسباق الى المضمار يساور السور ويباشر
الباشورة .

ذكر خروج الفرنج للقتال

ولما عثر الفرنج على تلك العثرة . ظنوا فينا الفتور لاجل تلك
الفترة . وقالوا مراكبهم انحل تركيبها . وكتائبهم اختل
ترتيبها . وستجرى بها عنا الندامة التي يحدثها تجريبها . وهم
الآن على صوت لهم مخيف . وفوت بهم مطيف . فلا معنى لتقاعنا
عنهم . ولا وجه لتباعنا منهم . فلوخرجنا صدمناهم . وأقدمنا
عليهم وهزمناهم . وخرجوا يوما قبل العصر . في عدة كالليل
خارجة عن الحصر . قد التأموا واستلاموا وانضموا والتظموا
وتقدموا . وأقدموا للطوارق حاملين . والجمالات مطرقين . وعلى
الفرق مجتمعين . والجماعات مفرقين . وبالرهق جادين . وبالجِد
مرهقين . والعقود حالين . ومن الغمود سالين . والمناصل
منتصبين . والطوائل مقتضين . والسيوف مجريين . والسيول
مجريين . وبالزغف ملتئمين . وفي الحذف مقتحمين . وبالقنطاريات
طائرين . وبالزيارات زائرين . من كل مفوار وار . ومحضار
ضار . وفجار جار . وجبار بار . وعدو عنود . وكند
كنود . وداوي ذي دوي . وباروني غوي . ومن كل مصمم اذا
وتر . مصمم اذا وتر . مصمم اذا نعر . مصر اذا نعر . هائج اذا
استعر . مائج اذا نخر . متمم اذا زار . متذمر اذا
زجر . فتناوبوا وتواثبوا . وتجاولوا وتجاوبوا . وبنوا من متارس
المنجنيقات . وجذوا من مغارس الجنويات . وبنوا امرهم على ان
الناس ناسون غارون . وان اهل البأس في خيمهم هاجعون
قارون . فتلقاهم منا كل ضارب للهام . ضار بالحمام . وجار الى
الاقدام . ملب للصوت . محب للموت . مشتهر باغناء . مشته
اللقاء . مستهتر بالبلاء . ماض بالمواضي . متفاض بالقواضب
القواضي . وكل ابيض بالبيض ضراب والبيض رضاض . واغلب
المغلب قضااض والى الحرب نهاض . وكل معتقل رماحه . معتقد
مرحه . معتقد مزاحه . مهتز لطرب الشهادة . معتز بأرب

السعانة . متمن للمنون . متجن على الحنون . مضرم نار الحديد في
ماء الوريد . مغرم في تفريق العدى بجمع العيد . مفرغ ماء الطباء
على نار النجيع . مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع . قد تلثم
باللام . وتلفع باللاثام . وتقنع بالزرد . وتدرع بالجلد . وتجوشن
بالصبر . وتخشن بالزبر . وصال بالقضب . وجال بالهضب . وطال
بالهندي على الفرنجي . وخاض من دم الشرك في البحر اللجي . فلم
يسمع الا انين الحنية . لحنين المنية . ورنين الأوتار . من كنين
الأوتار . وهفيف السهام . لذهيف اللهام . وصليل بنات
الغمود . من غليل ابناء الحقود . وهمهمة الابطال . وغمغمة
الأقيال . وزئير الضرغام . وزفير الضرام . وقـرع الطـبـا
بالظبا . ووقع الشبا على الشبا . وضجة الحديد من
الحديد . وعجة الشديد . وجعجة رحي الحرب . وقعقة اداة
الطعن . والضرب . وجرجرة الفحول . وزمجرة الفحول . وهديل
حمام الحمام . وهدير قـروم الايدام . ووعوعة ذئاب
الوغى . ومعمعة التهاب اللظى . ودعدة صاع المصاع . وجلجلة
سباع القراع . وصلصلة الزبر . ولولة الزمر . وحيعة دعاة
النصر . وهيضلة رعاة الكفر . ورفرفة المريشات
الراشقة . وهسهسة الطعنات الفاهقة . وهزهزة اعطاف
المران . وزهزة اصوات الشجعان . ونعير الفالين . وصخب
السالين . ولجب الجالين . وزحير الطالين . ونهيت (٦)
الاسود . وقصيف الرعود . وهدة الأركان . ودهدة
الرعان . وقهقهة الأقران . وقرقرة كوم البكاء . وصرصرة بزاة
الفزاة . وكشيش صلاص الضلال . ونشيش مـراجـل
الرجال . وهزيز ريع الياس . وهزيم رعد المراس . وارنان
المعاجس . وارزام القناعس . وهيعة الصارخ . وصيحة
النافخ . وزعقة المستفز . ونعقة المستنزع . وشعشة
الخرصان . وزهزمة النيران . وهينمة الاجل . وجمجمة الزجل
وتكبير المؤمنين . وتهليل المؤمنين . وصرير ابواب الجنان
للشهداء . وصرير انياب الجنان للاعداء . والدعاء الى
اللقاء . والنداء الى الارداء . وارتفعت الاصوات . واشتبهت

الاحياء والاموات . ووقع اصحابنا فيهم وقوع النار في
الخطب . واروهم في مـرايا البيض وجـوه العطب . وولوا
مدبرين . بعد ما تولوا مدبرين وجذوبنا تشـلهم . وجدوبنا
تفلهم . ولتـوتنا تـرضهم . وليوثنا تفضـهم . وعادوا الى
البلد . عادمي الجلد . وفيهم ندوب وعليهم نوادب . وايدي الردي
بهم لواعب ومنهم لواغب . وبخل الليل . وعمهم الويل . واسرنا
منهم مقدمين . ثبتوا على الموت مقدمين ، ومن اسر فخر قومص
عظيم . بل شيطان رجيم ، فترك في قيد اسار ، ليكشف عن حاله
بالنهار . وكان الملك الظاهر غازي . لم يحضر فيما تقدم من
الغازي . فرأى ان يحرق اسمه بقتله . فحضر عنقه بحد
نصله . وكان للمركيس شبيها وفي الفرنج وجيها . فظنوا انه هو
للشبه . وبات اهل الكفر بالعمى والعمه . ثم عرف ان المركيس في
نفسه لم يذكا ولم يذكب . ولما عطب اشياعه لم يعطب . وندم على
ما قدم . ومن تقدم على غرة تندم .

ذكر ما دبروه من الرأي ورأوه من التدبير

ولما امتنع البلد . وارتدع الجلد . وارتج العدو وليج . ضجر
العسكر وضج . واجتمع امراء . يحبون الافلات . ولا يكرهون
الفوات . وقالوا مطاولة ما نقصر عنه تتعب . ومزاولة ما لا يزول
تصعب . ومحاولة الممتنع محال . ومطال غريم هذا الفتـح
مطال . وما يتسع لنا في هذه الحلبة الضيقة مجال . وهذا السلطان
جلد على المصابرة . مجد في المكابرة . لا يكثر بالكـارث . ولا يدخل
سمعه حديث الحادث . ولا يبالي بمن بلى ، ولا يفكر فيمن ولي أو
ولى ، ولا راحة له الا في التعب ، ولا يعلم له نصيب سلامة الا من
النصب ، وكل ما جرى الى اليوم منا ومن القوم لم يرعه ولم
يردعه ، وقد قيل انا لم تستطع شيئا ، فدعه ، فكيف السبيل الى

استعطافه ، وما التدبير في استسعافه . وبم ننتـوسل
ونتوصل . واذا عرفناه ان الداء يعضل . والخطب يشكل لعله
يحتوي الإقامة ويرحل . فاطلع على ما اسروه ، ومربه ما
امروه ، وهمه ما به هموا . والله ما به ادوا . فراسلهم بالهيات
وواصلهم بالصلات . ورغبهم فيما عند الله من الزلفى ووعدهم بكل
ما على أملهم اوفى . وقال لهم كيف نخلي هذا المكان . وما استفرغنا
في شغله الامكان . وما استنفدنا في مضايقته الوسع ، ولا احسنا
بعد في محاصرته الصنع ، ولا زحف اليه الجمع . ولا حفز منه
المنع ، ولا اصابنا من مكر اهله مكروه ، ولا ورد الصبر منه بشفاه
شفاهه مشفوه ، وكيف تجري بنا الخيل عنه قبل التجريب ، وهذا
الارب ما يخطر بخاطر الارب ، وما عذرنا الى الله والى المسلمين
اذا تركناه ، وكيف نقول فانتنا هذا القنص وما ادركناه . والفرصة
اذا فانت لا تدرك ، والبغية اذا وانت فحقها تملك ، وذواظر الناس
الى ما سيكون منا في صور صور ، وهذه الظلمة المدلهمة لا يجلوها
الا نور . ومن لا يتعب لا يسترح ، ومن لا يحترق من الوجد لا
يقترح . وان تجدوا تجدوا . وان تردوا عن المنهل العدى
تردوا . وان تصبروا تصيبوا . فارجعوا الى الله وانيبوا . وهذا
الراجل متواصل . والغرض به حاصل . ونحن نقسمه على المجانيق
ونوبها . ونلزم كلا منهم ملازمة البقعة التي هو بها . وهذا البرج
قد ارتفع . والوسع قد اتسع . وقد امتلأت بالرجال طبقاته . وتوالت
منها في الكفر شقاته . والنصر قد أن أن تطيب نشقاته . والمركيس
ابعد الله قد قرب ان تخونه ثقاته . ورأينا طول الارواح . لاالتطاول
الى الرواح . وفي التثبيت على المقام . التوثب على المرام . ثم اخرج
المال وصبه من اكياسه . وفرقه على ناسه . وانذقه في اهل باسه .
وواصل البذل وهجر العذل . وملا الايدي بالغنى . وروح الرجاء
نجح المنى . وامر فامتثل وقال فقبل . ونادى فسمع . وحشر
فجمع . وعادت عادة الحصار . واسعدت سعاة الانصار .

ذكر فتح حصن هونين

وورد الخبر عن هونين انها هانت . وبنا امرها ودانت . وان طريق فتحها بانث . وانها عنت فان الطاف الله اعانت . وانها بذلت ماصانت . ولم تبق للكفر على ساكانت وان شدتها لانت . وكان السلطان قد وكل بها بعض امرائه . وامده بمديي جنده وعطائه . فلبث الى هذه الغاية . يصبها بسهام الذكاية حتى طلب اهلها الامان على الوفاء بما يشترطون . ويشطون منها ولا يشطون . فاول ما قالوا امهلونا حتى نعلم ما يكون من صور . ونكتشف هذه الامور . فان اخذتموها اخذتم هذه . وشفعنا امر السلطان بذفانه . وان خليتموها فياهوان هونين . ونحن نجعل على هذا عدة من الاصحاب مرهونين . فندب السلطان بدر الدين دلردم الياروقي وهو من اكابر عظمائه . واكارم امرائه . وامره باستنزاهم واستزلالهم . والامان لنسائهم ورجالهم . فمضى ورغبهم في الامن والسلامة . وخوفهم عقبي الحسرة والندامة . وقال لهم انتم بين حصنين هما تبنين وبانياس . وماذا تصنعون اذا خاب رجاؤكم وبان الياس . واذا ايتم التسليم عدتم سلامتكم . واقتمت قيامتكم . واستباحكم السلطان واستباكم . وكركم وباككم . وحل بالقتل حباككم . وفل شباككم . فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا . واخذوا الامان على ان يذهبوا . ووصل الخبر الى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم . ولقاتلة اهلها مستقيم . والى ما عند الله من نصره مستقيم . وتسلمت هونين بما فيها من عدة ونخيرة . وقوة وميرة . والات وادوات كثيرة . وتسلمها بيرم اخو صاحب بانياس . واستشعر الفرنج منها الياس . وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها . وبرح بالقلوب برحها من عمل صيدا: قلعة ابي الحسن . وشقيف أرزون . ومن عمل طبرية والفور: صدف . وكوكب . وهما من احكم الحصون وقد وكل بهما اميرين . من خواصه كبيرين . وقد ضيقا على من بهما من العلوج . ومنعا من

الدخول والخروج . واقام السلطان على صور محاصرا . والذين
الحنيف ناصرا . وليد الشرك بمطاولته قاصرا . يقاتلها بكل سلاح .
ويقابلها بكل كفاح . حتى كادت تستكين . وشدتها تلين وابيتها
تدين وسريها يبين . وكان قد دخل كاذون . وظهر من سر الشتاء
المكذون . ووقبض البرد الايدي عن الانبساط . واعدم الهمم دواعي
النشاط . وعانت العزائم المتوهجة تبرد . والصرائم المتأججة
تخمد . والنخوات المتحركة تجمد . والحميات المتيقظة ترقد .
والضرام المحتدم يخبو . والحسام المخدّم ينبو . والطباع تتكره .
والسباع تتأوه . ومناوبة القتال تختل . ومعاينة النزال تنحل .
فلحاهم السلطان على ملاح . وعرفهم ان في الصبر الفلاح . وامرهم
بالمقام والاستقامة على الامر . وانه لاظفر الا مع الصبر . وان
الظلم تتجلي عند تجلي الفجر . وكان في الامراء جماعة منتجون
منتزون . اُبت امانتهم في حمية الدين ان تخون مقيمون على الكريهة
ولاكرامة منهم للمقام . ويحبون ان تقام وظيفة الانتقام ويؤثرون
باندسهم في طاعة الله وموافقة السلطان . وعصيان الشيطان في
مفارقة المكان . فاذا ارجف بالرحيل رجفوا . وسخفوا رأي المشير
به وضعفوا . واضطربوا واضطرموا وتذمموا وتلوموا . وقالوا كيف
نترك ماحويناه . ونعوج ماسويناه . ونذر كفرا طويناه ونهجر
خيرا ذويناه . ونداوي توحيدا شفينا . ونشفي اشراكا ادويناه .
ومال الراحة اليوم طالب . الا وهو غدا بالتعب مطلوب . ومن امسى
وهو الآن غالب . يوشك اذا ولى ان يصبح وهو مغلوب . وهذه
صورة صور قد تشوهت . وموارد قوتها شففت . واذا تخلينا عنها
وخليناها ترففت واستفرت . واذا حلمنا عنها سففت . وهبت من
غشية خشيتها وتنبت . وتارك المصابرة مصاب . والاخذ بالمتابعة
مثاب . فمنهم الامير طمان بن غازي مااطمان يوما في الغزو
ولاسكن . وعز الدين جريدك الزوري كم جرد على اعناق المشركين
سيفه الذي به تمكن . وهما همامان مقدمان مقدامان . من عادتهما
الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولايريمان . وجماعة اخر
بهما يتشبهون . وبالكريهة لايتكروهون . واما الباقون فانهم احبوا
البقاء . وابغضوا اللقاء . واتقوا الالتقاء . وابوا الا الباء . وقالوا قد

لقبنا . وما بلغنا . وجرحنا ، ومارجنا . فلورحنا استرحنا . ثم
عجنا ورجعنا . ومانحن باول واضع للاصر . راجع عن الحصر .
معطف للعقل . مستعف من الثقل . عامل بمحض الحزم . عالم بوقت
العزم . هذا وقد علم ماعرا من ضروب الكروب . وذلما مابرى من
غروب الحروب . وبقدر ماهدم من مبانى البلد هدم اكثر منه مبانى
الجلد . فقال السلطان بل نجد في القتال اياما . ونقدم باسا واقداما .
ونزحف بجميع رجالنا . ونصدقهم في نزالنا . ونقاتلهم من جميع
النواحي . فان تعذر لاح العذر للاحي . واصبح العسكر وقد
استعد . وامتد قبالة البلد من البحر الى البحر والنصر استمد .
وركب الامراء باجنادهم ووقفوا . واثمر لهم ورق الحديد الاخضر
فقطفوا . وتناوبوا في الزحف . وتعاقبوا على الحتف . وكلما ترجلت
طائفة قاتلت ثم رجعت . وجاءت الطائفة الاخرى فصدمت وقرعت .
وصارعت وصرعت . فلم ير اشد من ذلك اليوم . في وقم القوم .
واجترأ اصحابنا . وراض جماحهم اصحابنا . وخاضت خيلنا في
البحر خلف منهزميهم . واقدام من احجم منا لاحجام مقدميهم .
فحينئذ طارت للحين من السهام زنابيرها . واسعرت الحرب بضرام
الضراب مساعيرها . وامتلات السعير بقتلاهم وقالت هل من
مزيد . وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت هل من شهيد .
وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الاسلحة . وملت الاجنحة . وانهاضت
قوادم الانهاض . وانفضت الجموع من اقواء القوى والانقاض .
وبات الناس على ضجر وضجاج . ولجب ولجاج . فلو عاودنا البلد
بمثل ذلك اليوم اياما . لنلنا من فتحة مراما لكنهم اصبحوا على سأم .
والموا بابداء الم . وقالوا: قلت كثرتنا . فلوا قيلت عثرتنا لانجبرت
كسرتنا . وفيما الجريح والطيح . وحتى متى لاندستريح . وقد توالى
الامطار فلامطار . وعلينا هذا الحصار صار . وكانت الجراحات
كثيرة . والاحتياجات بها مشيرة . ومنع البرد من العمل . وامتنع سد
الخلة وتسديد الخلل . ومازالوا يرسلون السلطان ويشيرون
بالرحيل . ويقولون لا تتعب على تحصيل المستحيل . ولا تذهب الايام
في ابرام المستحيل . ودعنا نستجد دعه . ونسترد قوى عند لطف الله
مودعه . ونشتغل بفتح الايسر وهو اكثر . ونؤخر التشاغل بما لعله

يتعسر . وكان السلطان في تلك المدة . انفق اموالا كثيرة على تلك
الالة والعدة . ومامكن نقلها . ولامكن من نقلها ثقلها . ولوابقاها
لقوي بها الكفر . واشتغل بسببها الفكر . فرأى نقضها . وفك
بعضها . واحرق منها ماتعذر حملها . وشتت بعد التجمع شملها .
وحمل بعضها الى صيدا وبعضها الى عكا . وجرت اعاجيب ماتكاد
تحكى . وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وابكى . وتأخر
السلطان وتباعد عن قرب صور الى المنزلة الاولى ويدايده على
جميع الاحوال طولي . فشرع العسكر في الانصراف . وتزود للانفكاك
والانكفاف . واخذ الجمع في الافتراق . وانتشر في الافاق . وذهب
من ذهب على مواعدة في المعاودة . ومسارعة في الرجوع الى
المساعدة . وودع الملك المظفر تقى الدين من هناك . واوعد بوعد
عونه الاشراك . وسار على طريق هونين الى دمشق مغذا . وسارت
معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر ، وكل طير منهم اشتاق الى
وكره . وماعرفوا ان هذه الراحة القليلة تعقبهم تعباً كثيراً . وان هذا
الهدو الذي مالوا اليه يصير لحدث حركتهم مثيرا . وبقي السلطان
يتلهف على ماتركه . ويتأسف على الافتيح الذي مادركه . والذين
اشاروا بهذا الرأي يسهلون الصعب . ويهونون الخطب . ويقولون
نمضي ونعود . وتساعدنا السعود . وتتجنبنا الجود . وتتجدد
الجود . ويورق العود . وتصديق الوعود . واننا اقبل الربيع . اقبل
الجميع . وطلب الزمان . ووفى الضمان . وامكن الاسعاد وساعد
الامكان . ومازالوا بنا حتى رحلنا . وعلى الرأي الرائب منهم
احلنا . ولواقمنا لقمنا . وقمعنا العدو ووقمنا . لكن الله قدر وقدره
محتوم . وسر غيبه المكتوب في اللوح المحفوظ مكتوم . واراد ولامرد
لمراده . وقضى ولامحيد لما قضاه في عبادته . وان تبقى صور في تلك
الحالة الكفر وكرا . والمكر مكر . وللشرك شركا . ولنار جهنم
دركا . وقدمنا عن صور الارتحال . آخر شوال . غرة كانون الثاني
وعم البرد في القاصي والداني . وتوحدت السماء من حوامل
السحاب . وتوحدت الارض من سواثل المذاب . والنكب الرياح
عواصف عواصف . قواصف قواصف . والسحب الدلاح (٧)
هوامل هوامر رواعد رواعف . والبرد قارس . والماء جامد جامس .

والشتاء شتات بقات . وما مع مقامه وثباته مقام وثبات . وسرنا
عبايد في لبايد . وبين جليد وجلاميد . على الناقورة وطريقها .
والاثقال قد ازحمت في مضيقها . والاحمال تتواقع . والاجمال
تتقاطع . والسبل تذسد . والسائلة تترد . وسالكت الخيل الجبل .
وقطع العسكر طريقه الى المخيم ووصل . وتأخر الثقل . الى ان
تخلص . وتقدم من سبق وتملص . ووصلنا الى عكا في ثلاث
مراحل . وقد غطى بحر عسكرنا الساحل . وخيم السلطان على باب
البلد بجانب التل . نامي الفضل . دائم الفكر في تدبير الامر وتدمير
الكفر . وانقا من الله بانجاز النصر

ذكر الحادثة التي تمت على محمود أخي جاولي حتى استشهد هو وأصحابه

ويوم رحيلنا من صور نعي محمود أخو جاولي . وكان من جملة
الامراء اعف ولي ولي . وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد . وقضي
صابرا مصابرا وهو سعيد شهيد . وسبب ذلك ان السلطان لعلمه
بديانته وأمانته . وبأسه وبسالته . ويقظته ونهضته وحزامته . وكله
بحصن كوكب الذي على الغور . وكانت فيها جمرة الاستتارية
القريبة الجور البعيدة الغور . وقد تمنعوا بشدتهم . واشتدوا
بمنعتهم . وهو حصن لايرام . وركن لايضام . ومعقل لايسامى
ولايسام . وذروة لا تفرع . ومروة لا تفرع . وعقيلة لا تفرع . وبكر
لا تخطب . وقلعة لا تطلب . ولما ملك الساحل . وهلك الباطل . ونظمت
الحصون في سلك الحصول . وظفر الاسلام بالفتح المأمون
والمأمول . وافتتحت طبرية وأعمالها . وتملكت أغوار تلك البلاد
وجبالها . تمنعت قلعتا صفد بالداوية . وكوكب بالاستتارية . وتعذر
فتحهما . وتعسر منحهما . وقف أمرهما . وأعدى البلاد ضرهما .
فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصرية . من أهل الابية والنخوة
والحمية . ومقدمهم مسعود الصلتي أصالقت سعادته منه سيفا

إصليتا . لا يلافت عن لقاء العدو ليتقا . ورتب على كوكب هذا محمودا . وكان بهما أمر الحفظ محمودا . وذلك بعد الكسرة . وصحة النصر . فأحاطا بالحصنين واحتاطا . وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى . وكان الحفظ مستمرا . والاحتياط مستقرا . حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن . وظن أنهم في غاية الوهن . وسكن إلى سكوتهم . وأغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم . واسترسل فيما حذب . واستسهل ما صعب . وأخل بالحزم . وخلا من العزم . واحتقر عدوه . وحسب من العجز هدوه . وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا . وقد أقام به جاما جامعا فيه ما أمر وحلا . وكان ذا بين متين . ومكان من النسك مكين . وهو يسهر أكثر ليله متهجدا . وقد جعل منزله مسجدا . وأصحابه من حوله . يحفظونه بقوة الله وحوله . فلما كان آخر ليلة من شوال . وهي ليلة ذات أهوال . مظلمة مدلهمة كافرة مكفهرة . ليلاء قتماء . بارية مقشعرة . أنوارها بائنة . وأنوارها جائدة . وهزيع جناحها دجوجي . وهزيم ودقها لحي . وسحبها سحيم . وأقطارها دهم . وصبيرها صيب . وصنبرها مشيب . لا يفرق فيها السماء من الأرض . ظلمات بعضها فوق بعض . خرج أهل كوكب وقت السحر . والناس رقود والحراس هجود . والجنود جمود . والانفاس خمود . والهمم ركود . والسيوف اسرار . أضمرتها الغمود . والعدم قد بنا منه الوجود . فما أحس محمود المحمود . وأصحابه الهمود إلا بالفرنج وقد سلخوا اليهم . وبركوا عليهم . فقصروا عن الامتناع . ولم يقدرُوا على الدفاع . فجاءتهم السعاة . وفجأتهم الشهادة . وبقي الأمير حتى استشهد محصورا . وكان أمر الله قدرا مقدورا . ونقلوا إلى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع . وخيل وكراع . فلما عرف السلطان ما أصابهم . احتسب عند الله مصابهم . وأحمد إلى الجنة مأبهم . فندب إلى كوكب صارم اللين قايماز النجمي الصارم المخدم . والحازم المقدم والعضب البتار . والندب المغوار . والأسد الأسد . والأحمى الأحمى . في خمسمائة فارس من ذوي النجدة . والبأس والشدة . فسد الطريق بمضايقتها عنها . ومنع من الدخول إليها والخروج منها . ولم يزل

عليها مقيما . ولحصرها مستقيما . إلى أن يسر الله فتحها . وسهل
للأمال فيها نجاحها . وسنذكر ذلك في موضعه . وكيف أشرق صبح
النصر من مطلعته .

ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكا بعد عودته من
صور

استأنى الملك الظاهر والده في العود إلى حلب فأنن له وودعه . بعدما
أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعداد فامتثله واتبعه . وودع الملك
العاقل وأوجه إلى مصر . مستقبلا الظفر والنصر . وأقام الملك
الأفضل بعكا مستقلا بالأراء . ومستهدا بالآلاء . مستبدا بتدبير
أسباب الهدى . مستعدا لتدمير أحزاب العدى . وأقمنا بالمخيم
لخدمة السلطان ملازمين . ولإقامة شرائطها مداومين . وكل يطلب
أننا في الانصراف . ويستقيم على نهج الانحراف . حتى خف من
عندنا من الجند . وثقل علينا عبء البرد وتناوحت الهوج . وتراوحت
الذلوج . ورجت الدروج . ونجت الذلوج . وارتجز عجاج
الودق . (٨) وارتجس نجاح البرق . وجفت الحرجف . وطفح
الأوطف . وتقطعت الخيام وتقلعت الأوتاد . وتجلت بإبراد الجليد
من البرد الآكام والوهاد . ومال بل وقع عمود السرايق . ودام
تواصل البوارح والبوارق . وبخل السلطان إلى المدينة . وسكن بها
في كنف السكينة . مستقيما على المحجة المستبينة . مقيما للحجة
المتينة . وشرع في إعداد العدد . واستعداد المدد . وإبرام معاهد الحل
والعقد . واحكام قواعد النين والمجد . وإحياء سنة السماح
والفضل . وإعلاء سناء الاحسان والعدل . وإفاعة الكرام وإكرام
الوفود . وإعانة ما بدأ به من إفاضة الجود . وإجازة الراجين .
وإجارة اللاجين . وإسعاد العافين . وإبعاد العائين . وإبناء أهل
العلم . وإغناء ذوي العدم . وإنجاح المقاصد . وإنجاز المواعد .

ذكر رسل وردوا في هذا التاريخ

وكانت رسل آفاق من: الروم، وخراسان، والعراق . عاكفين على بابه .
قاطفين جني جنابه . واقفين لرفع حجابيه . مستسعين لنعمائه .
مستعطفين لأبائه . متعرضين لأوابه . متضرعين في خطابه .
وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته . وخصه بنجح وسيلته .

وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك . وهدهاه الى سبيله وقد تعذر
بهم اليه السلوك . وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون
الاولى . وتقاشرت عنه أيبيهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولي .
فما منهم إلا من يعترف بيمنه ويعترف من يمه . ويقر بحكم النزول له
وينزل على حكمه . ويخطب الصداقة في الصدق . ويحقق المظاهرة
لاظهار الحق . ويتقرب بالوفاء والوفاق . ويتباعد عن الشقاء
والشقاق . ومن جملتهم رسول صاحب الري قتلغ اينانج بن
بهلوان . ورسول قزل ارسلان المستولي على ممالكهمذان .
وانريجان، واران . وهو عز الدين الطالب العز . الراغب في
الفوز . فما من يوم يمضي . وشهر يذضي . الا ويصل منهم رسول .
ويتصل به سول . وتتجلى غمة . وتتجلى نعمة . وتتجه بشرى
وتستبشر وجوه . ويكف مكر ويكفي مكروه . ونظر في احوال عكا
فرتبها . وفي أمورها فهذبها . وفي مضارها فأذهبها . وفي منافعها
فقربها . وولى عز الدين جرديك بها واليا . وأعاد عطلها بفضل ولده
الملك الافضل حاليا . حاليا . ووقف بها وقوفا . واجنى المستحقين
منها قطوفا . وأسدى معروفها . وأعطى ألوفها . وأرغم من الاعداء
أذوفها . وكانت فتوحه لهم حتوفا . ووقف نصف دار الاسبتار رباطا
للمتصوفة . وللاوقنين من أهل الطريقة والمعرفة . ونصفها مدرسة
للمتدققه . وللطلبة المتعفة المتنزهة . فجمع بين العلم والعمل .
والنجاح والامل . وكتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل . واتخذ لطلب
مرضاة الله دار الاسقف بيمارستان المرضي . وأتى بكل ما يحبه الله

وبه يرضي . فلم يبق سنة الا خلدها . ولامنة الا قلدها . ولا أجرا
الا أجراه . ولا هدى الا أهده . ولا أمرا الا أمره . ولا دارا الا
أدره . ولا فريضة الا أداها . ولا فضيلة الا اتاها . ولا فرصة
صواب الا انتهزها . ولا حصة ثواب الا أحرزها . ولا رمم فواضل الا
أزهرها . ولا أمم فضائل الا حشدها وحشرها . وماترك
قارئاً الا قرأه . ولا راوياً الا أشبعه وأرواه . ولا حافظ حديث الا
حفظه من الحدثن . ولا مهندس صنعة الا اصطنعه بالاحسان .
ولا ناظم مدائح . الا نظم له المنائح . ولا موافياً بقريض إلا وفى
قروضه . وأعجز عن القيام بحملي حمده نهوضه . وتقدم إلى الوالي
بالتردد في الاعمال . وتفقد الأحوال . وسد الخلة وتسديد الاختلال
وتعليل السقم وتسقيم المعتل . وتحليل العقد وتعقيد المنحل .
فاستقرت بولايته الولاية . واستمرت لرعيته الرعاية . ودرت أفاريق
الآفاق . ودارت أسواق الارزاق .

ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حامد من
دار الخلافة إلى رسالة في العتب على أحداث ثقلت .
وأحاديث نقلت . ووشايات أثرت وأرثت . وسعاليات في
السلطان عثت . في الأحوال . وشعثت . وذلك في شوال .
ونحن على حصار صور ونزاع ونزال .
ذكر السبب في ذلك .

لما تم الفتح الأكبر . وخص وعم النجع الاظهر . وقطع دابر
المشركين . وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بطين . أمرني
السلطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق . وتقديم البشرى به إلى
العراق . فقلت هذا فتح كريم . ومنح من الله عظيم . ومملك عقيم .
وسمو وسيم . فلا يجب ان يكون مبشر دار الخلافة . بما أنزله الله
لنا من الرحمة والرفاة . الا من هو عننا أجل وأجلى . وأعلم

وأعلى . وأجمع لفنون الفضائل . وأعرف بأداء الرسائل . فلا يوجه
بهذه الكرامة الا الكريم الوجيه . ولا ينبه لهذه المقامة الا القويم
النبيه . ولا يرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع . فان الشريف يتضع
شرفه بمقارنة الوضيع . فقال هذه نصرة مبتكرة بكرة . وموهبة
ميسرة بدرت وندرت . فنحن نعجل بها بشيرا . ونؤخر للاجلال كما
ذكرت سفيرا . وكان في الخدمة شاب بقدادي من الاجناد . قد هاجر
للاسترقاد . وتوجه بعد وصوله . ونبه بعد خموله . فسأل في
البشارة الى بغداد . وزعم انه يداوم اليها الاغاذ . وشفع له جماعة
من الاكابر حتى خص بأشرف البشائر . فقلت هذا لا يحصل له
وقع . ولا يصل اليه نفع . والواجب ان يسير في هذا الخطير خطير .
وفي هذه النصرة الكبرى كبير . فان الرسول من يندب للتفهيم
والتفخيم . ويرتب في الامر العظيم للتعظيم . ثم سار المندوب .
وشغلت عن ارسال سواء الفتوح والحروب . ولما فتح البيت المقدس
أرسل ببشارته نجاب . ونفذ بها كتاب . ووصل البشير الجندي .
فلم تجل به على كفو الجلالة من الهدى الهدي . وحقره . وما
وقروه . فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به
من الرقة والعين . ونقم على السلطان ارسال مثله . وانه لم يعصب
المنصب في تلك الرسالة باهله . وتسمح المندوب بكلام اخذ عليه .
وبدرت منه أحاديث نسبت اليه . وقال في سكره . وحالة ذكره . ما
يعرض عن ذكره . فخيّل وموه . وتذكر وتكره . وظن أن لكلامه
أصلا . ولقطعه منا وصلا . وانتهت الى العرض الاشرف مقالاته .
وعلمت جهالاته . وتجنّى على السلطان بارساله . وطرق الى هداه
ما أنكره من مقال المذكور وضلاله . ووجد الاعداء حينئذ الى
السعاية طريقا . وطلبوا لشمّل استسعاده بالخدمة تفريقا .
واختلقوا اضاليل . ولفقوا اباطيل . وقالوا هذا يزعم انه يقلب
الدولة . ويقلب الصولة . وانه ينعت بالملك الناصر نعت الامام
الناصر . ويدل بما له من قوة والعساكر . فاشفق الديوان العزيز
على السلطان من هذه . وبرز الامر المطاع بارسال اخي وانفاه .
وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد . يكفل لنا في كشف سر الامر
بالمراد فان اخاه هناك . مطلع على الاسرار . وهو منتظم في سلك

الاولياء الابرار . وعول عليه الديوان العزيز في السفارة . ورد معه جواب البشارة . وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العتب . ومكررات موارد القرب . والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه . والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينة . وذشر الاعتبار في طي العتاب . وروح الارضاء في شخص الاغضاب . ويرد الموهبة في برد المهابة يرد ظن الخطأ الى يقين الاصابة .

وشرف من الديوان الأخ ، فسار وهبـ وبـذخ وقـدد
أصحب خيلا ، وأسحب من التشريف والانعام نيلا ، وألحف من
نور الالهة العباسية نهارا وليلا ، فوصل السير بالسرى وقطع
الوهاد والذرا وجاء الى دمشق بشارة رائقة وبشارة رائعة واشارة
رادة وشعار مهيب . وشرع مصيب . وهيبة روعة امامية ، وهياة
عصمة عصامية وفرند نبوي لايندو ، وزند وري لايكبو ، ولسان في
الصرامة جري ، وجنان بالشهامة حري . وبلاغة بابلاغ . مالىس
بلاغ . وفئة وافية وصيغة بصياغة كل غريبة قول ، ورغبة طول .
وكافلة كافية وسني نور وقار يستعير منه سنير . وثبات خلق يتخلق
به ثبير ، وكان قد عاد المندوب نادبا عاديا . جاحدا للنعمة شاكيا .
ذاكرا أنه عدم الحفاظ . ووجد الاحفاظ . وأكثر الكلام فما حرك
شمام . وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض . وخطب مقض .
وغضب مغض . وافظ فظ . وحض على غير حظ . ومعه الملامات
المؤلمات . والظلامات المظلمات . فقلت له : اسكت واصمت ، وبمالك
من وسم الوصم مت ، ولا تدخل هذا الباب واخرج ، وليس هذا
بعشك فادرجـ وقلت للأسلطان سمعا وطاعة لأمر الديوان فان اظهر
سر العتب لك من غاية الاحسان ، فقال : نعم ماقلت ، وقد طلت
بارسال أخيك وطلت وما أسعني اذا شرفت بالعتاب . واسعفت
بالخطاب ، والمملوك ينفعه التأنيب . ويزعه التهنيب . على أننا لم
نأت الا بكل ماوقى الهدى . وأضعف العدى . وكف الكفر . وأبني
الدين . ومازلنا في طاعة أمير المؤمنين مجبين . أما فتحنا مصر وقد
باضت بها دعوة الدعي وفرخت . أما استأنفنا بها تاريخ الدولة
العباسية بعد ان كانت سنين بسواها أرخت ، أما استخلصت اليمن

والدعي بها داع ، وللهدى فيها ناع . وللضلال منها راع ، أما
أرحمت من رق الشراك الساحل . أما أرحمت عن حق الملك
الباطل ، أما فتحت البيت المقدس والحقبة بالبيت الحرام ، وأحفته
رداء الاكرام ، وأعدت الى الوطن منه غريب الاسلام . أما رعت الغرب
بغرب عزمي . ووزعت الشرق بشرع حكمي ، وماتعبدت الا
بالعبودية للدار العزيزة . وهذه الفطرة متمكنة مني في الفريضة .
فأهلاً وسهلاً بالرسول . وبالسول وحباً ومرحباً بالاقبال
والقبول . ومأتى الا بالحب والحبور . ولامرار الأمور . ولاظهار
سر السرور . والبارق يشام اذا رعد ، والصادق يرام اذا
وعد ، وما سرنا بالواصل وأوصلنا بالأسرة ، وأبرنا بالجد واجدنا
بالمبرة . وسمعت منه كل ما هدى سمعي . وأبدى لمعي . وجمع
شملي . وشمل بالعز جمعي ، ولما قرب اخي وأصبحت لقدمه
انتخي فأمر السلطان الأمراء على مراتبهم باستقباله ، وتقديم
لجلالة قدمه باجلاله ، ثم ركب وتلقاه بنفسه ، وخصه من تقريية
بأنسه ، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار ، ومضار
الكفار ، ومواطن اقدام ذوي الاقدام . ومواطن بسالة أهل
الاسلام . ثم نزل وانزله بالقرب وعقد له بالحباء حبي
الحب ، وسفر وجهه لوجاهة السفير . وأحل محل التوقير
والتوفير ، وتبليج له صبح التبجيل . وتأمل منه نجع التأميل . ثم
حضر عنده . وقد اخلي مجلسه لي وله وحده : وأدى الأمانة في
مشافهته ، ووجه مقاصده في مواجهته وأحضر التذكرة وقد جمعت
المعرفة والتذكرة ، فقرأتها عليه بفصولها وفصوصها . وألزمته حكمي
عمومها وخصوصها . ووقفته على ظواهرها ونصوصها . وكانت
في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلظة وخيلت سقطه ، وجلبت
سخطه ، وقال ان الامام أجل ان يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ .
والاسجاع الفلاظ فقد أمكن ابداع هذه المعاني في أرق منها لفظا
وارفق وأوفى منها فضلا وارفق . ومعان الله ان يحبط
عملي ، ويهبط أمني . وامتعض وارتمض . ثم اعرض عما عرض
ورجع الى الاستعطاف . وانتجع بارق الاستسفاف . وقال اما
ماتحله الاعداء وعدا به المتمحلون . وتنفق به المنقولون وتسوق

المبطلون * فما عرف مني الا الاعتراف بالعارفة * وماهزرت منذ
اعتزرت اعطاف العز الا لما يعزني من العاطفة ، وان شرفي بالنعمة
السالفة ، يوجب أنفي من هذه الأذفة ، وأما النعت الذي انكر ونبه
على موضع الخطاء فيه وذكر * فهذا من عهد الامام المستضيء
رضوان الله عليه وجري لتحققه مني على الاسنة . ومتي عد سيئة
ماعد من الحسنة ، والآن كل ما يشرفني به امير المؤمنين من السمة
فانه اسمي الذي هو اسمي واشرف . واطراً وأطرف وأرفع
وأعرف . ومازانه ذلك العتب الاخلاص ولأه ، وخصوص اعتزاز
واعتراف . ثم قال كل ما اعتمد من نصرة اللين وقهر اعداء امير
المؤمنين فإنما طلبت به وجه الله ورضاه وما تعبدت به سواه . فاني
افترض الطاعة الامامية للين لا للنينا ، وما اتقوى فيها الا
بالتقوى . وما في عزمي الا استكمال الفتوح لامير المؤمنين وقطع
دابر المنافقين والمشركين . واذا عادت عواطفه عطفت علي في الحسن
العوائد وقطفت القوائد ، وصفت الموارد ، ووفت المقاصد ، وبعد
الأبعاد ، وبعد الحاسد الحاشد ، وهجر هجر الساعي ، واجرى
اجر الداعي . وعلم جهل الواشي ، وعذر زعر الخاشي . وجرب غش
الغاشي . وخرب عش العشي . وذوت هموم ذوي الهمم ، وأوليت
كرامة اولي الكرم ، وما زال السلطان مدة مقام أخي عنده ، يوري
في اعظامه زنده ، ويأمر بإكرامه جنده ، فكنت اشفق من تكرار ذات
البين بعود الانس والوصلة والى الوحشة والبين ، وان جماعة من
الاكابر اجتمعوا بالسلطان وقالوا له بقدر نسب حقدك الى البطلان .
ورميت بالبهتان ولمحت طاعتك بعين العصيان . فكيف خفت
وما عفت . والفتت ومسا انفتت . ورغت ومسا غرت .
وصبرت وما سبرت * وأغضيت لما اغضيت * وأعتبت لما عوتبت *
وراقبت وما راقبت .

فقال تذلي للديوان العزيز تعزز به أين . وتوسلي إلى مرضاته
توصل بالله فيه استعين . فتواضعي ترفع ، وتخشعي
تورع ، وحبل حبي متين ، ومكان قربي مكين . ومما قلت له
واوضحت له سبله ، انا كنا بطاعة امير المؤمنين نطول ونصول

ونزاول بها المالك وعنها لانزول ، وهذه فضيلتنا التي رجحت .
ووسيلتنا التي نجحت وكتابها مسعودين . وعليها محسودين . وقد
شملت بها بركاتها . وكملت حسناتها . وصفت مشاعر
يمنها ، وضفت مدارع حسنها ، فلا تلتفت الى من يلفتك ، ولا تثبت
لمن لا يثبتك ، واعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف ، ولذوره اجتلي
واجتني ، ثم ندب مع أخي من سار في خدمته لزيارة القدس ، وامر
بأن يقف به على مواقف الظهر التي ظهرت من أهل الرجز
والرجس ، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل ما في النفس وبالع في
ابداء التضرع والتذرع واظهار التخشي والتخشع ، وانشأت عنه الى
الديوان كتباً معه وبعده ضمنتها كل ماحلا وجلا جنة وجده ، وكل
ما يبطل سوق المتذفين ويعطل ذفاق المتسوقين . ويهجن خلق
المختلفين . ويزيل تليفق الساعين . ويزيح سعاية الملافين . ويتعرف
الى العوارف الغرر بالشكر ، ويسستعطف العواطف الغرر
بالعذر ، ويجتهد في استفراغ المجهود للاستغفار ، وينفض عن وجه
البشر ما عليه من الغبار ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضا
ومضى ما مضى وقضى من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى .

وفي هذه السنة استشهد الأمير شمس الدين بن المقدّم بالموقف في
عرفة لابداعه رسماً ماعرفه ، فذهب غلطا وعطب فرطاً. وذلك ان أمير
الحاح طاشتكين انكر عليه ضرب الطبل فامتنع ، فندب اليه من به
بأصحابه أوقع ، فتمت من هذه الفتنة فترة ونمت ذفره ، ولما نمي
الخبر الى السلطان لم يبد منه سوى الاذعان وقال لاشك ان
طاشتكين طاش ، وقصد بعد الايناس الايحاش ، وعد الديوان
العزیز هذا من ندوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرأته بعد
سنتين .

نسخة كتاب جامع الافتح القدسي الأيمن انشأتها
الى سيف الاسلام اخي السلطان باليمن ،

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس السامي ضاعف الله
علاءه ، وظاهر الآله وضافر نعماءه ، وأظفر بالانجح
رجاءه ، وأضعف حساده ، وأعز أوليائه وأذل أعداءه ولا زالت أيامه
بالإيمان مسفرة ، ولياليه بالحاسن مقمرة ، ومكارمه بالحامد
مثمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ، ومعاهد معانيه بقهر
الذم مقمرة ، ودالة على البشرى بالفتح الأكبر ، والنجح
الأزهر ، والنصر الأشهر . والعصر الأبهـر . والفضل الأكثر .
والافضال الأوفر ، واليوم الأنور ، واليمن الأنضر ، والفجر
الأسفر ، والفخر الأظهر والجد الأشم الأشمخ ، والمجد الأبلج
الأبلخ (٩) ، والعز الاسمق الاسمى . والنور الأنم الأنمى .
والظفر الأجل الأجل . والوطر الأحـل الأحلى ، والشرف الأسنم
الأسنى . والعزم الأغـم الأغنى ، والسعد الأجد الأجـدى . والصيت
الأبدى الأبدى ، وهو الفتح الذي تدفـوح بمحابه مهـاب الفتوح . وتبـوح
بسر روحه وملكه سرائر الملائكة والروح . وتروح وتغدو غواصي
النعم وروائحها الى روض الهدى المروح . وتلوح تباشير بشرائه وفي
لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدر
المشروح ، وتدوح ناعية الكفر في كل ناحية ولكل نادبة للأسى على
قتيلها واسيرها ندوب في القلب المقروح ، وهو فتح بيت الله المقدس
الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنة ، وطال في اسره سجنه
واستحكم وهنه ، وقوى نكره وضعف ركنه ، وزاد حزنه وزال
حسنه ، وأجـدبت من الهدى ارضه ، وأخلف مزنه ، وواصله خوـفة
وفارقه امنه ، واشتغل خاطر الاسلام بأسبيه وساء ظنه ، وذكر فيه
الواحد الأحد ، الذي تعالى عن الولد ، وإن المسيح ابنه وأربع فيه
التثـلث فـعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهيـم مقتنه ودرج
الملوك الأقدمون على تمنى استنقـاذه فأبى الشيطان غير استـتـيلائه
باسفار صبح امرنا واشراق مطالع نـفـانـه ، ونخر الله هذه الفضيلة

لنا ولهذا العصر . وأنزل على نصلنا نص النصر . وأطلع الليل
عزمنا فجر الفخر ، ووقفنا لوصول اسباب الاسلام وقطع دابر
الكفر ، وذلك انا استفتحنا سنة ثلاث وثمانين بقمع اهل
التثليث ، وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث ، وخرجنا
من دمشق في المحرم ، في العزم المصمم . والرعب المجهر الى الكفر
والباس المقدم . وكنا اشفقنا على طريق الحج . من قصد الفرنج
فشغلناهم عن القصد بقصدهم . وتصدينا لجهادهم بردهم عن
المراد وصددهم ، وأقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك ،
وقدما الطلائع الى المناهل ونظمنا ساك امدادهم في ذلك
المسلك ، حتى وصل الحاج سالما . وذل الكفر عن قصده
راغما ، ولما فرغ القلب من شغله وقاز كل بجمع شمله بأهله ، سرنا
الى الكرك في الامراء والمفردين الخواص . وشفعنا للجهاد في سبيل
الله الفاتحة بالاخلاص ، وقد كنا استدعينا العساكر والجموع
للجهاد من جميع الجهات . وترقبنا توافيهم للميقات ، وأمرنا ولنا
الملك الافضل ان يقيم برأس الماء ، ويكون في خدمته جميع الامراء ،
وسرنا الى الكرك والشوبك فاخربنا عماراتها ، وأحرقنا
غلاتها ، وقطعنا ثمراتها ، وأزعجنا ساكنيها ، وأخفنا
أمينها ، وأجلينا عنها فلا حياء . وأقمنا الذوائج عليها في
نواحيها ، ووصل اليها ونحن بالقريتين العسكر المستدعى من الديار
المصرية ، فقويت به قلوب الأمة الحممية ، واجتمع بالمخيم الافضلي
برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفراتية ، والجزرية
والموصلية والديار بكرية ، فانتهز ولنا هناك فرصة
الامكان ، وانهض الى الكفر سرية سرية من اهل الايمان ، فساروا
سارين . واغاروا غارين ، واخذوا ونهبوا . وسبوا وسلبوا فلم
يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهم الطريق ، واخذت دون
خروجهم الى السعة المضيق ، فثبتوا ثبوت الجبال للرياح
العواصف ، وشرعوا الى عراني الكفر اسنة الرماح
القواصف ، وكان مقدم عسكرنا مظفر الدين بن زين الدين ومعه
مملوكنا قايمز النجمي صارم الدين ، فلقيا بصدريهما صدور
العوامل ، وحملوا في عسكرنا على الفارس والراجل ، وحصل

الفرنج منهم في دائرة الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى وكثر من
الفرنج القتلى والأسرى ، وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة
الكبرى ، واتصلت بنا ونحن في بلاد الكرك البشري ، وشكرنا الله
على نصرته الأولى وقلنا هذه مقدمة الأخرى ، ولما قضينا الوطر من
تلك البلاد ، ووفينا باحراق اقوات أهل النار بالنار حرق
الجهاد . فاجتمعنا بأصحابنا القادمين من مصر وتناصرت لدينا
دلائل الظهور وتظاهرت امارات النصر . عننا الى الشام . وقد
تكاملت به جموع الاسلام . وزخر بصر القضاة بأمواج
الاعلام . وطفا على اتباع لجه حباب الخيام وقد قض القضاة ختام
الفتام وعلق بالفلق من ذلك الفيلق غرام الرغام . فخيمنا بعشرا
(١٠) شهرا . وقد أعينا بشهر بنات الغمود سرها
جهرها . وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها
مها . وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا . ونادوا في بلادهم
فأسمعوا . واجتمعوا على صفورية من صفر . وحشروا في تلك
الاشهر من جمعهم في الحشر جموع سقر . وأخرجوا صليب
الصليبوت . وقائد أهل الجبروت . فتهافت الى شعلة ناره
فراشهم . وتوافى الى ظلة ضلاله خشاشهم . وقاموا وقيامه رعبهم
قائمة . وسوايح جردهم في بحر العجاج عائمة . وطلائعهم سارية
وسراياهم طالعه . ومقدمات رعبهم منا السائرة لجذوبهم وقلوبهم
مقضة خالعة . فلما تكامل منا الجمع . وأخذ بعجابه وعجابه على
الآفاق البصر والسمع . عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم
العرض . ويتلو مشاهده لتتزل الملائكة (والله جنود السموات
والارض) (الفتح ٤٧) في رايات خافقة كقلوب الأعداء . عالية
كهمم الأولياء . وسرنا في جموع ضاق بها واسع القضاء . وسار في
كتائبها نازل القضاء . وسحب نيل الأرض بمثار نفعها . على
السماء . وقطعنا الأردن . وتأيد الله مواصل . وقدره باقدارنا
على الأعداء كافل . فما الممنا بسطورية حتى فتحناها
بالسيف . وبخلناها بخول المفير لا بخول الضيف . وتسلمنا
المدينة . ونازلنا قلعتها البكر الحصينة . وذلك يوم الخميس الثالث
والعشرين من شهر ربيع الآخر والخميس يؤم الخميس . وأسد

الوغي قد اتخذت من وشيجه العريس . هذا والملك العادل عنا غائب . ومعها أيضا بمصر كتائب . وتوفيق الله له مصاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبرية . ان نلاقى الفرنج على صفورية . في مركزهم ومجتمعهم . ونلابسهم في مخيمهم . فحين نزلنا من الثغر بالاقحوانة (١١) . وتمسكنا من الله بالاستنجاد والاستعانة . ركبنا قبل قصد طبرية الى الفرنج في مجتمعهم . واشرفنا عليهم في موضعهم . فما برحوا من مكانهم . ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم . وارتدنا في صحراء لويبة موضعا للمصاف واسعا . وفضاء لأزق الجمعين جامعا . وبتنا هناك باطلال الميمنة وميسرة . ووجدنا بتأييد الله اسباب الظهور وميسرة . ووجدنا في خصاصنا والجنادرية . ونزلنا في العدة المجربة على طبرية . واخذ الذقابون ساعة النزول في الذقب . فصرع قائم سورها للجنب . وبخل الناس اليها ليلا للنهب وكانت ليلة مدلهمة معتمه . وارجاء المدينة مظلمة . فاشعلوا وأوقدوا . وبخلوا الدور وتفقدوا مالم يفقدوا وكانت بها حواصل من زفت وكتان علاقت بها النار . فاحتقرت تلك المساكن والبيار . وتحصن اهلها بقلعتها . وتمنعوا بمنعها . فأصبحنا على حصرها . وسلكنا جدد الجدد في امرها . فجاءت رسل الامراء . ان الفرنج قد تحركت . وانزعجت اكون عقيلتهم من طبرية تملك . وادركهم الندم كيف تركت وما ادركت . وأنها قد عبت جذودها . وشبت وقودها . ولبت نداء جموعها . وصبت عليها ماء دروعها . وغاضت في غدران سوابغها السابرية . وفاضت ببحار سوابجها الاعوجية . وان جمرهم قد استعر . وان بحرهم قد زخر . وانهم قد اتوا في عبيدهم وعبيدهم . وحدهم وحبيدهم . وخيلهم ورجلهم . وطلهم ووابلهم . وفارسهم وراجلهم . وأحزاب ضلالهم وابطال باطلهم . وانهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية . وسبقنا بفضيلة فتحها البرية . غاروا على العقيلة السبيه . واشعلت نخواتهم نار الحمية . وساقوا الى معترك الردى وملتقى المنية . ولما عرفنا قربهم . قصدنا حربهم . وزحفنا اليهم . واشرفنا عليهم . واللجب

السايري كالجبل الراسي . وقد افاض الحديد من قلبه على الحجر
القاسي . ولعت بوارق بيارقه . وراعت طوارق طوارفه . وبرقت
قوانس قوامصه . وارتعت فرائص فرافصه . وأمكنت فرائس
فوارسه . وباح الحديد على عوابسه بدوساوسه . وماجت بحار
سلاهبه . واشتعلت نيران قواضيه . وشدت الاجادل دون صوار
صوارمه . وسدت بعرض افواجه فجاج مخارمه . وقرنت الالفات
بلاماته . وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته . فاغتنما الفرصة في
اللقاء . وهجنا الى الهيجاء . واسترعت الاعنة . واشرعت
الاسنة . وذقع الذقع . (١٢) أوام الجو . واجاب الصدى دوي
الدو . وجال الجاليش . وطار السهم المريش . وعصفت رياح
السوابق . واستعبرت عيون البوارق . ولقيناهم في عرمـرم
عارم . ومجر جارم . وعوامـل جـوازم . وصـواهل
صلادم . وضراغم ضوار . وجوارح جوار . واسود قد اعتقلت
اساود . وجياد قد حملت اجاود . وسـوايح قد اقلت
بحورا . وصقور قد ركبت صقورا . واوقفناهم نهار يوم الجمعة
وساكنهم لا يتحرك . وبازلهم لا يبرك . وصـفهم لا ينفذ
وجدارهم لا ينفذ . وبنيانهم مرصوص . وطائرهم عن الطيران
محصوص . حتى نخل الليل . وقر في الوادي ذلك السيل . وبات
الفريقان على تمبيتهما . واجابة داعي الموت بتلييتهما . واصـبـحنا
يوم السبت واهل الأحـد على حالهم ولم يريـمـوا مـوضع
قتالهم . ومازالت الحملات تتناوب . والاسلات (١٣) تتواثب
وتتناوب . والسواعد بقرع الظبي سواع . والرواعف في زرع الطلى
رواع . والمنايا تنن . والبيض تصافح البيض صفاحها . والذكور
لنتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها . والذوابل في
اشاجع الشجعان ذواب . والصوارم لجـوامـح النيران
شواب . وضمائر الغمود قد باحت باسرارها . ونواظر الجفون قد
تخلت عن غرارها . ولما احسوا بأسنا . وامـرار امـراسنا
والهجير يتلظى وقد قد عليهم بناره . والا وام يتوقد ولا يتوقى
احراقهم باواره . مالوا الى طلب الماء . واخذوا طريق البحيرة
للارتواء . فأخذنا عدامهم ووقفنا امامهم . وحلأناهم عن

الورد . والجأناهم الى الردى بالرد . فاعتصموا بتل
حطين . وصرنا بهم محيطين . وتحكمت فيهم قواضي
القواضب . ونشبت من النشاب بهم نيوب الذوائب . وكان جمعهم
جمرا وقد قد . فصب عليهم السيف نهرا فخمبد . وفضوا
بالفضاء . وفرشوا بالعراء . وعب دأماء الدماء . وغصت الفجاج
بالقتلى والاسراء . واسر الملك واخوه . والابرذس الكركي
ومؤازروه . ووجوه الكفر ومقدموه . ومقدم الداوية
وأعوانه . وصاحب جبيل واعيانه . وهنفرى بن هنفرى وابن
صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية . ولم يفلت الا ابن بارزان
والقومص (١٤) . وتم لهما من الورطة المخلص وكان كلاهما
ملهما عند اللقاء بالقتال . وعند الفرار بالاحتيال . فاما القومص
فانه لما مر بطرابلس ادركه الموت في برجه المشيد . ونقله القدر المبيد
الى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم أهل الجبروت . وحيز صليب
الصلبوت . وبار وباد اولياء الطاغوت . وهلك عبدة الناسوت
واللاهوت . وملك عليهم القدر كتاب الاجل الموقوت . وقدمنا
الابرذس وضربنا رقبتة وفاء بالندر . وعجلنا به الى النار مأوى أهل
القدر . والحقنا به الداوية والاسبتارية . وادنا عليهم صبرا
كؤوس المنية . وروينا ظماء القلبي من نجيعهم . وقربنا سيد الافلا
من صريعهم . وعدنا الى طبرية فتسلمنا قلعتها . وحللنا عقدتها
وفرعنا ذروتها . واقترعنا عذرتها . ثم سرنا الى عكا ففتحناها
بالامان . واعلنا بها شعار الايمان . واستقربنا بعدها البلاد
الساحلية من جبيل وحد طرابلس الى الداروم غير صور فانها
امتنعت بسورها . ولم يبق في كأس الكفر غير سورها . وانها
وجدت فسحة في ايام اشتغالنا بفتح اخواتها . وكثفت من عدد
المحاصرة الاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بداننا بالنزول على القدس
وذلك يوم الجمعة ثالث عشر رجب . فـرجفـ
بها قلب الكفر ووجب . وظن اهلها انهم يعتصمون . وانهم من
بأسنا يسلمون . فنصبنا عليهم منجنيقات هدت احجار السور
بسورة احجارها . وائن ركوعها بسجود الابراج في اجبارها .

ووقت الصخور باصراخ الصخرة . وعثرت تلك القلل لاقالة مادام
بها من العثرة . وكشف النقب وثقب الاسوار . ورمت الجنادل
جوانب ذلك الجدار . وعلم الكفار لمن عقبى الدار . وايقنوا بالقتل
والاسار . فخرج مقدموهم متذللين بالانعان . مبتهلين في طلب
الامان . فأبيننا كل الالباء . الا سفك الدماء من الرجال وسبي
الذراري والنساء . فخوفوا بقتل الاسراء . واخراب العمران وهدم
البناء . فأمناهم على قطيعة موازية لاثمانهم لو اسروا او سبوا .
فأمنوا . من ان يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا . ومن وفى منهم
بالقطيعة خرج بحكم العتق . ومن عجز عن ادائه دخل تحت الرق .
وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من
التقوى الى تأسيسه . وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر
قياس قسيسه . وفتح باب الرحمة لاهلها . وبخلت قبة الصخرة
لفضلها . وباشرت الحياة بها مواضع سجودها . وصافحت ايدي
الاولياء اثار القدم النبوية بتجديد عهودها . وشوهد مقام المعراج
وموطىء براقه . ورثي نور الاسراء ومطلع اشراقه . ودنا المسجد
الاقصى للراكع والساجد . وامتلأ ذلك الفضاء بالالتقاء الامجد .
وطنت اوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس . وجلت
هدى الهدي من الصخرة المقدسة جلوة العروس . وزارها شهر
رمضان مضيها لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح .
وشفى الله بسقيا هذا الفتح ماكان بهم القلوب لاجلها من تبار
التباريح . فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس . مفدى منا كلاهما
من المهج والانفس بالانفس . وانه من المساجد الثلاثة التي تشد
اليها الرحال والرجال . ويضيق عن وصف شرفها في حلبة البيان
المجال . وهو للحرمين ثالث ولا تثليث في حرم توحيده . فتجدد جد
الاسلام بتجديده . ولما فرغ البال من تدييره . وقضينا حق تقديسه
وتطهيره . صرنا الى صور . ونازلناها بعسكرنا المنصور . وفي
صور سؤر الكفر وبقيته . وقد تحصن بسورها ومنعته شرمته .
وهي مدينة حصينة . متوسطة في البحر كأنها سفينة . وقد نصبنا
عليها المنجنيقات فنكات فيها . ورمت من اعاليها وهدمت من
مبانيها . ولم يبق في جعبة الكفر سوى نشايها . وان جمحت علينا

فتصرة الله وعوائد تأييده لنا تؤنن بأصحابها . واذا تسلمناها تسلمنا بأن الله كل بلد للفرنج باق . ومالهم من عذاب الله الواقع بهم واق . ثم رأينا ان حصار صور يطول . وان مسألة بيكار (١٥) العسكر فيها تعول وان فتحها لايفوت . وله وقته الموعود ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكل . وقد نخل الشتاء . وبرد الهواء . وجاءت السماء وتواترت الانواء ، وتواصلت الانداء . ولا بد من استئناف جمع العساكر في ايام الربيع . واستمداد النصر الذي يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع . ورحلنا عنها بعد ان رتبنا حولها . في الثغور المجاورة لها . من يديم شن الغارات عليها . ويواظب على النهوض اليها ، وفسحنا لاجنابنا في الاستراحة مدة شهرين الى النيروز . فان في ذلك الايام تتوفر العزائم على المبارزة والبروز . وقد جرت المواعدة على المعاودة . والمعاقبة للمعاودة . والمعاهدة للمساعدة . فليس في الفرنج من يقاتل الان على الخيل . والنهار عليهم في اظلام الليل . والعز متقلص الظل عنهم والذل صافي النيل . وقد حزب حزبهم من حربنا مثير للحرب والويل . وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة . والمعقل المينة . وهي طبرية . عكا . الزيب . معليا . اسكندرونة . تبنين . هونين . الناصرة . الطور . صفورية . الفولة . جينين . زرعين . دبورية . عقربلا . بيسان . حيفا . صرند . صيدا . قلعة ابي الحسن . جبل جليل . بيروت . جبيل . مجدل . مجدل يابا . مجدل حباب . الداروم . غزة . عسقلان . تل الصافية . التل الاحمر . الاطرون . بيت جبريل . جبل الخليل . بيت لحم . لد . الرملة . قبيتا . القدس . صوبا . هرمس . السلع . عفرا . الشقيف . ولم نذكر ماتخللها من القرى والضياع والابراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع . ولكل واحدة من البلاد التي ذكرناها اعمال وقرى ومزارع . واماكن ومواضع . وقد جاس المسلمون خلالها . واسترعوا ثمارها وغلالها . وقد كنا عند قصيدنا البلاد . وعرضنا للجهاد الاجناد . كاتبنا اخانا الملك العادل سيف الدين ان يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب . وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتاب . فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا . والظفر الذي

اضحك الاولياء وازعج الاعداء وابكى . وتلا عليه (قد افلح المؤمنون)
(المؤمنون ١) وقد (افلح من تزكى) (الاعلى ١٤) كان وصل
الى السواد في سواده وبياضه . وبحار جيشه وبراضة . وورد من
مورد النصر الى حياضه . فجاش بجيوشه . وجاز العريش
بعريشه . وزار دار الداروم بدمورها . واجفلت قدامه البلاد في كل
من اعتمد عليه بامورها . ووصل الى يافا ففتحها غزوه . ونال
العسكر منها بالنهب والسبأ حظوه . ثم حضر مجادل يابا
وحصرها . وطلبت منه الامان فانظرها . وكتبنا اليه بالاقامة في ذلك
الجانب . ماضي العزائم قاضي القواضب . وان يستفتح من البلاد
مايتعجل فتحه . ويقدم من الرجاء مايتيسر نجحه . الي ان نفتح ما في
جانبنا من البلاد وننتهز فرحة الامكان فيما نحن بصده
ونغتذمه . وقد كنا انهضنا الى كل بلد من الناصرة وصافورية .
وحيفا وقيسارية قسرا وتسلمت البواقي سلما . ورأى من كان فيها
سلامته غنما . ورضي بالغرم رغما . وتسلمنا نحن تبنين وبيروت
بالامان . بعد ان قاتلنا اهلها قتالا شديدا الجأهم الى الازعان .
فاما صيدا فان صاحبها اذعن الى التسليم . بعد ان بات منا بليلة
السليم . واما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الاسر . ورأى
خلاصه فيما تعجله من الخسر . وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك
العادل على عسقلان . وهان لنا كل ما استصعب منها ودان . وظهر
لنا منها وجه الفتح وبان . واصبنا فوائدها لما رميناها بمصائب .
واصمينا مقاتل الاسوار بسهام قسيها . وعاقبناها بحيالها
وعصيتها . واقتدنا بخزائم الكرة انف الطاعة من عصيتها . وصافحنا
ببيض الصفائح يد الرضا من أبيها . وباشرت سهام المجانيق
بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها . ونهضت احجار الرماه الى
احجار البناء فهدمتها وهدمتها . وغنى فيها معول الذقاب . ولما ايقن
اهلها بالعطب . لاذوا بالضراعة والطلب . وخرجوا مسلمين
مستسلمين . وانقادوا مستكينين مذعنين . واسلم البلد واسلم
وجدع انف الكفر وارغم . وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه . وقر
منه الاسلام القريب في مسكنه . وعند ذلك تسلمنا غزة . واعدنا اليها
العزة . واتينا على الرملة ولد والنطرون . وفتحنا بيت جبريل وجبل

الخليل وجميع تلك المعازل والحصون . ثم ختمنا فتوحات هذه السنة
بفتح الارض المقدسة . والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب
والطافه المذفسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية . بما هناء الله
من الموهبة السنيه . وسناه من المنحة الهنية . لملوكنا حسام الدين
سزقر الخلاطي وامرناه ان يسير فيها من اصحابه . من يقوم فيها
بحق منابه . والمجلس السامى يشيع ميامنها ببلاد اليمن . ويجلو
عروسها البكر في حسننها الحالي وحليها الحسن . ويشكر نعمة الله
التي خصنا بها وعمت الامة . ويديم شكرها فان دوام الشكر يديم
النعمه . لا زال المجلس مشكور الشكره على الهمة . منصـور
العزمه . ان شاء الله .

ودخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة

والسلطان مقيم بـكا وربيب الربيع رضـيع . ووشي الروض
وشيع . وصنيع القدر نصيع . وشمل الظفر جميع . وفضاء الروض
وشيع . ومراد المراد مريع . ونسيم الاسحار لاسرار الازهار
منيع . واريح الجو العليل في شفاء غليل الجوى شفيـع . والدهر قد
ثمل وافاق . والزهر قد شمل الافاق . وللمحاب مهاب . وفي الشعاب
اعشاب . وخدود الشقائق محمره . وثغور الاقاحي مفتره . وعيون
النرجس مصفره . وشفاه المنابع مخضرة . واحداق الحدايق
الناضرة ناظره . ووجنات الجنات الزاهية زاهرة . وعذبات المنابت
متموجه . وحافات المناهل متدبجة . وجباه الفدران متغضنه .
وجفون النوار متوسنة . والافنان مسورقة والورق متفننه . وخد
الخبري مورد . وحد العراد مجرد . وعرف البهار قد تأرج . ووجه
الجلنار قد تضرج . وعذار البنفسج قد بقل . وعذر الزمان قد قبل .
وشارب النبت قد طر . وهارب البرد قد فر . وسر الصيف قد سرى
وسر . وطبي الطيب قد حفل ودر . وتقاضى السلطان غريم عزمه

ببين الدين . وان ان يصحرا ليث بأسه الخادر من العرين . فأبرز مضاربه . وجهز كتائبه . وضرب سرادقه . وعرض فيالقه . ونشر بيارقه . وحشر رواده وبوارقه . واذفق خزائنه . واذفد رفائنه . وبذل في صون الدين بيناره . واشعل في حفظ ماء الهدى على العدى ناره . وسار على سمت حصن كوكب . وعن قصده ماتنكب . ونزلنا عليه في العشر الاوسط من المحرم . ومامنا الا من له بقتال العدى فيه لهج الحب المغرم . ولعزمه وهيغ اللهب المضم . ووجدنا كوكب في سمائها كأنها الكوكب . وظن الفرنج انها لاتنكأ ولاتنكب . وهي من المصاعيب التي لاتبرك ولاتركب . فأحطنا بالحصن وخيمنا حوله . واستمددنا قوة الله وحوله . وزحف اليه الرجال . وتناوب عليه القتال . وركب اليه السلطان ورازه . واستصعب احتيازه . ورأى ان مقاتلته تطول . وان مسألته تعول . وان محاولته في مطاولته . ومصابه في مصابره . واضاقته في مضايقته . وان ماني هذه الحال اقتضى تعذرا فتضااض عذرتيه . ولا مطمع الآن في فرع ذروته . ولا قرع مروته . وكان في خواصه . واهل استخلاصه . لم تتجمع عساكره . ولم تتموج زواجره . فاقام هناك بالتدابير مستغلا وللأشغال مدبرا . وبالأستظهار متأيدا . وبأبيد الله مستظهرا . حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس . من كل محرب للحرب ممارس . وسلمهم الى طغرل الجاندار . لرابطها بالليل والنهار . ووكل بكوكب قايماز النجمي في خمسمائة مقاتل . من كل ناصر للحق والباطل خاذل . وكان سعد الدين كمشيه الاسدي بقلعة الكرك موكلا . وبحفظها مكفلا .

ذكر حال الكرك من اول الفتح

وقد مضى ذكر وقوع ابرئذس الكرك في الشرك . بمعتكر يومه في المعترك . وافتتاح الفتح بحتفه . وبسط كتف الانتقام عليه بقبضه وكفه . وانه اخذ رأسه . وقطعت انفاسه وقلعت اساسه . وكانت

زوجته ابنة فليب صاحب الكرك بالقدس مقيمة . ولحفظ معاقلها
مستديمة . وحصل ولدها هذفري بن هذفري في قبض الاسار وقيد
الخسار . وغمه الانكساف والانكسار . فلما يسر الله فتح البيت
المقدس . واصبح الاسلام عالي اليد والكفر راغم المعطس . خرجت
صاحبة الكرك متعرضة للخضوع . متضرعة بالخشوع . وبرزت
مسكينة مستكينة . متعطفة مراحم السلطان مستلينة . رافعة
عقيرتها بالابتهاال . شافعة في فك ولدها من الاعتقال . معفرة خدا
من شأنه التصعر . مسفرة عن وجه من عادته التخدر . حاسرة
خسرى . باسرة لحزنها بأسرى . والدة تنشد ولدها . والهة دخل
الرعب خلدها . مطلقة ميسورها . مستطلقة مأسورها . ثانية عطف
العطف لواحدتها . رانية بعين الذل في خلاص ساعدها . سائلة في
فلنة كبدها . جائلة بجذوة كمدتها . باسطة يدها . نائرة خرزات
دموعها . عاثرة بحزازات ولوعها . خافضة جناح استعطافها .
ناهضة في نجاح استسعافها . راجزة بذوحها . عاجزة عن بوحها .
وخرجت معها زوجة ابنتها ابنة الملك . كأنها من بنات الفلك . بابيا
صبح وجهها اليق (١٦) في ليل شهرها الدلك . مشرقة من
اوجها . مشفقة على زوجها . محترقة على فداء الحليل . مقترحة به
شفاء الغليل . خادرة قد اصفرت من مطالعها واصحرت . حادرة
عبرة في مدامعها طحرت (١٧) . ناهدة متنهدة . واجدة متواجدة .
معتزة متذلة . مهتزة متململة . باكية متلهفة . شاكية متأسفة .
مستدعية مستعدية . عاطية مستعطية . ساكية عبراتها . راكية
عثراتها . خامشة وجناتها . خادشة بشراتها . وحضرت الملاكة في
زوجها الملك خاطبة ولقرمها النذب نادبة . قد أذعنت وعنت لفكاك
عانيها . وطلبت بطلها الذي هو عامر دار عزها وبانيها . فاكرم
السلطان وفادتهن . ووفر افادتهن . وقرب ارادتهن . وقرر
زيادتهن . ووهب لهن ولاتباعهن واشياعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم
من مال القطيعة . ووصلهن بصلاتة الرفيعة . وخصهن بمالاق بكرمه
من حسن الصنيعة . ووثقهن بنجح الذريعة . وأما الملاكة فانه مكن
محلها . وجمع بالملك شملها . وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنتها
على تسليم قلعتي الشوبك والكرك . وبخولهما في معاقلنا وخروج

اصحابهما منهما في الدرك . فاستحضر ابنها هذفري من دمشق اليها واقرب رؤيته عينيها . وسار معهم من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل . ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل ، فمضت اليها مع ولدها . حسنة الظن بأهل بلدها . فلما وصلت قاطعوها . ودافعوها عن حصونها ومانعوها . واخلفوا ظنهم وخالفوها . حيث ما ألفوها كما ألفوها . وجنحوا وجمحوا . واجتروا عليها واجتروحوا . وعصوها وأقصوها . وعددوا عليها الذنوب واحصوها . وأفدشوا لها في خطأ الخطاب . وأوحشوها بالتلحي عن صوب الصواب . وسبعوها وسببوها . وإلى موافقة الاسلام نسبوها . وكلما لا ينتهم خاشعوها . وكلما قاربتهم بايذوها فوجدت ذبوة نوابها . وعدمت إصحاب أصحابها . وذكرتهم بدقوقها . وحذرتهم من عقوقها . ولاطفتهم فغلظوا . واسترضتهم فاحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا . ونبتهتهم لأمرها فما استيقظوا . وانفصلت عنهم خائبة مخدقة . هائبة مشفقة . تخشى من رد ولدها الى السجن . وعودها من الاصحاء الى الدجن ، ومضت الى الحصن الآخر . فحصلت منه على صفقة الخاسر ، فانها لما الت بالشوبك ألت من شوب كدرها واملت نفعها فعابت بضررها . ولقيت من نوابها نوائب . وفي موارد المراد منها اقذاء وشوائب . فأبت بالامل الخائب والعمل العائب . والخوف الصادق والرجاء الكاذب . فلما رجعت قبل السلطان عذرها . وازال نعرها . وأعلمها بان ولدها محفوظ . وبالرعاية ملحوظ . وبالعناية به محظوظ . وهو في حصن السلامة الى ان تتسلم الحصون . واذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون . فسكنت الى الوعد . وسكنت بعكا في ظل الرغد والرغد . ثم انتقلت قبل خروجنا من عكا . الى صور . واستودعت السلطان ابنها الماسور . وأمد السلطان سعد الدين كمشبه في حصار الكرك والشوبك بامراء يساعده في الحفظ واليذك . فأقام على كل قلعة من يكفي لحاصرتها . ويفي بمصابرتها . ويلبث في مقابلتها . ولايعبث بمقاتلتها . فانها تبقى على قوتها مالم تقو (١٨) من قوتها . وتدوم على طغيانها مالم يذل عز طاغوتها . فلما رتب

- ٥٩٢٠ -

السلطان هذه المراتب . ورب هذه المنابر . أقام حتى وثق
باستمرارها وتحقق حق استقرارها .

ذكر مدينته في عمارة عكا

اختلفت الآراء في أمر عكا فأنها كانت مدينة متخرقة . وبيوتها
متفرقة . وسورها غير معمور . ومعظمها بلا سور . ورأوا أن في
إبقائها خطرا . وأن في إخلائها ضررا فمن أصحابنا من أشار
بخرابها وحفظ الحصون . وبناء قلعة القيمون . ومنهم من قال إذا
صينت عكا ملك البحر . وهلك الكفر . وكانت على البلاد الساحلية
قلا . وكانت بها بلاد الكفر غفلا . فمن قائل بإبقاء برج الداوية
لحفظ مينائها . ومن قائل نختصرها من أنهارها . ومن قائل نجدد
سورها . ونحكم أمورها . ونقيها بحالها . ونعمرها بكمالها . على
أن أسوار هذه البلاد سيوفها التي هي عند الفتوح مفاتيح إقبالها .
وأجالوا الفكر فيمن يجلي غوائلها . ويحلي عواطلها . ويتوحد
بتدبيرها . ويتفرد بتعميرها . ويجتهد في تسويرها .

ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولي عمارة عكا

فقال السلطان: ما أرى لكفاية الأمر المهم . وكف الخطب الملم . غير
الشهم الماضي السهم . المضيء الفهم . الهمام المحرب . النقيب
المجرب . المهذب اللوذعي . المرجب الالهي . الراجح الرأي .
الناجح السعي . الكافي الكافل بتذليل الجوامع . وتعديل الجوانح .
وهو الثبت الذي لا يتزلزل . والطود الذي لا يتحلحل . بهاء الدين
قراقوش الذي يكفل جاشه بما لا تكفل به الجيوش . وهو الذي أدار
السور على مصر والقاهرة وقات وفاق الفصول بآثار مساعية
الظاهرة . فنامره أن يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة .

ونؤمره لهذا الامر فهو جدير بالامر والامارة . وكوتب بالحضور .
لتولي الامور . وعمارة السور . فوصل متكفلا بالشغل . متحملا
للثقل مشرح الصدر بالعمل . مذسح السر والامل . مبتهجا بالامر .
ملتجعا بالشكر . وقد استصحب معه كل ما يفتقر اليه من اسباب
العمارة والاتها وأدواتها . وانفارها وأبقارها . ورجالها وعمالها
وعمارها . ومهندسيها ومؤسسيها . وحجارتها ومعماريها .
والاسارى والصناع . والنحات والقطاع والمال الكثير للنفقة والذهب
الابريز والرقعة * ومثل بالخدمة السلطانية على كوكب . وحضر
الموكب وشرف باسني الخلع وأعطى الملابس والمركب وفوض اليه
وقلده * واسعفه من عنده واسعده * وقوى جانبه * واعذب مشاربه
وأوضح مذهب * وانجح مأربه * وأجد جده . وكثر مدده * ووفر
عده وعدده * وخصه بعطايا * واستخلصه لوصايا * فتوجه الى
عكا وشغله متوجه * وعزمه متدبه وسره متفرقه * وفكره في رياض
الهدى متنزه * وامره ماض وحكمه قاض * والله عنه راض * وقام
بما أقيم له * ونهض بالعبء وحمله * ومشى بكفايته عمله * وشرع
في التعمير والتسوير * وتسوية الأمور بحسن التدبير * وسياتي
شرح ما جرى بعد ذلك في مكانه * وما ظهر من حسن اياته
واحسانه .

ذكر وصول رسول سلطان الروم قليج أرسلان وغيره
من الرسل .

لما شاع خبر السلطان باستيلائه على البلاد . واستعلائه في
الجهاد . وتارجت الارحاء بعرف عرفه . وأرخت السير بمحاسن
وصفه . عنت الامصار لمصره . وأعنت الاملاك لملكه * وانقادت
الامراء القادة لأمره . وعادت مهاب المحاب تقووح بما له من الفتوح .
وشروح ايرانه واصداره تحل في صدر الزمان المشروح فتهيبه
بالضراعة كل عظيم . وتأهب له بالطاعة كل اقليم . ورهبه ملوك
الاطراف . وتعلقوا باستزادة الشرف منه أهل الاشراف . فكاتبوه

مستسعين . وخاطبوه مستعطفين . وراسلوه بالتحايا . وواصلوه بالهدايا . ورغبوا في امتراء خلاف الامتزاز . والاتشاح والالتحاف بخلاف الاتشاح . وخطبوا الوصلة . وطلبوا الصلة . وكل يطلب لبله منه امانا . وليده وقدمه من تمكينه وتأييده امكانا ومكانا . ويتوصل ويتوسل . ويتلطف ويتطفل . ويرسل ويسترسل . ويترجى مواهبه . ويتخذى عواقبه . ويديم التردد للتوديد . والقصد لبلوغ المقصد . فما يعود رسوله الا بسوله . ولا يقبل عليه منه الا بقبوله . ومن جملة الملوك المقربين بالوداد . المتسببين الى حصول الاتحاد . سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان . فانه بذل الانعان . وسأل الاحسان . وأدى في المودة الامانة . وأبدى للرغبة الاستكانة . واستنهض في سفارته السفير الالب . وندب النذب . وانفذ أكبر أمرائه . وأعظم سفرائه . وهو اختيار الدين حسن بن غفراس . وكان في دولته مقدما . وفي مملكته محكما . وعند أهل ولايته معظما . وقد استعلى عليه واستولى . واستبد بالتدابير عليه كأنه بمملكه أولى . ولا تصرف له في ملك ولا مال الا بتصريفه . ولا تعرف له عن حادث وحال الا بتعريفه . فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد . وتشبيد المقاصد . وتجديد العهود . وتأكيد العقود . وقدم مكرما وأكرم قادما . وخدم حاضرا وحضر خادما . وقبل البساط وبسط وجه القبول . وتمثل له الشرف فتشرف بالمدلول . وحيا تحية المماليك للملوك . وحفظ الادب ولم يتنكب فيه عن النهج المسلوك . فتلقيه السلطان بالبشر والترحيب . والبر والتقريب . وأعزه بنزوله في ذراه . وأوعز بنزله وقراه . ووسع عليه من الانعام بما ضاق عنه أمله . وواصله من الجميل بما راقى تفاصيله وجمله . وشفع رسالته بالاصفاء . ورفع مقالته عن الالغاء . وسمع ما جاء به وأجابه . وأبعد بانباء مآربه مآربه . وشافهه بشفائه . وأرواه بروائه . وأولاه لولائه . وعرفه بالتعريف الى الآئه . ونصبت له خيمة مسرده . شهادات الاقبال الناصري لها مصدقة . ووجوه الكرامات بها محدقة . وسحب المبرات لها مفدقة . فأقام أياما بايامن مقيمه . ومحاسن من احسان الشيم السلطانية مشيمه . فلما استقام أمره استقل . واستدر له بارق البر من سماء السماح

واستهل . ومارام حتى نال مارام . ووثق لاحكام الموائيق الاحكام .
ووصل في تلك المدة أيضا الصلاح قتلغ أبه . وهواتابك قطب الدين
سكمان بن محمد بن قرا أرسلان وافيا موافيا . باحسان الخطبة
وخطبة الاحسان . راغبا في تديم الوصلة . وتعميم الصلة . أخذا
لصاحبه ملك بيار بكر عهدا محكما . وعقدا من الميثاق مبرما .
وقد أحضر قضاة بلاده شهودا . واقتضى لصاحبهم بحضورهم
عهودا . وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل . ومث بكثرة
الشوافع والوسائل . وكان خائفا على آمد فانها من فتوح
السلطان . ووهبها لأبيه نور الدين بن قر أرسلان . فاشفق من
استرجاعها بالحق بعد وفاة والده . ورأى الامن عليها وعلى جميع
بلاده من أكبر مقاصده . ورغب في المصاهرة للمظاهرة . وان يفتح
بها باب المزاورة للموازرة . فأواه الملك العادل الى ظل هذه
المواشجة . وثبت بعقد المزاوجة حكم الممازجة . فتم أمنه . وعم
يمنه . وزاد قربه . وزال رعبه . وجلس السلطان . وحضر عنده
الامائل والاعيان . ووكلني وكان وكيل أخيه الغائب . في انشاء العقد
مع وكيل الزوج الراغب . فلما تم العقد باركانه . اعتضد ملك بيار
بكر بمكانه . وسار صاحبه بالاسار مصحوبا . وعاد نيله بالفخار
مسحوبا . وقال له قد وجدت الحزن فلا تحزن . واشتد ركك فالى
سواه لاتركن . ومامن كبير أو أمير الا وقد وصل منه أكبر أمرائه .
لينتظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه .

ذكر رحيل السلطان صوب دمشق

وأقمنا على كوكب الى اخر صفر . ننتظر منها بمن كفر الظفر . ثم
رأينا انه يطول حصرها . ولايقوت أمرها . وان الفتح يبطل . وان
كان السهم لا يخطى . فأمر الامراء الموكلين بها وبغيرها من
الحصون . بالمقام عليها وابتزال سرها المصون . ورحل السلطان
نحو دمشق طاهر الشيمة ظاهر العزيمة . سامي اللواء . هامي

الانواء • نامي الانوار في مطالع المضاء . ودخل اليها يوم الخميس
سادس شهر ربيع الاول . بالصدر الارحب والباع الاطول . وتلقاه
أهل البلد بوجوه لاقباله متهلة . وأسنة بالدعاء له مبتهلة . وعيون
لأنواره مجتليه . وقلوب بولائه ممثليه . واسماع لامره مستمعه .
وأيد إلى الله في نصره مرتفعة . وصدور بايامه مذرحة . وأمال في
انعامه مذفحة . وذفوس على طاعة الله في طاعته مجبولة •
واعمال في رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة . ودخل المدينة . وأدخل
اليها السكينة • فوجدت الروح بسطانتها . وعادت الروح الى
جثمانها • وقرت به عيون أعيانها . واقرت له بحسنها واحسانها .
وابتدا بالجلوس في دار العدل . وبحضرة القضاة والعلماء من أهل
الفضل . واسترفع قصص المتظلمين . واستمع غصص المتألمين .
وكشف الظلمات المظلمة . وفصل الحكومات المستحكمة • وقرأ كل
قصة . وقراها بكل حصة . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق • وأقام
للشرع السوق . وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق . وحل بانصافه
كل مشكلة . وطب بأسعافه كل معضلة . واصحت سماء السماح .
وأصبح جماح النجاح • وأعدى المستعدي • وأروى الصدي .
وحيا الحي وأورى الردي . ومجد المجدي • ومهد الحق حتى قيل
هو المهدي . فما انقضى ذلك اليوم . وانفض أولئك القوم • الا عن
مظلوم أجير بالحق . ومعلوم أجري من الرزق . وعالم أعين . وظالم
أهين . وهاد زين . وعاد شين . ومختل سدد ومنحل عقد ومعتل
شفي ومعتز كفي • وما حل جيد • وأمل زيد • وركن حق شد
وشيد • وخن باطل أبير وأبيد • وراح أننى فوزه . ولاح أسني
عزه • وجلس يوما آخر للأكابر والامائل . والاكارم والافاضل .
فاضاء الناني وفاضت الايادي • وغدق الندى وصدق الهدى . وكر
الكرم . وفر العدم . وحفل الدر ودر الحفل . وشمل النظام وانتظم
الشمل • وصان العلماء بالبذل . واعان بافضاله أعيان أهل
الفضل . وفاز بالحمد وحاز الثناء . واجاز الشعراء واكرم
الكرماء . وروح الرجاء . وأولى النعماء . ونعم الاولياء وتقاضاه
عزمه بالحركة لاستفاضة البركة . واستضافة المملكة الى المملكة .
فلم تستقر به دار • ولم يدر به قرار . ولم يثبت في جفنيه غرار . ولم

يبت الاوبين جذبية لحب لقاء العدى اهل النار نار . وكان الصافي
ابن القابض قد استجد للسلطان على بعض أبراج القلعة دارا .
وأذهب في نضارتها ذهباً ونضارا . وهي متطاوله بين البروج مطلة
على المروج ، مشرفة على موازاة الشرفين ، كاشفة غطاء النظر عن
الغوطتين . صحيحة البناء ، فسيحة الفناء . بهية البهو . شهية
الزهور . مجدة لأهل الجدد ذكرى اللهو . فرشها بماء الورد .
وفرشها بالورد . وبسط بسطها وعلق ستورها . وأعلى زورها .
وحبر حبورها . وسرى سرورها . وسنى انواع نمارقها . وأسمى
أدوار مشارقها . وتوصل الى حضور السلطان بها وجلوسه .
ونهب تباشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه . واحضره كل مقرظ
بقريض . وكل مؤمل بتصريح وتعريض . وكل ناشد ضالة رجائه
بذشيد . وكل قاصد جلالة ارجائه بقصيد . وكل مفرد مغرب . وكل
مطر مطرب . وظن ان السلطان تروقه تلك الحلية والحالة . وتلك
الجاوة والجلالة . وتلك البقعة المؤسسة . وتلك الرقعة المقدسة .
وذلك المشرف العالي . وذلك المشرف الحالي . وانتظر نظـر
استحسانه لاحسانه . وتوقع تمكينه لموقع مكانه . فما اعاره لحظا .
ولا لمحة بطرف استطراف . ولا منحه حرف استعطاف . بل اعرض
بنظرة عن تلك النضارة . وأغضى عن تلك الغضارة . وغض عن تلك
الغضاضة . واشتغل عن تلك الرياض بالرياضة . فالعاقل من
لايتخذ من دار الدوائر معقلا . ولا يجد في منازل الدوازل منزلا . ولا
يركن الى فناء الفناء لبيب . ولا يسكن في غار الغرور اريب . وكيف
يبني العمران والعمر الى الهدم . والغم في الدنيا الدنيئة عين الغم .
وقال السعيد من يبني دار الآخرة . وينجو من أمواج الدنيا
الزاهرة .

ثم صرف في تلك الايام الصافي عن ديوانه . وابقاه في شغل الخزانة
على مكانه . وسمعه يقول في بعض محافله . وقد أجرى له حديث
من يفرح بمنزله ؛ كان من نذوب الصافي عندي انه بنى لي تلك
البنية . فدل على انه لم يوافق منه الامنية . وقال ما يعمل بالدار من
يتوقع المنية . وما خلقنا الا للعبادة . والسعي للسعادة . وما يخطر

لنا في هذه الدار خلود بالخلد . وما لنا والمقام في البلاد والبلد .
وما جئنا لنقيم . وما نروم (الا) ان لانريم . وما تحركنا الا
للسكون . وما سهلنا الا للعود الى الحزون . فما يجنى ثمر الراحة
الا من مغرس التعب . وما يجنى نصيب المغنم الا من مفرم النصب .
قأين الاين . الذي تقر به العين . وما يحصل السكون في المسكن .
ولا يكمل الوطر في الوطن . لا سيما والدين يطالبنا بسينه . والكفر
يستقرب منا حين حينه . والبلاد سائبه . والبلاء هائبه . فلا تفوح
الفتوح الا بهب وبنا . ولا ينزل النصر الا بركوبنا . وغدا للحرز
متمما . والعزم مصمما . ووصل الخبر بوصول عسكر الشرق
بالغرب الماضي ، والحد القاضي . والجمع الوافر الوافد . والجمر
اللافح الواقد . وان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي قد اقبل
بقبيله . ووصل برعيه . وقدم بجده . واقدم بحده . وانه حل بحلب ثم
سار عنها مسارعا . وجاء معه الجيش للنجدة والجدة جامعا .
فأرهب العزم السلطاني خبر وصوله . وحل بالشد للرحيل عقد
حلولة . وكان القاضي الاجل الفاضل ذو الجلالة والفضل . والنباهة
والندب . متأخرا في بيته بدمشق لشكاة اقام في غبرها . واستقام
مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال اثرها . والسلطان بنجح
سعيه متبرك . وبصبح رأيه متمسك . وبطوله عالم وبقوله عامل .
وبعبارته قائل . ولا شارته قابل . فأراد السلطان ان يقدم بلقائه
الاجتماع . وبرأيه الانتفاع . ويستشير بنوره . ويستشير في
اموره . ويفاوضه في تفويضاته . ويقلده في تقليداته . ويتبرك بميامنه
ويتيمن ببركاته . فانه طالما اجتلى سني السعاده من مطالعه .
واجتنى جني الارادة من صنائعه . واقتتح الاقاليم بمفاتيح اقلامه .
وجاءه بالوجاهة في بينه وبنياه باسعافه واسعاده . وكان قد خرج
الى جوسق الشرق الغربي الاعلى . ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى .
فأصبح السلطان بكرة يوم الثلاثاء حادي عشر ربيع الاول على
الرحيل . فقصده لابرار ما وجدته في مملكته من الامر السحيل . واقام
عنده في الجوسق الى الظهر . مستظفرا به على الدهر . حتى كشف
مهمات مهماته ورشف شفاه مشافهاته . وانتجى معه في الاراء
والاراب . وانتجع لربه من رأيه صوب الصواب . وارتجع سر الغيب

ممن عنده علم من الكتاب . ثم استودعه الله وودعه . ودعا له الاجل
الفاضل وشيعه . وبات تلك الليلة مخيما بالعرادة . محتما بالسعانة
راجع السيادة . ناجح الارادة . ثم سالك في جبل يبوس الى عين
الجر الى الدلهمية . على البقاع . وهو مطيع امر الخالق ومتبعه
والخالق تابع امره المطاع . واتى بعلبك المحروسة . وخيم بمرج
عدوسه . واقام حتى امر امرها . وادبرها . وقسم لها من عدله .
وعدل بها من قسمه . وحكم فيها بفضله . وأفضل عليها بحكمه .
وكشف الظلم والمظالم . وصرف المكاره . وصرف المكارم . ورفع من
المعالي المعالم . وأجرى رسوم الاجر والمراسم . وامر الرعاة برعاية
امر الرعية . وحكم على القضاة بالحكم في كل قضية بالجهة
الشرعية المرعية . ثم رحل على سمت اللبوة . معصوم الذبوه .
مصون الكتيبة من الكبة والكبوة . ثم اوجه الى الزراعة وزرع الظفر
قد توجه . وشرع النصر الصافي الشرعة من الكدر قد تنزه ، وقد
كحل عتير العسكر طرف الجو الامر ، (١٩) وقد آن لعين الشمس
الراقدة من الهبوة ان تعاد الهبوة وتتنبه ، وزرع من الزراعة من
السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الخط . وقتاد الخريط وضاق
ذلك الفضاء الواسع بحط رحال الرهط .

به ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع

ووصل الخبر بان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وصل جامع
من الاداني والاقاصي ، ونزل طائعا على العاصي . وخيم على قدس
(٢٠) وخيمه قد تقدس ، والدين بدنوه تأذس ، والكفر بقدمه
تعكس ، وانه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه ، على قهر الشرك
ونصر الايمان ، فركبنا وابن ذكاء في اسفاره ، والصبح قد زحف
على الليل برايات انواره ، والفجر قد فجر انهاره نهاره ، وسرنا
بصدق النزاع ، وقصد الاجتماع ، فلقيناه قد ركب مستقبلا ، وقرب
مقبلا ، ولما راه السلطان حياه ، ولقيه بالكرامة واكرم لقاءه ، ونزلا

فتعانقنا ثم ركبا وتوافقا وتساوقا ، وخيمنا بقرب مخيمه ، وجئنا
وحططنا هناك رجالنا ، وخلطنا برجاله رجالنا ، وتساعد الجنان ،
وسعد الجنان. وجد السعدان ، وانتظم الجمعان ، واجتمع النظمان
واتحدت الكم ، وأتأتى الهم ، وسأل السلطان ان يوازره ويزوره ،
ويحضره بحضوره حבורه ، فساق معه الى سرادقه وارتفع في
صدره . ورفع من قدره . وصار العسكران مختطلين . وجلسا
منبسطين . ووقف الامراء والعظماء سماطين كالسمطين . وقرأ
القرء واورد الشعراء . وتجاذب بينهم اطراف الطرف والاداب
الفضلاء والعلماء . وكان مع عماد الدين شاعره السنجاري ابن
الهائم . ومن عادته ايراد المدائح في مثل تلك المواسم . فأشد
مدحا . وشد منحا ثم بسط السماط . وسمط البساط . ومدت
الموائد . وعادت العوائد ونضد الخوان . وكونت الالوان . ولونت
الالوان . وصفت الجفان . واحضر الطهارة من كل حاجة وباجه .
وخروف ودجاجة . وحلوحامت (٢١) وحامز وحامض . وتفه
(٢٢) وقابض . ومطبوخ ومشوي . ومصنوع ومقلي . ماطاب
مذاق مذه ومحضه . وطالت الايدي في بسطه وقبضه . فلما رفع من
ناديه القرى . وفرع بأياضه الذرى . قدم ما اعد للهدايا . والتحف
السنايا . من الجياد المقربة . والثياب المذهبة . والعدد المعجبة .
والاسلحة المذرية . وكل مايروق ويروع . ويضئ ويضروع . تم انفض
النادي عن ندي مذفض . وسدي لبكر الشكر مفتض . وعين
السلطان يوما لحضور عماد الدين عنده . وانه يستضيف فيه
خواصه وامرائه وجنده . فوسع سرادقه . ووشع نمارقة . وضرب
بيت الخشب له لحسب بيته . واسميت الحسنى بحسن سمته
وسمته . واحتفل بحفله . واجل لاجله . وارجت ارجاء النادى
بالند . وراق مد الزواظر النواضر في ذلك الرواق الممتد . وبسط على
البسط محضر من الياسمين والورد . وفاح النثر . ولاح البشر ،
وفرش الثرى . وشرف البرى . ورفع الحجاب . واشرعت القباب .
وتوجهت الاسباب . وتنزهت الالباب . وتضوعت نوافح النوافج .
ووضحت مناهج المباهج . ووضعت المطارح والمساند . والاسرة
والوسائد . وجاء عماد الدين في خواصه وامرائه وصحبه . فتلقاه

السلطان برحبه . وقرب له السرير وسر بقربه . واجلسه الى جنبه .
وحباه بحبه . واقبل عليه بوجهه وقلبه . وجلس من جرى بالجلوس
رسمه . وسما في الرؤوس اسمه . ووقف الامراء والحجاب .
والعظماء والاصحاب . على مراتبهم في مواقفهم . ودب الاعتزاز في
معاطفهم . وكان النادى مهيبا . والندي مجيبا . والذرا رحيبا .
والقرى قريبا . والظل ممدودا . والفضل مورودا . والحقل حافلا .
والشمل شاملا . والبساط مقبلا . والذشاط مقبلا . والمرئي عاليا .
والسموع مطربا . والمجموع مقربا . والمنظر والمخير جليلا جميلا .
والمطلع والمطلب منيرا منيلا . والمكان عليا . والزمان
جليا . والربيع في انتهائه . والصنيع في اشتهائه . والمصيف في
ابتدائه . والمضيف في انتدائه والنعيم في نضرته . والاريب في
اربه . والطروب في طربه . والضريب من الخلق الحسن في
ضربه . وكانت ايام المشمش وقد وصلت من دمشق
احمالها . وحلت في تلك الحالة حالها . واقدم الجذل
قدومها . وطلعت في ابراج الاطباق نجومها . كأنها كرات من التبر
مصوغة . أو باورس مصبوغة . صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية
حلاوذوقا . واحل شوقا . ولو نظم جوهره لكان طوقا . وهو احلى
من السكر . واعبق من العبير . واحسن هيئة من النارنج
الأحمر . والليمون المركب الدور . وقد زفت عروسه في الثوب
المعصفر . والخمار المزعفر . كأنما خرط من الصندل . وخلط
بالمندل . وجمد من الثلج والعسل . فهو الذي يضرب بضربه مثل
الثل . ويقضب من قضبه لقب القبل . ونظر منه ما نضر . وما
حظر ما حضر . ورثي هناك لقطوفه قطاف . ولطوافيره
طواف . ولعقوده مصارف . ولنقوده صيارف . فكأنها وجوه
العشاق اكتست اصفرارا . أو جمرات تشتعل نارا وتبدي
شرارا . وقد اعاد لجينها صواغ القدرة الالهية نضارا . بل هي
احداق الحداق . وقلوب البوارق . ووجنات الجنات صبغها بلونه
البرق . وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق . لابل اصفرت
من مهابة الجنات الجناه . وانتظمت من جواهر الحيا
الحياة . واضطربت لهاها شوقا الى فتح الالهة . ثم صرفت

الاطباق . ونظفت الافاق وبسط المكان . وسمط الخوان . ونهبت
اجفان الجفان للقدور الرقود . وشبهت المراحل لجليانها بصدور
ذوي الحقود . وتزيد مقال المقالي النشاشة . وتزينت مقار المقاري
بالبشاشة . ومادت اعطاف الموائد بالالطاف . وتهادت اكناف
السرادق بموشي الافواف . وهناك المسموط والمسلوخ . والمخطوب
لمطبوخ . والمقلو المقلوب . والمحبو المحبـوب . والاغنية
واللحمان . والاشوية والحملان . والالبان والالوان . والجوابي
والروابي . والصواني والالواني . وقد صفت البوارد . وصفت
الموارد . وتذوقت الطهارة . وتذوقت المشـهـاة . وحلت
الاطعمة . وعلت الاسئمة . وجاش جاش الجاشنكير الرابط .
وعاش اخوان الخوانسلار القايط . وتداولوا وتناولوا الذوات
والحوالات . والحلاوات والحالات . وكان يوما مشهودا . وحوضا
مورودا . وروضا معهودا . ورواقا ممدودا ورواء مودودا . وجمعا
مسعودا . وصنعا محمودا . ولما فرغت الموائد . وبلغت
المقاصد . احضر السلطان لعماد الدين هداياه . وحياه بأحسن من
تحياه . من خيل صفون . وحصن كحصون . وعراب جياذ من
طوائف الطريفيات . وسـوابق سـوابح من العتاق
الاعوجيات . والمذاكي المنسويات . من كل مطهم مطهر
الخيم . وكريم من نسل الكريم . وصافن صافي الاليم . ومغرب
مقرب . ومجنب مكرب . وسكب مشذب . وفيض سلهب . وبحر
جموم . وطرف لهموم . وسرحوب شيطم . ويعبوب صلدم . واجرد
قؤود . وضامر قيدود . وأقب نهـد . وجواد ورد . ومسح رفل
طمر . واشق امق غمر . ومفرع طمـوح . وعتيق غير
جموح . وهيكل عال . وعنجوج نيال . فاختر منها كل طرف . قد
حط من قدره اذا قوم بألف . من كل اشهب قرطاسي . واشعل
سوسني . واغر صنايبي . وادهم غيهبي . وادم ادوى . واشقر
مدى . وابرش مدبر . وكمين مضمر . واخضر وادبس . وسمنـد
اغبس . ثم احضر له ما يناسبها من التحف اللائقة . والطرف
الرائقة . والعدد الرائعة . والاسلحة المانعة والسابريات السابغات
والدروع والزربيات . والرؤوس والرائات . والخـ

والترائك . والبواتر البواتك . والدلاص الموضونه . والنصال
المسذونة . ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية . والملحم
والديقي . والمصمت والمغربي والعراقي . ومن نسج تـونة
وتنيس . كل ثمين ونفيس . وما شاكله من انواع الطيب . على
النمط والترتيب . ثم انصرف وعرف حمده متضوع . وعرف جده
متدوع . وشدو شكره وعطف فخره مترنم مترنج . وامره متحبر
متربح . ووده مترح مترجح . ودعاؤه صالح . وثناؤه
صادح . ولسانه داع . وجنانه واع . وعهده راع . وسعده
ساع . وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس . والتناجي
بما في النفوس ، والتدبر فيما يقدم ويؤخر . ويقرب ويقرر . ويورد
ويصدر . وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده . ويوفي
العزم فيها الجهاد حق جهده . واتفقوا على عرقا وعرقها
وعقـرها . والنزول بعقـرها . وانها اذا ملكت ملكت
طرابلس . واسفر عن صبح فتحها الفلاس . واقام العسكر اياما
على قدس . وبقبس النصر قد تأنس . ولسناء الظفر قد
توجس . واتى العرب . وواتى الارب . واجتمعت الجيوش
وجاشت الجموع . وأن الليل العزم المدلج من صبح النجح
الطلوع . ونبعت الفيوض من النعيم وفاض الزنبوع . واينعت ثمار
المبار وطابت اليزوع . ثم رحلنا اول شهر ربيع الآخر الى البقيعة
تحت حصن الاكراد وخيمنا على الربا والوهاد . وصوبنا الى
الجهاد هـ وادي الجياد . وادينا قطاف الطفاف الله لاجتناء
الاجناد . وكانت الاعشاب بالشعاب واصية . والشوائب من
المشارب قاصية . والقضب للقرب في طاعة الله عاصية . وطار
الرعب . وثار العجم والعرب . وخاف الكفر . وطاف الذعر . وقال
ذفر الشرك ذفر . ولاستقر . وتشاوروا وتشاوروا . وحاوروا
وتحاوروا . كأنهم في قبور حصونهم اموات . لا ترتفع لهم من
الوهل والوله اصوات . واجمعنا على دخول بلد الساحل على
التجريد للتجريب . وجوس خلال البعيد والقريب . ثم تجرد العسكر
عن الاثقال . وتجرأ على اخذ اهبة القتال . وسار السلطان ومعه
عماد الدين زنكي . وسيفه بصقاله يضحك وبدم الكفر

يبكي . ومظفر الدين كوكبوري . وهو الذي حين يوارى صارمه
المشهور في نجيع العدى لزند الظفر يوري . وصحبه من فرسان
العرب كل فارس معرب . ومن شجعان الاكراد كل فاتك
محرب . ومن فتاك الاتراك كل قسور قاسر . ومن صيد الصنايد كل
كسروي كاسر . وكل كمي كميش . واكديش على اكديش . وقارح
على قارح . وخضم على سابح . وجري جار جارح . وبهمة
وبطل . وجبل على جبل . وفحل على فحل . وذمر نكل وورد على ورد
ومرد على جرد . وحلس وحلبس . وياشر بالدوت معيس . واهيس
اليس . واحمي احمس . وغشمشم همام . وايهم مقدام . وباسل
ذي باس . وعاسل عاس . ورئبال على رئبال . ومشتمل على
شكال . وبحر على بحر . وصقر على صقر . وركبوا
سلاهبهم . وجذبوا جنائبهم . وجروا على الساحل سيولا . وجروا
بالذوايل نيولا . وطار ابليس طرايلس بخواني الخوف . ودام
الجوى في رعب اهلها بدم الجوف . وما سار الا من خف في
نهضته . ونهض بخفته . واحدس حصن الاكراد بالاكراد . وصفت
على صافيتا بوارق البوار . وقطع عرق عرقا وعقرت . وتعمرت
العريمة وتعرقت . ومزعت تلك الاعمال ومزقت . وارهقت
وازهقت . ونفرت انفارها . وبقرت ابقارها . وملئت بالدوائر
ديارها . وسيقت مواشيتها . وحشيت بالنيران اوساطها
وحواشيتها . ونزل السلطان على حصن يحمور فما قدروا
يحمونه . وابتذل مصونه واستخرج مكذونه . وفتحته
ومتحه . ومساه بالدمار وصبحه . واقام في تلك الليار عشرة ايام
يجوسها ويدوسها . وقد حيزت له نفائسها وذفوسها . ثم رحل
بمغنمه . وقفل الى مخيمه . وعاد العسكر مسرورا
منصورا . محبورا موفورا . قد اطلع من تلك البلاد على
العورات . واضطلع بالفنائم في تلك الغارات . ونكا منها في الاعمار
والعمارات . وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المرح يموج بالعساكر
موج البحر الزاخر . وقد وصل قاضي جبلة يحث على
قصدها . ويحض على انجاز وعدها . ويحرض على اعذاب
وردها . ويحقق ان الظفر في هذه السنة يبتدىء من عندها . ويقول

ان الاشتغال بطرابلس مع احترازها واحتراسها . وكثرة
ناسها . وتدرعها بلباس باسها . واستعدادها للحصار . وتجذبها
عن الاصحار . يذهب الزمان . ويفوت الامكان . وهذه جبلة وما
وراءها من المعاقل . قنيسة الحابل . وفرصة للمتناول . ولهنة
للآكل . ونغبة الناهل . وامنية للعاقل . لم يفتدع عذرة امنها
ذعر . ولم يفتأ سورة نفعها ضر . ولم يقرع باب يسرها عسر . فان
سلكنا سبيلها . ملكنا سلسيلها . وان جزنا ساحتها . حزنا
راحتها . وان استقدنا ملكها ملكنا قيادها . وان اعتدنا حواءها
حويها عتادها . وان افتتحنا بها فتحناها والمسلمون بجبلة
مجبولون على التسليم . مؤملون ان يتبدل شقاؤهم مذكم بالنعيم .
فهرقناه بصحة نصحه . ورفقناه بحجة نجحه . واصفى السلطان
الى قوله . واصفى له ورد طوله . واقبل عليه وقبله . واجزل له
العطاء واكمله . وكان قد وصل له مقدمو جبل بهرا . وفور لهم
رواتبهم واجرى . وخلع عليهم وشرفهم . واسعدهم بالماهوب
واسعفهم . فندبوا الى اتباعهم . وكتبوا الى اشياهم . واجمع
السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر الجاهل . ورحل يوم
الجمعة رابع جمادى الاول . حافل الجحفل سامي القسطل . ماضي
المنصل . فسرنا في اجام مؤتشفه . واکام معشبه وحزن
وسهول . وشعاب وتلول . ومعالم ومجاهل . ورواب
وهواجل . ومغايض وغياض . وارتفاع وانخفاض . حتى خرجنا
الى ساحة الساحل . ونزلنا بها ومبارك مبارنا مواحي رسوم تلك
الذواحي المواجهل . ومعنا احمال واوساق . واثقال
واسواق . وازواد وامداد وعدد واعداد . والخيل عرمرم . والسيول
عرم . والمجر لجب . والغيل اشب . والاسد في عريس من الاسل
العراص . والفوارس الصلاد في غدران من السوايح الدلاص . وقد
نشأ العجاج كعجاج الذشاص . فاندحت بدلولنا معاقد
المعاقل . واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقائل . وحلت لخطبه
سيوفنا كرائم الحوالي والعواطل . ونحسن في استباحة
واستباء . واصطلام واصطلاء . وارتياح وارتياح . وقتك
باعاء . وسفك لدماء . وبك لرقاب ذوي الفجور . وهتك لحجاب

ذوات الخدور ، ننال من العدو كل نيل وتدير عليه في داره دائرة كل
ويل • فما نقطع الا وايها يغيظ الكفار ، ولانحضر الاناديا نزيدهم
به الدمار ، وسرنا الساحل الساحل ، في ثلاث مراحل ، حتى
وصلنا الى انطراطوس يوم الأحد سادس الشهر ، فاحدقنا بها من
البحر الى البحر ، وزحف اليها الناس ، وحفر عليها
الباس ، وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الياس ، وقابلتنا
ساعة ، فلم يجد اهلها للدفاع استطاعة ، وودخلت من جوانبها
وتخللت من مذهبها واصابتها نوائها ، ونابتها مصائبها وفل
غريبها وجب غلالها ، وسبي من أخذ من نسائها
وأطفالها ، واعتصم من نجا ببرجين اعتصما بالامتناع ، وهما
هناك من أحكم القلاع ، وفي أحدهما الداوية جمرة الكفر ، ومعهم
مقدمهم الذي اطلق من الأسر ، وفي البرج الآخر المنهزمون
الناجون ، والفارون اليه اللاجون ، فنزل على هذا البرج مظفر
الدين بن زين الدين ، فأبدى لمن استقر فيه وجه التأمين ، وحركهم
الى الخروح بالتسكين ووثقوا بأمانه ، وأمنوا بميثاقه • ومكن كل
منهم لسلامته من تسلم مكانه ، فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه
وهده ، وحل من احكامه ما الكفر شده ، وركب النقب على ركنه
العالي ، ونكبة في ذلك اليوم بما تنكبت عنه نواكب الليالي ، وخرب
الى اساسه سورته ، ورمي الى البحر صخوره ، وامتنع برج الداوية
بدائها الدوي • واتبع مريدتهم في التمرد هوى طاغوتهم
الغوي ، وأقام العسكر حتى نقض اسوار انطراطوس
وقوضها . ورضنا بها الى أن عفينا ربضها . ولما امتنع البرج
تركناه ، وما كانت فيه فرصه لو ادركناه ، وكيف كنا نشتغل بفتح
برج عن البلاد ، وللقصر أوقات هي لها بالمرصاد ، ومن يسلك
الجدار الاحب لا يعرج على بنيات الطرق ، ولا يستغني مدلج الليل
بالدراري عن الفلق ، ورحلنا عنها رابع عشر الشهر ، شاهرين
على الأعداء سيوف القهر ، ونزلنا على مرقية وقد خلت من أهلها
وتخلت • وتشعثت عمارتها واختلت ، وكان جوازنا الى جبلة على
الساحل تحت حصن المرقب ، وهو معقل للاسبترارية عالي
المنكب ، سامي المرقى والمرقب ، ضيق المذهب عسر المطلب ، فلم

يكن بد من عبور ذلك المضيق ، وسدوا تلك الطريق ، وقد صفت
الفرنج في البحر المراكب ، وسدوا المذاهب ، وردوا الراجل
والراكب ، وفوقوا الجرخ الجرح ، وسددوا الزنبورك للقرح
والطرح ، فعرس العبور ، وكثر العثور ، وامتنع الجواز ، ووجب
الاحتراز ، وأعوز الظهور وظهر الأعواز ، وذلك ان صاحب
صدقية ، رام ان يكشف عن الفرنج البلية ، فجهز اسطولا بجهازه
مستطيلا ، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبئا ثقيلا ، واتفق
وصوله في تلك الايام في ستين قطعة ، تحسب كل واحدة منها قلعة أو
تلعة ، من كل شيني من شأنه شن الغارة ومن عادته العابية تشعيث
العمارة ، مع طاغية يقال له المرغريط • قد عرف منه التوريط ، من
أرجس الطواغيت ، وانجس العفاريت فوصل الى طرابلس بطوله
واسطوله ، وصوله وصوله ، فما أحلى ولا أمر • ولانقزع
ولا ضر ، ولا استقلال ولا استقرار ، ولانقض ولا أمر بل صار على الفرنج
وبالا ، وحدث لهم بما يسومهم من مؤنثه امحالا ، وماخفف عنهم
بل زادهم على الثقل اثقالا ، ووجد الكفر في اوان توانيه فلم ينتفع
ولم يرتفع شان شوانيه ، وصار الى صور ثم رجع الى طرابلس
وتردد في البحر وتلد وأبلس ، وتفرقت جماعته ، وتجنبنت
شجاعته ، واضطرب في البحر اشهرا ، ولا يظهر له رأي ولا يرى له
مظهرا ، فتقطعت اقطاعه • وتتابعنت في الفرار اتباعه ، حتى عاد في
عدة يسيرة ، وشدة عسيرة ، وكان هذا الطاغية قد حضر يوم
عبورنا تحت المرقب بمراكبه ، مصفوفة في البحر من جوانبه ، قد
ضيق الطريق ، ولم يطرق المضيق ، فأمر السلطان بحمل الجفاتي
الى هناك وتصفيقها ، والستائر وتأليفها ، والتسراس
وترصيفها ، واقعد من ورائها على مقابلة سفن القوم
وازائها ، الكماة النخية • والرماة الجرخية ، حتى تباعدت تلك
السفن ، ودب اليها الوهن ، وتمت عليها الحن ، وأنحت
الاحن ، ورحل العسكر فعبر آمنا وأمن عابرا ، وسار ظاهرا وظهر
سائرا ، وجزنا على مدينة يقال لها بلنياس ، وقد أجفل عنها
الناس ، ونزلنا في ارضها ، وخيمنا في طولها وعرضها ، وأنسنا
بنهرها وزهرها في الأرواء والرواء ، وحبسنا على نواضر رياضها

نواظر الارتضاء ، وبتنا ونفحات النادي مريضة ، وجنبت الوادي مريضة ، والنسيم العليل ليل ، والعزم الصحيح دليل ، ورسم العدو محيل ، ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل ، واصبجنا على الرحيل مبكرين ، (فسء صباح المنذرين) ، (الصافات ١٧٧)
وسرنا وسرنا في سرور ، وسفرنا في سرور وجمعنا في اجتماع ، وجننا في ارتفاع ، ونهجننا في اتساع ، وركننا في امتناع ، وعارضنا نهر عريض عميق ، مافيه طريق ، وهو مطرد من الجبل الى البحر ، فازلحم العسكر عند ذلك النهر ، وتواقعت الاحمال والاثقال عند العبر ، وليس عليه الا قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر ، وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر ، واستتبع من عسكره بعد الزمر والزمر ، ونزل عشية الخميس على بلدة . وعانت الاثقال في تخلصها من الشدة الشدة ، وتكامل نزولها حين انتصف الليل ، ووصل الى القرار السيل ، وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطئ هذا النهر ، وساحل البحر ، حصينة البناء ، مصونة الفناء قد حصنها الاسبتار ، وحسنها الاستظهار وقطعوا عنها سلوك الطرق ، بتعميق ذلك النهر المخترق ، والينا بلدة خاوية على العروش . حاوية للوحوش . خالية من الانس والانس ، (وكأن لم تغن بالامس) (يونس ٢٤) ، وقد انزعج اهلها ، وتشقت شملها ، وتخوف امزوها وعدم السكون ساكنوها .

ذكر فتح جبلة

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر ، وقد اشتهر موسم النصر ، واشتد على الكفر رهق القهر ، وكان قاضي جبلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمة ، وأقدم على قصدها بالعزيمة المصممة ، فلما بصر مسلمو البلد بما وضع في الجد من الجدد وسنح من الظفر المتضافر المدد ، خرجوا مستسلمين مسلمين مستمسكين

بعز الاسلام معتصمين ، وعلت على السور الرايات الناصرية المنصورة ، والتهجت بحمد الله الألسن الشاكرة وابتهجت القلوب المحبورة ، وتحصن الكفرة من الحين ، ولجأوا في التحين الى الحصين ، فمن لاذ بالحصن الذي على المينا ، قال انه بحصانته ومنعته يحمينا ، وعاذ معظمهم الأكثر بحصن البلد وهو المعقل الأكبر ، وتوسط لهم قاضي جبلة في أخذ الأمان بعد قبض الرهائن ، على ان يعيدوا من استرهزوه ، في انطاكية من أهله ، ويجمعوا شملهم بشمله ويسلموا اليها كل مالهم من سلاح وعده ، وخيل ونخيرة وغلة ، وتسلمنا الحصنيين يوم الخميس ، وعادوا مأهولين من الاسلام بالأنس ، وكرمت بالكرام جبلة جبلة ، ونفت عنها بالفتنة المقبلة ، الفتنة الشقية المختلة ، وسعد أهلها بعد الشقاء وتعوضوا من الشدة بالرخاء ، وافضى اليأس بهم الى الرجاء ، وفاؤوا الى الوفاء ، وانتقل أهل الجبل الى جبلة طائعين بعد العصيان ، مصافحين بالمصافاة بالإيمان أيمان أهل الإيمان ، وكان حصن بكسراييل قد تسلم من قبل ، واتصل بفتحه الحبل ، فرتب فيه من حكم على ذلك الجانب وأهله وكانوا لقاضي جبلة مذعنين بإيمانه مؤمنين ولدعائه ملبيين ، ولبقائه محيين • ونجوا من العار والتبار ، وضيم الكفار ، وتناجوا بالاستبصار والاستغفار والاستنفار ، وأضت تلك الولاية لاحسانها والية ، وتلك الناحية على سكانها حانية ، وتلك المدينة لأهل البين داتنة دانية ، وتلك الجنة العذبة الجني لورد دم الجنة من شوك القنا جانية ، وتلك البنية لمعالم المعالي في هدم اساس الاساءة بانية ، وتلك الهضبة راسية ، والتربة كاسية والرتبة سامية ، والربوة رابية والذروة عالية ، والحالة حالية ، واقام السلطان بها اياما حتى أزال شععتها • وأزاع خبثها ، ورأب صدعها ورب ربعها ، وشاد ركنها ، وشد حصنها ، حتى أزال كفرها ، وجبر كسرهما ، وجد بها جذبها ، وحض بها خصبها ، وباعدل عمرها ، وبالفضل غمرها ، وبالرعاية ملأها

والرعية كلاها ، وبجل قاضي جبلة وشرفه • وحبس عليه ملكا نفيسا
ووقفة ، وصرفه في املاك آبائه ، وحكمه في ولاية حكمه وقضائه .

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشري الشهر يوم الأربعاء منشور اللواء ، منصور
الأولياء • مشكور المضاد ، عالي القدر قادر العلاء ، ناجح الآراب
راجح الآراء ، وسار برعب الى العدو يقدمه • وعزم على الفوز
يصممه ، وأمر لأمراء الأحكام يحكمه ، وجد على تدبير الدين
يقفة ، وحد في تدمير المارين يرهفة ، وسعادة تؤيده وتأييد من الله
يسعده ، وسطوة على الكفار يرسلها ، وجذوة في أهل النار
يشعلها ، وجيش للوثبات يذسطه ، وجاش بالثبات يربطه ، وهيبة
تروع الخواطر ، وهيأة تروق الذواطر ، وبتنا تلك الليلة بالقرب من
اللاذقية معرسين ، وبات الكفرة مبلسين ، قد لاذوا من حصن
اللاذقية بجبل عاصم • وعروة كل قلب لهم من الرعب في يد
فاصم ، والخوف عليهم مستول • والذعر فيهم مستعل • والأفئدة
منهم خافقة والانية بهم متضايقة ، والمهيج في سوق الردى
نافقة ، ونحن طول الليل من السوابغ في جر النيل ، ومن السوابق
في اجراء الخيل ، ومن نشاط العزم في اهتزاز ، ومن احتياط الحزم
في احتراز ، ومن انتخاب الأجواء والجياد في انتقاء ، ومن انتقاد
العناق والرقاق في انتقاء ، ومن انتهاز الرياح بالهواضيب في
انتهاء ، ومن اقتضاب الأرواح بالقواضيب في اقتضاء ، والمقربات
تسرج والسريجات تقرب ، والمقانب تكتب والكتائب تقنب
والصوارم تنتضى • والصرائم تقتضى ، والقوارح تضممر ، والقرائح
تخمر ، والضوامر تجرى • والبواقر تعرى ، والصلاد تلجم •
والدلاص تستلأم • والحنايا توتر • والمنايا تؤثر • والجاليشية
تعبي ، والجاوشية تليبي .

حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح . والمتجر مربح .

والمفخر متوضح . والجاش فرح . والجيش مرج . وقرح العدو
مقترح . وزند الفتحة مقترح . وباب السماء لنزول ملائكة النصر
مفتتح . وأحدقنا بالقلع وقلعنا الاحداق . وخطنا بابر السهام من
موقها أماق . وأخرجنا منهم بالارهاق الارماق . وانهضنا اليها
الحجار والنقاب والزراق . وأطرنا الذشاب الى اوكار المقل .
وأزرناهم رسل النصال بكتاب الاجل . وسمعنا من ضوضائهم زجل
الوجل . ورأيناهم تغلي من صدورهم بنار الحقود مراحل الغلال .
وأشرفوا من الشراريق قلقين متقلقلين ما بين تلك القلال . وجدوا في
القتال . وشدوا على الرجال . وسدوا مذاهب الاهواء بالاهوال .
وهناك في الزنبورك بورك . فانه بالجرح دورك . وقلنا للكفر اخرج
لندخل الى دورك . وأي دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك .
وطالما سكنت دارنا فاخرج . ودرجت اليها فادرج . ومازلنا نقاتلهم
بسوادنا بياض النهار . ونغطي سني يومنا بليل الغبار . ونرفع من
الاسود حجابة بالحجار . حتى فزنا بتمكن النقاب والحجار .
وأخذت عليهم النقيب . ووقدت منهم القلوب . وبلغ النقب من
الشمال في الطول ستين ذراعا . واربعة أذرع في العرض اتساعا .
وهي ثلاث قلاع متلاصقات . على طول التل متناسقات . كأنهن على
رأس رأس راسخ . وذروة أشم شامخ . فسهل الله لنا فرعها .
وشرعنا نستاصل أصلها وقرعها . وناوبنا عليه القتال . وجاوبنا
بالنصال النصال . وأوضعت بنات الكنائن بظعنات الضفائن .
وأثارت من مكان الاحقاد كوامن الدفائن . ودام الرماء . ومريرت
الدماء . وانتجع النجيع . ووقع ذلك الرفيع . فاستبطيء السريع .
وتخطي الصريع . وأبصروا مالا عهد لهم بمثله . وعابنوا ماعانوه
من غريم الموت المطل في مطله . وفتح الحدف بابه . وحفز الزحف
اصحابه . وكشر الشرك نابه . وصادف الكفر لدمه المطلول مصبه
ومصابه . ونفر الناس اليهم . واستطالوا عليهم وطمعوا فيهم .
والاجل يظهرهم والوجل يخفيهم . وهم من وراء أسوارهم . بواء
في بوارهم . ووبل الذبل هام . وأهل الجهد في ضراب وضرام .
وجمر الجمع في التهاب والتهام . ووقع منهم الزمع . ومنافيهم
الطمع . حتى ازحم على التل الصغار والكبار . واستشعرا منا

وزال منا الاستشعار . وكان لي مملوك صغير قد زحف . وأرهق
وأرهف فقبل خده سهم . فرجع وإذا وجهه طلق لاجهم * وهو
بقرحه فرح . والفرح بالشهانة مقترح . وقد عدله الجرح * وحسنه
القبح * فلما عرفوا أنهم مدركون . وأنهم يؤخذون ولا يتركون .
صاحوا الامان . واستماحوا الايمان . وذلك في يوم الجمعة الخامس
والعشرين من جمادى الأولى عشية . وكان فتح ذلك المعقل من الله
مشيه . فانه موضع ما فيه مطمع * ولم يكن للكفر غيره مفزع *
وصعد اليهم قاضي جبلة يوم السبت غدوه . وكان ذلك الافتح صالحا
أشبهه غدوه * وطلع السنجق المنصور . وانجلت الظلمة وتجلي
النور . وأشرق الفلق وزهق الليجور . وبدا الفجر وباد الفجور *
وسرت القلوب وأقبل السرور . وساموا القلاع بما فيها من عدة
ونخيرة . وأسلحة وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم
وأموالهم * وانصرفوا بنسائهم ورجالهم . وذريتهم وأطفالهم .
وخفوا من أثقالهم . ودخل جماعة منهم في عقد الذمة . وتمسكوا
بحبل العصمة . وانتقل الباقون الى انطاكية . وايقنوا انهم وجدوا
بعد رسوم السلامة العافية العافية . ورتب السلطان جماعة من
خواص مماليكه * وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد
مصوننا من الاشرار وتشريكه * ثم ولى بها سنقر الخلاطي
مملوكه * وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه * فتولى الرعاية
كافة بالرعاية والكفاية * وانتهى الى غاية في نهى أولى الغواية *
واقام جاليا للغاية * عالي الرأي والراية * وركب السلطان الى
البلد وطافه * وهز إلى إحسانه أعطافه * وأدنى الى عدله قطافه *
ووفر الطافه * وأصفى نطافه * وأمنه بعد ما أخافه * ورأيتها بلدة
واسعة الافنية * جامعة الابنية * متناسبة المعاني . متناسقة
المفاني . قريبة المجاني * رحيبة المواني . في كل دار بستان . وفي
كل قطر بنيان . وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان . أمكنتها
مخرمة . وأروقتها مرخمة . وعقودها محكمة . ومعالمها معلمة .
ودعائمها منظمة . ومساكنها مهندسة ومهندمة . وأماكنها ممكنة .
ومحاسنها مبينة . ومراتبها معينة . وسقوفها عالية * وقطوفها
دانية . وأسواقها فضية . وأفاقها مضية . ومطالعها مشرقة .

ومرابعها موزقة . وأرجاؤها فسيحة . واهواءها صحيحة . لكن
العسكر شعث عمارتها . وأذهب نضارتها . وأزعج ساكنيها .
وأخرج قاطنيها . وملك دور المشركين للموحدين . وطهرها من
رجس الكفر وأظهر الدين . ووقع من عدة من الامراء الزحام على
الرخام . وذقلوا منه أحمالا الى منازلهم بالشام . فشوهوا وجوه
الاماكن . ومحدوا سني المحاسن . وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة .
ذفيسة قديمة . بأجزاء الاجزاء مرصعة . وبألوان الرخام مجزعة .
وأجناس تصاويرها متذوعة . وأصول تماثيلها متفرعة . وهي
متوازية الزوايا . متوازنة البنايا . قد تخيرت بها أشباح الاشباه .
وصورت فيها أمواج الامواه . وزينت الاخوان الشيطان . وعينت
لعبد الصليان . ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها . وشوهوا
أعلامها . وحسروا لثامها . وكسروا أجرامها . وأهدوا الاسى لهد
أساسها . وأفاضوا عليها لباس ابلاسها . وحكموا بعد الغنى
بافلاسها . وافتقرت وأفقرت . وخربت وتربت . ثم لما طابت
النفوس . وتجلى عن البلد بفتح البوس . عاد الى هذه الكنيسة
بالأمان القسوس وهي متشوهة متشعثة مستمسكة بأركانها
وقواعدها متشعبة . ولقد كثر أسفى على تلك العمارات كيف زالت .
وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت . ولكنما زاد سروري بأنها
عادت للاسلام مراتع . ولسروحه مراتع . ولجموعه مجامع .
ولشموسه مطالع . فلو بقيت بحليها وحالتها . بعد ما تبدلت رشدها
من ضلالتها لشاقت وراقت . وكما أفاقت فاقت . وشأت البلاد اذا
شاءت . لكنها ساءت لما أساءت . ثم أعادها الاسلام إلى أحسن
حاله . وجلالها في السناء أسنى جلاله . ورغب في إعطاء الجزية سكان
البلد من النصارى والارمن . حبا للوطن وسكونا الي السكن . فأض
مأمول الجني مأهول الجناح . وعاد بتجار البحار مملوء الرحاب .
وتبدل بالابدال الاخيار . والارباب الابرار . من بعد الكفار الفجار .
والاشرار أهل النار . وكانت شواني صقلية . قد قابلت في البحر
اللاذقية . طمعا في امتناعها . وطلبا لزيادتها عنها ودفاعها . فلما
خابت خبت نارها . وباخ أوارها . وقصدت لجهلها اخذ مركب من
يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صونها ببذلها . فامتنعوا عن

الانتقال . وأمذوا بعقد الذمة على النفس والمال . وكان السلطان يوم
الرحيل من اللاذقية راكبا عند ميناها . وقد حصل من ترتيب العمارة
مناها . فطلب مقدم تلك الشواني أمانه . ليصعد ويشاهد سلطانه .
فأمنه حتى صعد ! ولو أسلم ذلك الشقي لقلت سعد . ولما حضر
الكافر عفر وكفر . وتروى ساعة وتفكر . وأحضرنا الترجمان .
وأدى عنه البيان . وقال أنت سلطان عظيم وملك كريم . وملك
رحيم . وقد شاع عدلك . وذاع فضلك وقهر سلطانك . وظهر
احسانك . فلو مننت على هذه الطائفة الضائفة فأمنت وأفضلت
عليها وأحسننت . لملك قيادها . اذا أعدت بلادها . وصاروا لك
عبيدا . واطاعوك قريبا وبعيدا . وان أبيت غير الغيرة والاباء .
ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء جاء من وراء السبعة
البحار من يسد فضاء السبع الطباق . وأفاق للتناصر على دفع هذا
الخطب نصارى الآفاق . وثار الروم لروم الثار . وخرج الفرنج
أنفارا للاستنفار . وسار ملوك ذوي الاقانيم . من سائر الممالك
والاقاليم . واتي الآتي . ولايقاوم القدر المأتي . وهؤلاء أهون
منهم . فاتركهم واصفح عنهم . فقال السلطان: قد أمرنا الله بتمهيد
الارض . ونحن قائمون في طاعته بالفرض . وعلينا الاجتهاد في
الجهاد . وامتثال أمره فيه بالانقياد . وهو الذي يقدرنا على فتح
البلاد . ولا تكثر الاساد بكثرة النقاد . ولو اجتمع اهل الارض .
نات الطول والعرض . لتوكلنا على الله في البقاء . ولم نبال بأعداد
الاعداء . فلما سمع ما فهمه من نجهه . ذهب بعد أن صلب على
وجهه . وركب بكربه وكر بركبه . ولم يغن خطابه عن خطبه .

ذكر فتح حصن صهيون

ورحلنا ظهر يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى . والهدى في
نصره بين أنصاره يتهدى وقد تيقنا أن الفتح لا يتمادى . وان العزم
عن الفداء بالمهج في سبيل الله لا يتفادى . وأخذنا على سمت
صهيون . وهو حصن يفوق الحصون . ويفوت العيون وطلبنا كما

يطلب الدائن المديون . ونحن للكفر مميتون . وللإسلام محيون .
وكان الطريق اليه في أوبية وشعاب . ومنافذ صعب . ومضايق غير
رحاب . وأوعاث وأوعار . وأنجاد وأغوار . وقطعنا تلك الطرق في
يومين . ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين . وخيمنا على صهيون
يوم الثلاثاء التاسع والعشرين . ورزقنا الله التأييد والتمكين . وهي
قلعة على ذروة جبل في مجتمع واديين . بها محيطين من جانبين .
والجانب الجبلي قد قطع بخندق عميق وسور وثيق . والقلعة ذات
أسوار خمسة كأنها خمس هضاب . ممثلة بذئاب سحاب . وأسود
غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء من نواحيها الأربع .
وهي ممتنعة علينا بالركن الامنع . والسمو الامتع . ونقل السلطان
خيمته الى جانب الجبل بكرة اليوم . وشرع في محاصرة القوم .
وقامت أسواق الاقواس للمذون في مغلاة السوم . وتوفرت سهام
السهم من المقل . وتبدت بنات الكنائن من الدم القانيء حمر
الحل . وأسقطت حوامل المنجنيقات أجنة الصخور . وكشفت صدور
الكنائيات أكنة الصدور . وظهر سرا لاسراء . وكثر مرء الرماء .
وزخر دأماء الدماء . وطارت الحجارات . وحجرت الطيارات .
ودارت حميا الحمام على أولئك . واستتجبت ملوكنا الملائك .
وأدامت اليهم المجانيق والجروح والقسي الرمي المتدارك . وأقام الملك
الظاهر غازي صاحب حلب منجنيين . ونهج بهما من جانب
الوادي الى ربيء الاعادي طريقين . وكان له في فتح هذه القلعة الجد
العالي . والجد الوالي . والعزم الماضي . والحزم القاضي . والسعي
الناجح . والرأي الراجح . والبأس البالغ . والسطو الدامغ . فانه
اتصل بنا قبل الوصول الى جبهة من طريق حماه . وقد استصحب
الكمة الحماة . ومعه الرجال الحلبية . والمنجنيقية والجرجية .
والجندارية والخراسانية فأظهر على صهيون اليد البيضاء . وكسب
الذكر والثناء . وأنار في فضاء الفضائل وأضاء . ودام القتال على
المكان من جانبه . ومن جانب السلطان : والملك الظاهر في تظاهر
ملكه . وتضافر سلكه . وريعان اقباله . وعذفوان جلاله . وشباب
رهان مجاراته . وشبا برهان مباراته . وابراق عوده . واشراق
سموده . وغرة عزته . وميعه منعته . وصدر تصدده . وشرخ تأمره

وتشمره • وقد وصل في أول نشاطه • ونشوء اغتباطه • وفتاء
فتوته • ورواء رويته • وارتقاء ارتفاعه • وايفاع بفاعه • وترعرع
سنه • وتعرعر ركنه • وتسامي سيادته • وتراقى سعادته • واجد
لعز العزم الجد • وأعد لري الرأي العد • واستلذ في سبيل الله
نصبه • ورفع المنجنيق ونصبه • وجعل لرجاله ذوبا • ولأحواله
رتبا • والقم أفواه كفاته حجرا • وأجرى في الحق من الحجارات
الجاريات من منابحه نهرا • ورجم الحصن الزاني رجم الحصن •
وأحسن الى الاسلام وأساء الى الكفر • فله در المسء المحسن •
وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي • والحنايا بسهام المنايا
تصمي • حتى قتلت مقاتلة الحصن • وهان بمادب فيه من
الوهن • وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة • وطما
بحر العسكر بأمواله الزاخرة • وازدحم الناس في الزحف كأنهم في
الحشر بالساهره • وهاج الشباب • وماج العباب • وتسابق ذوو
الجرأة والقوة • وتلاحق ذوو الحمية والنخوة • وكان في قرنة الخندق
عند خرقة الى الوادي موضع لم يكمل تعميقه • ولم يتم توثيقه •
فتطرقوا من تلك القرنة الى القنة • وتسوروا السور وتسلقوا •
وتقلعوا الى القلعة وتعلقوا • وتملكوا الذروة • وامسكوا العروة •
واستولى على أهلها الرعب • واستشرى بهم الكرب • فتعادوا الى
القلة • وتغادوا من الخوف لامن القلة • وملكت عليهم ثلاثة أسوار •
بما فيها من متاع وشوار (٢٥) • ونعم وأبقار • وصاحوا
الآمان • وبذلوا الأذعان • ونادوا مكنونا من السلامة وتسلموا
المكان • فما امنوا على المال والنفوس • حتى قررنا عليهم مذل قطيعة
القدس • واغلقت دونهم الأبواب • وسير إليهم الذواب • وما استقر
خروجهم حتى استخرج منهم القرار • وجبي الدرهم والدينار • وعم
الكبار والصغار الصغار • وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار •
ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله • وسائر ماحواه من نخائره
وأمواله • الى الامير ناصر الدين المذكورس بن خمار تكين • اسد
العرين وامير المجاهدين • المقدام الهمام • والمطعام • فألفى الثغر
سداده بسداده • وامرع به مراد مرانه •

ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل

وتسلم يوم السبت قلعة العيد • ويوم الاحد قلعة الجماهريين •
ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب الى كل حصن من تسلمه •
وسلكه في سلك الفتوح ونظمه •

ذكر فتح حصني بكاس والشغر

وسار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية ، ومشية
الله جارية على موافقة ماله من المشية . ونزل على العاصي في طاعة
الله والنصر قد نزل . والكفر قد اتخذ . يوم الثلاثاء سادس
الشهر . وبحور السوابح في غدران السوابغ مائجة على ذلك النهر .
وحكم السلطان في القهر ماض بانن الله على الدهر . وتسلم حصن
بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وشكا الشراك نكاية حد
بأسنا المشكور . وحول خيمة خفيفة الى الجبل ، لحصار قلعة
الشغر • وهي قلة شامخة من أعلى القل • على هضبة منقطعة .
عالية مرتفعة • ومن ذواحيها واد • خاف من العمق غير باد • في
أعماق ووهاد • وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها •
واخذ من العوادي موثقها • فما اليها طريق ولا عليها طروق •
ولا فيها للطمع علوق • ولا لاسهم اليها مروق • ولا للزحف فيها
مقطع • ولا للذر نحوها مطلع • ولا للطير في مراحها وكر • ولا للمكر
في افتتاحها مكر • ولا للوهم في توقلها مجال • ولا للفهم من تصورها
منال • ولا لها بمن يحتفل بها احتفال • وما عليها للنازلين عليها
قتال ولا نزال • ولا يتغير لها مع تغير الاحوال حال • وصعب شغل
الشغر • واشتغل فكر الكفر • ولم ير السلطان طريقا غير الرمي
من المنجنيق • لعله ينال جميعها بالتفريق • وداومها بالحجارات
أياما • ولكم سد بها مرمى ومراما • فلم تعبأ بأعبائها • فإنها

ترامت عن رمائها • وابت الا ثباتها وثبتت على اباثها • وأعيا
اعضال دائها • واستفحال بلائها • وخام الرجاء بالارعاء عن
ارجائها • ولو لم يضجر حاميا لضجر راميا • وسدّم سائما
لئساميا • لكنه وهي جلده • وهوى خلدّه وخار قلبه • وحار لبه •
وخاف من الاقامة • وخاب من السلامة • وارتاح الى الراحة •
وسما الى السماحة • وعاج الى الانزعاج • وعاد لءاء خووفه في
الاستئمان يطلب العلاج • ودعا الى الدعة • والخروج من الضيق
الى السعة • فبيننا نحن في ترو وتفكير • وتخير للرأي وتدبر •
ونقول هذا حصر يشتد • وأمر يمتد • وعمل يصعب • وأمل
يتعب • ومعقل لا يختل ومعقد لا يحتل • ومقصد لا يدرك • ومورد
لا يملك • ومكان لا امكان لفتح • ورجاء يطول الزمان في تطلب
نجه • اذ خرج من الحصن • من يضرع في الأمان ويمتري ضرع
الامن • فشكرنا الله على تسهيل المتوعر • وتيسير المتعسر •
وتحصيل المتعذر • وتلقيح الرجاء من الياس • وتذقيح مناط حكم
الصحة عند اضطراب علة القياس • وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم
الثلاثاء • وسألوا في مهلة ثلاثة أيام والارعاء • ليخبروا صاحب
انطاكية ويستأذنوا • ويقبلوا عنده العذر ويخرجوا من الحصن
ويسلموه فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك
مقفر والشجر شاغر • والكفر صاغر وفسم القهر منا لهم فاغر •
والاسلام قد ثلم ثغر من هو له مئاغر • والحصن البكر مفتعر •
والبين المتأصل بشعب النصر متفرع • وطلع العلم الى ذلك العلم
الطالع • وانتقم الهدى الضليع من الضلال الطالع • وكأنما عذبات
تلك الراية مكاول الداعين ، وكأنما أبراج تلك القلعة مسامع
الواعين ، وعاد الحصن أهل بأهل الاحصان ، وصافح بأيدي الأيد
ايمان ذوي الايمان • فابتسم عن النصر ثغر الثغر • وفرغ القلب من
شغل الشغل ، وسلم هو وحصن بكاس ، الى غرس اللين قليج
الساقى عدوه الموت بكاس الباس • وانتقل السلطان يوم السبت الى
مخيمه والاقبال جائم في مجثمه • وسرى ولده الملك الظاهر الى قلعة
سرمانية ، وأرهق فيها الفجرة الجانية ، واستطلق منها البررة
العانية • وقطف مجانيها الدانية ، واخلى مغانيها الغانية ، وماقطع

قرارها حتى قرر عليها قطيعه . وكلفها ماكانت له من المال
مستطيعه . ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعه . ثم خرج
حتى خربها عاليها . وعطل حالها . وانجلى ثاويها . وانتأى
جالها . وبقيت دمنة دائرة . ودمية عائرة . ورسما عافيا . ورقما
خافيا . وربعا باليا . وصدقها خاليا . وعادت دارا دارسة .
مستوحشة بعد أن كانت آنسه . وكان فتحها في يوم الجمعة الثالث
والعشرين . فأخلى الله من السباع الضواري ذلك العرين ومن
نواذر الطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتالية . في أيام
الجمع الخمس المتتالية . بآء فيها لنصر أهل الجمعة بذل أهل
السبت أهل الأحد وأصبح التوحيد على التثليث قاهر الأيد . ظاهر
اليد .

ذكر فتح حصن برزية

وسرنا الى قلعة برزيه . وسرنا سار . ودر الظفر لنا دار . وهي
احصن القلاع وافرعا . واحسن التلاع وارفعها . واسمق
الرواسي واسماها واسئم الرواسخ واسناها . وكان السلطان سيق
اليها واشرف عليها . ثم استدعي الثقل واستحضر . وجمع بالفضاء
تحتها العسكر . وذلك رابع عشري الشهر يوم السبت وقد تهيأت في
العدو اسباب الكبوة والكبت . ثم تجرد يوم الاحد في العدد
والعدد . ورقى الى الجبل . مع ابطاله النبل ، فرأيناها قلعة شماء
في الذرى . لا تكاد من سموها ترى . وهي على سن من الجبل عال .
مترامية في السماء ارتفاعا ، وقيل قدر علو ثلاثة فكان خمسمائة
ونيفا وسبعين ذراعا . فأحدقنا بها وبالجبل . وقطعنا عنها متصلات
السبل . ونصبنا عليها المجانيق في ذلك السفح . فلم تصافحها
صفائحها . وأبدت لنا صفحة الصفح . فقد بعد مرام مرماها .
وحارت الاوهام فيها وقلنا ما أعلاها وما أسماها . وتحاجزت عنها
الحجارة فلها من اجازتها بها الاجازه . فما بلغت الى القلعة
قلائعها . ولا طلعت الى التلعة طلائعها . هذا والنجم يلامع بلامعها

وتقارن طوالعه طوالعها . فكان الصخور سلم نحوورها . فإن
سورتها تنكسر دون الوصول الى سورها . ولما رأى السلطان انه
لا وصول الى نيقها بالمنجنيق . وان الاشتغال به يطيل زمان
التعويق . مال الى الزحف . ولاحف جموعه في ذلك الحف . وذلك في
السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء . فقسم الناس ثلاثة
اقسام على السواء . وجعل الذوبة الاولى لعماد الدين صاحب
سنجار . الليث الهصار . والغيث المدرار . والبحر الزخار . والسيد
الحلال (٢٦) . والملك العادل في صحابه الصباح ، كفاة الكفاح
وعفاة الصفاح . ونفاة الهام . بثبات الاقدام في الاقدام . وشفاة
الاوام بعلة الانتقام من الاقوام . واساة ذوي الاساءة باحسان
الحسام . وكساة عرى العراء أربية القتام . ورقاة اراقم اللهازم
وسقاة حوايم الصوارم . والمزاق في حومة الردى رداء الماذق .
والسباق في حلبة الهدى بهوادي السوابق . من كل شارب ماء الوريد
بشفاء الشفار . وضارب هام المرید ببتار التبار . ولاسع بحمة
الحمام في الاسل العاسل عاسل . ولايس لباس الباس كالاسد
الباسر باسل . ومعتقد للين . للربيني معتقل . ومعتد على العدو
بعادي معتدل . ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتاز ،
ومجتب لحب المنون لرهون ذفانس النفوس محتاز . فاندقضوا على
الهضب . وعضوا على العضب . ودام الصفا يد هذه . والصدى
يقهقه . والزاحف يتقدم ويتقهقر . والحافز يخفى ويظهر . والرجال
تتعالى . والحجار تتوالى ، والمصاعد ترقى . والمصاعب تلقى .
والمضايق تولج . والبوائق تخرج . والاكام تفرع والرجام تقرر ،
والصخور ترديد . والجلاميد تميد . ومازالت هذه الذوبة تنازل
وتقاتل وتناضل وتطاول . وترمي وتدمي . وتصمي وتصمي . وترد
وترد . وتصد وتصيد . وتصدم وتصدم . وتقدم وتحجم . وتصعد
وتصعد . وتحمل وتخرج . وتذكو وتنطفئ . وتبدو وتختفي حتى
كلت وملت وانحلت وتخلت . وكانت غلبت . لولا انها لغبت ،
وسمت . لولا انها سئمت ، وألغيت هذه الذوبة خاصة ، لاهل
الحصن خاصة ، فانهم تولوا بأجمعهم القتال . ولم يقصدوا للتناوب
الاستبدال . ولما ظهرت في الذوبة النبوة ، وكاد جوادها تناله

الكبوة . تقدم السلطان بذفسه في الذوبة الثانية . والسطوة الدانية . والعزमे الناولية غير الوانية وخف في الثقال من الرجال . وزحف الى الجبل بالرجال . وتضافروا فتطايروا في الاوعار كالاولع . وجروا كالسيول في تلك المسائل . وجروا زيول السوايح ، على تلك الهواجل . وترقوا في ذراها . وقروا على قراها ، وتلبسوا بجوانبها ، وتوجسوا من مثاعبها ، وتدرجوا في مدارجها ، وعرجوا في معارجها ، وخرجوا في مداخلها ، ودخلوا في مخارجها ، وصارت الجروح تجوزهم . والجروح لاتحوزهم . والسهم تعبهم . والاكام تسترهم . والنخوة تحميمهم . والحمية تنخيمهم . وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم والتخدير من توريطهم وتفريطهم . فمن انقبض بسطه . ومن اعرض ضبطه . ومن اقبل اغبطه ، ومن ادبر أسخطه . ومن تقدم قرظته . ومن تقاعس أحفظه ، ومن تناعس أيقظه ، وكالما شاهدوا السلطان يشاهدهم تسلطوا . وكالما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا . فمنهم من تمكن من الطلوع . ومنهم من تكمن للولوع . وتقلبوا في تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع . وعرا اهل الحصن العناء والعياء . وعمهم البلاء . وأدركهم الشقاء . فانهم مازالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعا . فمنهم من صد صديعا . ومنهم من صار صريعا . وظهر فيهم الفتور . وبدا منهم القصور . وجاءت الذوبة الثالثة تالية . واقدمت امدادها متوالية متعالية . وعادت الذوبة الاولى لنشاطها . وزادت في انبساطها . فبلغوا وغلبوا واتهموا والتهبوا . وتعلقوا بالسور . وتسلقوا كالنسور . وطلعت القلعة . وقلعت الطلعة . وافتضت العذرة . واقتضيت النصره . وأعان القدر فقدر الاعوان . ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان . وان اهل القلعة لما ايقنوا انهم ملكوا . طلبوا الامان حتى لايهلكوا . فلما سمع اصحابنا بالامان صياحهم . وعرفوا للضراعة التياحهم والتياحهم . كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان . واشفاقا من سبي من يشمله الامان ، وكان جماعة من دهاة الخواص . عارفين بطرق الاقتناص . فاظهروا ان السلطان امن اهل القلعة . وانه يدافع عنهم في هذه الدفعة . وجمعوهم في مواضع وكنائس .

واحرزوا النفوس والنفائس . وعاد عنهم من حضرهم . على ظن ان
السلطان امنهم وحظرهم . وبقي اولئك الافراد بهم متفربين .
ولتجريدهم للسبي متجربين . وصار ما بالقلعة ومن فيها لهم كسبا
وسبيا . ومارأوا لحق من شاركهم في السعي رعا . وحرروا
ما رتفقوا به وحرروا الرفقاء . وحازوا دون الغانمين النهب
والسباء . وملك واحد مائة وحاز الري وحلا عنه رفقة ظمئة . ولما
تسنى ذلك الفتح وتهنا . وتسهل ذلك الصعب وتها . عاد السلطان
الى خيامه . وعادت الايام بآيامه وكانت صاحبة حصن برزية اخت
زوجة الابرنس صاحبة انطاكية وقد سبيت وخبثت فما زال يطلبها
حتى أظهرها وأحضرها . وكانوا بعد هتك سترها ستروها . فمن
عليها بالاعتاق من الارقاق . وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق .
وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهم
في الاطلاق . وجمع شملهم بعد الاشتات . ووصل حبلم بعد البتات .
وشعبهم وقد تصدعوا . واشبعهم وقد تجوعوا . وحظرهم وقد
استحلوا وكثرهم وقد استقلوا ، وحرمهم وقد استبيحوا . ومنعهم
وقد استميدوا . وأحياهم بعدما هلكوا ، وعصمهم بعد ما هتكوا .
وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافتقروا . وجبرهم ونعشهم وقد
انكسروا وعثروا . وسير معهم الى أنطاكية من أوفدهم على سنها .
فسرت باختها . واعلنت بمقتها من سر مقتها . واذاعت من مضمر
بغضها بمظهر حبها . وجاءها الفرح في غمها والفرح في كربها .
وتشكت لأخذ بلدها . وتشكرت لترك أختها وولدها ، وانعم السلطان
بهذا الحصن على عز الدين بن المقدم . الكريم المكرم والمقدام
المقدم . والعظيم المعظم . والماجد المجد . ابراهيم بن محمد . فإن
هذه القلعة لثغرافامية الجارية . في اقطاعه متاخمة . وهي لها في
السلم مقاسمة وفي الحرب مزاحمة .
وسرت هذه البشرى وسارت ودرت هذه النعمى ودارت .

وطارت كتب البشائر . وسرحت على جناح الطائر وفيما كتبت ان
هذه البشرى بما اجده الله من الفتح العزيز . والنصر الوجيه بفتح
حصن برزية الذي برزت له الارض في قشب ادوابها . وتفتحت له

السماء لتنزل الملائكة من ابوابها . بل سافرت به عرائس الايام في
حلى ايامها . واشرقت منه اقمار الليالي في انوار محاسنها . وهذا
الحصن لا يمكن وصف ما هو عليه من الحصانة . وكأن حجره في
حجر حضن الحضانة ، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصون ،
وسلبنا اهل الكفر بها من السلامة والسكون ، وفتحنا كل مرتج لم
يكن فتحه مرتجي . ولم يجد من حصل في أسر الدهر به مخرجا .
حتى أتت ايامنا ، وبنى فيه مرامنا . فجاءه عصرنا ، وفجأه امرنا .
ووصل الينا ما هو في الازل نخرنا . وكمل بهذه الفتوحات فخرنا .
وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكية . وسقينا بماء
الحديد الجاري في انهار دم اهل النار ، مفارس الهدى الزاكية .
وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العدو الباكية . وهذه
الحصون التي فتحناها . والمعقل التي استبحناها ، لو وكلنا الله
الى اجتهدنا في فتح احدها . لتعذر ولو أنجدت عساكر الدنيا
بمدها . لكن الله سهل ويسر . وفتح ونصر . وانزل الظفر ، وان
حصن بزيه لم يكن عليه قتال . ولا لالوهم فيه مجال . ولا منصب
عليه لمنجنيق . ولا مسلك اليه لسالك طريق . وحضرنا لحصره ،
متوكلين على الله في امره غير طامعين في فتحه . ولا راجين لنجحه ؟
فانقاد جماعه . وانخفض جناحه ، وساء صاحبه ، وكل سلاحه ،
وتوكل الرجال في ذروته توكل النجوم في الافلاك . ولنصر الله اهل
التوحيد على اهل الاشراك . وفتحناه بالسيف عذوة . ودجا يوم المثلث
عليه يوم الثلاثاء ضحوه . فاننا لما توكلنا على الله في منازلته .
واستعنا به في مقاتلته . نظر الله الى النيات . واعان ذوي العزائم
والثبات . فتعلقوا في الجبل . وتسلقوا الى القل . وسعوا الى الاجل .
في طلب تسني الامل . فكان كما قال الله تعالى : (وما امرنا الا
واحدة كلمح بالبصر) (القمر ٥٠) حتى من الله بالظفر . واصفى
الورد والصدر من الكدر . وقد بقيت انطاكية ومالها بقاء ، ولا لها في
الاعتصام رجاء . وقد نقصنا اطرافها . واستبحنا اكنافها .
وشفها نطافها . وعضدنا من رؤوس اهلها بحدود الصوارم
قطافها . ولم يبق من معاقلها الا القصير ودريساك وبغراس . وقد
تقدم اليها الفاتحان الرعب والباس .

ذكر فتح حصن دربساك

ورحل السلطان وقد نجحت اماله . ورحجت اعماله . وحل اقباله
واقبل جلاله . وعبر عند شقيف دركوش الى شرقي العاصي . وقد
دانت له المقاصد العواصي القواصي . واقام اياما على جسر الحديد
الجساره . شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح
وللمشركين من الخسارة . ثم قصدنا دربساك . وجدنا بتأييد الله
في حصره الاستمساك . ووجدناه حصنا مرتفع الذرى . ممتنع
الذرا ، قد جاوز الجوزاء . وناجت ارضه السماء . وكان عش
الداوية بل عزيمتهم . وطالما أطال في التعدى أيديهم وعرائينهم .
وكانوا قد نزلوا منذ انزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون .
وركبتوا بسكنى هذا المعقل الى السكون . فلما اشرفنا عليهم اشرفوا
على المذون . ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب . وقلب الكفر قد
وجب ، ووفرت المنجنوقات سهامهم من سهامها . وصوبت اليهم
مدات مراميهها ومرامها . وراميناها بها ليلا ونهارا . وارسلنا اليهم
امثال قلوبهم ووجوههم احجارا . وكنا لا نذر في ارضها التي هي
في السماء من الكافرين بيارا . وتركنا ناسه بالحجارة صرعى .
واسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال في حمر المرعى .
واصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج الشجا
والشجب . ووجه نجاتهم قد احتجب . وقد وقع بالنقب برج من
السور الخارج . وظهر فيه عروج الدارج ودروج العارج . فطلبوا
على مراجعه انطاكية الامان . وان ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه
المكان ، فأجيبوا الى ذلك على قطيعه . وردوا ما كان للاسلام معهم
من وبيعة . وتسلم الحصن بما فيه ثاني عشري الشهر يوم الجمعة
واصبح بهذا الافتح جماح الحصون الممتنعة .

ذكر فتح حصن بغراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغراس وقد ضايقنا الاعداء
وضيقنا منهم وعليهم النفوس والانفاس . وهي قلعة من انطاكية
قريبة . وانها في الشدائد لدعائها مجيبة . ورأيناها راسخة على
رأس راس . شامخة على عاص عاس . ارضها في السماء .
وجوازها على الجوزاء . متوغلة في الشهاب ، متوقلة على
الهضاب . منسحبة في السحاب . مضربة بالضباب ، مربة على
الرباب . متعلقة بالنيرين . متسلقة الى الفرقدين . محلقة الى
الذسرين . ولا مطمع نحوها لطالع . ولا مطلع فيها لطامع ، ولا
مطمح للامع . ولا ملمح لطامع . وهي للداوية وجار ضباعها .
وغاب سباعها ودار دواثرها . وغار مغاورها . وغيل غواثلها
ومنزل نوازله وجعبة نبالها . وهضبة رثبالها ، ومذب نثابها ،
ومذب نبابها . وكوارة زنابيرها . ومغارة خنازيرها . ومرقب
صدقورها . ومرقد لسورها . ومكنس وحوشها . ومعرش جيوشها .
فخيمنا بقربها في المرج . وقد انارت من مشرعات اسننتنا في ظلماء
نقع خيلنا مشعلات السرج . وتقدم من العسكر جمع كثير . وجمع
غفير ، وخيم بين انطاكية وبينها . ووكل بها ناظر يقظته وارقد
عينها ، فأقام على سبيل اليك . ودخل في حفظ جانبها في الدرك .
وسار يركب كل يوم ويقف تجاه انطاكية صفا . ويسومها من
القارات عسفا وليس بينه وبينها الا النهر ، ومقابل رجسها منه
الطهر . وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل . ووقف بازاء
الحصن وقوف المشتاق على الطلل . فنصب عليه المجانيق من جميع
جهاته . وصوب لقم الحجر الى لهاته ووافق أمره بالاذعان على
خلاف نهاته . وقلنا للمقيم به خذ الامان وهاته . وما زالت
الحجارات تناوبه ، وصدى الصفا بالذكاية يجاوبه . والصخور فيه
تتواقع ، والبلايا اليه تتابع . فما شعرنا الا بانفتاح بابه . وألجأ
جماعة اصحابنا عليه جماحة الى اصحابه . وخرج مقدم الداوية
يستأنن في الحضور . ويسأل الامن من المحذور والحل من

المحذور . ويقول انما قنينا بغراس بغراس القنا . وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصن البنى . والمعاقل لا يحميها الا معتقلوها . والبلاد لا يحفظها الا اهلوها . وما في هذا الحصن الا مقدمان . ومالنا بمقاومتكم يدان . وعاد الى اصحابه من السلطان بالامان . وتسلمت القلعة كما تسلمت أختها دربساك بالامس . وسلمها الداوية طائعين ففعلنا من انقياد اولئك الشمس . وباحوها لنا وكانوا يغارون عليها من طلوع الشمس . وأنا في مطلعها سني السجق المنصور . وأذن المتطاول فيها من تطاولنا بالقصور . وذلك في ثاني شعبان . وسر النصر فيه شار وبان . وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس الى علم الدين سليمان . وكان صاحب حصن عزاز . وقد حاز الغنى به وفاز . وما كان في الامراء الا كابر من لا يدعي سواه الاعواز فالزمه بهما ليعتني بحفظهما ، وحضه من عصمتهما على حفظهما ، فتسليمهما بذخائرها . واطلع من النفائس على مستودعات ضمايرهما وكانت حينئذ انطاكية قد اسعر غلتها سعر الغلة . وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القلة . والفرارة تساوى اثني عشرة بينارا . والقوم قد شارقوا فيها تبارا وبوارا ، وحزنا ما في بغراس خاصة من الغلة ، سوى ما فيها من تفضيل الاقوات والجملة . فكان تقدير اثني عشر الف غراوة . فحصل سليمان من منبج هذا الملك على غزارة عن غرارة . فقلت كأني به وقد نقل هذه الغلة الى انطاكية وباعها ، واعرض عن متاعب الاخرة وحوى من الدنيا متاعها . وذهب الغلة بذهب يغله . ويستحلي مر هذا السحت ويستحله ، ثم يستعفي من حفظ الثغر ويشير بتخريبه . ووقع لي فيه من الظن ما كان بعد سنين فكشف عنه علم تجريبه .

ذكر عقد الهدنة مع انطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفر من فتوحها بالسر المصون . عول على قصد انطاكية فإنها كانت مريضة على شفا

ورسم قوتها قد عفا . وخلق ثيابها قد اشفى . والدهر قد انتقم منها واشتفى . ووجه الفلاح عن اهلها قد اخفى . فلو صدقها وقصدها لحص (٢٧) دعائهما وحصدها . وكان الابرذس صاحبها قد عجل بارسال اخي زوجته . يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته وسلامة مهجته ، وعقد الهدنة على بلده وأمن على مافي يده وذلك لثمانية اشهر من تشرين الى آخر أيار . ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة وأوان حصاها . فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعادها ولم يكن له رغبة في اتمام هذا الصلح لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح . لكن العسكر الغريب مل الاقامة . وأبدى السامة . واراد السلم . وقيل بهذه المدة من الهدنة لاتزداد انطاكية قوة ولا تستجد جده ولا يرجى لها عدة منجدة ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عه . واما حصونها فقد حصلنا على عسلها . وقتلنا نحلها . واما هي فنعمل فيها بقول الله تعالى : (وان جنحوا للاسلام فاجنح لها) (الانفال ٦١) وشرط على صاحب انطاكية اطلاق من في الاسر من المسلمين . واستوفى رسولها على عقد الهدنة اليمين . وسار رسولنا معه شمس الدولة بن مذقذ للاسارى مذقذا ، وللاوامر مذقذا . وعلى المقاصد مستحونا ، وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب ، والاسلام قد غلب ، وفاز من الفتوح بما طلب ، واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمة وسلب وخراب ،

ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي
وعساكر البلاد . وعود السلطان الى دمشق بنجاح
المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين وداعه اوداعه ، وشيعه بكرامة كرام اشياعه ، وخصه بعد ماسير له من الخيل والخير بخلع خواصه واتباعه ، وأناله منه حسن اصطفاؤه وحسنه اصطناعه ، ولم ينفصل منهم الا من وصل بصلة ، وخلعة

مجمله ، وحرمة مكمله ، ووعد جميل يرغب في العود ، وجود جزيل
منسكب الجود ، وذلك سوى ما غنموه من كسب وكسبوه من
غنم ، واستطلقوه من رسم واستجزلوه من قسم ، وملكوه من رق
سبي . وادركوه من حق سعي . وأجدوه من غرض . وأدوه من
مقترض . وأحيوه من حسنة النصر ، وأماتوه من سيئة
الكفر ، واستضافوه من فتح ، واستفاضوا به من نجح . وسار
السلطان في عسكره ، حامدا الله في مورده ومصدره ، وارتاح الى
العبور على ارتاح ، وامتار لها اليمن بافتقادها وامتاح ، ووصل
الى حلب وحلب احتفالها بوصوله حافل ، والملك بها للاهتزاز
بقدومه في ملابس البهاء رافل ، وبخلناها وقد خرج كل من بها
للتلقي ، مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقى ، وشاهدنا من
النظارة عيوننا للمحاسن ناظرة ، ووجوها ناضرة ، وقلوبا
حاضرة ، وألسنا شاكرة ، وأيديا في بسطها الى الله للابتهاال
بالدعاء متظاهرة ، واقتضت حركتنا الى الشهباء لساكنيتها سكون
الدهماء ، وأقام بقلعتها أياما يسيره ، وألفى ولده الملك الظاهر أسر
احسانا وأحسن سيرة . وقام به وبالعسكر مدة المقام ، واتسقت
الأمور بأوامره على النظام . ولم يرحل الا وقد خص عوامنا
وخواصنا بالانعام الخاص والعام ، وأبان عن كل منقبه ، وأعان
بكل موهبة ، فما رآه والدم مذحل بحلب الا في أجمل حلية وأكمل
حاله ، وأجلى بهجة وأبهى جلاله ، وقد أجد لعينه ولنفسه قوة
وقرارا . وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا ، ثم انفصلنا
عن حلب مذطعين الى مواصلته بالدعاء ، قاطعين طرقنا المتصلة
بدليلي الشكر والثناء ، وتذكينا طريق المعرة ، بسلوك طريق
المعرة ، وأوفيناها بالمبرة الموفية المبرة ، وتيمن السلطان بزيارة
الشيخ الفقيه الزاهد التقى . ابي زكريا المغربي . وهو مقيم في
مسجده ، عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده ، وقصده السلطان
على فراسخ ، ولقي منه في الحلم والوقار الطود الراسخ واهتدى
بسجاياه ، واقتدى بوصاياه ، ووصلنا الى حماة . وبتنا بها ليلة
واحدة ، ولم نر رعيتهما لما شملها من الرعاية جاحدة ، فان الملك
المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ، قد كشف عنها

بأبائته الكروب ، وملك القبول من أهلها والقلوب ، وأعاد لها بالعمارة العمرية عمرا جديدا ، ومد عليها من مهابتة ومحبتة ظلا مديدا ، وكانت قلعة حماة لاتعد في القلاع المعدودة المحمية ، ولاتذكر مع المعاقل المرعية المرضية ، وهي ذات تل متبطح ، غير مترفع ولا متسفع ، فلما تولاها تقي الدين قطع من التل ما كان متواطيا ، وأتلع من التلعة جيذا عاطيا ، وعمق خندقها في الصخر وحصنها على الدهر . وبنى فيها الدور المرخمة ، والأروقة المهندسة المهندمة ، وحصنها وأعلاها ، وحسنها وحلاها ، وزينها بكل زينة ، وأعاد حماة ذات قلعة حصينة ، فاضلة في الشام كل مدينة ، فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعة ، وسر بما رأى لها من الحصانة والرفعة ، ووقف الملك المظفر لعنه ، وجرى في الخدمة على رسمه ، وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا ، والسلطان قد أجلسنا بحضرتيه ورفعنا ، والنادي قد جمعنا ، والشادي قد اسمعنا ، والأغاريد تطرب ، والأناشيد تعرب ، فما انفصلنا تلك الليلة الا عن علم نشر ، وشرف انتشر ، وفضل سني . وعدل احبي . ورسم نائل للسماح واجري ، وزند سائل بالنجاح أوري ، وسني جد أعلي ، وجني جود أحلي ، وقرأ لذوي الحاجات القصص ، وأزال من الظلامات الغصص ، وأنال لذوي الخصاصات الحصص ، وأصبحنا على الرحيل ، ووصلنا العنق بالذميل (٢٨) ، وعبرنا مغنين على حمص وزدنا في الوصول الى دمشق على طريق بعلبك الحرص ، وجئناها قبل شهر رمضان بأيام ، وركنا الى ما أنسنا به من مقام ، وتجمع بنا شملها ، وتهلل باستهلانا أهلها ، وقلنا نصوم مع القوم ، ونقيم مدة الصوم ، فما لبث السلطان ولا مكث ، ولانقض عهد عزمه على الفزة ولانكث ، وقال لانبطل الغزوة ، ولانعطل هذه الشتوة ، وقد بقيت صافد وكوكب وأخواتها ، وبطول مضايقتها فنيت أقواتها ، وقواتها ، فشتتهز فرصة فتحها التي لا يؤمن فواتها ، وخرج من دمشق في أوائل شهر رمضان . وحد عزمه رميض . ولبارق سعده وميض ، وفضله مستفيض ، ووجوه الايام لا يابيه البيض بيض ، ولسان الدهر في ذكر سيره وتسيير ذكره

مفيض ، وجناح الكفر بجناح رجائه ورواج مناجسته
مهيض ، وحديث اقدامه القديم والحديث طويل عريض .

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك ، في تسلم حصن الكرك ، وذلك ان
مدة غيبتنا في بلاد انطاكية ، لم تعد من محاصرتها المضايقة
الناكية ، وكان الملك العادل اخو السلطان مقيما بتبنين في
العساكر ، محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر ، مقويا
للأمراء المرتبين على الحصون ، حافظا على الدهماء بحركته في
الأمور عادة السكون ، وكان صهره سعد الدين كمشبه الأسدي
بالكرك موكلا ، وبأهله منكلا ، وقد غلق رهنه ويقي داؤه
معضلا ، وأمره مشكلا ، حتى فنيت ازوادهم ونفدت
موادهم ، ويؤسوا من نجدة تأتيهم ، وأمحت عليهم مصايفهم
ومشاتيهم ، فتوسلوا بالملك العادل ، وابدوا له ضراعة
السائل ، وتذرعوا بوسائل الرسائل فما زالت الرسائل
تتردد ، والاقتراحات تتجدد ، والقوم يلبذون والعادل يتشدد ، حتى
دخلوا في الحكم ، وخرجوا على السلم ، وسلموا الحصن وتحصنوا
بالسلامة ، وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامة ، وكتبت
عن السلطان في بعض البشائر ، ما ألهم بحلاوته عن أرى
(٢٩) الشائر ، وهو انا لما عدنا الى دمشق رأينا ان
لا نستريح ، ولا نثني عن كسر العدو عزمنا الصحيح ، فقلنا نفتم
هذه الشدوة ، ونستكمل الحظوة ، ونواصل بالغزوة
الغزوة ، ونستخلص هذه القلاع التي شغلت منا في هذا الجانب
قلوبا وعساكر ، وأبقت لأهل البلاد في طريقها ندوبا ومعاثر ، وييمن
صدق هذه العزيمة ، والاستمرار في الجهاد على الشيمة ، وردت
البشرى بأن حصن الكرك عاد إليه بعد الجماع الأصحاب ، وخرج
منه الفرنج وبخله الأصحاب ، وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث
نفسه بقصد الحجاز ، وقد نصب اشراك اشراكه منه على طريق

الاجتياز ، فأذقناه عام أول كأس الحمام ، وملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام ، واضطر الكفر في اسلامه الى الاسلام ، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام ، وقد كان هذا الحصن نذب الدهر في ذلك الفج ، وعذر أهله في ترك الحج وابتسم الاسلام حيث زيد ثغرا ، وساق الى عقائله الرجال مهرا ، فالحمد لله على ما قدر من الحسنى ، ويسر من النعمى ، حمدا يكون لما قدر ازاء ، ولما يسر جزاء والحمد لله الذي انجز صادق عداته ، في كاذب عداته .

ذكر محاصرة صفد وفتحه ، وادراك السعي فيه ونجحه

وقطعنا مخاضة الأحزان خائضين في بحار المسرات المتواصلة ، راكضين الى مضمار الدبرات الحافلة . والسلطان سائر والجنة تحت رايته مفتوحة ابوابها ، والنصرة فوق ألويته مشدوبة اسبابها ، في اطلاب ابطال اذا أوعاها الفجر لم يسعها الى عشائه ، واذا طلع عليها سرحان الصباح سقط من عجاجها على عشائه . ونزلنا على صفد . والصبر قد نفذ . والنصر قد وقد ، والقدر قد رقد ، والعزم قد وقد ، وجاء الملك العادل وظاهر اخاه ، وضافره فيما توخاه ، وشد بالرأي والعزم ما الزمان أرخاه ، وبعث كل ذي عزيمة على التصميم ونخاه ، وشرعنا في مراومة القلعة ، ومساومة السلعة ، وجثت المجانيق لاجتثاثها وحدثتها بألسنة أحداثها ، ورمتها عن قسيها بالقاسيات ، وسمت الى هضاب تلك الأبراج الراسيات ، وأمطرت عليها حجارة ، ولم نعطها من العذاب الواقع بها اجازة . فما رفع بها الحصن الراسي رأسا ، ولا الحجارة مسست منه ركنا ولا الذقوب باشرت أساسا ، ودامت المجانيق منصوبة قد قام دست شطرنجها ، والنقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها ، ودمنا عليها ، الى ثامن شوال ، ونوعنا في افتتاحها الاحتيال ، حتى ان الله في الفتح

فسهل ماتصعب ، وحضر ماتغيب ، وظهر ماتحجب ، وتيسر ماتعسر ، وامكن ماتعذر ، وتأتى ماتأبى ، وأجاب نداء الاسلام ولبى ، وعلموا ان صدف ان لم تخرج من ايديهم دخلت ارجلهم في الأصفاذ ، وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالأساد ، ونزلوا من سماء العز الى ارض الهوان ، فأذعدوا للضراعة وتضرعوا بالاذعان ، وأخرجوا اسارى المسلمين ليشققوا لهم في طلب الأمان ، وصارت صفد المسلمين صدف ، وكانت بالشركين هدف ، وعادت للاسلام سدا ، بعد ان كانت للكفر رداء ومردا ، وطالما مكث فيها المشركون و (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) (البقرة ١١٦) (لقد جئتم شيئا اداء تكاد السموات يتفطرن منه وتتشقق الأرض وتختر الجبال هذا) (مريم ٨٩-٩٠) ، ولقد كانت مارنا للكفر جدد ، ومرفقا للشر قطع . وناظرا للعدو غض وقد شخص ، وجارحا له هيض وقد قنص ، ويذا للباطل شلت ، وقد امتدت ، وعقدة للضلالة حلت وقد اشتدت ، وتخلصت الداوية بادوائها ، وتملصت بأسوائها ، وصاروا في صور ، وأبدوا بعد استطالتهم القصور .

ذكر ما دبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير

لما عرف من بصور من الفرنج ان صدف لنا صفت • وانها على الفتح الذي يشفي اشدت . قالوا لم يبق لنا الا كوكب . وان صلاح الدين عن قصدها لا يتنكب . وقد أقوت من القوة . وهي تهى ان لم نعالجها بالنجدة المدعوة . وقد ضعف رجاؤها لضعف رجالها • وقل ظهورها لظهور اقلالها • وهذا أوان انجائها وانجاده . وهي مشرفة على العدم فدبروا في انجاده . فاذا قوينها وحمينها بقيت عدة في العواقب . وعصمة من الذوائب • فقال مقدم الاسبتار هي كوكبنا المتلالي • ومذكينا العالي . ومعقلنا المحكم • ومعقدنا المبرم

وحصننا الحصين . ومكاننا المكين . ولنا منه المربع المريع . والمنبع
المنيع . والمحل المحلى . والمعلم المعلى . وهي قفل من البلاء على
البلاد . وموئل من الخطوب الشداد . ولعلها تثبت إلى أن توافينا
من البحر ملوكنا . وتعود الى عادة الانتظام سلوكنا . فما تبطىء
جداتنا . وما تخطي نجداتنا . واجمعوا على تسيير مائتي رجل من
النخب . المعين لدفاع الذوب . من كل جرخي نخي . وكمي
أكمي . وجهم جهنمي . وسقر سقري . ووعل جبلي . وبطل باطلا .
وكلب كلب . وذئب سغب . وعاسل معاسر . وباسل باسر .
ومغوار مغو . ومثلوم مثلو . وذمر متذمر . وذمر متذمر . وسبع
ضار . وشواظ من نار . وجمر من الجحيم . وحام من الحميم . من
شياطين يجزون الجزون . ويمزون المزون . ويشيون الشؤون .
ويهدون الهدون . ويحزون الحزون . ويفوتون الفتون . ويظنون
بالله الظنون . وقالوا لهم: كيف تمضون وطريق السلامة مخيف
وطارق الاسلام مطيف . والشجامنيف . والشجب مضيف . فقالوا
نحن نسـير ونصـير في ضـمـير في ضـمـير الكهـمير .
اسرار . وعلى اجياد الاطواد أزارا . وفي اوكار المغارات اطيارا .
وفي اعماق السيول اكدارا . وعلى ظهور الريود اوزارا . نسري ليلا
ونختفي نهارا . والليل للعاشقين ستر . ولكم ادلج من الوتر . والنهج
وان بعد فهو في قرب عزمنا فتر . ومن رام الذفيس الخطير رمى
نفسه في الخطر . وطار الى الوطر . وغرب الى الغرر . ثم عزموا
على ما زعموا . وعملوا بما عنه عموا . وخطرنا الى الخطر .
وحاولوا بما لهم من القدر مزاولة القدر . وتوقلوا في الاكم . وتوغلوا
في الاجم . وتبطنوا في الاوبية . وتمكثوا في الاقنية . واحترسوا
بالكمون . واحترزوا من العيون . وتحركوا على السكون . وكادوا
يصلون الى الموضع . ويحصلون على الطمع . ويدركون الطلاب .
ويهتكون الحجاب . ويعيدون الى الحصن روحه . ويأسون بعد
اليأس جروحه . فعثر بواحد منهم بعض المتصيدين فتصيده . وقاده
وقيده . واتى به الى صاحبه صارم اللين قايماز واستغرب من
الافر نجي هناك الجواز ، فأخبره بالحال . وان بالوادي مكم
الرجال . فركب اليهم في اصحابه . والتقطهم من سرر الوادي

وشعابه . وركب الشجاع مسعود في طلب اولئك الاشقياء . وانتشر الناس في تلك الاكفاف والارجاء فما نجا منهم ناج . ولا نجح راج . ولا عاش عاش . ولا حصل عاثر بانتعاش . فما شعرنا نحن على صدد الحصار . والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله من الانصار . حتى وصل صاحب قايماز بالاسارى مقرنين في الاصفاد . مقوبين في الاقياد . وكان بهم مقدمان من الاسبتار . وقد اشفيا على التبار . فان السلطان ما كان يبقي على احد من الاسبتارية والداوية . فاحضرا عند السلطان للمنية . فانطقهما الله بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما . وقالوا عند دخولهما . وامام مذلتهما . ما نظن اننا بعد ما شاهدناك يلدقنا سو . فعرفت ان بقائهما مرجو . وانتظرت امر السلطان فيهما . وايقنت انه يبقهما . فمال الى مقالهما . وامر باعتقالهما . فان ذلك الكلمة حركت منه الكرم . وحققت منهما الدم . واستبشرنا بانعكاس ما احكمه الكفر من التدبير . واتعاس من جردوه بالتدمير . وفتح الله علينا صدد ثامن شوال . فشكرناه على ان مدد النصر متوال . وسلمت القلعة الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال .

ذكر حصار كوكب وفتحها

وجئنا الى كوكب . ووجدناها في مناط الكوكب . كأنها وكر العنقاء . ومنزل العواء . قد نزلتها كلاب عاوية . ونزعت بها ذئاب غاوية . ونزت فيها سباع ضارية . وحمتها بحميتها وابست النزول على امنيتنا ولو بنزل منيها . واختارت العطب على العطاء . وامترت خاف الخلف والشقاق للشقاء . وابست غير الالباء . وبصرت بالامر فصبرت على الضر . واصرت على تحمل الاصر . وترامت على التعامي بالمصائب . وتعامت عن المرامي الصوائب . وقالوا لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار . وخلصه الى الابد من العار . ولا بد من عود الفرنج الى هذه الديار . فنتجلد للاصطبار . ونشدد للانتظار . فقاتلوا اشد قتال . ونازلوا . احد نزال وفوقوا الجروح

المصمية . وصوبوا الصخور المربية ورفعوا المنجنيقات الموجية .
وتواترت زيارات الزيارات الموترة . وتناوبت نواب الزنبوركات
المطيرة . واجتروا على الاجترار وجرى سيل الجراح . ودمنا في
الدم . ورد الوجود الى العدم وتجرت الرجال . والتجريد للقتال .
وايتار الحنايا . وايتار المنايا . والرمي في المنجنيق . والجمع
والتفريق . والرقع والتخريق . والنقب والتعليق . والحفر
والتعميق . والحصر والتضييق . والهدم والرد والردم . والصد
والصدم . وكان الوقت صعبا . والغيث سكبا . وتكاثر السيول .
وتكادفت الودول . ودامت اليم لدموعها مريقة . وبقيت الخيم في
الطين غريقة فلا لمركب مبرك ولا مربوط . ولا لسالك مسالك ولا
مسقط . وكنا في شغل الشاغل من تقلع الاوتاد وتودد الاقدام .
وهي الاطناب ووقوع الخيام وكأن الخيم مناخيل الانداء .
وعدمت الانوار لوجود الانواء . وفقد ماء الشرب مع سيل الماء .
والروايا ما نهضت . ولا نزع ولا غمضت . والرواحل في الطين
باركة . والحياة فاركة . وللعلف تاركة . والمطية مطينة وسبل السيل
مستبينة . وقد كشر البرد بالبرد عن اسنان عضاضة بالزرد .
والطرق زلقة لزقه وهي مع سعتها ضيقة . والمثاق (٣٠) ثقيل .
والقلق عقل . وما ثم الا مانيط بالطين . وصعب علينا بصعوبة هذا
الامر امر اولئك الشياطين . فنزل السلطان خيمته الى قرب المكان .
لتقريب وجوه الامكان . وبني له من الحجارة ما صار له
كالستارة . فحضرت بين يديه والسهام تعبرنا ولا تذعرنا .
والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهرنا والنقاب قد قلع وعلق .
والجرخي قد هتك الحجب وخرق . وتجرد الجند . وانجد الجد .
ونزلت الاثقال والخيم الى اسفل التل . فحفت الذل بذل النقل .
وطاب المقام بالغور . وسهل بالسهل . وتحولت الشدة الى اللين
وتحالت الى الطيب عقد الطين . وما زال السلطان ملازما الحصن .
وهناك ظاهرة له منه اسباب الوهن . حتى علق بعض جدرانها .
وطرق الهدم الى بنيانه . فتمسلمه بامانه . وذهب سكون سكانه .
فاخرجهم راغمين . واخرجهم غارمين . وتركوا الحصن بكل ما
فيه . واصبحوا بعد مقاتلته للعفو والمعافة معفيه . وذلك في

منتصف ذي القعدة . وانتصفت الايام بحل تلك العقدة . ورجعت الليالي بالسكون الى طيب الرقده . وعرضت القلعة على جماعة فلم يقبلوها . وخلوها وابوا أن يلوها . وتخلوا عنها بهمم واهية فدوليتها قايماز النجمي على كراهية . بعزيمة عن مهامها لاهية . وانتقل السلطان الى المخيم بالقضاء . وحمد الله على قضاء التوفيق وموافقة القضاء . وودعه الاجل الفاضل على عزم مصر بعد ما استكمل لنا مقامه بصدق الكلمة وجد اعتزامه الافتح والنصر. ثم تحول السلطان الى ارض بيسان . وأزال البؤس . وزاد الاحسان . وأقام بقية الشهر في تمهيد مجد يقيم في باقي الدهر . وظهر من الفضل ما لم يكن مستورا. وأعطى الأمراء والاجناد في إنفصالهم دستورا . وسار ومعه اخوه الملك العادل مستهل ذي الحجة واضح المحجة لائح البهجة . وأوجها الى القدس في طريق الغور وزارا للبركة . وتبركا بالزور . ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر وصلى في قبة الصخرة وخص ذوي الخصاصة بعميم المبرة . وعيد بها يوم الاحد الاضحى . وأضحى بعد ما ضحى ، وقد اصحب مراده وأضحى. وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها ونظم أسباب أحكامها . وتديير أحوالها . وترتيب رجالها . وأقام أياما يوضح الجدد. ويصلح ما فسد ويذشد من الذفع ما فقد . ويخدم من الشر ما وقد . فاذا وجد شعثا له . وان الفى نشره ضمه . وان صادف فتقا وثقة . وان لقي حقا حقه . وان عثر على باطل عفى اثره ، وان بصر بأمل خصه بعرفه وأثره. ثم ودعه اخوه الملك العادل واستقل الى مصر بعسكره ورحل السلطان على صوب عكا موفقا في مورده ومصدره . فما عبر ببلد الا قوى عدده . وكثر عدده وواصل بالرجال مدده . وكنت انفصلت عن خدمته الى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبنى الامكان ، والحمد لله الذي وفر حصاة الصحة وحول المحنة الى المنحة وكمل الشفاء بعد الاشقاء واهدى عند اليأس أرج الرجاء .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

والسلطان في عكا مقيم والامر مستقيم • والنهج قوي • وهو يربوب اسباب حفظها • ويسبب ابواب حفظها ، ويهذب مراتب مصالحها ويرتب مذاهب • مناجحها ، ويعدل جوانح امورها . ويذل جوانح جمهورها ، ويقوي ما وهى • ويسري ما هوى ، ويحلي من الشان ما عطل ، ويعلي من المكان ما سفل • ويعيد نظم ما انتكث • ولم ما تشعث ، ويجيد كل مادعا إلى بعث مامات منه وبعث • ومكث بها لايريم القصر إلى ان وصل جماعة من مصر ، فأمرهم فيها بالاقامة محافظة على الحماية المستدامة • فأمر بهاء الدين قراقوش بآتمام بناء السور ، واحكام احكام الامور . وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا واليا ، ولم يزل لأثار الدولة في ايثار العدل تاليا . ثم خرج السلطان وسار على طبرية • ودخل دمشق مستهل صفر . وقد استكمل الظفر ووجه الدين به قد سفر • وعز من أمن وذل من كفر • وحزب الهدى قد انس ونفر الضلال قد نفر ، وجلس على سرير السرور • ولبس حبير الحبور وبدأ بحضور دار العدل فدر عدله للبادي والحاضر واقام سفور بشره للمقيم والمسافر . وأفاض الفضل • ومحا المحل • وأعلى أعلام العلماء • وأحلى احلام الحلماء • وأمضى احكام الحكماء وقضى باكرام الكرماء • وأسدى المعروف وأعدى الملهوف • وأنكر المناهي ، ونهى عن المنكر، وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر • واقام مدة الشهر . وأولياؤه جناة النصر واعدائه عناة القهر ، وایامه مسفرة ولياليه مقمرة . ومغارس ايديه ثمار المحامد مثمرة • ومجالس اعاليه في نيار الشدائد مقفرة • والملك بزهوه زاه زاهر • والدين ببهائه مباه باهر والافاق منيرة والانوار مفيقة • والدولة حق مدال وحقيقة وللجاء وافي جده وللجود وفي عهده وللسماح سماء تهمع . والمراد مراد يمرع والوجود بالبشر بهجة ، وللأسنة في الشكر لهجة • وللشريعة شرعة

واضحة والحق سنة لستر الباطل فاضحة • والصنائع راجحة
والذراع ناجحة .

ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولي العهد
عدة الدين ابي نصر محمد ابن الامام الناصر لدين الله
أبي العباس أحمد امير المؤمنين

بتاريخ اوائل صفر وصل رسول منزل الرسالة ، ومقر
الجلالة ، ومربع الامامة • وموضع الكرامة • ومطلع الهدى ومنبع
الندى • ومشرق نور الايمان • ومشروع فيض الاحسان • ومرجع
المرجيين • ومفزع المتجيين ومنجي الناجين • ومنتجي المناجين
ومهبط الوحي • ومصعد الامر والنهي • ومقصد نجاح السعي ،
ومخفف جناح الرحمة • ومقطف جني النعمة • ومجرنيول
المناقب • ومجري سيول المواهب • ومزار املاك السماء • ومدار
افلاك العلاء • ومحج ملوك الارض ومحجة سلوك الفرض • وموطن
التنزيل • وموطيء جبريل ، ومقام الخلافة • وموام الرأفة • ومحمل
الامانة • ومحل البيان • ومطاف الطائفين • ومعرف الواقفين •
وموقف العارفين • وقبلة المقبلين • وموئل المؤمنين • وكعبة
القاصدين • ومثابة الوافدين • ومعفر وجوه العظماء • ومكفر نذوب
الكرماء • ومعصب السيادة القرشية • ومنصب الوراثة النبوية
والسدة الشريفة الناصرية • ودار السلام • وقبة الاسلام • فابتهج
السلطان بوصول الرسول وأيقن بحصول السؤل • وسر سره • وأبر
بره • وصدر يذشر الانشراح صدره • وقدر على الاتسام بالتسامي
قدره • واحتفل بأسباب التلقي بالحتف باثواب الترقى • وسأل عن
الرسول المندوب • للسلامة الخ طوب •
ف قيل هو ضياء الدين عبد الوهاب بن سكيته • وصل بالضياء
والسكينة • والاحوال الحالية المزينة • وكان وزير الخلافة يومئذ
معز الدين بن حبيده • فعين لهذه الرسالة ابن سكيته حين عرف

اراءه السبيبة * فتلقاه يوم دخوله الى دمشق السلطان واولاده *
وكان يوم مشهودا حضره اعيان البلد مائل العسكر واشهاده *
وانزله في دار الكرامة . ورتب له وظائف الاقامة * ثم جلس له في يوم
سعد صباحه . وبدأت في جبهة الدهر البهيم غرره ووضاحه . وملا
طرفي الزمان والمكان افراحه * وجاء على وفق الآمال اقتراحه .
وختم باليمن والاقبال رواحه . وورد بكل ما بهج الاولياء * وأزعج
الاعداء . وخاطب السلطان عن النيوان العزيز بكل ما أعزه * وثنى
عطف تباھيه وهزه . ورسا له طودا بالوقار في ايراد الرسالة .
وجلالة في مهب المهابة انوار الجلالة . وتلفظ له بالتفضل . وتطوق
منه بالتطول . وبشر بان امير المؤمنين فوض ولاية عهده * الى ولده
عده الدين ابي نصر محمد من بعده * واخذ بذلك العهد على من
حضره من اعيان الامة . وحفظ عليهم بتوليته ماؤلاهم الله به من
النعمة . واستظهر بما خص به من هذه المرتبة * وامر بذكر اسمه
ونقشه في الخطبة وعلى السكة . وعاد الاسلام به ظاهر الشوكة .
والشكة. وخطبنا لولي العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صفر .
ولم يبق من الامراء والامائل والافاضل إلا من حضر * واحضر معه
الدنانير وذئب * وتولى ذلك الملك الافضل فاطهر ابهة ملكه وبهاء
فضله . وحصل الاسلام من ري رايه على نهله وعله . وندب
للمرسالة الى النيوان العزيز ضياء الدين الشهر زوري القاسم بن
يحيى . لينشر به ما كاد يعقو من سنن الموافاة ويحيى . وسيرت
معه الهدايا . والتحف والطرف السنيا . وأسارى الفرنج
القوارس . وعددها الكوامل النفائس . وتاج ملكهم السليبي
والصليبي * والملبوس والطيب * واضفيت على رسول الامام ملابس
الاكرام . وقفل ناجح المرام . واصطحب الضيآن لاضاعة مطالع
الايمان . بسفارة سافرة عن سني الاحسان . وبشارة شائرة جني
النحل من نحل الجنان . واهتزت الاعطاف . واعتزت الاطراف *
وابتسمت ثغور الثغور لسدادها . وانتظمت امور الجمهور
لسدادها . وسرت القلوب . وسريت الكروب . وخزي الحاسد
الحاشد . وقوي الساعد المساعد . وواصل في طريقة الاغذاذ . حتى
وصل الى بغداد * فتلقى الرسول بالرسول * وقوبل بالقبول .

وخرج اليه الموكب الشريف واضيف له الى تالد جده القديم جده الجديد الطريف . ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيئة يوم قراعها . راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها . وادراعها . وقد نكست بذودها واتعست انوفها . وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها . ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها . ثم عطف به الى دار الكرامة فنزلها . والفي الوزير ابن حديدة قد عزل . وأقام في بيته واعتزل . وتصدر في الدست للنياية . وسماع الخطاب والاجابة . من له المجد الاثير الصدر الكبير مؤيد الدين صاحب ديوان الانشاء . وقد خص بتولي الحل والعقد والاخذ والاعطاء . فتولى سماع الرسالة وجوابها . وأولى صوبها ووالي صوابها . وسياتي في موضعه ذكر ما انتهت اليه الحال . وجرى به القال . وكيف شغلت العوائق وعاقبت الاشغال .

فصل مما كتبته في المعنى عن السلطان الى الديوان العزيز مع الرسول

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امثال المثل . وأداه من فرض الاعظام والاجلال . وقام به من الامر الذي قام به أمر الدين والدنيا . وبادر اليه من استثمار طاعته التي دامت لها من نعمة الدار العزيزة في إزكاء مغارسها السقيا . وحل حبا الحب لما حل من حساباتها . وعقد خنصر النصر لعزائمه على ما اعتقده من ولائها . وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من إسعادها . واستجد عهد الجد المورق المونق بما جاد ثراه من ثرات عهادها . ونهض من الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين . وأبرم من عقد عبوبيته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين الناقضين . ووثق لما وافق المراضى الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضا . واقتضى بين الدين الثابت وثبت على الوفاء في استيفائه بما قضى . وسبق الى ما سبق به جواد صدقه في جواد قصده . واقتتح فريضة طاعته في حلاوة

عبوبيته بتلاوة فاتحة حمده . وأنهى الى نهاية النهى . وأطاع
ما أطاق فيما أمر الله به ونهى . وما وضع الكتاب من يده حتى رفع
بالدعاء يده . وسأل الله لولانا وسيدنا أمير المؤمنين وافتد النصر
ومدده . وان يعضده بولده ولي عهده المطاع بأمر الله عدة الدنيا
والدين . ويقر به عيون المسلمين . فقد فاضت البركات . وأضت
الحسنات . وأضأت الكرامات . وراضت جماع الاماني المبرات
المبرات . وهاضت جناح الكفر الفتكات المربيات . وعمت الميامن .
وتمت المحاسن . وتمت النعم الظواهر واليوطن . وضمت بسكون
الدهماء اهلها المعاهد والمواطن . وصدحت المناجر . وصدقت
المفاخر . وصدعت الأوامر . وصدفت الفواقر . وصدمت قلوب أهل
الذفاق من بواعث الرعب والبواعث البوادر . ونقشت صفحات
الدرهم والدينار . ونعشت عثرات الاخيار الاحرار . وفرشت مفوقات
الانواء والانوار . وعرشت اسرة المبار والمبار . ورفعت رغبات
الابرار . وسمعت دعوات الاسحار . ونزل النصر . وفضل
العصر . ووجب الشكر . وشجب الكفر . ورحب الصدر . واصحب
الدهر . وسحت سماء السماح . وصح ارواء الارواح . وتضوع
نشر الانشراح . وتوضح صباح الصلاح . وطال جناح النجاح .
وطاب جني الافراح . وعظم القدر . ونظم الامر . وحسن الذكر .
وأمن الذعر . واهتزت اعطاف الاسلام . واعتزت اطراف الشام .
وتبلجت ايا من الايام . وتروجت اماني الانام . وأرجت أرجاء
الرجال . وثبتت باسناء الاسناد رواية أمالي ري الامال . وقرت
الاعين وابتهجت بالسعد الطالع . وأقرت الألسن والتهجت بالحمد
الجامع . وقرت الأذفس وانتهجت بوسعها سنن العز الواسع .
ونابت هذه الموارد العذبة المشارب الصافية المشارع في نفع الأوام
(٣١) ونقع الانام مناب المنابع . وأزخمت السير وسيرت
الدواريح . وخلقت ملطفات البشائر ليوجب تفخيما وتضخيما
التضميخ . وشرق المغرب من بشر البشرى . وناارت مصر من
حسن هذه الحسنى . وبسمت بسمة الشرف منابر الأقاصي
والأداني . موافقة لنذر المسجد الأقصى . وتطرزت الفتوحات
الفاضل عصرها . الشامل نصرها بهذا المذهب المذهب . وفاحت في

مهاب المحاب نفحات هذا الزمن الأظهر الأطيب . وعاد الزمان الى
اعتداله . وعاد العدل بزمانه . وقاب الدهر من عدوانه . وآب إلى
احسانه . ورجع الدين إلى سناء سلطانه . وفجع الكفر بعبدة
صلبانه . وبطش الايمان بايمانه . واستخلص من الشرك بلدانه
بلدانه . وتقاضى الربيع بقروضه . وضافت ضيوف فيوضه . وعتب
العزم على ربوضه . وحض الخط . على نهوضه . وحدث الحب على
اقامة سســــــــــــنن الجهــــــــــــاد وفــــــــــــروضه . فقــــــــــــد
درت افاويق الآفاق . وذرت أشعة الاشراق . وافتتحت نضرة
الحدائق لنظرة الاحداق . وراقت أوراق الاولوية كالتواء
الأوراق . وأزهرت البيض والسمر كازهار الرياض . وأنف غرار
الجفون في الاغماد من الاغماض . وتيقظت الاقدار للاقدار على
ايقاط عيون البيض لاجراء دم الشرك المطلول . وتنزل البركات في
انتجاع المراق من تجيع المارقين لا تزال نص النصر على النصل
المسلول . وقد أن ان ترعى الدشاشات منهم على رعي
الدشيش . ويطير الى اوكار المقل طير السهم المريش . وترتع
ثعالب العوامل في عشب الكلى . ويطن ذباب المناصل في لوح
الطللى . وترن رقاق المرففات في الرقاب رنين الخطب على
الاعواد . وتذوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الذلوج على
رؤوس الأطواد . وتحمل اشجار القنا بثمر الهمام . ويجيش
الفضاء المعشب بزهر الجيش اللهام . ويقطف ورد الموت
الأحمر . من ورق الحديد الأخضر . ويوقف حد الهندي الأبيض
على قصر بني الأصفر . ويجري في ورد الوريد جداول
البواتر . وترمي من الحصون العانيات الى حصون العدا جنادل
الحوافر . وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر والظهور المضافر
ضدومن الضوامر . وتلقى عقبان رايات الفتحة والكسر من عقبان
الجو بالفتخ الكواسر . ويعبق ثوب الدارع من ردغ الثواب بسهك
الماذي . وتعلق في ملتقى التقى افات السهمري . بلامات
السابري . ويظهر الحق بخذلان الباطل . ويحل بأيدي الأيد ما بقي
مع الفرنج من معاقل المعازل . ويغرق بحر المجر الجرار ما تخلف

من ساحات الساحل . فلم يبق به من المدن المنيعه الا صور
وطرابلس . ومعالم الكفر بهما في هذه السنة المحسنة بعون الله
تدرس . وأما انطاكية فانها بالعراء مذبونة . وعند الاتجاه اليها
مأخوذة . على انها بوقم قومها عام أول موقونة . وحدود العزائم
اليها عند انقضاء هذنتها مشحونة . فانها قد نقصت من
اطرافها . وبخل عليها من اكفافها . وجذعت بفتح حصونها
عرانينها . وضيق على أسدها وسيدانها المحصورة المحشورة فيها
عرينها . فهي نهـزه لمقترض . وطعممة لمقتنص . وسالعة
لمسترخص . وبلغة لمستفحص . وقد خرج الخادم ليدخل البلاد .
ويستأنف بجهده الجهاد . ويستقبل الربيع بربيع
الاقبال . ويستنزل ملائكة النصر من سماء الرحمة لأوقات
النزال . وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله ان يجد جند
ارضه بجند سمائه . ويوفق الخادم لتصديق امله في تطهير الأرض
من انجاس اجناس المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه . فالجحافل
حافلة . واسراب الكفر بين يديها جافة . ومعاطف الاسلام في
لباس الباس رافله . ونصرة الله بانجاز عدائه في قمع عدااته
كافله . والحمد لله الذي وفق عبد مولانا أمير المؤمنين في طاعته
لنصر أمره . وإخلاص الولاء في سره وجهره . واقتناء كل منقبة
حقق بها فضل عصره . وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره فما
يفتح مرتجا الا بتقليدها . ولا يستنجد مرتجى الا بتأييدها .

ذكر خروج السلطان من دمشق لاجل شقيف اردون وما جرى له مع صاحبه

وأقام السلطان شهر صفر في دمشق . وقد اطاب لناشق الآمال من نشره النشق . ثم خرج منها في ثالث شهر ربيع الأول يوم الجمعة . بالحببة المجتمعة والمهابة الممتنعة . متوجها الى شقيف اردون . ليقر بفتح العيون . ويصدق في استخلاصه الظنون . وأتى مرج برغوث . وأقام به الى يوم السبت حادي عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث . ثم رحل على سمت بانياس . وقد اوقع رعبه بين اهل الكفر البأس . وأتى مرج عيون وخيم منه بقرب الشقيف . وجمع على من به من آلات الحصار اسباب التخويف . وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول في أواسط فصل الربيع . وأقام في ذلك المرج الوســــــــــــــــيع . والروض الوشيع . وأسمنا الخيل في اعشاب واصية . ورتعنا في الطاف من الله دانية غير قاسية . وكان الشقيف في يد صاحب صيدا ارناط . وقد أكمل في حفظه الاحتياط . فنزل الى خدمة السلطان لحكمه طائعا . ولأمره سامعا . ولرضاه تابعا . وفي موضعه شافعا . وعلى حصنه خاشيا ولاجله خاشعا . وسأل ان يمهل ثلاثة اشهر يتمكن فيها من نقل من يصور من اهله ، وأظهر انه محترز من علم المركيس بحاله فلا يسلم من جهله . وحينئذ يسلم الموضع بما فيه . ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه . ويخدمه على اقطاع يغنيه . وعن حب أهل بيته يساليه . فأكرمه وقربه . وقضى اربه . وأجابه الى ما سأل . وقبل منه عزيز ما بذله بذله . وأمهى (٣٥) عرب رغبه وأمهله . وأخذ له وما خذله . وخلع عليه وشرفه . ورفعه في نايه بنداه وعرفه . واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه . ووجد اليه سكونا وعنده سكينه . فشرع ارناط في ازالة حصنه ، وازالة وهنه . وتــــــــــــــــرميم مــــــــــــــــســــــــــــــــمــــــــــــــــته . وتتميم مستحكمة . وتوفير غلاله . وتوفية رجاله . وتدبير احواله . وتكثير امواله . ونحن في غرة من تحفظه . وفي سنة من تيقظه . وفي غفلة

من حزمه . وفي غفوة من عزمه . وكان يبتاع من سوق عسكرنا الميرة . ويكثر فيه النخيرة . وقد صدقنا كذبه . وحققنا اربه . وانهي الى السلطان ما هو مشغول به من عمارة يجدها . ونخيرة يعدها . وثلثة يسدها . وقوة يشدها . وميرة يستمدها . وكان بالمذكور سيد الظن . شديد الضن . لا يقبل ما فيه يقال . ولا يظن به عثورا يقال : فلما كثر فيه القول . وتمكن من مسألته العول . لم يرد ان يبدي له ما قيل . ولم يصديء بالتغير عليه وجه جاهه الصقيل . فأمر بالانتقال من المرج الى سطح الجبل . وتحويل الخيم اليه والثقل . وذلك ليلة الجمعة ثاني عشر جمادى الآخرة وأظهر ان المرج وخيم . والمقيم به سقيم . وأم الدهر فيه بالصحة عقيم . وكان المقصود ان الشقيق من عيانه يقرب . واخباره عنه لا تعزب . فلما علم صاحب الشقيق بقربه . شرع في ازالة ما في قلبه . وجاء الى الخدمة . واستمسك بالعصمه . وذكر انه متعزز بـذل الطاعة . وبـذل الاستطاعة . وتضرع خاضعا . وتعرض خاشعا . وذكر انه تخاف له اهل بصور . وانه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور . وانه يتربص وصولهم . ويأمل عنده حصولهم . وشرع في تقرير هذا الحديث . وتمهيد عذره فيما يتوهم من عهده الذكر الذكيث . واقام يوما وعاد الى حصنه . وقد وجد من السلطان دلائل امه . وكانت المدة قد دنا انتهاؤها . وقرب انقضاؤها . فانها الى آخر هذا الشهر . ولم يجد بدا من التسليم او الغدر فعاد بعد ايام . باكتئاب واغتمام . وحضر عند السلطان فقال ما اظهر به الابتهاال . واستزاد الامهال . وذكر انه رقيق الامتان . وعتيق الاحسان وانه العبد القن . وقد دخل عليه الوهن . وغلق به الرهن وانه يبقي أهله معتقلين بصور إن خرج منه الحصن . ومن انشأ غرسا سقاها فأبقاه . وأشكاه فأزكاه . وأسماه فأنماه وقد اصطنعتني ورفعني فلا تضع الرفيع . ولا تضع الصنيع . وسأل ان تكون المده سنه . وان يتبع الحسنة في حقه حسنه . وان يرخي بطوله طوله . وان يشفي بشفاء ألمه ألمه . فراقه قوله . فرق له طوله . ثم افكر في أمره . واستمر في فكره . فقادر على عزيمة

غدره . وجاهر بسر شره . بعد ان ماطله وطاوله . وزاوله على ما
حاوله . وأقام اياما يردده . ويخصه من الكرامة بما يجنده . ثم
كشف له الغطاء . بعد ان أجزل له العطاء . وقال له قد قيل عنك ما
لا نظنه فيك ولا نعلمه منك . فجحد ما عنه رقي . وانه كيف يلقي
بالكفران ما من الانعام لقي . وانه لم يسعد بامهاله في الشقيف
شقي . ثم سأل في ندب من يوثق بأمانته . ويؤمن الى
وثاقته . لينخل الموضع ويلامحه . ويحضر بوصف ما شاهده
ويشرحه . فرجع المندوبون بخبر ما أبصروه . وذكروا أن الحصن
قد غيروه . وانه قد استجد في سورة باب . واستمدت له من احكام
احكامه اسباب . فاستحكم به الارتياح . وعرف ان السرح قد
حوته الذئاب . فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم . وقيل لعله يحسن
فلا يحوج الى مراقبته ويسلم . ثم قيل له قد بقي يومان من المدة
المضروبة . والمهلة الموهوبة . فتقيم عندنا حتى تنتهي المدة
وتدقضي . وتسلم الحصن وتسلم وتمضي . فأبدى ضرورة
وضراعه . وقال سمعا وطاعة . وكان له ملقى وملك . وفي لسانه
زلق . وما عنده من كل ما يفرق منه فرق . وقال انا انفذ الى نوابي
في التسليم . وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم . فأظهروا
عصيانه . وقالوا يبقى مكانه . فقال قد بقي من المهلة يومان فماذا
العجلة التي يفوت بها الغرض . ويطول منها المرض . فصبر عليه
الى يوم الاحد ثامن عشر جمادى الآخرة وهو آخر مدته . وأول
شدته . وأوان انقضاء عدة عدته . وقد رتب على الشقيف يزك يمنع
الخروج والنخول . والصعود والنزول . ويضايق غريمه
المطول . قبل ان يمتد حصاره ويطول . وحمله جماعة من الامراء
ووقفوا به ازاء حصنه . فناداهم في درك امره . وفكاك
رهنه . فخرج اليه قس قاس . بأسر عن باس . فصادته في حادته
بلغته . ونافته في كارته بغلته . وتحاورا في السر . وتشاورا في
الشر . وكانما امره بالتجلد . وصبره على التشدد . وعاد القس
الشقي الى الشقيف . وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف . فقيد
وحمل الى قلعة بانياس . وبطل الرجاء فيه وبان الياس . ثم
استحضره في سادس رجب وهدده وتوعده وبالحق في تخويفه . على

ان يبلغ المراد في شقيقه . فلمّا لم يفد خطابه . ولم يجد عذابه . سيره الى دمشق وسجنه . وألزمه شجاء وشجته . وتحول السلطان من مخيمه الى اعلى الجبل يوم الأربعاء ثامن رجب لحاصرة الحصن . ورتب له عدة من الأمراء . وامرهم بملازمته في الصيف والشتاء . الى ان تسلمه بعد سنة بحكم السلم . وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم .

ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمرج عيون من الاحوال وما كان من غزواته ونهضاته ووقعاته في حرب الفرنج والقتال

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الاسر ، وقالوا نحن في جمع جم خارج عن الحصر . وقد تواصلت الينا امداد البحر . فثربنا للثار ، وأعرنا من هذا العار . وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور . وفارقوا بالاستطالة القصور . وجسرت بين المركيس المقيم بهـا وبين الملك مراسلات . وحالت بين اتفاقهما حالات . فلم يمكنه من دخول البلد . ولج معه في اللد . واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر . وانه منتظر لما يبرمونه من الامر . ويصله من الامر . ثم اتفقوا على ان يقيم بصور المركيس . ويدوم منه لملكهم التأسيس وملكهم التأسيس . وانهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم . يتساعدون على رم ما تشعث من احوالهم . ويتعاضدون على حل اشكالهم . ويتعاضدون في تسديد اختلالهم . ويقصدون بلدا اسلاميا من الساحل . ويقيمون عليه بالنوازل اقامة المنازل . والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد . وبجميع ما يحتاجون اليه من الميرة والاسلحة والعدد . فأجمعوا على هذا الرأي . وبلغوا في الفى الي هذه الفاي . وشرعوا فيما شرعوه . وفرعوا ذروة الاصل الذي فرعوه . ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمادى

المشية . وحمل الحاضرون من الامراء والعسكرية على الفرنج حملة
اردتهم وردتهم . وصدقهم عن الجراءة وصدتهم . وتزاحموا على
الجسر . ففرق منهم زهاء ثمانين في النهر . وكان يوما علينا
ولنا . جنى المنا واجنى املنا . والحرب رجبال . والحرب
سجال . ولم يكن لاولئك الغرباء بقتال الفرنج دربه . واقدامهم على
العدو لله قربه . فحاضوا من الدم في اللجج . واعتاضوا الجنة من
المهج . وممن لقي الله بالشهادة . وختم له بالسعادة . الامير غازي
ابن سعد الدولة مسعود بن البصارو . وكان شابا لنار الحرب
شابا . ولين الرب رابا . ولما شاهد ما تم من الغزاة . انقض في
اصحابه على الفرنج انقضاض البزاه . فدعته جنته . الى طعنة
لبتها لبته . فاحتسبه عند الله والده . وكدرت عليه مواريده . واوجد
جمعنا الاسى على فقد ذلك الواحد . وساء عدم الساعد . وبتنا نشكر
مساعي ذلك المساعد . وضائق القلوب . وفاضت الكروب . والم
البوس . وأملت الذفوس . وهذه وقعة ندرت . وواقعة بدرت .
ونذير حدث وحادثة انذرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ
اصيبوا غير هذه الكرة . وانا قونا بعد أن حلا لنا جني الفتوحات
مرارة هذه المرة . فايقتنا من رقدة الفرة . وأخذ الناس
حذرهم . ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم . ثم رجعوا الى الله
وقالوا بهذا وعد الله حيث قال : (فيقتلون ويقتلون) (التوبة ١١١)
وعبادهم هم الذين يتبعون امره ويمتثلون . ثم قويت عزيمة السلطان
على قصدهم في مخيمهم . وكبسهم في مجثمهم . وعبروا الجسر
اليهم . والاحداق بهم من حوالهم . وشاع صيت هذا العزم
وصوته . وسارع الناس الى موسمه . وخشي فوته . وتسامع اهل
البلاد . بتصميم عزيمة الجهاد . فتباشروا وتبادروا . وتسابقوا
وتسارعوا واتوا من كل فج . وجاءوا من كل نهج . وسالوا في كل
واد . وجالوا في كل بقاع ووهاد . ووافيت مطوعة دمشق
وحوران . يجرون الى مرالموت . ويجرون المران . وتوافد من بالمرج
والغوطة . على الحالة المغبوبة . وقالوا هذا اوان احضار الضوامر
المربوطة . واجتمعت بمرج عيون . جموع مرجت العيون . فخافت
الفرنج من هذا الجمع . وانا فت على القمع . وتعكست الى سور

صور . وعاین اولئك البور البثور . وتحرزوا وتحرسوا . وتوجلوا
وتوجسوا . فاقتضت الحال تأخير قصدهم . ليتمكن على غرتهم
حشدنا من حصدهم . وعاد العسكر الى المخيم وسار السلطان الى
تبنين . صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين . لتفقد
احوالها . وتأمل اعمالها . وعرض رجالها . ثم سار منها الى عكا
جريدة . ورتب في عمارتها وولاياتها احوالا سديدة . ووصى رجالها
بالاحتياط والتحفظ . والاستظهار والتيقظ . واسرع عودته الى
المعسكر . عظيم المفخر كريم المعشر . وفق المورد
والمصدر . مقرظ المنظر والمخير . واقام الى يوم السبت سادس
جمادى الآخرة . وبحر مخيمه يموج بامواج العساكر الزاخرة .

ذكر ما تم من استشهاده عدة من امراء العرب

وانتهى الينا ان الفرنج ينتشرون في الارض . وينبسطون في
موضع القبض . ولا يتحفظون في الرفع والخفض . ويحتطبون
ولا يحاطون . ويحتشون ولا يختشون . ويجذون ثممار
الحيل . ويجذون على ما يصادفونه بانواع الغيل . وهم في غرة من
غار . وفي جسارهم تعود عليهم بخساره . وفي غفلة تجر
عقله . وفي ضله ترفع عليهم من العذاب ظله . وانهم اذا خرجوا
للأحتشاش والاحتطاب . وانتشروا لضم الاعشاب من
الشعاب . خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد . وتحفظهم من
متعد . ونفذ السلطان الى خيل تبنين . وامرهم بأن يصبحوا اولئك
الملاعین . فاذا خرجت الخيل اليهم تطاردوا قدامها ووصلت بها
الكمين . وذلك يكون في صباح الاثنين ثامن الشهر
المذكور . وواعدهم على هذا السر المستور . ونفذ الى عسكر عكا
ليكن في موضع عينه . ولا يظهر مكنه . حتى يكون من وراء
القوم . مستعدا لما ينالهم من الوقم . وسار السلطان ليلة الاثنين
على الموعد . مصدقا للمقصد . وصادف خيل تبنين قد اغارت واثارت
وابرت وابارت . فعبر تبنين وكن بين صور وبينها . وعين اليزكية

وأوقف عينها . ورتب ثمانية اطلاب من الابطال . وكمن بتلك
الارجاء كماء الرجال . وانتخب من كل طالس عشرين
فارسا اجوادا على الجياد . واجلادا في الجلد على الجلد . فامرهم
بان يتراءوا للفرنج حتى تصل اليهم وتحمل عليهم . وهم يفرون
قدامها . ولا يقرون امامها . ويجذبونها الى قرب الكمين ويوقعونها
عليه . ويوقعونها اذا حصلت بين يديه . ففعلوا ما به امروا . ولما
حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا . وانفوا من ان يقال عنهم
فروا . بل جالوا فيهم وكروا . واتصل القتال واشتد . واحتدم
المصال واحتد . وطال زمان الحرب وامتد . وطارت جمرات
الصفاح . وفارت غمرات الكفاح . وثارت غبرات البرى . ودارت
عثرات الثرى . وانحلت عرى اللم . وانحطت ذرى القمم . وعدم
كل قرن قراره . وكل جفن غراره . ودام نهارنا يجري بانهار الدم
انهاره . وعرف من بالكمين ان الحرب قد اشتبكت وان الاسد قد
اعترك . وان البرك قد ارتبكت وابتكرت . فتواصل انجادا
للانجاد . وتراسل امدادا بعد الامداد . فلما رأى العدو ان المد
يكثر والعد يكثف . وان عساكرنا لا تتوقى ولا تتوقف . صمم
العزيمة . على الهزيمة . وعلم ان النجاة عين الغنيمة . فثنى
اعطافه . وضم اطرافه . ورد احلافه . وجرت بين الفريقين
مقتله . عادت ارض المعركة بها وهي مذقة وكان قد حمل العرب
على وعد العود الى الكمين . والرجوع الى اسد ذاك العرين . ولم
يكن لهم بالطريق خبرة . ولا عبرت من الطوارق بهم
عبره . فتطاردوا بين يدي الفرنج في واد ما له نفاذ . ولا لسالكه الى
منهج ملان . وراهم العدو فعدا وراهمهم . وسار بجمعهم
ازاءهم . فلما انتهوا الى الجبل ادركوا . ولم يقدر ان
يسلكوا . فقاتلوا حتى قتلوا . واقبلوا على الله فقبلوا . وهم الامير
زامل بن تبل بن مري بن ربيعة امير النقرة . وسري
الاسره . والامير حجي بن منصور بن دغفل بن ربيعة . والامير
مطرف بن رفيع بن بردويل بن مري بن ربيعة وآخر معهم . فهؤلاء
اربعة من ربيعة بنيت لهم في جنة الخلد ربوع . وقدر لهم في رياض
النعيم رتوع . وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز . وانتقلوا من العز

الفاني الى الباقي من العز . وكان معهم من المماليك الخواص . من
ذوي الجد والاخلاص . تركي عربي النخوة . غضنفر السطوة .
فلما حصل في المضيق . وايس من الطريق . نزل عن فرسه على
صخرة بنحوه . وذل بين يديه كتانته . فارعا لذروه . وقد اوتر
قوسه وسدد اليهم سهمه . وقبل قضاء الله وحكمه . وحن الى منيته
من حنيته . واصاب منيته من اصماء العدو في المصاب
بامنيته . فوقفوا عنه بعيدا حين خافوا قربه . ومازالوا يطعنونه
ويرمونهم حتى ظنوا انه قضى نحبه . فأصبح . وقد نزل دمه ، وترجع
على وجوده عدمه ، ولما قيل انه استشهد وطلب ليحد ، رمق وبه
رمق ، وهو في دمه غرق ، فحمل على أنه من الأموات ولم يرج له
فوات الوفاة ، فأحياه الله بعد ان أماته ، وجمع أعضائه عليه وقد
شارف منها شتاته ، وأنشأه خلقا جديدا ، وأوجده في أجله
مزيذا ، وهو ايبسك الساقى زاده . ماجرى اجتراء على
الاقدام ، واجراء الى مضمار الحمام ، فما سمع بعد ذلك هيفة الا
طار اليها ولا بصر للكفر ضيعة الا اغار عليها .

ذكر مسير الفرنج الى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهن اليها

وصل الخبر يوم الأربعاء ثامن رجب ، ان العدو قد
ركب ، وأجلب بخيله ورجله ، وطار بجراد جرده . ودب دباه في
رجله ، وسرحت نئابيه ونجت كلابية ، وجاش عرام جيشه
العمرم ، وطاش الى أهل الجنة بأهل جهنم ، وذوى القرب من
النواقيير ، وأضرمت بنار السعير مساعي المساعير ، وهو على قصد
عكا يجري الى المدى برأى جمعه المدامير ، وأن نفرا منهم
نفر ، وسبق الى النواقيير وعبر ، ونزل باسكندرونة ، واستباح
طرقها المصونة ، وهناك من المؤمنين رجال يجمعون طرف
الثغر ، ويضمون نحر الأمر ، ويضمون نحر الكفر ، ويجوبون غارب

الشر ، ويجوبون جانب البحر ، ويطوفون للحراسة ، ويطولون بالحماسة ، فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها وداقعوها وعاقروها وقارعوها ، وأهلكوا عدة وملكوا عدة ، ولما تكاثرت أعداد الاعداء ، استظهروا بالانكفاء عن الأكفاء ، وتدافعوا بعدما دافعوا ، وتراجعوا بعد مراجعوا ، واطلع السلطان على خبرهم وعرف نفور ذفرهم ، فكتب الى العساكر الدانية بالذو ، والعدو على العدو فتوافدوا للميعاد ، وتوافوا للاعتضاد ، وتوفروا للجهاد ، وتوافقوا في ابناء المراد بابعاد المراد ورحل الفرنج ثاني عشر رجب يوم الأحد ، وافية المدد . وافرة العدد ، ونزلت على عين بصة ، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصة .

ووصلوا اذلهم الى الزيب . واجابوا داعية الصليب ، فاصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل ووصل العنق بالذميل . وكان النقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحه في الاودية جري السيل ، وسرنا على جب يوسف الى المنية ، أخذين بالحزم تاركين للونية . وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا ، وبتنا بها تلك الليلة وسكنا ، ثم اصبح يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الفروية . واطلع منها على الاسرار المحجوبة ، واشرف على العدو النازل ، وبنّا حزب الحق من حزب الباطل ، وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هونين ، والفرنج مقابلين مقاتلين ، فوصلوا في هذا اليوم وقد نالوا في طريقهم من القوم ، ونزلنا في أرض صفورية بالانقال ، وتجرد الرجال منها الى المخيم السلطاني للقتال ، وكان من رأي السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ، ولم يزل رأي بنور فطنته وطيب فطرته أذكي وأزكي ، ان يسايرهم في الطريق ، ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم عن الوصول ، ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا صعب نزالهم ، واتعب قتالهم . واذا نبتوا تعذر حصصهم ، واذا ثبتوا تعسر قصدهم . واذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالجراد ، واذا خلقوا في جودوطاروا كالجراد ، فعند الانتشار يمكن التقاطهم وعند الانحصار يتمكن احتياطهم . فقالوا له بل نستقيم على السنن

القويم ، ونطالبهم طلب الغريم ، وماأهون قطعهم اذا وصلنا واعجل
ادبارهم اذا أقبلنا ، والطريق قبالتهم وعر ، وللمقصر عن التطاول
فيه عذر ، فدمضي على اسهل الطرق ، ونسد فلقهم بالفيلق ، وتبين
لنا بالعافية ان الرأي السلطاني كان أصوب فان نزالهم عند نزولهم
صار أصعب ، ونزل الفـرنج على عكا من البحر الى
البحر ، محتاطين بالانحصار . محيطين بها للحصر . وضرب الملك
العتيق كي خيمته على تل المصلبة ، وربطت مراكبهم بشاطئ البحر
فكانت كالأجام المؤتسبه ، وبعث السلطان ليلة وصوله الى مدينة عكا
بعثا يدخلها على غرة من العدو ، وتواصلت البعوث اليها التي هي
على التزايد والنمو ، حتى استظهرت بقوتها . وقويت
باستظهارها . فلما اجتمعت العساكر . واتصلت بالاول والآخر .
كفي جيشه طلبا طلبا ، وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا ، وسار بهيأته
وهيئته ، وانزل العسكر على تعبيته ، ونزل بمرج عكا على تل
كيسان في ذوي اختصاصه ، وقد نصب من خيامه عليه اشراك
اقناصه ، وامتدت الميمنة الى تل العياضية والميسرة الى نهر الماء
العذب ، فدارت رحى الحرب ودام كركرب ، وطاب طعم الطعن
والضرب ، وطافت كأس البأس بمدام الدم على الشرب ، ووافى
للأنجاد عسكر الشرق ماضي الغرب ، وصرنا محاصرين للمحاصرين
مكابرين للمكابرين ، قد أحاطنا بالعدو وهو بالبلد
محيط ، واستشطننا منه وهو مستشيط ، واحدقنا بأولئك الكفرة
احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعدها
وسهلها ، ورتبنا بالزيب والذواكير رجالا يصدونهم عن
سبلها ، ودمنا نصابهم بالقتال ونماسيهم ، ونراوهم
ونغادهم ، ونعاوهم ونبايهم ، ونقدم بعوايننا على
عواينهم ، ونصدهم ونصدمهم ، ويوجددهم البحر
ونعدهم ، ومازالت مراكبهم تتواصل . ومناكبهم تتطاول ، وأهل
الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافدون ، مترادفون
مترافدون ، قد لقعوا وجه البحر بنقب السفن ، وجذبوا بالقلوس
على ثجبه عران الرعن ، والقوا على تياره بسط البطش . وحملوا
على البحر أوزار النجس . وتبالهم وتعسا . فانهم زادوا على

رجسهم رجسا ، وبقي القتال بينهم وبين اليزكية ، كل بكرة الى العشية ، الى أن وصل الملك المظفر تقي الدين عمر ، ومظفر الدين كوكبوري الأسد الغضنفر ، فاستظهرنا بهما وبمسكرهما الدهم ، ووصل مقدموا الرجال في الجمع الجم ، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز ، ومنعوا من الدخول والخروج ، ولج أولئك العلوج في ضبط طريق الولوج ، وذلك في يوم الأربعاء والخميس آخر رجب لانسلاخه ، والاسلام ينادينا باستصراخه ، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهل رأياته ، واستقلت آياته ، وعز عزمه ، وعلا حكمه ، ومامنا الا من اسرج الجرد وجرد السريجات ، وعاج بالاعوجيات . واشرف بالمشرفيات ، وبرز باعتقال الربينيات ، وربان العقليات ، وأزكى المذاكي وقرب المقربات ، وقد سن سنان لدنه ، وجن جنان قرنه ، وساف سيفه ردى الدم ، وضاف جوده مضيف العدم ، وأقبلنا والنصر مقبل ، والظفر متهلل ، والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدتان ، والقلب له من التأييد والتمكين جناحان ، واتفقت الآراء واجمع الأمراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة ، عند قبول الدعوات المرتفعة ، ومناب منابر الاسلام عن أهله في جميع بلاده ، واجماع الاسنة والقلوب في الضراعة الى الله في نصره المجاهدين من عباده ، وأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم ، وكدر عليهم صفو مشاربهم ، وفلل مضاء مضاربهم ، وهم في مواضعهم واقفون . وعلى مصارعهم عاكفون ، وفي مواطنهم ثابتون وعلى مواطنهم ثابتون كالبنيان المرصوص مافيه خلل ، وكالحلقة المفرغة ماإليها منخل ، وكالصور المحيط ماعليه متسلق ، وكالجبل الأشم مافيه متعلق ، فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها ، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم ان يمتطوها ، ودامت الحرب قائمة ، وبيمة الدم دائمة ، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه ، وخلف نظامه حتى بخل الليل وحجز ووعد النصر مانجز ، وحزب الحق ماعجز . فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما امسوا . وزادوا على ماجرى امس

وأهلوا عنه وأنسوا ، فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس
الظهور ، واصبحت شمس الجمهور ، واستضاف نورها مستفيض
النور ، وحمل الناس من جانب البحر شمالي عكا حملة شديدة ،
كانت لمن قدامهم من الفرنج مبيدة ، وفرشوهم على تلك
التل ، وردوا مضاربهم من قلهم بادية القل ، وانهزم الفرنج الى
تل المصلبة نحو القبة ، وثبتوا عند الوثبة ، وأخلوا ذلك
الجانب ، وخلوا تلك المذاهب ، وقلعت خيامهم . وقطعت أطماعهم
عنها ، وانفتح لنا طريق عكا . ودخلها الرجال ، وحملت إليها
الغلال ، ونقلت إليها الأحمال ، وبخل العسكر اليها
وخرج ، وانكشف ضيق حصرها واطلع السلطان على الفرنج من
سورها ، وشرع في تدبير أمورها ، وخرج عسكر البلد للموازة على
قتال العدو العادي ، وترك الهوادة في قصر القصر ، والهواذي
والفرنج قد رهبوا ، ولو قدروا هربوا ، ولكن اصحابنا رأوا أن
انفتاح باب البلد غنيمة ، وانهم أي وقت ارادوا كانت منهم غزيمة .
ومن العدو هزيمة وتوقفوا على الاتمام ، وتقدموا عن مقام
الاقدام ، ولو أنهم استمروا في الحرب على هياتهم وهيبتهم ، لباء
الاعداء لنجحنا بخيتبهم ، فان الصدمة الأولى أخافت
وحافت ، وناقت بقاء القوم وعلى هلكها انافت ، ولكننا تركناهم
حتى عادت اليهم الأرماق ، وعاود فرقتهم الافراق ، وابصروا ما بين
ايديهم وما خلفهم . وازالوا فيما بينهم بالموافقة خلفهم . واثبتوا في
مستنقع الموت ارجلهم . ورأوا أن الوقت قد أمهلهم . وقال أمراؤنا
هؤلاء قد سهل أمرهم ، وخمد جمرهم ، وقد حص رياشهم
حصرهم ، وهم في قبضتنا أي وقت اردنا ، ولقصدهم
تجربنا ، وقالوا نصبر الى الظهر ونمضي ونسقي الخيل ونعود
وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود . فانصرفوا على
عد العود ، وتفرقوا في مراتعهم تفرق الذود . وبلغ العدو ريقه ،
ووجد الى الجلد طريقه وجمع بعد التفرق فريقه ، وضم عن الانتشار
راجله ، وزم راحه ونابله ، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات
والقراس والقنطاريات ، وقد صوبوا الجروح وفوقوها ، وجمعوا
العدو وعلى الرجال فرقوها ، كأنهم في الدروع أراقسم ، وفي المجان

علاجهم ، وفي النهوض قشاعهم ، وفي الضراوة ضراغم ، واختلافت الآراء مع العلم باحتراسهم وتستترهم بتراسهم ، فمنا من يقول نصبحهم بالزحف ، ونزورهم بالحتف ، ويترجل الامراء فيتبعهم الاصحاب . وتذشب من آسادنا في تلك الخنازير من الذشاب الاظفار والانياب ، ويتصل الطعان والضراب ، فننصفهم ولو أنهم جبال ، ونطقي نيرانهم فلا يقد لهم من بعدها ذبال .

ومنا من يقول يدخل راجلنا الى البلد . مستعدا بالاهب متأهبا بالعدد . فاذا زحفنا اليهم . واوقفنا عليهم . خرج من في البلد من العسكرية والراجل . ونازلناهم من امامهم ومن ورائهم بالتوازل . فلا تطرف لهم بعدها عين . ولا يبقى للدين بعد درك الثار منهم بين . ومنا من يقول لا بل نفرج عنهم . ونبعد منهم . فما دمنا على هذه المضايقة والمصايبة . والمحاqqة والمحاصرة . والمكابسة والمكابرة . فانهم يتيقظون وينتبهون . ويتحفظون ولا ينهون ويتحرزون ويتحربون ويتوجلون ويتوجمون . فاذا ارخينا طولهم واوسعنا املمهم . استرسلوا بعدما استتبسلوا . واستقبلوا الدعة بعدما ما استقلوا . واطمانوا فطمعوا ، واذا ابطأنا تسرعوا واغثروا نانا على غرة فأغاروا . وظهرت لهم اثار ركوبنا عنهم فظهروا وثاروا . فحينئذ حينهم يحين ، وشينهم يشين . واذا ظهروا ظهرنا عليهم . ومتي اصحروا اصحرنا اليهم . وان بارزوا بارزناهم . وانجزنا عدة امانينا فيهم وناجزناهم ومنا من يقول : هؤلاء في عدد النمل . وكثرة الرمل . وظلام الليل . وعرام السيل . فما يقيمهم الا العدد الكثير . ولا يقيمهم الا الجمع الغفير . والمصلحة ان نستنفر العساكر ونستحضر لآبادتهم البسادي والحاضر . ونستجيش الحافل ونستثير القارس والراجل ونلقاهم بامثالهم ونقدم عليهم مستظهرين في قتالهم * وازوادهم عن قريب تفرغ . وامادهم في الصبر تبلغ . وامدادهم تنقطع . وانجادهم تمتنع . وموادهم تقل . وجوادهم تضل . ولراكبهم في الشتاء شتات . ولحيائهم وحبالهم انبتات ، فاما ان يضطروا الى الانفصال . واما ان يؤنن فناء ارزاقهم بحلول الاجال . ويهون علينا

حربهم في تلك الحال . (وكفى الله المؤمنين القتال) . (الاحزاب ٢٥)
فهذا عسكر الاسلام . وجند مصر والشام . وفي الاقدام به خطر .
وفي المباشرة بحربه غرر . والمصلحة العامة تلحظ . ورأس المال
يحفظ ومنا من يقول نستدعي من مصر الاساطيل ونستدفع بحقها
الباطيل . ونستكثر من مراكبها . ونستعدي على هذه الافاعي
بعقاربها . ونستطيل على الشنأة المستطيلة بشوانيتها . ونعدو على
عوادي الاعادي بعوانيتها واذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحر .
وصلت لنا اسباب النصر . وحينئذ ذقاتلهم برا وبحرا . ونوسعهم
بمضايقتهم فيهما قتلا واسرا . وما زالت هذه الاراء بيننا متداولة .
وخواطرننا في تدبيرها متجولة والحرب بيننا وبين الفرنج جاريه
وزناد الهيجاء لاشعال نارها واريه . وفي كل يوم نتصافح
بالصفاح . ونكافأ بالكفاح . وننطق فيهم بكلام الكلوم . ونلحق
منهم الموجود بالمعدوم . ولللائع وقائع . وللساهام افواق فائقة .
وللحام اسواق نافقة . وسرايانا في كل يوم وليلة تسري وتأسر .
وتبري وتأبر . وتكبس وتكسب . وتسبي وتسلب . والسلطان يباشر
ذلك كله بنفسه . وهو يدأب في يومه لغده مجتهدا في الزيادة على
امسه ناثبا عن اعوان المسلمين وانصارهم . ساهرا لهم في ليلهم .
قائما بأمرهم في نهارهم . والعين الساهرة في سبيل الله
قريه . وتعب يوم واحد لله في اليوم الاخر ذخيرة

ذكر وقعة تمت يوم الاربعاء سادس شعبان

وركب الفرنج اخر يوم الاربعاء سادس شعبان بأجمعهم . وتقدموا
من موضعهم . واشتاقوا إلى مصرعهم . وفارقوا الحزم في
تسرعهم . وخرجوا عن رجالتهم . وتجردوا بخيالتهم . وحملوا على
الواقفين من اصحابنا حملة الرجل الواحد . فتحرك الصف الثابت
الساكن امامهم كالبنيان اذا تحلحل من القواعد . وتراجع عنهم
المسلمون استدراجا . وملأت الارض السماء عججا وعجاجا . وزخر

بحر الحرب على أمواج امواج . فما قربوا من خيام اليّك . الا وقد
اعتكر جو المعتك . وعساكرنا قد أوجفت عليهم . وزحفت
إليهم . وأردتهم بعقابهم . وردتهم على أعقابهم . ووصلت الى
رؤسهم فقطعت رؤوسا والحف بأسها ذلك الجمع بؤسا . وثنت وجه
الكفر عبوسا . وولوا مدبرين . وأدبروا مولين . والجريح بالقتيل عابر
عائر . والذمر الباسل باسم بالموت باشر . فلما جن الليل رجعت بما
جنّته الخيل . وبات الناس من الجانبين على غاية من التيقظ . وهمة
متنبهة للتحفظ . وحراسة وحماية . وسياسة ورعاية . فلما
اصبحوا عادوا الى عادتهم في اللقاء . وهاجوا بعاديتهم الى
الهيحاء . هذا وابواب البلد مفتوحة . والصدور بطروق الظهر اليها
مشروحة . والفرنح قد ندموا على ما قدموا . وعدموا بصيرتهم بما
صدموا . وعادوا لايفرطون ولايتورطون . وينقبضون ولاينبسطون .

ذكر وفاة حسام الدين طمان

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادي عشر الشهر الى تل
العياضية . ليكون به في الجهة المرضية . فان هذا التل بازاء تل
المصلبه منزلة العدو . وهو مشرف عليهم للعلو . وضربت خيام
الميمنة ممتدة الى البحر ، وخيام الميسرة الى النهر ، واتسع مجالنا
وضاقت الدائرة على الكفر . وكان الامير طمان صاحب الرقة
مريضا ولم تزل وجوه الايام الغير في سبيل الله باحمرار بيضه
بيضاء ؛ وهو الحسام الفاضل . والهامم الباسل . والقرم البازل
والندب الحلال . والمحترق لحمية الدين . والمقترح لحماية
المسلمين . ولما وافت وفاته . وفاته رجاؤه ولم يرجأ فواته . أسف
على عمره . وأسى على أمره . وحزن كيف لم يقتل شهيدا . ولم
يستشهد في الجهاد سعيدا . وقال : قدموا حصاني حتى اشهد الحرب
واستشهد ، واجاهد الى ان اقتل واجهد ، فاني ارى موتي على
الفراس عبثا . وقد عرفتم مني شجاعة لاجبنا ، وتوفي عصر الاربعاء

ثالث عشر شعبان ، وبواه الله الجنان ، وبشر به رضوان . وكان قد توفي بالقرب الامير الندب . فارس الحرب . ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب . حسام الدين سزقر الخلاطي النجيب المنتجب فذبت مضارب الدين باغماد الحسامين . وحلت الهموم لاجل اجل الهمامين ، فوجمت الذفوس ، وامت القلوب وقاضت لغروب فيضها الغروب .

ذكر واقعة للعرب . أربت لنا بالأرب

انتهى الينا ان الفرنج . يتطرقون ويتطرقون . ويأمنون ولايتخوفون . ويخرجون للاحتشاش وينتثرون لضم الاعشاب من الاعشاش ، ويصلون الى طرفي النهر ، وهم لمن يحلق عليهم من فوقهم تحت القهر ، فانتدب جماعة من العربان ، وضراغم فارسة من الفرسان ، فاغاروا وهم غارون ، وساروا الى جمعهم وهم بتجمعهم سارون . وحالوا بينهم وبين خيامهم ، وحشروهم الى حمى حمامهم . وحملوا اليهم حين حملوا عليهم بدؤسا ، وقطعوا منهم لما اتصلوا بهم رؤوسا . واحضروها عند السلطان فاجتابوا بها خلع الاحتباء ، وبعثهم على الحمية والاباء ، وذلك يوم السبت سادس عشر الشهر . وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر . هذا والقتال بينهم وبين اصحابنا في عكا متصل ، وشرار الشر مشتعل ، والموت منهم منتقي وفيهم منتقل . وفي كل يوم تقوم الحرب على ساق . والارواح في مساق ، والمصاع على اتساق ، وكم قتل من حزب العدو واسر . وكم حمل ليكسر فكسر . وربما مل الحزبان ، وكل الغربان . فتوافقا على الامان . وتوافقا يتكلمان . وربما اقدموا ثم نكصوا . وغذوا ورقصوا . واذا لغبوا لعبوا . واستراحوا الى الوقوف اذا تعبوا ومن نوادر ماجري وغرائبه ، وملح ماتم وعجائبه ، ان الطائفتين في بعض الايام . ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام ، فقال واحد من الفرنج الى متى هذا القتال . وقد فني الرجال ، فاخرجوا صبيانكم الى صبياننا . وليكونوا في

امانكم واماننا ، فبرز منهم صبيان . ومن البلد اخران . فقاتلوا مليا ، والافوا نار الحرب صليا ، ثم وثب احد الصبيين المسلمين . على احد الصبيين الكافرين . وضرب به الارض . وقفـز عليه واذقض . وقبضه كسيـرا وجذبه اسيرا ، فاقتداه بعضهم بدينارين . وعاد المسلم من ظهوره وسروره الى جنتين . والعدو من كفره وفكره الى نارين ، ومن الاتفاقات النادرة ، وامارات السعادة الظاهرة . انه افلت من بعض مراكب الفرنج حصان . له عندهم صيت وشأن . فلم يقدروا على ضبطه ، كما عجزوا عن ربطه . ومازال يعوم في البحر وهم حواليه . حتى دخل مينا البلد وتسارع اصحابنا اليه . واهدوه الى السلطان ، وعده العدو من امارات الخذلان ، ورأيناه لنا من دلائل النصر والاحسان .

ذكر الواقعة الكبرى

واصبح الفرنج يوم الاربعاء العشرين من شعبان . وقد رفعوا الصلابان ، وزحقت اسودهم في غاب المران . وطارت بهم خيولهم عقباننا على عقبان . وجرت بالجبال منهم رياح . وجالوا دون التل كأنهم له وشاح . وخرجوا على التعبيه . وشفعوا نداء الكفر بالتلبية . وشفعوا بالتبرية للتربية . وتقدموا معتزمين . وعزموا مصممين . وثاروا ثورة الشيطان . وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الراجل امام الفرسان ، وزحفوا اطلالبا ، ودبوا ديبب الليل الى النهار ، وهبوا هبوب الخيل الى المضمار ، واجروا سيول السوابق الى القرار . وجروا نيول السوابغ الى الغوار ، وتحركوا وهم هضاب ، وتدرکوا وهم غضاب . ومازالت ميسرتهم تكثر وتكذف . وتعطوا (٣٣) وتعطف . وتفور وتثور . وتروود وتدور . وتهـم وتهـم . وتدمدم وتدوم . وقد عبي السلطان ميمنته وميسرته ، وطلب من الله نصرته . وثبت قلبه وقلبه ثابت . وحزبه في صف الحرب ثابت . ورعبه لكبة العدو كابت . وهو يمر بالصفوف . ويأمر

بالوقوف . ويحضر علي حظ الابد . ويحدث على الجلال والجلد .
ويذوب للوثوب . ويندب الى الندوب . ولما شاهد شروق بروقهم .
وخروق مروقهم . وكثافة ميسرتهم . وحشو وحشود كثرتهم . انهض
رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب . وكان الملك المظفر تقي الدين
من الميمنة على الجناح ، في جمع يعثر بعثيره واردا الصباح ، وكلما
تقدموا تأخر يستجرهم . ويحذر مكرهم ومكرهم . فعرفوا انه لا قبل
لهم بمقابلته ، وان هذا ليس ميمات مقاتلته ، فتركوه واستقبلوا
القلب وزخر بصرهم وعب . وحملوا حملة ذوي حملة دوى منها
الدو . واسود منها وجو الجو . ووصلوا الى جموع بيار بكر
والجزيرة . وغاصوا في لجتها بغدران السوايح والسوايح الغزيرة ،
وكانت من القلب الى الجناح للطيران وجبالها على الرياح للجريان
فعرفوها بالغر . واستضعفوها لدى الكر . وألوا بها فما ألت .
وهموا بها فما همت . واندفعت وما دفعت . وتراجعت وما رجعت .
وتعكست وما عكست . وادبرت وما تدبرت . ولكونها غير عارفة بقتال
الفرنج هابت وما هبت ولا بت (٣٤) ومالبت . ورابت وما رابت .
وجأوا الى القلب وقلبوه . وحاربوه وحاربوه وخربوا حربه .
وخرقوا حجه . وهناك استشهد كرام باعوا انفسهم بالجنة .
واسدو ندورهم نحو الاسنة . منهم الامير مجلي بن مروان . وكان
مجليا في المروة . والظهير اخو الققيه عيسى وكان ظاهرا الفتوة .
واخرون اعترفوا بذنوبهم فرحسوا بماء الشهادة دون حوبهم .
وصعدوا الى مخيم السلطان . طامعين في استتالة حزب الصليبان .
وكنن في جماعة من أهل الفضل قد ركبنا في ذلك اليوم . ووقفنا على
التل نشاهد الواقعة وننتظر ما يكون من القوم . وما ظننا ان القوة
بهي (٣٥) . وان الواقعة الينا تنتهي . فلما خالطونا في المخيم .
وباسطونا في المجثم . وكنا على بغال . بغير أهبة قتال . استدركنا
امرنا . واخذنا منهم حذرنا . ورأينا العسكر موليا . والمهزم عما
تركه من خيامه ورحله متخليا . فوافقنا في الاندفاع . والفينا
الاستضرار في المال عين الانتفاع . فوصلنا الى طبرية فيمن وصل .
ووجدنا ساكنها قد اجفل . فساقنا الى جسر الصنبرة ونزلنا على
شرقية . وكل منا ذاهل عن شبعه وريه . مفكر فيما يكون من امره .

مذكر القلب لما تم على الاسلام من كسره . لا يالـف مبيتا . ولا يلفى بيتا ، ممسك بلجام فرسه . قد اذن ضيق نفسه بضيق نفسه . ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق . وهو غير مفيق . ومنهم من وصل الى دمشق غير معرج على طريق . واقمنا بموضعنا على الخوى والخيـل واقفة بلجمها والطوى . والغمض غير طارق . والفرق غير مفارق . والقلوب مرتاعة مرتابه . والادعية الى الله مرفوعة مستجابه . وتحدث الناس فيما بينهم بان الاسلام عاد جده . وعدا جنده . وان الكفر حاد فله وفـل حده . وان الميسرة ثبتت فثـباب اليسر . والاسية انتصروا فأسد النصر . وكان هذا الصدى يقوى . والصدأ يروى . والبشرى تسري . والبرد بها تجري . والناس بين مصدق ومكذب . وذاهب في مذهب من الظن مذهب مهذب . حتى عبر سحرا علينا خادم اسمه صافي . وقد ورد مورد الظفر الصافي . فنادى أين العماد . فقد جاءه من النصر المراد . فأسرعنا إليه . واجتمعنا عليه . فقلنا ما الخبر . وكيف ضفا الظفر (٣٦) . وصفا الكدر . وقدر السلطان وتسـلط القدر . والى اين انت سار بالنبا السار . وفي اية دار تنزل بمنزل النصر الدار . فقال: أنا بشير دمشق بالنبا العظيم . والخبر الكريم . فقلنا: اهـلا بشائر البشائر وطائر الاوطار . والسائر بالاسار والاخ البار بالاخبار . والصديق الصادق . والموفق الموافق . ومرحبا بالخصي الخاص لما مر حيا فحل بالخبر القحل فحلا . وكم ام للنجح املا وجلا وجلا . فأبنا محبوبين مجبورين . وثبنا مثابين مأجورين . وندمنا على ماندمنا في الهزيمة . وعز علينا ترك الاخذ بالعزيمة . ولقينا السلطان وقد فتك وقتل . وجد وجدل . وانتقم من القوم ومن مقامه ما انتقل . وقد شل الجموع وجمع الاشلاء وادام الاجراء حتى اجرى الدماء .

ذكر حصّة النصرّة بعد صحّة الكسره وكيف ادال الله الاسلام واذل الكفر بتلك الكره

لما تمت الكسره . وعمت الفتره . وكثرت الكره . وامرت تلك المده .
وصل جماعة من الفرنج الى خيمة السلطان وشيم من عارض
اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان . وجالوا جوله . وخالوا دوله .
وصالوا صوله . ثم رأوا عنهم انقطاع اشياهم . وعدموا اتباع
اتباعهم . فشرعوا في اندفاعهم . وهابوا الوقوف على اجتماعهم .
فانحدورا عن التل . وقد جاؤوا بقوة العز فآبوا بضعف الذل .
واستقلهم اصحابنا فركبوا اكتافهم . وحكموا في رقابهم اسياهم .
ورددوهم وأردوهم . وعدوا على شركائهم في الشرك فاعدوهم . وكان
في ميسرتنا عسكر سنجار والاسدية فما زالوا ومازالوا . بل وصلوا
وصالوا وصلوا . وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكانما مرت بالجبال
الرياح . وخالطوها فودعت أجسامها الأرواح . وعاد من كان من
الميمنة الاسلامية بالبعد . حاد المضاء ماضي الحد ، مثل تقي الدين .
وقايماز النجمي والحسام بن لاجين . ومن ثبت من أبطال
المجاهدين . فكروا على ميسرة الفرنج فشلوها وانهلوها من دماها
وأعلوها . ولفوها وفلوها . واقلوها واقلوها . ووضعوا فيها
السيوف . وأوضعوا اليها الحتوف . وأوسعوها قتلا ذريعا .

وما ببطأ الوقت حتى صار مقدامها ضريعا سريعا . فلم يقلت من
الاعداء إلا أعداد . ولم ينج من الافها الا احاد . وامست لنا الحرب
فراشا . ولارض المعركة فراشا . وتبعها اصحابنا حتى كلت
سيوفهم وكلوا . وملت لتوتهم وليوثهم وملوا . وفرس زهاء خمسة
الاف فارس من كل ممار ممارس . ومستوحش بالموت انس . وممن
اودى في الاقدام مقدم الداوية . ولم تحمه من الحمام ناره الحامية
لنار الحمية . وحكي عنه انه قال: عرضنا في مائة الف وعشرة الاف .
احلاف الحاف والاف اتلاف بلا تلاف فلما عجزوا . وبالخندق

احتجزوا . وقف عنهم اجنادنا . وبلغ المدى فيهم جهادنا
واجتهادنا . ومن العجب ان الذين ثبتوا منا لم يبلغوا الفا فردوا
مائة الف . واتاهم الله قوة بعد ضعف . وكان الواحد منا يقول قتلت
من المثلثين ثلاثين واربعين . وتركهم بالعراء عراة مصرعين .
ولاشك ان الله انزل المسومين . وكل يتحدث بعد ذلك مما شهده .
ويعهد اليها بما عهده . وحكى بعضهم قال كنت على فرس قطوف .
ماله منة سير ولا وقوف . وانا منهزم من فارس مدجج . في بحر
الحرب ملجج . وهو على جبل يجري به جري الريح . وينادي بشعار
المسيح . وقد لز بقربي حصانه . وهز لصلبي سنانه . فما شككت
انه يشكني بلهزمه . ويفكني بمخذه . وايسر من البقاء . وانست
للشهادة واللقاء . واستعنت بالله واستعنت . وتشاهدت مما
شاهدت . ثم ابطأت على صدمته . واخطأتني خدمته . فالتفت فاذا
هو وحصانه ملقى كلاهما . وما وجدت بالقرب احدا اقول انه
ارداهما . فعرفت انه نصر الهى . وصنع رباني في مذاق الايمان
شهى . وفي افاق الاحسان بهي . فايقنت ان النصره ماملكت ، الا
الملائكة نصرت . وان الظهور ماسر الا لاسرار لله ظهرت .

ذكر مكاتبة انشأتها الى بعض الاطراف بشرح ما يسره الله في هذه الوقعة من الألفاظ

قد سبقت المكاتبة بشرح الاحوال وذكرها . وشكر
الطاف الله الخفية وابداء سرها . ونشر مطاوي النعم باذاعة طيها
واشاعة نشرها . وذكر فيها ماالقرنج عليه من اجتماع راجلها
وقارسها . والاحتماء بخنادقها ومتارسها . وان لنا كل يوم فيهم
نكاية بالغه . وسطوة دامغة . وثعالب عوامل في دمائهم والغه .
ومضارب مناضل لرؤوسهم فادغة . ونيوبهم عواسل ماضفهم
ماضفة . ونيول نغم عليهم في تقليص ضلالهم سابغه . وايدي ايد
لصفحات البيض بنجيهم القاني صابغه . وضمانر وضوامر عن كل

شغل سوى شغل الجهاد فارغه . وهمما وعزائم لاترى عن وقدم
القوم اهل الزيع زائفة . وما برح الفرنج في برج شديد . وامر غير
سديد . وظل للذل مديد . وضيق حصر في كل يوم جديد جديد . حتى
ضائق انفسهم وانفاسهم واخفق رجاؤهم . وظهر بأسهم ووقع
بينهم بطول المقام بأسهم . فاجمعوا امرهم على انهم يجدون في
اللقاء . ويهجون الى الهيجاء . ويلقون الالوف بالالوف .
ويصدمون الصفوف بالصفوف . ويعرضون ندورهم ووجوههم على
الاسنة والسيوف . ويكسفون بشبه التثليث ادلة التوحيد .
ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد . والحد الجديد . وبرز ذلك
الخميس يوم الاربعاء لعشر بقين من شعبان . ورفعوا الصليبان
واشرعوا الخرصان . واتبعوا الشيطان . ورتبوا الرجال . وطلبوا
الفرسان . وحملت لهم اطلاب تضم ابطالا . وتضمن بباطلها للحق
ابطالا . وتأمل لشمها المتفرق اجتماعا . وترجوا للصليب السليب
ارتجاعا . وعصفت رياحها الهوج . واقبلت بحار سوايحها
وسوايفها تموج . وكاد ان يثبت للشيطان قدم . ويراق للايمان دم .
فانها خرقت حجاب الصف . وفرقت شمل الجمع الملتف . وزاغ
جنان الجبان وهمه وهمه . وادبر موليا وعزمه زعمه . فظن من
لايقين له ان الاسلام قد اسلم . وان نصر الله الموجود قد عدم . وان
الكفر المتأخر قد تقدم . وان الصبح المتبليج قد اظلم . وهناك عرف
اهل الثبات . وثبت اهل العرفان . ورقصت المرات على اشاجع
الشجعان . والتفت العنان بالعنان . والتقى السنان بالسنان .
وخطبت الصوارم على منابر الطلى . ورتعت اللهازم في كلا الكلي .
وفتحت اليغالق مغالق الحتف . وزحفت الفوارس الى فوارس
الزحف . وعطفت العساكر المنصورة طلابا لتلك الاطلاب . ووصلت
ضرب الاعناق بقطع الرقاب . وما زالت تشل الفرنج وتقلهم . وتحل
بعقدهم الوهن وتحلهم . وتروي ظمأ الظبا من ورد وريدهم .
وتخضب شيب البيض بدم طريدهم . حتى فرشت بعد ان سلبت
اشلاؤهم بالعراء عريا . وجرحت خيولهم وخيالاتهم فلم تستطع
اجراء ولم تطوق جريا . حتى تثلثت وتثلثت بنجيعهم صفحات
الصفاح . ووقفت اشباحهم وقفة الوداع لفراق الارواح . واعرب

حديث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح . وقتل من مقدميهم
ومقدمي مقدميهم زهاء خمسة الاف . زهى الاسلام بما اتسع من
عطن عطبهم . وحسن مذقلبه بسوء مذقلبهم . وعاش بما شاع من
قتلهم . واشتغل العسكر المنصور بشغلهم . وطاب القلب المهموم بما
تم من ماتم الكفر وعرس الدين . وقصم الهدى متن الضلال المتين .
وهمت الرواعف الفوارع بحمل هامات الحاملين . وانجلي الغبار
عن كل قتيل مالعائره من مقليل . ولالقاءله من مقليل . وعادت اعلام
الاسلام ظاهرة . وأيمان باطنة قاهرة . وهدي الهدى على النصر
مزفوفه . وعيون العدا عن النظر بالعمي مكفوفة . ولم ينج ممن حمل
من حمل رأسه . ولم يقدم من اولئك الرجال الا من فقد رجاءه .
ووجد يأسه . وعاد الفرنج الى خيامهم وقد فجعوا بتلك الالوف
واصيبوا بمن صفا في تلك الصفوف . وتراءت وجوه الفتوح لنا من
خلال تلك الحدوف . وبخل الليل عليهم . ووقفت العساكر حواليلهم .
وهم وان وهذوا لما اصابهم من الكسره . واخطأهم من النصره .
وحل فيهم من الرزء . وسخر بهم الشيطان في موقف الهزء . وفجع
كلهم بالجزء . ونقص منهم العدد الكثير . وركد من ريحهم ذلك
العاصف المبير . فانهم في حشد كالدبى . وجمع اغص الوهاد
والربا . وقد اخلدوا الى الارض وشدوا على حب الموت الحبا .
وودوا لو وجدوا مهربا . وتفرقوا ايدي سبا . وقد عادوا وتحصنوا
وتصبروا . وتخيروا المقام على الحين حين تحيروا . واوسعوا
الخنادق وعمقوها . واحكموا المتارس ووثقوها . وندموا على
الحركة . فانها افضت بهم الى الهلكة . وانهم ماداموا رابضين .
وعلى يد الصبر قابضين . يتعذر الوصول اليهم . والدخول عليهم ،
وتطول ايام الاحاطة بهم من حواليلهم . وفي تلك الحركة التي حلا بها
للاشجعان طعم الطعن . وغلب فيها للجبناء وهم الوهن . وتجافى عن
الثبات من محبي الدنيا جنب الجبن . ارتاع عسكر الشرق من ذلك
الغرب واختار المتسللون المتفللون منهم البعد على القرب . وما ثبت
الا عسكر سنجار فكله محرب مجرب للامور . سيد ساد للثغور .
ومجاهد الدين يرزقش قد صدق نعته بالمجاهدة للدين . وجلال ظلمة
الوهم بذور اليقين . وقرت عين طمان بالجنة باقدام الولد . وماذا

يقال في شبل ذلك الاسد . وانما الغرباء هابوا . وكانوا قد ضجروا
من الحضور فغايوا . والفرنج الان في ذل وخسر . وفي عسر بغير
يسر . وفي حصر بغير حصر . والمرجو من الله سبحانه ان يقدر على
قطع دابرهم . واهلاك سائرهم عن اخرهم . وتحريك همم المؤمنين
في تسكين سائرهم . وتخريب عمرهم وعامرهم . وانزال دوائر
السوء بمنازل دوائرهم . ومادام البحر يمدهم . والبر لا يصدهم .
قبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بادوائهم واسوائهم ملازم .
وتدبيرها الان في التدمير على هذه الجموع . وسوقهم الى مصارعهم
في ورطة الوقوع . فأين حمية المسلمين . ونخوة أهل الدين . وغيره
أهل اليقين . وما يقضي عجبنا من تضافر المشرك على شركه .
وتظاهرة في اتساع مسلكه واتساق سلكه . وقعود المسلمين
وتقاعدتهم وتعاضلهم في تعاضدهم . وانحلال عقود تعاقدهم . فلا
ملبي فيهم لمناد . ولا موري منهم في اجابة داع لزناد . فانظروا الى
الفرنج اي مورد وردوا . واي حشد حشدوا . وأية شالة نشدوا .
وأية نجدة انجدوا . وأية اموال غرموها وانفقوها . وجدات جمعوها
وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها . ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم .
ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم واكابرهم . الا جارى جاره في
مضمار الانجاد . وبارى نظيره في الجد والاجهاد . واستقلوا في
صون ملتهم بذل المهج والارواح . وامدوا اجناسهم الانجاس بانواع
السلاح مع اكفاء الكفاح . وما فعلوا ما فعلوا . ولا بذلوا ما بذلوا .
الا لمجرد الحمية لمتعبيدهم . والنخوة لمعتقدهم . وليس احد من
الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك . ورفع فيه حجاب عزهم
وهتك . يخرج بلد من يده . او تمتد يد الى بلده . والمسلمون بخلاف
ذلك قد وهنوا وفشلوا . وغفلوا وكسلوا . ولزموا الحيرة . وعدموا
الغيرة . ولو انتنى والعيان بالله للاسلام عنان . او خباسنى ونبا
سنان . لما وجد في شرق البلاد وغربها . وبعد الافاق وقربها . من
لدين الله يغار . ومن لنصرة الحق على الباطل يختار . وهذا اوان
رفض التواني . واستدناء اولي الحمية من الاقاصي والاداني . على
انا بحمد الله لنصره راجون . وله باخلاص السر وسر الاخلاص
مناجون . والمشركون بانن الله هالكون . والمؤمنون آمنون ناجون .

ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر فصد عن قصد المباكرة لمناجزة اهل الكفر

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء . وزادت مشاربه من مادة الصفاء . وامر بمواراة الشهداء . ومن جملةهم الفقيه ابو علي بن رواحه . وكان غزير الفضل قد اكمل الرجاحة والسجاجة . وهو شاعر مفلق . وفقيه محقق . من ولد عبد الله بن رواحة الصحابي الانصاري في الشهادة والشعر معرق . فطرفه الاعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار . وطرفه الاقرب يوم عكا في لقاء الكفار . ومنهم اسماعيل الصوفي الارموي المكبس . وكان سديدا عقيفا عاريا من العار لا يتنذس بالشبه ولا يتلبس . ومنهم شيخ من الحاشية في بيت الطشت . وغلالم في الخزانة امين على البيت وآخرون صدودفوا عند التل فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة . وذهب قبل الرجعة . واجمع السلطان وذوو الآراء انه يصبح القوم . ويباكر في طلب ارواحهم السوم . وقال هؤلاء قد اضعفنا قوتهم . واعجزنا قدرتهم . وفثنا سورتهم . واخمننا فورتهم . وقتلنا مقاتلتهم . وادوينا داويتهم . فان تركناهم بلعوا الريق . وبلغوا في الاحتراز والاحتباس الطريق . فنحن نوافيهم غدا . ونوفيهم ردى . ونكيلهم بصاع المصاع . ونذرهم بباع السباع . ونقيهم بذراع اليراع . ونوسعهم قرى القراع . وننقيهم حر الحرب . ونسقيهم في طعم الطعن شرب الضرب . ونعين من عيونهم للسهام سهامها . ونتخذ لارواح النصال من اجسامهم اجساما . ونغرقهم بماء فرند الهندوانيات . ونحرقهم بنار زند اليمانيات . ونوجد من عدمهم النصر . ونطيب من نتفهم النثر . ونقطع دابرهم . ونلحق بأولهم آخرهم . فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم . واجراء هذا الحكم . تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب . لما ناب من الامر وراب . وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها . واوباش الجمع وأوشابها . ظنوا تلك الفورة هزيمة . فنهبوا الاثقال والاحمال وعدوها غنيمة .

وانهزم من انهزم من الجند . وثبت من ثبت من اهل الجد . فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا . وكان ظنه انه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوبا فمضوا وراء الغلمان . وبلوا بسوء بين السودان . واصبحنا واذا العسكر غائب . والعازم عازب . والقاصم قاص . والطائع عاص . والجمع متفرق . والثابت قلق . والامن فرق . والغني معدم . والجريء متندم . فهذا خلف ما نهب من ماله ناهب . وهذا لمن طلب الطريق باثقاله طالب . فتفتر ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم . وانتعش الفرنج في تلك المدة . وانتشلوا من تلك الشدة . واستطالوا بعد الاقصار . وفرغوا شغل الحصار . وجاءتهم في البحر مراكب اخلفت من عدم . وبنت ما هدم فكمل بالمدد . ما نقص من العدد . ولولا ان الله تعالى قدر بقاءهم لكنا عاودنا صباح تلك الليلة لقاءهم . فان القرصة أمكنت . والحصنة تعينت . والجو خال . والضوء عال . والحال جميلة والجمال حال . فقضى الله بما قضى . وعرانا المضض بما مضى . وبقيت هناك تلك الجيف منتنة منبئة مبيته . وتلك الجثث محينة مجتثة . تعرفنا ان نشورها من حواصل الذسور . وان قدرها بطون الضباع والذمور . فشكونا نتن رائحتها . وشكرنا يمن جاثقتها . فعجل السلطان حملها على العجل الى النهر . ليشرب من صيدها اهل الكفر ، فحمل الى الماء اكثر من خمسة الاف جثة . بعثت الى النار قبل يوم البعثة ، فما عبر بها الا من اعتير واستشفى من اقبل بمن ادبر . وسلم الله من اسلم وكف ورد بالردى من كفر .

ذكر ما اعتمده السلطان في استرجاع ما نهب من
الثقل واستدراك ما حزب من الخلال

تقدم الامر الى المقدمين والامراء . بعد النداء واعلام الجهلاء ، باحصاء كل ما نهب . واحضار كل ما سلب . وانه من لم يرد ما اخذه اخذ بالردى . واعتدي عليه بمثل ما اعتدى . فاحضر كل ما

عنده وبذل في الكشف جهده . وجمعوا ما تفرق منه في الخيام في خيمة السلطان . وضاعت عن كثرته سعة ذلك المكان . وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع يقين من شعبان . فكل من عرف من ماله شيئاً اخذه بعد احلافه . وحلا في مذاق الشكر قطاف الطافة . وسعى في معاناة ذوي الاخلاق الصعبة على سهولة اخلاقه . وشفى العلال والغلال بالنهل والعال من اشفاقة . وقمش ذلك القماش . وحصل من ذلك الويل الرشاش . وصبح بعد العري والعشار الارتياش والانتعاش . وكتب الى الولاة بالامصار والنواحي . والاقطار والضواحي . بحث البحث وجد الكشف . واستخلص كل ما يوجد ويؤخذ بالرفق والعنف . وتراجع الناس . وتتابع اليناس . وعادت مضارب العزائم الى مضائها . وقضاة القواضب الى اقتضاها . وغار الأنف وأنف الغيران . وتسلبت العزم وعزم السلطان . وثار الحنق وحنق الثائر . وطار العلق وعلق الطائر . وطلبت الطلى نكاح بنات الخل الذكور . واشرب للشرب نبات الاسل الى ماء النحور . وحمي ذوو الحمية للتقاضي . وقالوا حتى متى التراخي بالتغاضي

ذكر مجلس عقد ورأي عليه اعتمد وصواب افتقد وقد

فقد

وحضرا أكابر الامراء عند السلطان . يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان فقالوا علموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله . وأناخ بكل كل كله . وقد برز بالكفر كله الى الاسلام كله . وجمع حشده وحشد جمعه . واستنفذ وسعه . وإن لم نعالج الآن فريقه . والبحر قد منع طريقه . أعضل دأؤه . وتعذر غذا لقاؤه . فانه إذا سكن البحر . واستسهل ركوبه السفر . تضاعفت أعداد الأعداء . فظهر الأعداء من الأعداء . وخرج الداء عن قبول الدواء ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها . ولا قوة نستحضرها . وما يلي بهذا المعشر إلا معشرنا . وما بازاء عسكر الكفر إلا عسكرنا .

وما في المسلمين من ينجدنا . وما في بلاد الاسلام من يعدنا .
وعساكرنا حاضره . وعزائنا للتواني حاضرة . وعيون أسنقنا إلى
الفتك بالعدا ناظره . وما يعوزنا إلا حضور أخينا الملك العادل سيف
الدين . ولا بقاء للنقاد إذا أصبح منه ليث العرين . فالرأي كل
الرأي في المناجزة . قبل وقوفهم على محاج المحاجة . ثم قال ليشر
كل منكم برأيه . ولا يقدم على قول ورأيه من ورأيه . فتجاذبوا حبل
الاضطراب . واختلفوا في الآراء بحسب اختلاف الآراب . وركب كل
منهم هواه . وأعلن بما نواه . ومنهم من قال هذا ثالث عشر تشرين
الثاني لا الأول . وقد دفعنا إلى الخطب الاعضل والتعب الاطول .
والنائب الأعصى والناب الأعصل . وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين
يوما . وما طعمنا في هذه الليالي نوما . ولا سمنا لطارق طيف
غمضا . ولا شمنا الا لبارق سيف ومضا . ولكم قدفتنا المنايا وقد
دخلنا لهواتها . وكأن أبا الطيب عنانا بقوله . « وكأنما خالقوا على
صهواتها » . وقد كلت الضوامر . وقلت البواتر . وملت العساكر .
وهذا الشتاء قد أقبل . والعدو قد استقل . والشر قد استفحل . وما
يتأتى قلعه الا لمن يتأتى . وبالصبر يدرك الأريب ما يتمنى . وهم
بالمصابرة مصابون . ونحن على المثابرة مثابون . وهؤلاء لا يتمكن
منهم إلا بالجمع الجم . والسيلا لا يغلبه غير الخضم . والصواب أن
نصابرهم . هذه الشدوه . ونستجد لنا ولخيلنا القوة . ونتأخر عن
هذه المنزلة . لتحصيل هذه المصلحة المؤملة . ونوكل بهم مناوبة من
يمنعهم من الخروج . وإذا انقضى البرد نرجع إلى معالجة هؤلاء
العلوج . ونعيد السرجيات إلى سلها والسلاهب إلى السروج .
والصواب الأخذ بالاحتياط . وتقديم الكتب والرسائل إلى الاطراف
والاوساط . ومكاتبة دار السلام . واعلام الأمام عليه أفضل
السلام . بما دفع إليه الاسلام بالشام . فان المسلمين لا شك ينجدون .
ويقومون بالنصر . ولا يقدعون . ولا يترك استنفار التركمان .
وترغيبهم بالبر والاحسان . واستدعائهم بالعطايا . والتشريفات
السنايا . وينفذ إلى بلاد الشام القاصية والدانية . في تحريك الهمم
والعزائم الوانية . إلى ان تمتلىء بالجموع ساح الساحل . وتغلى
بنار الحميات بها مراحل الراجل . فحينئذ ينتهي أمد المصابر .

ونصمم على المكابرة مع الكاثره . ونبايهم ونفاتهم قبل انفتاح
البحر . ونغابهم ونرا وجههم على اقتراح القهر . ونسفهم ولو أنهم
جبال . ونزفهم ولو أنهم بحار . ونعدمهم حتى لايطرق جفن بلد
منهم خيال . ولايلم بجفن طارق لهم غرار . ومازلنا في مشاورة
ومحاورة . ومجاذبة ومجاوبة ومناظرة ومساورة . حتى تنخل الرأي
وتمخض . وخالوا أنه تبين الصواب وتمحض . ومالوا إلى الدعة .
والخروج من الضيق إلى السعة . ومن نزال الحرب . إلى المنزل
الرحب . ومن المعتكز المعتكر . إلى المبرك المبتكر . فلم تعجيني هذه
الحالة . ولم توافقتي هذه المقالة . وقلت لعمرى أتيتهم بمصلحة .
ولكنها غير مترجمة . فان الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار .
ولم يحدقوا بجميع الأسوار . فإذا رحلنا وتحنينا عنهم أرخيننا
خناقهم . وأطلنا إلى مرادهم اعناقهم . وباب عكا من جانب البحر
مفتوح . والمقيم بها منا بكاس تفقنا إياه مغبوق مصبوح . والطريق
إليها سايبة . والنخائر إليها في كل يوم داخله . والفرنح عن قطع
الطريق عاجزه . وعزائنا على مصابحتها ومماساتها لها دون
قصدها محاجزه . فإن تأخرنا تقدموا . وإن هونا احكموا . وإن
نقضنا أبرموا . وإن قعدنا قاموا . وإن بعدنا حاموا . ومتي رمناهم
تحفظوا . ومتي نمنا عنهم تيقظوا . وما دمنا نشغلهم فانهم لحصر
البلد لايتفرغون . وإلى أمد الأمل لايدلغون . فقالوا هذا أمر هين .
وما ذكرناه صواب متعين . ووجه الصلاح فيه بين . وما مقصودنا
إلا أن ينتشروا ويخرجوا من مضاربهم ويصحروا . فإذا أنسوا
بالرجاء لم يأسوا من الأرجاء . أرخيننا لهم حبل الأنظار . حتى
استمروا على الانتشار . وحينئذ نصبحهم على غرة . ونعاجلهم كرة
بعد كرة . وننقض عليهم انقضاض البزاة على البغاث . ونصدهم
بالباعث الباغث لهم عن الانبعاث . وكان السلطان متكرها لما أبدوه
من الرأي الملتاث . لولا ما عرض لمزاجه من الالتياث .

ذكر الرحيل إلى الخـروبة . عند خيم الأثـقـال
المضروبة .

كان السلطان مع ما ألم به من الألم . غير مبد وجه الملل
والسأم . وهو في كل يوم يركب وعلى العسكر يطوف . ويقف
مستطيلا على العدو ويطول منه الوقوف . ويعود وقت الظهر . وعليه
أثر الضر من الصبر . فليم على فعله . وخصه الطبيب بعذله .
فانتقل الى الثقل ليلة الثلاثاء رابع شهر رمضان ، وخلي المنزل
الاول وأخلى العسكر-----كر ذلك
المكان . وتقدم إلى من بعكا باغلاق الباب . وسلوك نهج الاحتراس
والاجتناب . وجرى الامر على ما كنت قلته . وتحقق من الخلال ما
خلته . فإن المركيس رحل وشغل الجانب الذي كان خاليا . ورخص
عنه ما كان من سوم خوفه غاليا . وشرع الفرنج في حفر خندق على
معكسهم حوالى عكا من البحر إلى البحر . وأخرجوا ما كان في
مراكبهم من آلات الحصر . وفي كل يوم تأتينا اليزكية بخبرهم . وبما
ظهر من أثرهم . والجدي تعميق الخندق وتتميم محتفـرهم .
والعسكر هاجم . كأنه واجم والظن فيه راجم . وشر الكفر ناجم .
وما فينا لعود الأمر عاجم . وقلت يوما للسلطان يركب العسكر إليهم .
ويركض عليهم . فلعله ينال ظفرا . ويقضي من كسر العدو وطرا .
فقال ما يعمل العسكر شيئا إلا إذا كنت معه راكبا . ولعمله شاهدا
مراقبا . ولقد صدق في مقاله . فانه كان أعرف برجاله . فإنهم كانوا
يبدلون معه المهج . ويخوضون من بحر الحرب اللجج . ويوسعون
لهزم العدو المازق اللجج . وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم .
وأهملناهم بل أهملناهم . حتى عمقوا الحفور . ووثقوا من ترابها
السور . وملاوه بالاستائر . ومنعوه من الطير الطائر وبذوه
وأسدوه . وستروه وقرسوه . ورتبوا عليه رجالا . ولم يتركوا
لواغل مجالا . وتركوا فيه أبوابا وفروجا . ليظهروا منها إذا أرادوا
خروجا . ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر . ونحن نقول

- ٦٠٣ -

لامبالاة بهم ولا أكثراث . وما أسهل إذا عزمنا عليهم لأصولهم
الاجتثاث . وبسيول سيوفنا نغسل تلك الأخبثاث . وأي وقت
قصدهم وجئناهم وجئناهم . ونكأنا قرحهم ونكبناهم . وما
فوارسهم لنا الا فرائس . وما خنادقهم لهم الارموس دوارس . وما
حفرؤا الا قبورهم . وما دبروا الا ثبورهم ومتى قصدهم كذبت
ظنونهم مذونهم . وامتلات باشلائهم خنادقهم . وأظلمت عليهم
بغربنا مشارقهم . وبيتتهم بوائقهم وتبت علائقهم .

ذكر رأي رائب عن النظر في الغاي غائب أسفر عن
داء دائب وأبان عن غرارة بغرائب .

وقع لبعض الاكابر فثنى عليه خنصره . ووكل باتمامه سمعه
وبصره .

لما تمت على الفرنج تلك المقتلة وعمت فيهم الهلكة . وضمت
أشلاءهم المعركة . وشوهت على الربا حجب نحوهم المهتكة .
وخمدوا وخملوا . وأهلكهم الله بما عملوا . وقع لبعض الاكابر انه
لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعائر . وانهم قد عدموا القرار .
وعزموا الفرار . ولو قدروا على النجاة لخلصوا . ولو فتحنا طريقهم
ما تصبروا ولا تربصوا . وقال السلطان: ارحلوا عنهم حتى تروا ما
يكون منهم . فانهم يهربون ويهربون . ويبعدون إلى صور ومن
بعدها من عكا لا يقربون . فمال قوم إلى مقالته . وتخيلا مثل
خياله . وأشار بقطع طريق البلد . والصدر عن ورد الرصد . والجد
في تعمية الجدد . وان يفتح لهم ما سد من الطريق . ولا يعوقهم فانهم
كلاب تعوي من التعويق . ولما بلونا رأيه . وتلونا آيه ، أخلف ظنه .
وبدا وهنه . وما زاد الفرنج الانباتا ولم نعرف لشملمهم على ما توهمه
شتاتا . وكنا نتحدث بذلك الرأي القائل . ونقول ما أعجب قبولنا
لقول هذا القائل .

ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث . وتجدد للعزائم من
البواعث .

أقام السلطان بالمخيم لاصلاح مزاجه . وايضاح منهاجه .
ومداراة اله . ومداواة سقمه . فوهب الله له العافية . وكمل له
عصمته الكافية . ومنته الشافية . ونعمته الوافية . وأبدى له الطافه
الخافية . وقوي قلبه على المقام . بنية الانتقام . وصرف الأجناد
الغرباء ليرجعوا في الربيع . ويستريحوا في مراتبهم لوقت الرجوع .
وأقام في ممالكه وخواصه . ورجال حلقته المنصورة من ذوي
استخلاصه . ورتب بالذوبة على الفرنج يزكا ضمنه دركا . وأدار
بهلاك القوم منه فلكا . وكان في ممالكه كل مقدم مقدام . وكل همام
همام . وكل ليث ذي لوثة . وكل حدث محسن له حسن أحدثه .
وكل ضيغم ضاغم . وكل أسد عرين ليس الاعرنين قرنه براغم .
وكل ريبال ذي بال . وكل بطل من ولاية الهيجاء غير بطل . وكل
مغير النصر مريغ . وكل مسيء إلى العدو لكأس الحمام مسيغ .
وكل تركي للرما غير تارك . وللأصماء غير فارك . قوسه في ظفر
الهدى مؤثر على الوتر . وسهمه من مقل العدا طائر إلى الوكر .
وسيفه في رداء الردى حال بدم الكفر . وكل حميدي في الروع حميد .
وبالحرب عميد وكل هكاري على القرن عكار . وفي الوغى كرار .
وللقنا جرار . وكل زرزاري بالأسد زار . وللبسالة كاس ومن الغار
عار . وكل مهران في القتال ماهر . وللرجال قاهر . وعلى الأبطال
ظاهر . وكل كمي كميش واكديش . فما خلا يوم من وقعه . وما
صار من بارزهم إلا إلى صرعه . وما عاد من نجا من زنابير
سهامهم إلا إلى بسعه . وما حصلت شفاء سفارهم من طلاء من طاولهم
إلا على لطفه . وما تبقى على لتوتهم ليت . ولصوتهم في النزال كل
صباح ومساء حيث . وبلي الفرنج منهم بالمبير والمبيد . واعتاق بهم
مراد العدو والمريد . وما زال هذا دأبهم في الركوب . ومباكرتهم
ومراوحتهم إلى مواقف الكروب . فكم أقروا منا أعينا بأيديهم .
وثبتوا عدل النصر بتعديهم . وصدوا شر الشر بتصديهم . وحركوا

ما سكن وهدأ من عزائم الهدأة بتهديهم . وفي يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صور مقلعا . واجتلبنا به من سني النصر مقلعا . وكان المركب محتويا على ثلاثين رجلا وامرأة واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حلوة . وغنيمة صدفوة . وندشوة أعقبت صدوة . وصحيحة استصحت صدوة . وقوة من وهن العدو . ومحببة فككت رهن السلاو . فقد كان انكسر نشاطهم وانقبض اندساطهم . وانخفض اغتباطهم . وفتـرت عزمـتهم . وقصرت همـتهم . وخمدت فـورـتهم . وركدت ثـورـتهم . فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتفشوا . وتنفعوا وتنعشوا . ودب الروح . وشب المروح . وتحرك الساكن . وتذكر الضامن . وصاروا يخرجون ويخرجون . ويقتلون ويجرحون . ويمسـون على القـتال ويصـبحون . ويكافحون ويدافعون . ويقارعون ويواقعون . والعسكر في المنزلة هاجم . وجمـ جمعه واجم . واليزكية زكية . والعيون زكية . والذوب راتبة . والعدة المعنية المعينة في كل يوم راكبة .

ذكر وصول ملك الألمان

ونمي الخبر بوصول ملك الألمان إلى القسطنطينية في عدد هم دثر . ونظم من خيله ورجله ونثر . وهو على قصد العبور إلى بلاد الاسلام . وقطع بلاد الروم والأرمن إلى الشام . وأنه في ثلاثمائة ألف مقاتل . من كل سالب باسل . وطالب باطل . وجهم جهنمي . وأشقري سقري . وأنمش أفعواني . وصل صليبي صلاتي . وأرقش حذشي . ومستعر سعيري . ومحرب لظوي . ومغوار ناري . وضار بالقرن ضار . وجار للدرع جار . وكل ذئيب عاسل . ذاب بعاسل . وأزرق لأبيض مشتمل . وأصهب لأسمر معتقل . وكل جحيمي جاحم . وجمري فاحم . وحربي بحري . وبار بري . وقاطع في طريق الوصول . وراحل بقصد الحلول . وناز إلى النزال . وصال بنار الصيال . ومشمر على الموت متمرن . ومتحين إلى المذون متحين . وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع . ماله سوى السوء

- ٦٠٠٦ -

من مقنع . وأنه مع الالمانى ملوك وكذود . وكل شيطان لربه كذود .
وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الأرمن . وهو في قلعته على الفرات
ومن أهل الزمة في المأمن . يبدي تنصحا وإشفاقا . وتخوفا على
البلاد واحترقا . ويقطع بان الواصلين في كثرة . وان الناهضين
الى طريقهم في عثره . وابررق في كتابه وارعد . وابدع بخطابه
وابعد . ولا شك انه الى جذسه النجس ماثل . وبملاءة أهل ملته
قائل . ولما وصل هذا النبأ وقيل انه عظيم . وورد هذا الخبر وخيل
أنه أليم . كاد الناس يضطربون . على أنهم يصدقون ويكذبون .
ومن طرف كل حبل من الراي يجذبون . وقلنا ان وضع هذا الخطر .
وصح هذا الخبر . فالسلمون يقومون لنا ولا يصدقون . ويغضبون لله
ولا يرضون انهم لا يعضدون . على أن الله ناصرنا . وموازنا
ومظاهرنا . وحقنا باظهار القوة لمن استودش التأنيس . وبثنا
بالارسال الى بلاد الروم عيوننا وجواسيس . وندبنا رسل
الاستنصار . وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار .
وقلنا ما هذه المرة الامرة ولا يسيغها الا كل مرءى ابي . وما هذه
الكرة مثل كره . ولا يحضرها الا كل كميش كمي .

ذكر رسالة دار الخلافة

وعول السلطان على القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافع
ابن تميم . ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم . وقال له
ما احتاج اوصي . وانت تستوفي القول وتستقصي . وجعل له الى كل
الذي طرف في طريقه رسالة . وأودعه اليه مقاله . فسار من عتدنا في
شهر رمضان مغدا . يبذ خيل العزم بذا . ويجذ حبل السير جذا .
ووصل الى حلب والقاضي ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد الله
الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عاد . وذكر انه قد بلغ
المراد . وانه استجدى واستجاد . واستفاد واستزاد . وانه استكمل
للعدة الاستتجاز والعدة الاستتجاد . فما هذا الرسول الرائع .
وربما تعرضت لتلك الحوائج الجوائح . واذا اختلفت الحديث حدث

الاختلاف . ومتى الف غير ما القى الفى الائتلاف . فما هذا العجل . ومم الوجمل . فصدقه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . عن كل ما ابان عنه واعرب . وكتب الى والده . بذكر مقاصده . وقال انا لا اقدر على صد من للخدمة تصدى . ولا رد من بثوب الرسالة تردى . وأنت تمضي الى السلطان . بما اوضحته من البرهان . وهو يحكم ويحكم . ويعقد ويبرم . ويقول فتسمع . ويأمر فتتبع . ولعلك تعود سريعا . وتجد شمل ما الفتة جميعا . فوصل ضياء الدين الشهر زوري وهو مغتاز . وسجايه السجاح غلاظ . وتغير علي . ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين الي . فانه كان مخاللي ومخالطي . ومجالسي ومباسطي . فازلت عنه كل ظن . واعتذرت اليه بكل فن . فما بسط عذر . ولا قبض زعر . فاني على اسبابي ببغداد خائف . ودون رضا كل سائر اليها واقف . واسترضيته فما رضي . ومضيت اليه مرارا قبل ان يمضي . ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه . واعلمه بما علمه . وقال له الشغل قد فرغ . والمقصود قد بلغ . والسؤال قد اجيب . والسؤل قد اصيب . والمخطوب بزمامه نحوك مخطوم . وكل ملك سواك لاجلك من رضاع رضاهم مفطوم . فكن للامام يكن لك . واقبل امره ليقبلك . واجتمع بالسلطان دوني . واتفق بجماعة شاركوه وافردوني . وقرروا معه سرا امرا . وحذروه ان يصير جهرا . ولو كنت معهم لعرفتهم ان الامر الذي ابرموه غير مبرم . وأن الرأي الذي احكموا . غير محكم . ومازلت أؤكد الأمر حتى يؤمن انتقاضه . واتعرض دون الرأي حتى لا يمكن اعتراضه . وأيقن ان الامر ما فيه خلاف . وان الوعد ماله اخلاف . فما فعل الرسول يتلبث ولا امهل يتمكث . بل جعل على المجازل الحقيقة مجازه . وزعم فيما دبر نجاحه ونجازه . وسلك فيما تقرر نهج العجب . واسرع العودة على النجب . فلما انفصل عن السلطان . بما وصله من الاحسان . جمع السلطان الامراء على المشورة . ووقفهم على المعنى والصورة . وقال لهم قد وعدت الخليفة على لسان الشهر زوري بشهر زور . واستدعيت عسكره المنصور . وربما قدم الينا الحضور . فيكمل لنا النصر والحبور . فقالوا هذا رأي رائب . وشاؤ شائب . وأمر عنه الصواب ناء . وكيف تعد

- ٦٠٨ -

الامام بما لا يقرن بوفاء . وكيف ينجز هذا الوعد . وينجح هذا
القصد . ودونه ايحاش من هو في طاعتك . فكنت تبذل ما يدخل في
استطاعتك . اما صاحب الموصل طلبها فمنع . وصاحب اربل عنها
دفع . ومملوكك بها لمن يجاوره خائف . وكل ايوائي لحدها وحققها
خائف . وما من هؤلاء الا من بذل عنها اموالا واحوالا . والتزم من
الجنود والنقود انجادا خفافا وحمولا ثقالا . فاذا عرف انك
أخرجتها لمن له الامر . دخل عليهم الضر . ومالك مالك الامر امركم .
وابدوا في انقطاعهم عنك عندهم . وانقطع الواصل . وارتفع
الحاصل . وما جاءنا من المذكورين فارس واحد . ولا ساعد على ما
نحن فيه بعدها مساعد . اما هذا بكتمر في خلاط . قد جمع
الاخلاط . وجهر بالعداوة . واقام على الغيابة والغباوة . فقال
السلطان الخليفة ملك الخليفة . وهو مالك الحق والحقيقة . فان
وصل اليها اعطيناه هذه البلاد فكيف شهر زورو . وسيحدث الله بعد
الامور الامور . ولما وصل ضياء الدين الشهر زوري الى بغداد .
صادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد ، فلم يسفر أمر سفارته عن
سداد ، وقيل له جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ، وننديه
فيما نتخيره ، وشرف بهاء الدين وأعيد ، وزين ضياء الدين
وزيد ، وذكر ماجرى فتم الاعتداد وتم الاحماد وسيأتي ذكر ما آلت
اليه ذوبته حين كانت أوبته .

ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخي السلطان
والاستظهار بمجموعه والاجتماع بظهوره لنصرة
الايمان .

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصف شوال . في
جيش وال . وجمع حال . وشوكة رائعة . وشكة رادعة . وشارة
سارة . وديمه من البأس داره . وعدة منتخبة منتخبه . وعدة منتقاه
مهذبه . من كل أجل على مرقب . وأجود على جواد مقرب . وصاف

عتيق على صافن عتيق . وطود ونيق على نيق (٣٧) . وصقر على
سوزليق (٣٨) . وبحر على سابح . وجذع على قارح . ومن كل
رئبال على تنقل (٣٩) . وأغر محجب على أغر محجل . ومن كل
أبيض ضرب بالبيض ضراب . وكل أسمر باسل بالاسمر سلاب .
وكل أروع يحمل يراعا ، وكل شجاع يعتقل شجاعا . وكل أحمى
أحمس . وكل أفرى أفرس . ومن كل أسد خادر . وقصور قاسر .
وضيم ضاغم . وقمقام وأقم . وليث به لوثة . وحدث له في الشهامة
أحدثه . واحضر معه من سودان مصر كل ذمر كانه العبي عابس .
وكل مغامر للموت مغماس . وكل غريب حلكوك . وكل سرحان
صعلوك . وكل ضرغام غريفي . ومقدام ريفي . وكل خارح لثار .
وكل مارج من نار . وكل أسود سالخ . وكل رأس في الشر راسخ .
وجاؤوا بالقبسة القبطية . والترسة اللطية . والصلال القفطية .
واللال الذوبية . والحرايب الحربية والصعاد الصعيبية . والصوارم
المذروبة . والصرائم المشبوبة . والاسنة المسنونة . والصوابغ
الموضونه . والسراحين السارحة . والثعابين الجارحة . والتماسيح
المزدرده . والشياطين المتوقدة . والزانات واليزنيات . والهنديات
واليمانيات . وكان يوم وصول العادل مشهودا . لم يتذكر في كل ما
يراد من القوة مجهودا . وأقبل في روع ظاهر . وضوع باهر . وبشر
ذائع . ونشر ضائع . وحبور تام . وسرور عام . وهزة وطرب .
وعزة وأرب . وقلنا سيف الدين المنتضى . وناصر الاسلام المرتضى .
وغيث الانام المرتجى . وسلطان جيوش المسلمين المجتبى . لقد
نص النصر . وكف الكفر . وسلم الاسلام . ونام الانام . وأمن
الايمن . وتسلب السلطان . وحليت الاحوال . وفرغ البال . وبلغت
الآمال . ونيل رجاء الرجال . وأزيل إبطاء الابطال . وورت زناد
الاجناد . ورويت ظماء الصعاد . فما بعد اليوم . الا بعد القوم .
وادرك ما استقام من النهج . وهلاك من أقام من الفرنج . ونزل
الملك العادل في مخيمه . وقدم اليمن بمقدمه . وتقدم السلطان إلى
راجل دمشق والبلاد فحضر . وضايق الفرنج به وحصر . ولم يخل
العدو في كل حين من حين . وفي كل وقت من مقت . وفي كل شأن من
شين . وفي كل بقعة من وقعة . وفي كل صدق من صدقه . وفي كل ليلة

- ٦٠٣٠ -

من بليه . وفي كل سحرة من كبسة بالذكاية فيهم مليه . والملك العادل
يركب في كل يوم ويبلي . ومن جهده في القتال لا يخلي . والفرنج على
البلاء صابرون . والعناء والعناد مكابرون . لا يبرزون ولا يبارزون .
ولا يجاوزون خنادقهم وهم فيها محتاجزون .

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجاري الاحوال .

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل . ومجاوله أهل
الغواية بالغوائل . ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد
أموأجه إلى الساحل . وقد نزلوا على عكا المحروسة . برأياتهم
المنكوسة وأرائهم المعكوسة . وحشودهم المجموعة وجموعهم
المحشودة . وظلال الضلال الممدودة . وأقدام الاقدام المصدودة
المسدودة . وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد
سلاحه . وبسط الكفر جناحه . وحصل الشرك على قروحه وعدم
اقتراحه . وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت . والروعات
التي وقعت . أكثر من عشرين ألف مقاتل . من فارس وراجل ورامح
ونابل . فما أثر ذلك في نقصهم . ولا أرث النار حرصهم . وما قل
حد حديثهم الحادث . ولا قلل عدد كثيرهم الكارث . ولا غضوا عيون
أطماعهم . ولا فضوا ختوم اجتماعهم . ولا ردوا وجوههم عن
مواجهة الردى . ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى . ولو قطعوا
بالمدى . وهم لمواضعهم ملازمون . وفي مصارعهم جاثمون . وعلى
الموت صابرون . وإلى الحمام سائرون . وبالخنادق من البوائق
محتمون . وبالطوارق معتصمون . وعندهم انهم للبلد محاصرون .
وهم على الحقيقة وان كانوا لكثرتهم غير محصورين محصورون .
وإن جندنا لهم المنصورون . وللعساكر الاسلامية فيهم كل يوم نكاية
شديده . وفتكة مبيدة . ووقعة ناكية . وجمرة ناكية . وصدمة
صادعة . وخدمة رادعة (٤٠) . ولما امتنع الدخول عليهم . وتعذر

- ٦٠١١ -

الوصول إليهم . جمع راجل البلاد . وحشد إلى حشودهم ذوو
الاستعداد . حتى نقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس .
ونفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس . وقد وصل الأخ العادل
وفقه الله للمراضي الشريفة . بالجموع الكثيرة الكثيفة . ولعل الله أن
يجعل حذف هؤلاء الفرنج فتحا لأبواب الفتح . ويعجل الليالي آمال
المسلمين بطلوع صبح النجح . وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه
التدبير . ويأتي عليه التدمير . وإنما هو كل من وراء البحر . وجميع
من في بيار الكفر . فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة .
ولا خطة صغيرة ولا كبيرة . الا جهزت مراكبها . وأنهضت كتائبها .
وتحرك ساكنها . وبرز كامنها . ونفضت خزائنها . وأنفضت
معانها . وحملت ذخائرها . وبذلت أخايرها . وثار ثائرها . وطار
طائرها . ونثلت كنائسها . واستخرجت دفائن نفاسها . وخرج
بصلبانها أساقفها . وبطاركها . وغصت بالأفواج فجاجها
ومسالكتها . وتصلبت للصليب السليب . وتغضبت للمصائب
للمصيب . ونادوا في نواحيهم بأن البلاء بهم بلادهم . وأن أخوانهم
بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم . وأنه من خرج من بيته مهاجرا .
وبحرب الاسلام مجاهرا . ولتعبه مستردا . ولجده في النخوة لدينه
مستجدا . فقد وهبت له نذوبه . ونهبت عنه عيوبه . ومن عجز عن
السفر . سفر بعده وثروته من قدر . وبذل البدر لمن بدره . فجاءوا
لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد . وتواصلت منهم
الامداد بالامداد . وتوالت أنجاد الانجاد . فهم على الذقص
يزيدون . وعلى الأبد يبيدون . وبالمهج يجودون . وعن اللجاج في
حوض اللج لايعودون . وهؤلاء الواصلون في البحر القاطعون
أثباجه . المكاثرون أمواجه . فأما ملوكهم الواصلون في البر فقد
تواترت أخبارهم . بأن خلت منهم بيارهم . ورمتهم إلي أغراضهم
البعيدة أوتارهم . وبهم يستفحل الشر . ويعضل الأمر . ويصول
الكفر ويجول . ويتناول الشرك ولكنه لايطول . فان لبن الله من
خليفته ناصرا لايسلمه . ورازقا لايحرمه . وما تمسك بحبل طاعته
إلا من فاز قدحه . وحاز السناء مدحه . وأسفر صبحه . ووفر
نجة . وبدا علوه . وباد عدوه . والخادم بقوة رجائه في العوارف

- ٦٠١٢ -

الامامية . والعواطف النبوية . وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة
الناصرية . الى أن يفرق الجمع . ويجمع للفريقين القمعيين .
ويعيد البر بحرا من دماء وافدي البر والبحر . ويقطع بقطع دابرهم
دابر الكفر .

ذكر وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء
سادس عشر ذي القعدة في المراكب المستعدة المستبدة
بالباس والشدّة وكانت عدته خمسين شيئا .

كان السلطان منذ وصل الفرنج الى عكا قد كتب إلى مصر .
بتجهيز الاسطول وتجهيزه حياه . وتزجيه أمور رجاله . وتكثير
عدده . وتوفير عدده . وإصلاح شؤون شوانيه . واسناء رواسي
سواريه . فتولى حسام الدين لؤلؤ الشيخ أمره ؛ وشرح لايراه
وإصداره صدره . وأنفق من ماله . ما جمع به شمل رجاله . وهذا
لؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته وشكرت في العدو نكاياته ، وقد تفرد
بغزوات لم يشاركه فيها أحد . ولم يكن فيها على الاسلام لغيره يد .
ما سلك نهجا الاملك . ولا طلب غاية الا أدرك . وهو ميمون النقيب .
مشكور الضريبة . وهو الذي رد الفرنج عن بحر الحجاز . ووقف
لهم على الطريق المجاز . ولم يترك منهم عينا تطرف . ولم يبق لهم
دليلا يعرف . وغزواته مشهورة . وفتكاته مذكورة . وأمواله
مبذولة . وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلوله ، فتولى
الاسطول . وجمع به الطول والطول . ووصل به والفرنج من
شوانيه على وجه البحر عقارب تدب ولوا سب سواب ما تغيب وما
تغب . وسفن حمالة ومقاتلة . وبطس للآزواد والميـرناقلة .
فصدمتها مراكبنا بمناكبها . وملاّت معاطنها بمعاطبها . واستطال
الاسطول المنصور على أساطيلها . وجاء حقه بازهاق أباطيلها .
وظلعت في سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما . وقذفت لشياطين
الكفر رجوما . واقبلت سواريه بالرواسي . مبرمة الأمراس محكمة

المراسي . وقطعت اللجة بأشباه أمواجها . وسدت فجاجها بأفواجها . ونكست أعلام الاعلاج عن أثباجها . ووافت أساودها السود بالأسود . وسدت عقبانها الأفاق بأجنحة الرايات والبزود . وطارت بقوادم المجانيف وخوافيها . وزارت بجوارح المقانيف وعوافيها . فجاءت فجأة وسفن العدو كالجبال تمر مر السحاب . وتطوي اللجة كطي السجل للكتاب . قصبتها وصدعتها . وردتها وردعتها . فكانما نعت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها . واناخت ظعائن الضغائن على شواني . شوانيتها . وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواريتها . فأول ما ظفر الأسطول المنصور . بشيني للفرنج عظيم الشأن . عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان فقتل مقاتلته . وتبع ما يليه . ف وقعت بطشته الكبرى ببطسه كبيرة . تشتمل على ميرة لهم ونخيرة . وأمتعة كثيرة . وتفرقت سفن الفرنج أيذى سباً . وأصلد زندهم وكبا . وعادوا محصورين محصورين قد دفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم . وايقنوا أنهم تورطوا في مهالكهم . وسيرت بوصول الأسطول كتب إلى الأقطار . وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار .

ذكر فصول انشأتها فيها

منها فصل:

ولما رأينا أمدادهم في البحر متضاعفة . وجموعهم متكاثفة . استدعينا الأسطول المصري المنصور فجاءها فجأة . وامتد اسطرا على طرس البحر أعيت متأملها قراءة . وأقبلت جواريه جوارح من قنائصها القوامص . وصدمت شوانيه شواني الشنأة فعادت مراكبهم وهي نواكص . وطارت غرباننا ببين أحبة الكفر أعداء الاسلام ناعبة . وأطردت على طرائد الفرنج فطردها غالبية لا

لا غبة . وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة . وألهبت في الماء على أهل النار كل نار للذكال مسعره . وانقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت . وعملت ما شاءت . وتبعتهم مرارا وبالفنائم فاءت . وأعشت أعين الرائيين كلما تراءت . فضاقت بها العداة ذرعا . ولم تجد من بعدها مطمعا ولا مرعى .

فصل من كتاب

صدر الكتاب بورود الاسطول المصري بالسطو الشديد والبأس القوي . فارتاع الكفر من وصوله وصوله الرائع . وذل جمع الكفر لعزه الجامع . وجاء بكل شيني شاني . لشائن الدين واجىء مفاجع للعدو بالهلاك مفاجىء . مفرق لمراكب الشرك المجتمعة . مضيق شاهج مضارها المتسعة . فطحن مناكب مراكبها . ووسع معاطن معاطبها . واستولى منها حالة وروبه على عدة للملاقاة مستعدة . ولامداد اعانتها ممن وراءها مستمدة . وقتل من فيها من الرجال . وغنم ما وجد فيها من العبد والاموال .

فصل من مكاتبة أخرى:

وصل الاسطول المنصور في كل شيني شاني للشرك شائن . زائد ليهجة الاسلام زائن . زائر بكل أسد زائر . سائر بكل مقدام إلى مقام الاقدام سائر . وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها . وأرهقت غروبها وسذمت غواربها . وملاقتها برجال أيديها على قوائم القواضب قواضب . وأرجلها على الثبات في روابي متون سفنها روابض . وهم على انتظار الاسطول ليطاولوه . ويلقوه وبالمداقة ويجاولوه . فلما وصل وصال . وراع أمره وهال . وجلا عليهم

- ٦٠١٥ -

الاولجال والآجال . بتوا المراسي والحبال . وانهزموا بسفنتهم وأننت قوتهم بوهنهم . واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائر والاحمال مملوءة وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوة .

والفصول كثيرة وإنما ذكرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها . وأعرب عن حقها وحقيقتها .

ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد ونقل الرجال والذخائر والعدد .

ولما اشتد البرد وتوالت الغيوث . وتبحرت السهول . والوعوث . وحالت الاوحال ولاحت على خلاف المراد الاحوال . وتعذر الخروج إلى تلك المروج . وامتنع على السالك قصد أولئك العلوج . وزال حكم النزال . واستقال من استقل بالقتال . شرع السلطان فيما هو أنفع وأجدى وأنجع وأنجى . وأرجع بالاحتياط والحزم وأرجى . وهو تقوية عكا بالميرة والنخيرة . والاسلحة الكثيرة . والرجال الحماة . والابطال الكماة . فنقل اليها في المراكب جماعة من الامراء الامثلاء بأجنادهم . فدخلوا اليها بعددهم وأزوادهم . واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول ورؤسائه وقواده . فما دخل أحد فيه الا بزيادة في زاده . وكانوا زهاء عشرة آلاف بحري حربي . على الجري إلى الموت جري . فامتلا البلد بكل منتخب منتخ . مرخص مهجته الغالية للاسلام مصرخ . وانتفع بهم في جذب المنجنيقات . والرمي في العرادات . والحذف بالنقاطات . والاحراق بالزراقات . والزرق بالحرقات . والقاء القوارير . واذكاء المساعير وتطريح النار . وتطويح الاحجار . ومواصلة القطاعات . والزيارة بالزيارات . وتوتير الجروح والزنبوركات . وتطيرير الناكات . الذواكي من مقاتل العدو الى الوكنات . ومناشبة الفرنج في كل وقت بالأخذ والوقد . والجد في الجد والجد . وطروقهم ليلا على سبيل التلصص .

- ٦٠١٦ -

وسوقهم على وجه التصيد والتقصص . وكبسوا ليلة سوق الخمارات والسواهر . وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر واستنصروا بذلك واستدشروا . واجترأوا منه على ما أجروا . وكذلك من عندنا يدخل اليهم الرجال متسرقين . ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين . فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه . ومن تعذر عليه إخراجه عقره وبعجه . ومنهم من يهجم على الرجل في خيمته ويرهبه بمد منيته . ويسلبه سكوته بسكينه . ويجعله ان لم ينجذب معه من حينه على يقينه . فيقوده بخطام القهر . ويجذبه بخدام الأسر . ووقع القوم من هذا في بلاء مبل . وعناء عن حب الحياة مسل . فقد كثر اليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز . وشق عليهم الاحتراس والاحتراز . وتحيل الناس في اغتيالهم بكل طريق . وازداد فرقهم من كل فريق . وأعدت الحال من الليل إلى النهار . والمكابرة والجهار . حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش في أجراف الانهار . فاذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجأوه بالقتل أو الاسار .

ذكر حال نساء الفرنج

وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة افرنجية مستحسنة . متحلية بشبابها وحسنها متزينة . قد اجتمعن من الجزائر . وانتدبن واغتربن لاسعاف الغرباء . وتأهبن لاسعاد الاشقياء . وتراقدن على الارفاق والارقاد . وتلهبن على السفاح والسفاد . من كل زانية نازية . زاهية هازية . عاطية متعاطية . خاطية خاطية (٤١) . متغنية متغنية . متبرزة متبرجة . نارية متلهبه . متدقبة متخضبة . تادقه . فاتقه . راقعة خارقة . مارقة رامقة . قاسرة سارقة . فارجة فاجرة . فاتنة فاترة . مشتهاة متشبهة . ملهاة متلهية . متفنة متفتية . ناشية منتشيه . متشوقة متسوقة . مقترحة محترقة . متحبة متعشقه . حمراء مرجاء . نجلاء كحلاء . عجزاء هيفاء . غناء لفاء . زرقاء ورقاء . متخرقة خرقاء . تسحب غفارتها .

وتسحر بنضارتها نظارتها . وتثني كأنها غصن . وتتجلى كأنها
حصن . وتميس كأنها قضيب . وتزيّف وعلى لبثها صليب . وهي
بائعة شكرها بشكرها . باغية كسرّها في سكرها . فوصلن وقد
سبلن أنفسهن . وقدمن للتبذل أصدونهن وأذفسهن . وذكرن أنهن
قصن بخروجهن . تسبيل فروعهن . وأنهن لا يمتنعن من العزبان .
ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان . وتفرين بما ضربته
من الخيم والقباب . وانضمت اليهن أترابهن من الدسان الشواب .
وفتحن أبواب الملاذ . وسبلن ما بين الافخاذ . وبحن بالاباحة .
ورحن إلى الراحة . وأزحن علة السماح . وذفن سوق الفسوق .
ولفن رتوق الفتوق . وتفجرن بينابيع الفجور . وتحجرن بنزو
الفحول منهن على الحجور . وعرضن الامتاع بالمتاع . ودعون
الوقاح إلى الوقاع . وركبن الصدور على الاعجاز . وسمحن
بالسلعة لذوي الاعواز . ودمن على تقريب خلاخلهن من الاقراط .
ورمن فرشهن على بساط النشاط . وتهدفن للسهام . وتحلن
للحرام . وتعرضن للطعان . وتضرعن للاخدان . ومدين الرواق .
وحلن حين عقدن النطاق . وصرن مضارب للاوتاد . واستدعين
النصول منهن إلى الاغماد . وسوين أراضيهن للفراس .
واستهضن الحراب الى التراس . واستدفن المحاريث إلى
الحرث . ومكن المناقير من البحث . وأذن للرؤوس في دخول
الدهاليز . وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز . وقربن
الاشطان من الركايا . وفوقن النبال في أعجاس الحنايا . وقطعن
التكك . وطبعن السكك . وضممن الاطيار في أوكار الاوراق .
وجمعن قرون كباش النطاح في الشباك . ورفعن الحجر عن
المصون . وترفعن عن ستر المكذون . ولففن الساق بالساق . وشفين
غليل العشاق . وكثرن الضباب في الوجار . وأطلعن الاشرار على
الاسرار . وطرقن الاقلام إلى الادوية . والسيدول إلى الاوبية .
والجداول إلى الغدران . والمناصل إلى الاجفان . والسبادك إلى
البواتق . والزنانير إلى المناطق . والاحطاب إلى التنانير . وذوي
الاجرام إلى المطامير . والصيارف إلى الدنانير . والاعناق إلى
البطون . والاقذاء إلى العيون . وتشاجرن على الاشجار .

وتساقطن على الثمار . وزعمن أن هذه قرربة ما وفوقها قربه .
لاسيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبه . وسقين الخمر . وطلبن
بعين الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية . وعجبوا
كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية . وأبق من المماليك الأغبياء
والمدابير الجهلاء . جماعة جذبهم الهوى . واتبعوا من غوى .
فمنهم من رضي للذة بالذلة . ومنهم من ندم على الزلة فتحيل في
الذقلة . فان يد من لا يرتد لا تمتد . وأمر الهارب اليهم لاتهامه يشتد .
وباب الهوى عليه يستد . وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت
منها الأعزب حرج . وما أزكاها عند القسوس إذ كان للعزبان
المضيقين من فرجها فرج . ووصلت أيضا في البحر . امرأة كبيرة
القدر . وافرة الوفرة . وهي في بلادها مالكة الأمر . وفي جملتها
خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم . وغلمانهم وأشياعهم . وهي
كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة . زائدة بما تنفقه فيهم على
المعونة . وهم يركبون بركباتها . ويحملون بحملاتها . ويثبون
لوثباتها . وتثبت ثباتها لثباتها .

وفي الفرنج نساء فوارس . لهن دروع وقوانس . وكن في زي الرجال .
ويبرزن في حومة القتال . ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات
الحجال . وكل هذا يعتقده عبادة . ويخلن أنهن يعقدن به سعادة .
ويجعلنه لهن عادة . فسبحان الذي اضلهن . وعن نهج النهى
ازلهن . وفي يوم الواقعة قلعت منهن نسوة . لهن بالفرسان أسوة .
وفيهن مع لينهن قسوة . وليست لهن سوى السوابغ كسوة . فما
عرفن حتى سلبن وعرين . ومنهن عدة استبين واشترين . وأما
العجائز . فقد امتلات بهن المراكز . وهن يشددن تارة ويرخين .
ويحرضن وينخين . ويقلن أن الصليب لا يرضى إلا بالاباء . وانه
لابقاء له إلا بالفناء . وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء
فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء . فهن
للغيرة على الملة ملن الغيرة . وللنجا من الحيرة ناجين الحيرة .
ولعدم الجلد عن طلب الثار تجلن . ولما ضامهن من الأمر تبلهن
وتبلدن

ذكر ما أهده عز الدين مسعود

ابن مودود بن زنكي بن أفسنقر صاحب الموصل
من النفط الأبيض والرماح والتراس

ولما عرف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العدة .
وتقوية النجدة . بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة . سير من
أحمال النفط الأبيض مع عزة وجوده ما وجده . ومن التراس
والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده . وشاع الاعتداد .
وذاع الاحماد . يدل ذلك على اتشاج الوداد . والامتزاج والاتحاد .

وكتبنا في شكره

وصل السلاح . وتم للاسلام من قروح الكفر الاقتراح .
واستجيدت التراس والرماح وفارقت للقائها أجسام الاعداء
الارواح واتصل بالنفط الواصل إلى أهل النار الاحتراق . وطغت
وضربت منهم النحور والاعناق . وقد هدا بما أهده النصر إلى
الهدى . والردى إلى العدا . وأجود الاكارم وأكرم الاجاود من جاد
بما أجدى . واهدى ما هدى . وعاد من المكرمة بما بدا . لأخلى الله
المجالس من يد يتخذها . وأياد يسيرها وينفذها . ومحمدة
يستخلصها لنفسه ويستنفذها . وحمية للدين يقيم بها حماة الشرك
ويقذها . ونخوة للاسلام تمهي حدود الهمم النائية وتشحذها . وما
طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة . والضرورة الشاقة . فان
الحروب المتطاولة المدد . أتت على جميع العدد . فالسمر متحطمة .
والبيض متألثة . ووجوه الصفايح بلثام النجيع متلثمة . وعيون
النصال عن حواجب القسي إلى مقل الاقران رامقة مارقة . وحمام
الحمام في مريشات السهام بكتب الكبت من حنايا المنايا السائقة

- ٦٠٢٠ -

سابقة . وقد أفنى المصال النصال . والنضال النبال . والرماء
الافواق . واللقاء العتاق . والمصاع المناصل . والقراع الذوابل .
والصيال الصواهل . وعمل الجهاد الدائم العوامل . فلا ضامر الا
وهو وإن كان غالبا لاغب . ولا صارم الا وهو في دم العدو الفائص
ناضب . ولا جرح إلا وهو مجروح . ولا قرح الا وهو مقروح .
ولا جامح الا وهو مصحب . ولا باشر الا وهو مقطب . فباية عدة من
هذه العدد انجد . غار الحمد وأنجد . وتأسس الشكر لانعامه
وتمهد . ومن العجب أن العدة تقنى ولا تقنى العدة . وتدمو على
الحصاد وكأنها الذبات . ويتسارع الى أمداها الموت والهلاك
ويخلفها في إبدالها الحياة . فان البحر يمدهم . والكفر إلى الردى
يردهم . وكلما اخلاقتهم الايام فان الليالي تجدهم . وما جمعهم
القدر إلا ليفرقهم . وما حمل أهل النار في الماء الا ليغرقهم في دمائهم
وبنار البواتر يحرقهم .

ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده

ورد الخبر بان عماد الدين قد جهز عسكره . وقدم عليه قطب الدين
ولده وسيره . فقال السلطان هذه أيام الشتاء . ولا ينتصف فيها من
الأعداء . ونحن محتاجون الى العسكر في الربيع . واستنهاض
الجموع الى شمل النصر الجميع . فكتب بتأخيرته . والتهمل في
تسييره . فتأثر قلب عماد الدين برد ولده . ورجوعه بعد المسير من
بلده .

فكتب اليه السلطان من مكاتبة

كان لما انتهى اليه صدق اهتمام المجلس بامرته . والتقدم بتجهيز
العسكر الى نجدته بكل ما يعود بسرور سره وانشراح صدره .

- ٦٠٢١ -

وعرف مسيد قطب الدين ادام الله له مضاعفة العلاء . وأقر بانواره
عيون الاولياء . وظن انه لم يقدم حركته المقرونة بالحسنات . ولم
يقرب من عبر الفرات . اشفق عليه من التعب . ليكون عسكره
مستريحاً عند الطلب . فإن الحاجة اليه في الربيع ادعى . ومصلحة
الاسلام في ذلك الاوان أولى أن تراعى . ولو عرف أن الركاب
القطبي قد دنا . لبشرته السعادة بنجح المنى . ولاستقبله بالنفوس
والارواح . وتلقته القلوب بالقبول العبق بزشر الاشرار . وان
اشتعل القلب بما فاتته من حظ من الاستسعاد بوفوده . فقد بشر
أمله بنضارة عود نجحه عند عوده ونجاز وعوده .

وفي آخر هذه السنة ندب الرسل الى الاقطار والامصار .
للاستنفار والاستنصار . وبت الكتب وكتب بالبت . وحث الرسل
وأرسل بالحث . وبعث المسرعين لاستبطاء البعث . وانهض التبليغ
كل بليغ . وجرع كأس التدبير في حسن السفارة كل مشيع مسيغ .
وسرح عدنان النجباء الى سيف الاسلام باليمن . وشرح في الكتاب
اليه ما جرى من حوادث الزمن . ووصفت له جلية الحال . وما نحن
عليه من دوام القتال . وطلبت منه الاعانة بالمال . واستعين
واستنجد . واستلين واسترقد . وحض على حظه من انجاد
الاسلام . وان يكشف بسني طلوعه من الاظلام . وأرشد الى نهج
السماع . وتسيير كل ما يقدر عليه من العدد والسلاح . وتجريد
الجرد العتاق . وتوفير الحمول التي تخرجها في سبيل الله يد
الانفاق . وكوتب قزل ارسلان بهمذان . بما دنا منه عزمه ودان .
وحكم على كل ملك بحجة الايمان . وهدى إلى محجة الاحسان .

ذكر وصول رسول سلطان العجم ركن الدنيا والدين
طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه
بالالتجاء الى ظل السلطان وارتجاء ماله من فضل
الاحسان.

ورد من عند طغرل سلطان العجم . أمير من خواصه هو أيلدكز
أمير العلم . ف ضرب له من الخيم الخاصة سرا دق . و وفرت في
الضيافة له المنافع والمرافق . ومضمون رسالته أنه خانتته من امرائه
ومماليكه العامة والخاصة . وخصته في سفراته ونكباته الخاصة .
وأن عمه أخا أبيه من أمه قد استولى على ممالكه . وضيق عليه سعة
مسالكه . والجاه الى هذا الالتجاء . وهو بقوة من هذا الجانب
قوي الرجاء . وقد وصل الى حد مملكته بقرب اربل . واراد الوصول
الى الموصل . لكنه نزل في بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن
قفجاق . ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق . وعز الدين حسن من خدم
دولتكم . والمستمسكين بعصمتكم . والمستودقين بدمتكم . وانا عنده
مقيم . وعلى سنن الامل مستقيم . فان استقدمتني اليك قدمت . وان
أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتي وجدت من النصر ما عدمت .
وانا الآن هزيل عامك . ونزيل إنعامك . ووصل معه كتاب بخطه . قد
بث حزنه فيه بشرحه وبسطه . وأبدى الاستكانة . واستدعى
الاعانة . واردف رسولا برسول . وكرر سؤالا فيما التمسسه من
سول . فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل . وانه
لامطمع مادام العدو ملازما لنا في مفارقة الساحل . فكتب إلى زين
الدين يوسف صاحب اربل وإلى حسن بن قفجاق وإلى نائبه بشهر
زور بالتوفر على خدمته . والارتياح لمصلحته وإشاعة معونته . ثم
ندب كبيرا للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل أرسلان وهو جمال
الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد كونه نسيبي . ليكون
القيام بهذا الامر من نصيبي . وسعى في المصلحة والمصالحة .
والمصافاة على صفة المودة والمصافحة وحفظ حرمة تضرعه
وتذرعته . وسياتي ذكر ما آل اليه الامر في موضعه .

- ٦٠٢٣ -

وتوفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بمتزل الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة . ولقد كان من الاعيان . ومن مقربي السلطان . ومن أهل الجد في نصرة الايمان . فذقله الله الى الجنان . وحمل من يومه الى القدس فدفن به . وكانت في هذه السنة وفاة الفقيه الكبير شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون بدمشق يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان . وهو شيخ المذهب الذي لم يخلفه مثله . ودفن معه فضله . وكان مولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . وكانت وفاة الامير عز الدين موسك بن جكو بكرة يوم الجمعة النصف من شعبان منها وكان من الابرار الاخيار . والعظماء الكبار .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة . وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر في خيمته المضروبة . وعكا محصورة . وجموع الفرنج الى حصارها محدشورة . وعلى تعذرها عليهم محسورة . وخرجت هذه السنة والحصر مستمر . والسلطان في ملازمة القتال مستقر . وحيا النصر في الاحيان مستدر . وقد تسنت للاسلام مباحج . ووضعت للسعادة مناهج . وبانت للقتال مداخل ومخارج . وانقطعت بين الوشيح وأرخام الارواح وشائج . واشتدت لتباريح الأشواق الى لقاء الاعداء لواج . وتالفت في الاقدام مقدمات ونتائج . ولناجح المنى منا في مدى الرجاء مدارج . ولخطباء الظبا في منابر الطلى معارج . وللجهاد جهات . وللعزمات أزمت . واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات . وكانت لنا مسرات هي لأعدائنا مساءات . ووقعت عجائب . وأعجبت وقائع . وأبدعت غرائب . وأغربت بدائع . واجتمعت كتائب . ونابت نوائب . وصفت تارة وكدرت مشارب . وساعدت الاقدار . وتباعدت الاكدار . وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع عدد لا يقع عليه الحصر . ولكم أسفر صبح أصحاب فيه جماح الظفر وسفر النصر . وسيرد حديث كل حادث بمفرده . ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده .

ذكر وقعة الرمل

كان السلطان يركب احيانا للصيد . بعد ان يحذر على ما يظهر للعدو من الكيد . وهو لا يبعد من الخيم . ولا يقرب من مسائل الليم . وركب يوما في صفر على عادته فتصيد . وطاب له قرب القنص فأبعد . واليزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة . على الحالة المحتاطة المستظهرة . فخرج الفرنج وقت العصر في عدد لا يدخل في الحصر . وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا اليهم . وحملوا عليهم وطردوهم إلى خيامهم . وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم . وما زالت بينهم حملة وحملة . وشلة وشلة . وسلة وسلة . وركضة وركضة . وذفضة وذفضة . ومشقة ومشقة . ورشقة ورشقة . وجذبة وجذبة . وضربة وضربة . وشدة وشدة . وردة وردة . وضمة وضمة . ولة ولة . وأصحابنا ظاهرون . وبالمراد ظافرون . ولهم في كل دفعة من العدو قلائع . وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع . حتى فني النشاب وبقي الانتشاب . وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب . والفرنج لا يعجزهم الا الرماء . ولا يهتكهم الا الاصماء . ولا يذفرهم الا رنة الاوتار . ولا ينذرهم الا أنة القسي بالدمار والبوار . فلما أنسوا بخلو الجعاب . تجاسروا على الذو من تلك الشعاب . وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا الى النهر . وكادت تعبت بهم يد القهر . فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان . واشرعوا الى نحو تلك الذئاب ثعالب الخرصان . واستشهد جماعة من الشجعان استحلوا طعنام الطعان . وشاقهم جني الجنان . وذلك انهم لما ردوا الفرنج قلعا فرسانا . وصرعوا اقرانا . فنزلوا بعد فرسهم . لسلب لبسهم . فمرت بهم الحملة في الاوبة . وأعجلتهم عن الركبة والوثبة . وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان . واجتمع في مراكزها الفريقان . وكثر التأسف على من فقد . وكان الحاجب ايد غمش المجدي ممن استشهد . وزاد التلهف على فوات الفرصة . وكيف أغفل ذلك القنص عن تلك القنصة . فان العدو صار عرضة للصرة في تلك

العرصة . ومن نوادر هذه الواقعة . وطرائف هذه الدفعة . ان مملوكا للسلطان يقال له سراسنقر . وهو يتناول في كل معترك ولا يقصر . عثر به جواده . وثبت على الجراة فؤاده . ورجله عثاره . وأسلمه أنصاره . فقبض من أسره شعره ليجذبه . وسل آخر سيفه ليضربه . فضرب يد قابض شعره فسيبه . واشتد سراسنقر يعدو ناجيا وللخلاص راجيا . وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه . وفاتهم بعون الله فلم يدركوه . وهذا قذفته المذون من لهاتها بعد ازدراده . وانتضاه الحمام لمضاء غراره بعد اغماده .

ذكر فتح شقيف أرزون

وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم بالامان شقيف أرزون . واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج عيون . وصاحبة ارناط صاحب صيدا في دمشق لاجله معتقل . وباب خلاصة دون فتح شقيفه مقفل . وذلك أن الشقي في الشقيف فني زاده . وعز اجتهاده . ومرد عليه في الحفظ مراده . وخانه في الصبر ارتياؤه وارتياؤه . فسلمه على أن يسلم صاحبه . وتخلص في النجاة مذهبته . وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه . وتركه للاسلام بما يحويه . وافرغ عن صاحب صيدا وصار الى صدور . وليس من التشريف والتسريح حبيب الحبور .

ذكر حال عكا وبخول العوامين اليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها

كان السلطان اغتتم هيجان البحر . وحضور مراكب الاسطول من مصر . فما زال يقوى عكا بتسيير الغلات والاقوات والقوات اليها في المراكب . وقد ملأها بالنخائر والاسلحة والكمات المساعير والحنة المحارب . فلما سكن البحر . وأمن غائلته الكفر . عادت مراكب

الفرنج الى مراسيها . ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مراكبنا في
موانئها . وانقطع عنا خبر البلد . وامتنع عليه دخول المدد والعدد .
فانتدب العوام للسباحة . وحملتهم السباحة لهم بالرغائب على
وضع المنهج في ميزان السماحة . وعلموا انهم اذا سبحوا ربحوا .
واذا سلموا فراحوا فرحوا . حتى صاروا يحملون نفقات الاجناد
على اوساطهم ويخاطرون بانفسهم مع احتياطهم . ويحملون كتباً
وطيوراً . ويعودون بكتب وطيور . وكتب اليهم ويكتبون اليها على
أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور . ويودع المكتوب
والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور . وكان في العسكر من
اتخذ حماماً تطوف على خيمته وتنزل في منزلته . وعمل لها برجاً من
خشب . وهرادي من قصب . ويديرها على الطيران من البعد .
ويوردها لشبعها وريها احب الحب واعذب الورد . وكنا نقول ما هذا
الولع بما لا يذفع . والوله بما لا ينجع . حتى جاءت نوبسة عكا
فذهفت . وشفت الغلل ونقعت . واتت بالكتب شارحة سارحة .
ووفت بمفاتيح الغيب بالبشرى مفاتحه . فصرنا نحبو صاحب
الطيور بالاطراء . ونخصه بالمدح والثناء . ونامر به بالاستكثار .
ونطلبها منه مع الليل والنهار . حتى قل وجودها عنده لكثرة
الارسال . وكنا نعرف بها جليلة الاحوال . ونعلم ان الله علمه ذلك
البر . والهمه ذلك السر . فانه اطلع على ما يدفع اهل الاسلام .
فحمى حمى هداهم بهداية الحمام . فانها امينة على الاسرار ضمنية
بالاسفار . قميئة بكرامة الاحرار . مصونة من بين الاطيار . جريئة
على الاخطار . بريئة من الاعذار . معدونة من الانخار . مودونة مع
الاخيار . وحمام البلد اليها مع العوام محمولة . وعقود الاكياس
عليهم محلولة . والضرورة تحمل على تحمل الضرر . والغرارة تبعث
على الانبعاث الى الغرر . والفقر يدعو الى ركوب الخطر . وفيهم
من سلم مراراً من القوم . فاجترأت نفسه وأنس بالعموم . ولقد عطب
عوامون . بالامانة قوامون . فما ارتدع الباقون . وما قالوا انهم لما
لقي رفاقهم لاقون

ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء وانكسار البرد في الانتهاء

ولما انحسر الشتاء وانكسر . وانتشى الربيع وانتشر . أمسى
السلطان عساكره بالعود فتوافقت أمداد أجوادهم توافي أمداد
الجود . فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن
محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة . وهو بأكمل العينة
وأحسن الأهبة . وسابق الدين عثمان صاحب شيزر . وهو الذي
يبسأله يقسر الليث القصور . وعز الدين إبراهيم بن المقدم المقدام .
الهمام بن الهمام . والكريم بن الكرام . والاسد الضرغام والسيد
القمام . ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان . وحشود من
العرب والتركمان . ففاض بهم الفضاء . واكتسى برياشهم العراء .
وكثر الجند . وانتشرت البنود . وحلقت عقبان الاولوية . وتلاحقت
نؤبان الاولوية . ولعت بوارق البيارق . وارتفعت عوائق البوائق .
وحملت بواسق السوابق . وثبتت وثائق العلائق . ونبتت شقائق
العقائق . ونظرت أحداق الحدايق . ويسرت طرائق الطوارق .
واعجبت أزهار الرايات وانتهت غايات الفايات . ونزلت بحسن
الصنيع نصوص النصوص . ودارت بيد الربيع فصوص الفصوص .
وعلت الاعلام . وحلت الاحلام . ومضت المواضي ومضت .
واقترضت القواضب القواضي وقضت . وعريت البيض من الحل .
وغربت السمر بالكل . واشتأقت لدات اللدان الى العناق . وتآقت
شفاه الشفار الى لثم الاعناق . وتحدث في المجارة بأجراء العتاق .
وطالت رقاب الرقاق الى غلاظ الرقاب . وأعجم عن جمجمة
الجماجم اعراب العراب . وحمي عزم البطل . ومحي رسم الملل .
وعاد الجد الى جدته . والحد الى حدته . وخرج البرد من عدته .
وقاز النصر بعدته . وجلت بنت الغمد في زي الهند وري الفرند .
وقطف ورد الورد للشد الى الورد . وقال الناس إلام ننتظر . وعلام
نصبر ولم لاندشتغل وكيف لاندشتغل . وحتام القعود . ومم الركود .
ولماذا الرقود . وقد نظرت السعود . ونضر العود . وصدقت من

أصحابنا الوعود . فرحل السلطان وتقدم . وعزم علي طلب العدو وصمم . ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول . في الفصل الاعل والفضل الاكمل . وتداني العسكران . وتعالى العشيران . وتقارب القرنان . وتحارب الحزبان . وترتب العسكر الاسلامي في نزوله ميمنة وميسرة وقلبا . وفي ركوبه على تريب منازلهم طلبا طلبا . فكان الملك المظفر تقي الدين في آخر الميمنة الميمونة . والملك العادل في آخر الميسرة الميسرة المنصورة المصونة ، والملك الافضل في اول ميمنة القلب وأخوه الملك الظاهر في اول ميسرته على الجنب ، والكتائب مكتبة ، والمقانب مقنبة ، والسماء بالنقع الثائر منقبة ، والارض بوقع الحافر مثقبة ، والعساكر مترادفة مترافدة . متتابعة متواردة ، متسابقة متلاحقة ، متناسبة متناسقة . متوالية متوافية ، متجارية متبارية ، منقضة كالبزاه ، منفضة الى العداة ، داعية الى الانتصار ، عابية على الكفار .

ذكر وصول رسول دار الخلافة

مع ضياء الدين الشهر زوري في جواب رسالته

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الاول رسول دار الخلافة ، بالنجدة والعارفة والرحمة والرافة ، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التين بمدينة السلام . فتلقيه السلطان بالاحترام والاكرام ، واحتفل لوصوله . واستقبله لقبوله ، وتلقاه الامراء على الترتيب ، فمنهم من تقدم نحوه الى البعيد ومنهم من وقف له بالقرب . ثم اخوة السلطان وأولاده واحدا بعد واحد . وماجدا بعد ماجد . وبادئا بعد عائد . ثم ركب السلطان اليه عند القرب من سرادقه . وأدناه اليه بتعانقه ، ثم سار معه قليلا (٤٦) وأصحبه من خواصه وأمرائه قبيلا . حتى نزلوا به في باركاه له مضروب ، وخصه بصنوف من اللطاف وضروب ، ووصل معه حملان من النفط الطيار . وحملان من القنا الخطي الخطار ،

وتوقيع بعشرين ألف دينار . تقترض على الديوان العزيز من
التجار ، وخمسة من الزرايين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق
بالنار . فاعتد السلطان بكل ما أحضره . وأخلص الدعاء للديوان
العزيز وشكره . غير انه ابدى رد التوقيع مع الصنيع ، وقال كل ما
معي من نعمة امير المؤمنين وعارفته ، ولقد نعشني ما شملني من
عاطفته ، ولعل الله يوفقني للقيام بالفرض ، ويغنيني عن الالتزام
بالفرض ، وأركب الرسول مرارا معه واره مبارك النزال . ومعارك
القتال . ومصارع الرجال . ومجامع الابطال . ومطالع اللقاء .
ومواضع الهجاء . ومصالت الاقدام . ومنايت الاقدام . ومواقف
الصفوف . ومصاف الوقوف . وأماكن البعوث . ومكان اللبوث .
وتل الفضول . وبقية التلول . حتى يشهد بما يشاهد . ويبين له
المجتهد والمجاهد . وأراه ما لم يره لياثر أثره . ويخبر بجمليته
ويجمل خبره . وأقام الرسول طويلا . وأقام له السلطان من طوله
دليلا . ووفر له عطاء جزيلا . وعرفا جميلا . حتى استأنن في العود
فعاد . واستصحب الشكر والاحماد .

ذكر مقاتلة الفرنج عكا بالابراج والاعجاز بها والازعاج

وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار . شرعوا في عمل الابراج الكبار ،
وركبوها من الاخشاب الطوال . والعمد الثقال . وبذوها وقدموها ،
ونصبوها وأحكموها . وسقفوها طباقا . وسمروها بالحديد .
وجعلوا لها منه أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثاقا . ولبسوها
بالسلوخ ، وملأوها بالجروخ . وزحفوا بها الى السور وكشفوا
بـالـرمي منها بعض سـقفـوف الدور . وتسـاعدوا
على طم الخنادق ، وفتيح الطرائق ، ووصل من المدينة عوام ، يخبر
بان التلف بها حوام . وان البلد قد أشرف . والخطر قد أسرف .
والابراج علت . والاسوار خلت والبلاء قد عم . والخندق قد طم .

وأنتم إن تم هذا عراكم العار . واطلم على الدنيا والدين بليله
النهار فاحتمي السلطان واحتد وشد واشتد وكرب وركب وكان
يحسب هذا فجاء كما حسب . وزحف الى الفرنج ليشفغلهم عن
الزحف ويصرفهم عن الفتح بالحتف . وذلك في العشرين من ربيع
الاول يوم الجمعة . بالجحافل المجتمعة . والغماغم المرتفعة .
والصوارم الملتمة . والصلادم الممتنعة . والاسنة المشرعة . والاعنة
المسرعة . والدوائم المنتجة من النجيع . والبيارق المخدفة كازهار
الربيع ، واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين . صاحب دار محمود
ابن بهرام الارتقي . بالجمع الوافر الوفي والعسكر النخي الذقي ،
وسار الى القتال على حاله . بخيله ورجاله . وضايقهم السلطان
مضايقة عظيمة . ولم تزل جادة الجد في مقاومتهم مستقيمة . حتى
دخل الليل . ولغبت الخيل . فقوى تلك الليلة اليك . والزمهم في
الحفظ الدرك . ورجع الى مخيمه مساهدا ساهرا ، مجاهدا بالبكور
نخوهم مجاهرا . فلما اصبح يوم السبت صبحهم بالحرب .
وسبحهم على بحر الكر والكرب . ورجل الرجال اليهم . وانزل
النوازل عليهم . وامتزج بياض النهار بسواد الذقع . واتسع خرق
الواقعة على الرقع . وانقضى اليوم . وقد انقضى القوم . وتفرق
الجمعان وقت العشاء . عن قتيل غريق في الدماء . أو جريح على
بقية الذماء . ويات الناس في السلاح شاكين . وبنار المذاكي
ذاكين . ولما تم منهم وعليهم حاكين . ورجع السلطان الى خيمة
ضربت له على تل العياضيه . وقد الزمته البسالة الطبيعية ، بالرتوع
في رياض الاخلاق الرياضية . واصبح يوم الاحد راجعا الى قتال
أهل الاحد . واستن من الجد على انهج الجدد . وامر بانتقال السوق
الى قربه ليقرّب من العسكر ، وأيده الله بالنصر الاظهر . والظهور
الانصر . واقام كذلك وهو في كل يوم يغدو وينازل . ويعد ويقاتل . ثم
نقل يوم الاربعاء الخامس والعشرين الاثقال الى المخيم لئلا يغيب
حاضر . ولا يصاب عن الورد صادر . وليكون غلمان العسكر للحرب
مباشرين . ولمعشر الكفر بادارة كؤوس الردى عليهم معاشرين .
فانتدب منهم الى الحرب كل مجترى للوقائع مجترح . وكل محترق

7041

على نار الهيجاء الهياج مقترح . وكل وقاح بالحراب وقاع . وكل
صرار بارداء الكفرة نفاع . وكل غلام له من هيجان الحمية لغام .
وكل أسد

الشد له في حومة المأزق زئير وبفام . وكل متلاف للغيرة غير متلاف . وكل جاف عن سوى السوء متجاف . واخذوا من بيت السلاح السيوف والتراس . وطلبوا بقصد العدو الاقتناص والافتراس . وابلوا بلاء حسنا . ووضحوا بالذكاية في العدو سننا . ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين . عوام من البلد يخبر بقوة المشركين المحاصرين . وان البلد ضويق . وان العدو المخدول يحيق به كيه وان حوقق . فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتاله . ويكفه بنزاله عن نزاله . وجدد الكتب الى الامصار . بالاستنفار والاستتصار . فاول من وصل ولده الملك الظاهر صاحب حلب . وقد جمع وجلب . وتقدم عسكره يوم الجمعة وتفرد بوصوله . وحظي من نظر والده بسوله . وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين ثم عاد الى معسكره . وجاء يوم السبت في حسن منظره واحسان اثره . في منظر ناضر . ورونق حاضر . وجمع كثيف . وحشد لفيف . وبهجة رائعة وروعة مبهجة . وهياة معجزة وهيبة العدو مزعجة . وصولة دائلة . ودولة صائلة . ورقاق وذوايل . وعناق وهواهل . وعوابس وعواسل . وشعوب وقبائل . وقدم في هذا اليوم مظفر الدين بن علي كوجك وهو صاحب حران جريدة . وقد استأنف للجهاد عزيمة جديدة . ثم عاد الى عسكره ليقدم به .

ذكر وقوع النار في أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها
وتلف كل ما كان و من كان في طباقه .

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وهو السبت الثامن والعشرون
تتابع مظاهرات دلائل النصر وتناهر اسباب الظهور المبشرون .

فنظرنا والنار من احد الابراج في السماء بشملها متسامية . وفي
الجو بشرارها مترامية . ومايدري ما سبب هذا الحريق . وكيف
تيسر هذا التوفيق واحدقت النار بالبرج فاذا هو كشجرة من نار .
وقلوب المشركين لاستعارها في استعار . ووجوه المؤمنين لانوارها
في استبشار . ثم راينا البرج الثاني وهو يحترق . والنار في اثائه
تحترق . ثم نظرنا الى البرج الثالث فاذا هو يشتعل . وبأسنة
النيران يبتهل فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها ، وبلغت الينا من
صدوماتها وخدماتها استغاثتها . وركب السلطان ونحن معه ونزلنا
نكتب بشائر النار . ونسير بطاقتها على أجنحة الاطيار والعجب ان
الابراج كانت متباعدة غير متدانية . وقد أبعدنا الفرنج لمسافات
متناية ، فكل واحد منها على جانب من البلد قد كشفه ، وخسف
اسواره وكسفه . فاحترقت على تباينها في وقت واحد . وقدر من
الله وارد ، فلم يكن ذلك الاسرا الهيا . ولطفا ربانيا . وفرجا بعد
الشدة . وثلجا لصدور المؤمنين بتلك الوقعة ، وكان سبب حريقها ان
رجلا يعرف بعلي بن عريف النحاسين بدمشق كان قد استأذن
السلطان في دخول عكا للجهاد ، واقام فيها باذلا للاجتهاد ، وغري
بعمل قدور النفط وتركيب عقايره ؛ وتعيين كل نوع وتعير
مقاييره ، وتقدير معايره ، والناس يضحكون منه . ويفضون عنه .
ويقولون هذا يضيع ماله فيما لايعنيه . وما هذا الهوس الذي وقع
فيه . وهو يعد لذلك العمل الآلات ، ويجد في تلك الادوات ، ويكثر
القدور . ويرتب الامور . فلما قدمت الى البلد تلك الابراج ، وحصل
من الامتزاج الامتزاج . قوتلت بكل فن ، وابنى اليها من النفط كل
قدر وبن . ورميت بكل قارورة محرقة . وكل زفاطة مرهقة . وبالح في
صنعة الزراق فلم يتم في شيء منها احتراق . ووقع الياس .
واستسلم الناس . فمضى ابن العريف . بل ابن العريف . الى بهاء
الدين قراقوش الامير وقال قد راينا ما اعترض من التدبير .
وما عرض من التقدير . فافسح لي في رمي هذه القدور . فلعل الله
يأتي منها بشفاء الصدور . فاذن له على كره . وقال ما ارى لاحراق
هذه البروج على يده من وجه . فان الصانع قد ابلسوا والزرايين
العارفين بالصناعة يذسوا فلما وجد الان وزن القدور وعيرها

ورمى بواحدة منها الى احد الابراج في المنجنيق وعبرها واعتبرها
ثم لما استوت رمايته وصحت في الاصابة درايته . رمى بقدر نذفت
لأنار فيها . وهو يصيبها على اعالي البرج ويسقيها ، والفرنج
يعجبون من البلل ولا يدرون بما وراءه من الشعل ، ثم قذف بقدر
ناريه ، متشعبة بكل بلية فوقعت في الطاقة الوسطى ورمى اخرى
فوقعت في السفلى . فاشتعل البرج من طرفيه الاننى والاعلى ،
وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سبعين . فاحترقوا
اجمعين . وبخل اليه ايضا جماعة لاستنقاذ مافيه فاحترقوا
بدروعهم وسيوفهم . وتقلب الجحيم عليهم غيظا لا استبطاء حتوفهم .
وتحول ابن العريف الى مقابلة البرج الثاني . ولم يلحقه في احراقه
التواني ، وانتقل الى الثالث فأحرقه . وما كان ذلك بصنعة منه بل
لان الله وفقه . وما زالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقادا حتى عاد جمرها
رمادا ، وبياض نارها واحمرارها في السماء على الارض سوادا .
واحترقت المجانيق والستائر التي كانت بقربها . (وبهت الذي كفر)
(البقرة ٢٥٨) واسف على نصبه في نصيبها . وخمد الكفار بذلك
الضرام ، وسلوا عما كانوا فيه من غرام . وحبطت اعمالهم . وخابت
امالهم . وركدوا بعد حربهم ، وركنوا الى خزيهم ، وضلوا في
سعيهم . وتورطوا في بغيهم . وسقط في ايديهم بسقوط ايدهم
وحقيق مكرهم بهم ، وكيدوا بكيدهم ، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا
الخندق وسدوا الثغر ، واظهروا بظهور القدر القدر ، وجاؤوا الى
مواضع الابراج واماكنها واستخرجوا الحديد من مكانها .
ونبشوا الرماد عن الزريعات التي انسكبت ، وكشفوا عن الستائر
التي تهتك . فاخذوا ما وجدوا وحصلوا على ما نشدوا وأترب من
ترب من تراث ذلك التراب . وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخراب .
وبردت من حر تلك النار . وشفي أوامها بذلك الاوار . والحمد لله
الذي جعل تلك النار لا وليائه بالبرد والسلام ابراهيمية . وعلى
اعدائه بالحر والضرام جحيمية .

ذكر فصول أذشأتها من كتب البشائر بالنار

صدرت مبشرة بما أجده الله من الجد . وانجزه من الوعد . واجزله من الرقد . واعذبه حال الظما البرج من الورد . وذلك ماظهر يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الاول من الاتفاق الحسن . والنصر الذي يقصر عن وصفة ذوو اللسن وهو ان اصحابنا بعكا رموا بقدر النفط عند العدو المحصور . واحترقوا جميع مالهم من المنخور . واحترقت ثلاثة ابراج كانوا قدموها . ودبابات قربوها . ومنجنيقيات نصبوها . ولهم منذ تسعة اشهر يجمعون هذه الالات . ويستسهلون عليها الغرامات . حتى اقدموا ابراجا اعلى من ابراج السور بضعف سمكها وقربوها ناكية في الثغر المحروس بفتكها . وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها . واطلوا على مناكب البلد اعناقها . فاشفق الاسلام من نكاياتها . واظلت الافاق من غياياتها . وكشفت من البلد جانبا وجبت من سور غاربا . فاقدر الله على احراق ما عمل في تلك المدة المديدة في ساعة ، وامسى العدو بقلوب وافئدة مرتابة مرتاعة . وما افصح ألسن النيران . على تلك الاعواد خاطبه . وما بسط ايديها على من كان فيها من الرجال للأرواح ناهية سالبة

فصل

هذه المكاتب مبشرة بالظفر الذي ورت زناؤه . والنصر الذي قرب ميعاده . وذلك ان اصحابنا بثغرا استظهروا وظهروا . وصبروا فانتهصروا . ورموا من البلد ابراج الفرنج المنصوبة عليه بقدر النفط . وانزلوها من سماء الرفعة الى ارض الحط . واطالوا بها ألسن النار المنصرمة . ودبت من الابراج المقربة الى الدبابات المقدمه . وعلم العدو ان كرتة خاسرة وان يده عن نيل المنى قاصرة .

فصل

هذه مبشرة بالظفر الهني . والنجع السنني والنور اللامع من النار . والنصر الواري الزناد الطائر الشرار . وهو ظهور اصحابنا بعكا يوم السبت ثامن عشرين ربيع الاول . وقد خصهم الله بالنجع الافضل الاكمل وقد كان العدو قدم ابراجه وسلك في المضايقة منهاجه . ولزم في الزحف الدائم لجاجه . فاستظهر الاصحاب عليهم وقت الظهر . ورموهم بقدر الذقط المحرقة من الثفر . فطالت السنة النيران تدعو على اهلها باليوار . وتبدي في تضرعها تضرعها الينا للاعتذار . وشاهد اهل النار ما اعد لهم في سقر . وتلونا قول الله سبحانه فيهم: كذلك نجزي من كفر (٤٣)

(فصل الى الديوان العزيز)

ولما كان ظهر يوم السبت ظهر اهل الجمعة على اهل الاحد ورمي اصحاب المحصورون المنصورون عند العدو وابراجهم بقدر الذقط من البلد فضطبت السنة النيران على تلك الاعواد . بل على تلك الاطواد . والحقها رداء الردي والحققتها بالوهاد . وفرشت رماها لما تم اولئك المراد . فكانت تلك النار على الكفر ضراما . وعلى الاسلام بردا وسلاما . واحتترقت الابراج الثلاثة على معتقدي التثليث . ودبت النار الى الدبابات والمنجنوقات بصدمه المنجنوقات . ودبت النار الى الدبابات . بصدمه التأثير وحده التأثير . وما طول السن النار . وافصحها بالدعاء على اهلها بالتبار . وقد ابدت الى الاسلام بتضرعها وتضرعها وجه الاستبشار . وما احسنها وهي ترمي بشر كالحصر . ويكسو سنني لهبها وجوه المؤمنين بشر النصر . وما قطعها لدابر المشركين وقد خست باحراق تلك الآلات عن البلد اجنحة الحصر . وبسم بعد عبوس البوس باسم الله ثفر الثفر . وقد بغت هذه الفجعة فجأة من

حوتة ذلك البروج . وبخل الى طبقاتها قوم لاطفاء النار فتعذر عليهم الخروج . وهلك فيها اكثر من ثلاثمائة دارع . وخرج من اهل البلد لما حق الفرج كل مسابق . الى الغنيمة مسارع . وكسبوا من الدروع والمناهل والسيوف . كل ما وجدوه خلال رماد تلك الحتوف . وكان القوم قد اعتصموا بالابراج وذوقا بوثاقها . واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقتها . ووصلوا بها اجنتهم . ونخروا فيها اسلحتهم فاخذفت ظفونهم . وسخنن عيونهم . وخسر هنالك المبطلون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

فصل من كتاب الى اليمن في وصف الابراج واحراقها

استنفذ الفرنج اموالهم في عدد اعدوها . وآلات اجدوها . واحكموا ابراجا شامخات ومجانيق شابخات . وزاد غرامهم بالغرامات . واستقلوا على عمل الابراج كثرة الخسارات . ومكثوا مدة على لجاجهم . يطرقون بين يدي ابراجهم . ويمهدون الارض لتسوية مهاجمهم . فلما قدموها بعد لاي . واحكموا باحكامها كل تدبير وراي . واشرفوا منها على سور البلد بأمور ذات أسواء . وجاؤوا بآلات وأدوات أدواء . واشفى البلد من بلائها واشفق . ووجل كل قلب وفرق . واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل . ومداواة الامر الغليل الى ان نشغلهم بحصرنا اياهم عن التفرغ للحصر . وتضرعنا الى الله في انزال ملائكة النصر . فكان من لطف الله ما لم يكن في الحساب . واتى الله المجرمين بالعذاب . والهم اصحابنا ماداووا به المرض . وادركوا به الغرض . واظهرهم ظهر يوم السبت الذي خصهم فيه بالظهور . وأقدرهم على رمي تلك الابراج بالنفط في القدور . وظهر من سر منع الله ما كان في المقدور . فتسلطت النار على عمل اهل النار وتصاعدت زفرات غيظها بانفاس الشرار . ولمع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان وكان كما قال الله تبارك وتعالى (يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (الرحمن ٣٥) وعادت تلك الاكم وهادا . وذلك الجمر رمادا .

وتحللت تلك الجبال وتحلل تركيبها . ولصق بالتراب ترتيبها .
وتذكس منها صليبها . وكانت ثلاثة أبراج شاهقة فلعبت في ملاعبها
النيران فاذا هي زاهقة . وتنقلت نجوم الشعل في تلك البروج . وعجز
شياطينها برجمات شهبها عن الخروج . وتسלט الحضيض على
يفاعها . وباد الدارعون فيها بادراعاها . واضحك الله ثغر الثغر بما
اطابه من ارج الفرج . واخمد باشتعال ذلك الوهج ما اكرب قلوب
المؤمنين من الوهج . وصان مهج أهل التوحيد بما أرداه لأهل
الذليل من المهج .

(فصل)

تقدم المشركون بالابرار الى البلد فقربوا من اسواره . والصقوا
منها جدراناً بجداره . واشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره .
فاظهر الله ما كان خفيا من سر أقداره . واحرق عمل أهل النار
بناره . وكان اصحابنا عاينوا مآذمهم ومهم . وخصهم من
الخطب وعمهم . نصبوا مجانيق بازاء الأبرار . وصدعوها بها صدع
الزجاج . ورموها منها بقدر الذنوب فاشتعلت رؤوسها وشابت
وشبت . ومشت النار في اطرافها واعطافها ودبت . وارسل الله في
تلك الساعة بعذابها ريحا بها هبت . فامست اجنحتها قد حصت
واسنمتها قد جبت . وسقط في ايديها ووجبت جذوبها وكبت على
وجوهها في النار وكبت . فما افصح السنة النيران وقد نادت
بنصرنا والفت منها قلوبنا بما الفت من ذقع غليلها واحبت . والحمد
له على الطافه التي ما غابت ولا غبت .

وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الاحوال التي جرت بحقها
وحقيقتها . وحليتها وجليلتها . فانه يشتمل كل فصل على تمام ما
اغفل في غيره . ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره

ذكر تاريخ وصول الاكابر في هذه السنة

وفي الثلاثاء ثاني عشر ربيع الآخر . قدم عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي بمن استنهضه من العساكر . وكان اول من استقبله حين ظهرت راياته . من العسكر كتابه وقضاته . ثم لقيه الملك المظفر تقي الدين بقل كيسان . ولقيه بعده الملك الظاهر خضرو المعز اسحق ولدا السلطان . فنزل لهما ونزلا له . وتعمدا اعظامه واجلاله . ثم تلقاه الملك الافضل ادنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما اعفاء له من النزول . وتلاقيا بالاقبال والقبول . ثم وصل اليه السلطان بالوجه الضاحك والطف المتدارك . واعتنقا على ظهر . واتفقا على بشر ونشر . وكان الملك العادل تأخر فلقق . وظهر من ارج سجاياه ما بذشره عبق وبجبه علق . وسار مع السلطان باطلا به وابطاله . وحماته ورجاله . حتى وقف قبالة العدو بصافوفه . ووقف عليهم طول الرعب وبطول وقوفه ثم رده السلطان الى خيمته على رسم الضيافة . وترفرت الطافه عليه بالاطافه . ووقف ساعة مع الملك العادل حتى نخل السلطان سرادقه وجلس . وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا اطلس . واكرمه السلطان باجلاسه الى جنبه على الطراحة . وادسه ببشر السماحة والسجاجة . ووقف الامراء والخواص والاولياء صفيين . وانشد الشعراء من المدح والنسيب صنفين . ثم احضرت المائدة فماد نحوها الحضور . وعقد الحبا لهم الحبور . ثم رفع الخوان وارتفع الاخوان . وحسن الخبر والعيان . وخلا المكان وحلا الامكان . فأمر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العرب . وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب . ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض . وواجه العذر عارض . ونزل في خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادلية . وملا تلك المروج بعساكره المليية . ثم وصل من بعده ابن اخيه معز الدين سنجر شاه ابن غازي بن مودود صاحب الجزيرة . بعساكره الكثيفة الكثيرة . وذلك يوم الاربعاء سابع جمادى الاولى . بالأيدي الاطول واليد الطولي . فالتقاء السلطان واخوه واولاده على قاعدة عمه . وأجراه

في الضيافة والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حكمه . لكنه لم يقصر في القاعة عن رسمه . ونزل بخيمته في فناء السرايق العمادي . وقد استكثر من العسكر الجهادي . فكان ذلك المرج بحر امواجه الخيم والمضارب . أو سماء كواكبها ما اشرعته من صمائها الكتائب . أو غيل أسابه في أجسام القنا الفوارس . أو غدير من السوايح حبابه الترائك والقوانس . أو سحب بروقه الصوارم الرقاق . أو وهاد اكامها الصواهل العتاق . ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود . وهو كواله مسعود مودود . وفي شهامته وصرامته مشكور محمود . وذلك تاسع جمادى الاول يوم الجمعة بالمحاسن المتنوعة . والمفاخر الاصيله المتفرعة . والصنائع المبدعة والبدائع المصنعة . وجيشه للقوة ضابط . وجاشه على الحمية رابط . وبأسه ليد الايد باسط وجنانه على الكفر ساخط . وهو شاب اول ما بقل خطه . وابتهج بكماله رهطه . وكان ابوه قد عزم على الوصول بنفسه . وانهاب وحشة الخطب الملم باندسه . ثم رأى المصلحة في الاقامة وتقديم ولد المشكور المشهور الشهامة . فانهض العسكر المجر معه ثم اتبعه بمن حشده وجمعه . فورد ورود السحاب الكنهور (٤٤) . ونور المطالع بسنى السنور (٤٥) واطلع بطلوعه على معنى البأس المصور . واحتفل السلطان بقدومه احتفاله بقدوم عمه . وحافظ من الكرامة على توفير سهمه . وانزله في سرايقه واضافه . وأهدى خيله والطافه . وأمر بانزاله في الميمنة بين ولييه الملكين الافضل والظاهر . وضاق ذلك البر الواسع ببحر العساكر . ولم يبق في اهل السلطان الامن اقتدى به في الاحتفال بقدوم هؤلاء . واعتماد ما قام به البرهان على المخالصة في الولاء . والمسارة الي الضيافة والاهداء . والاعانة الى المكارمة بعد الابداء .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكره على تسيير ولده

الحمد لله الذي نصر الدين بأهله وعجل بأنصاره جمع شمله .
ووفق اسد عرين الملك ان يحمي حوزة الاسلام بشبله . وللمجاس في
طوله اليد الطولى . والمنة الثانية التي اربت على الاولى . حيث حث
همته العليا . وحض لحظ بينه عزمته الماضية المضية . وشرف بولده
علاء الدين من تقلد بوروبه أوفى منه . وتعجل من وفوده أقوى منه .
وأوفى جته . فلقد ورد الى الساحل بحرا . وطلع في ليل القساطل
بدرا . واصفر لمرقبي صباح النصر فجرا . وجلأ وجوه المؤمنين
ببشه اه بشرأ . وملا صدر الاسلام أمنا . وقلب الكفر ذعرا . ثم
وصل زين الدين ويوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل يوم
الاربعاء في العشر الاخر من جمادى الاول . ذو السماح المؤمل و
المجد المؤتل . بجيش كالسحاب للسيل . فدوت اخلاف النصر
بحقول ذلك الحقل . وورد بكل ورد هني . وجدسني . وقدم بكل
مقدام . وزار خيس الجيش بكل ضرغام . وزار بكل اهتمام بالمذون
همام . ووصل بكل واصل لسبب النصر . قاطع دابر الكفر . ووفد
بكل وافد باليمن الوافي . والنهج الكافي . والعز الصافي . والعزم
الشافي . وطلع بكل طالع بالسنى . جامع للمنى . فارع بالفنى .
فارك للخنى . سافك دم الشرك بالظبا والقنا . وكان هذا اول يوم لقائه
للسلطان . واحسن اليه بالاكرام وزاد في الاحسان . وكان يجمع
بين الحماسة والسماحة . والبشاشة والرجاحة . والتودد الى الناس .
والتشدد بالباس . والتواضع مع الكرم . وبنو الود مع علو
الهمم . ماله مبذول . ونواله مأمول . وسيفه على الكفر مسلول . وامره
بالطاعة في رعيته ومن في جملته مقبول . وهو مرجو مخشي . وكريم
هـ شي . ومهيوب مرجو . ومحسن بسنى الحمد مجلو . وكان معه خلق
كثير . في سلك الاتساق ومسلك الاتساع تنظيم نثير . وانزل بقرب
اخيه مظفر الدين في الميسرة . وتمكن الرعب بما تدم من الجمع في
قلوب الكفرة .

ذكر وصول الاسطول من مصر

كان السلطان قد امر بتعمير اسطول آخر من مصر تصل فيه النخيرة والميره . والعبد الكثيرة . فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول . وتم بظهوره النصر المأمول . فركب السلطان في جحافل . وسدد سهام الردى الى العدو ومقاتله . واحرق به حول خنادقه . ليوسع عليه الهلاك في مضايقه . ويشغل الفرنج عن قتال الاسطول . ويسهل عليه بتشاكلهم طريق الصول . فعمر الفرنج اسطولا . وهدف شوانيه على البحر عرضا وطولا . وقدرا أنه يلاقي الاسطول المنصور . ويخطر بسد الطرق عليه وصدها العبور . فجاءت مراكبنا . ونطحت مراكبهم وطحنها . واوهت متنها واوهنتها . واخذنا لهم مركبا واخذوا منا مركبا . وكان تقصير الرؤساء في حفظه لأخذه سيبا . واتصل الحرب في البر الى حين غروب الشمس . وعاد المسلمون بحبور القلب وسرور النفس وقتل من الفرنج عدة وافية . وكلاء الله لنا ولأصحابنا وافية .

ووصفت هذه الحالة في مكاتبة كتبها لتعرف منها
وتكشف القضية المستورة وهي :

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهني . وهناه من النجح السني . واجنى المسلمين من ثمر الظفر الجني . وذلك بوصول الاسطول الثاني المصري المنصور . ظهر يوم الخميس متظاهرا بامداد الظهور . متوافرا بوفود الوفود . وبخوله سالما غانما الى ثغر عكا المحروس المعمور . فاثربلاد بعد انفاضه . واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه . واستجد جنة وافيه . وعصمة وافيه . ونخيرة كافية . وكان الفرنج عند وصول اسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها . وبرزت مناكبها . وهمت بالرجال

والعدج جوانبها وسنمت غواربها ورفعت هضابها وهواضبها .
وسحبت على شبيح البحر سحائبها وادبت الى عقبان اساطيلنا
الحلقة بعقابها وثعابينها وعقاربها . وظننت انها تستطيل على
رواسي اساطيلنا بسواربها وانها تواجه عرائسها الحلوة بحور
جواربها . فلما جاء الحق زهق الباطل ، وصال الواصل ، وحاص
العدو من الحاصل . وانحل تركيب تلك المراكب . وحطت تلك المناكب
بما احاط بها من الدواكب . وتفرقت سفن العدو شذر مذر . وعذر
حين نذر فحذر . وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها . ووجدت
فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتهم . وكانت الفرنج
حملت فيها تجائر ونخائر تطلب ربحها فخرتها .

وصل الاسطول ظهر يوم الخميس ظاهرا خميسه . ثائرا بالأسد
عريسه . في شوان للعدو شوائن . وشلننيات لشله وقله
ضوامن . وحراريق لأهل النار بنارها محرقة . وعقبان مراكب في
مطار العقاب على المجرمين محلقة . وسواري هواضب كرواسي
هضاب . وسحاب يوائق كبوارق سحاب . ومن كل مركب للنصر
مركب . ومفرد من الشدة والبأس مركب . وقطعة لنياط قلب العدو
قاطعة . وقلعة لأساس أهل الكفر قالعة . وتلعة في ذروة العزة
تليعة . وذروة في مرقى الهدى راقية منيعة ، وجاءت في البحر
أمواج في الأمواج . وبخلت الى الثغرافواج بعد الأفواج . وكان
العدو قد أبرز أساطيله . وجهز أساطيله . وشب عواديه
ودواعيه . وأدب عقاربه وأفاعيه . واسمى مناكب مراكبه . وجد في
امهاء غروبه وتسليم غواربسه . ولما وصل الاسطول طال
وصال . ولاح للعدو صده بحيلة حال فحال . وامتنع مراده
واستحال . وأخذ الاسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت
اسبابها . وقصمت من عبة الصليب اصلاها . وخيب حسابها .

فصل

وصل الاسطول الى البلد مستطيلا بالجلاد والجلد . وأثري به
الثغر بعد الانفاض . واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض . وبخل
اليه ماخرج عن حد الحصر . من نخيرة وميرة توجب كثرتها قلة
المبالاة بالحصر . فان الرايات المنصورة علت فجلت في الآفاق
رياضا . والمراكب الاسلامية انقضت فقضت للمسلمين
أغراضا . ووافت ووفت فأعادت جواهرها مراكب العدو
أعراضا . وجاءت سواربها كالرواسي . وجواربها محكمة
المراسي . ومن شيمة حراريقها شيم بوارق البوائق لاهراق أهل
النار في الماء . ومن عمل مراكبها الحاف مناكب الكفار رداء
الارداء . من كل جبل يمر مر السحاب . وضامر يشدد شد
العقاب . وعقاب محلق على الشرك في مطار العقاب . وغراب ناعب
في اعداء الله بين الاحباب . وهضبة موفية على الهضاب . وقطعة
وافية من الكافرين بقطع الرقاب . ومساء حسنها وقد زفت
عرائس . وجلت أوانس . وطلعت بأهل الايمان بواشر وعلى أهل
الكفر عوابس . وعادت بها رسوم مراكب القرنج دوارس . وخلا
وجه البحر من سفن الضلال وتقلص مالها من الضلال . ولما شوهده
الاسطول ساطيا . وجيد النصر منه عاطيا . وأخذ البحر من
الاعداء بحقه . وأشرق سنا النج في أفقه . ركب العسكر المنصور
للقتال وأخذ أهبة النزال . وزحف الرجال الى الرجال . والتقى
الأبطال بالأبطال . وشفيت بدم الكفر غلة المناصل
والنصال . وأحمست البيض الظامئات ورويت من نجيع
الزرق . وبشرت جياح العواسل من اليراع العاسل بعاجل
الرزق . وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح . وفكهم القتل
والجراح . وأقوى الأقوى من الثبات . وبطل بطلهم بما أثنه من
الجراحات . وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب
الشتات . وأدرك المشركين ماقاتهم من الآفات .

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصله

صح الخبر ان ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج . وخطب في تلك المروج بمروجه الخطب المريج . وأنه وصل بجمعه الى مضايق صعب عليه منها العبور . وعمهم في نهضاتهم العثور . فقبل انهم أقاموا في قفار ومواضع شهرا . عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلاضرا . وكان التركمان الأوجيه (٤٦) على طريقهم . يمتنعون بغربهم (٤٧) من تشريقهم . فاضطروا الى المقام بغير زاد . وهم في جهد وضر واجتهاد . فصاروا يذبحون خيلهم وياكلونها . ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها . فترجلت منهم الوف . ورغمت أنوف ، وكان ذلك في البرد الشديد . وزمان الثلج والجليد . فجمدوا وخمدوا . وتجلدوا وتبلدوا . وعدموا دواب لحمل الأثقال . ونقل عدد الرجال . فدنفوا وأحرقوا منها . وتركوها وسالوا عنها . وكان ذلك من الله لطفا . وأمست قوتهم ضعفا . وكانوا في خلق لايعد . وجمع لا يحد ، فما أثر فيهم ذلك النصب . ولا صدهم عن مقصدهم ذلك التعب . ومازالوا يسيرون والأوجية تبدي لهم اللوبال في أوجها أوجها . والأفرنجية لا تنتهي حتي تبلغ الي مالها من منتهى . حتى بلغوا الى بلاد قليج ارسلان بن مسعود . ومسلكها دونهم غير مصدود ولا مسدود . وقليج ارسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه . وهو يدبر امره ويتولاه . ويسومه الاكراه ، فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم . وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم . ثم اندفع من بين ايديهم . وتعدى عن جانب تعديهم . وبخلوا قونية دار ملك المسعوبية . واعتصم قليج ارسلان بقلعتها المحمية . وتراسل وهو ملك الألمان واتفقا في الباطن على ماكان بينهما من المواثيق والايمان . وحمل ملك الألمان له وفرا وفرا . واشبه المسلم بالكف عن الكافر كافرا . ووافقه على العبور الى الاقاليم الشامية . والبلاد الاسلامية . وعلى انه يسير في بلده الى بلد ابن لاون . واعطاه عشرين مقدما من اكابر امرائه ليكونوا معه حتى يصل الى المأمن

رهائن . وامر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه . وان يعاوضوهم من الخيل والعدة بما يرومونه . واقام لهم الاسواق وعرض عليهم الامتعة والاعلاق . فساروا في رقة ورفق وتقوبلا توق . فلما وصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن . وساقهم محمولين مع الظعائن . وتأول عليهم بان التركمان سرقوا منهم في طريقه . ونكث جميع مواليقه ، ووصل ليقون بن اصطفائه بن لاون مقدم الارمن الى خدمته . وبخل في طاعته ، وكان بمفرده خاليا من عسكره بمجرده . وذلك في طرسوس . فتمكثوا بها ليريدوا بها النفوس ، وقيل عن لكب الالمان ان يسبح في النهر . ويميط عنه ماعراه من الوضر والضر . وكان شيخا مسنا قد عاد لكبر سنة شتا . وحسب انه اذا سبح سحب نيل الاستراحة فكان موته في تلك الراحة . وهلكه في تلك السباحة . فانه عام في الماء البارد . وتورط منه في اصعب الموارد . وخرج وبقي مريضا الى ان خرج من ثوب اليقاء وتحول الى فناء الفناء . وتلقاه مالك بالزبانية . وحملوه الى نار الله الحامية . وسمعت نصرانيا يقول في معناه : كنت معه لما سلك فهلك واعجله مالك النار عما ملك . وذلك ان النهر ما كان فيه الا عبر واحد والعسكر فيه متزاحم متوارد . فقال ملك الالمان هل تعرفون موضعا يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور فقال له واحد:ههنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ولا يعبر فيها الا واحد بعد واحد اذا تثبت واستظهر . فبدر الى تلك المخاضة ذات الجرية الفياضة . وبخل الماء فطغى على ذلك الناري الطاغي . واعجل ذلك الباغي عن المباغي . ورماه في جريانه الى شجرة شجت جبينه وجبنت جاشه . وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتعبدوا في اخراجه . وايسوا من علاجه . ومات عدو الله شر ميتة وبلي شمله بدشتيته وحبله بتبتيته . وخلفه ولده على خلاف من اصحابه واجنابه . لما كان الولد الذي خلفه في بلاده وقيل انهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظمه . وتهرى لحمه . ثم جمعوا في كيس عظامه . وراموا بذلك اكرامه واعظامه ليحملوه الى كنيساتهم بالقدس قمامة . ويدفونه على ما كان اوصى به . ولما عرف ابن لاون بهلاكه . وسكون حراكه ، وما جرى من الاختلال والاختلاف بموته . وانه لا تلافي لما

فرط من دلقه وفوته فارقهم الى بعض قلاعه . واتصل الضربهم لانقطاعه . ووصل كتاب من الكايا غيكوس صاحب قلعه الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد . ويقول ويعدد ويدهد ويهدد . ويرى انه ناصح . وللقصة شارح . وان الامر واضح . وان الخطب فظيع فاضح . وان هذا الملعون اول ما خرج من بلده اوصى فيه الى ولده . ثم جاء الى بلد الهنكر فدخله غصبا واوسعه نهبا . حتى اذعن له وانقاد . وبلغ بطاعته المراد وانه اخذ من ماله ورجاله ما اختار ، وتزود من عنده وامتار ، ثم وطىء ارض ملك الروم وداسها . وتوسط بيارها وجاسها وفتح بلادها وملك قيادها . واحوج ملك الروم الى طاعته والزمه بما دخل في استطاعته .

واخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين . ومن الثياب الطلاس المعدنية ما بلغ الالوف وتجاوز عن المئين ، واخذ على سبيل الرهائن اربعين من خلصائه . ومعروفي كبرائه . واخذ كل سفينة غصبا ، وسحب على ذلك البحر في التعصية . من مراكبه سحب . وأنه لما عبر وفرغ من الخروج . تلقاه بالخيول والدواب والابقار والاغنام تركمان الارج . ثم وقع بين التركمان وبينهم ، وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما يرومون حينهم . وهم في طريقهم سائرون . وعلى مقاتلتهم صابرون . حتى قربوا من قونية فاعترضه قطب الدين ولد قليج ارسلان . والتقى الاقران بالاقران . وهزمه ملك الالمان . ولما اشرف على قونية خرج اليه جموعها . وطالت اليه بالحرب بوعها . ثم اندفعت حيث ضم على الروع روعها . وأنه هجم على قونية عنوة . ونال منها حظوة . واقام خمسة ايام حتى استقرت بينه وبين قليج ارسلان قاعدة اكيدة . وحصلت لكل منهما فائدة مهيبة ، واخذ منه رهائن عشرين . ومن اكابر دولته المتميزين . وقدم كتابه الى ابن لاون بالجواز في بلاده ، فتلقاه بما اعد له لارفاده . ونزل حين وصوله الى طرسوس على بعض الانهار ونام ساعة بعد تناول الطعام . ثم انتبه وتشوق الى الاستحمام . فحرك عليه الماء البارد مرضا . وتشكى اياما قلائل مضضا . ثم قضى . وانقرض اربه وانقضى . وخلفه

ولده بعده . واستمال جنده . وكان ابن لاون قد سار قاصدا للقاء
ابيه . فلما عرف موته وجلس ولده اضرب عن تلقية . وعرض
عسكره في اثنين وأربعين ألف مجفف . من كل سرحان أهرت
وذئب اغضف . وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض . وغص بهم
طول الأرض والعرض . وقد لبسوا الحديد الحداد على البيت المقدس
وهجروا الثياب . ولزموا المصاب . وداوموا الاكتئاب ، وهم
صابرون على الشقاء والتعب . لأمل الظفر بالطلب .

ولما بلغت هذه الأخبار . اضطربت الديار . وارتفعت الانجاد
والاغوار . وقالوا هذا جانب لا يطاق . واي جانب قصده عنه لا
يعاق . ولا شك انه يتوسط بلاد الشام . ويذل ثم ثغور
الاسلام . ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام . وعزم السلطان
على استقبالهم بالردى والرد . وصدهم عن القصد . ثم ثبت على
راي الثبات . وتتنظر الاوقات بما يتجدد من الحادثات . وتقلقت
عزائم النين بلادهم على طريق القادم . وانه يعود كل منهم الى
مكانه اخذاً بحكم الحازم . فأول من سار ناصر النين محمد ولد
الملك المظفر صاحب منبج ، ليجمع على طريق العدو ويزعج
ويرهج . ثم عز النين بن المقدم . الباسل المعلم . ثم مجد النين
بهرام شاه صاحب بعلبك . ليجمع ويأخذ على العدر المساك . ثم
سابق النين عثمان صاحب شيزر . الليث الهمام القصور . ثم اليار
وقية اسد الهياج . ونجوم ليل العجاج . ثم رحل الملك الأفضل وقد
عرض له ألم . ثم بدر النين والي دمشق وقد ألم به سقم . ثم سار
الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبتة وبهذا الخبر . ولخوف
الناس فيه انهم على الخطر . حتى غلت الاسعار واستعرت
الغله . وخذلت الاماكن وتمكنت الخلة . ثم رحل الملك المظفر تقي
النين لحفظ ثغر اللانقية وجبله . ويثبت بقدمه عليها الرعية
الخائفة المجفلة . وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من
جمادى الآخرة . ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة . وخفت
الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما . ولحفظ الثوب في اليذك
مستتيما . فانتقل الملك العادل اليها . وجاء الى منزلة الملك المظفر

ونزل عليها . واستقام الترتيب وترتب المقام . واعتز الصادقون
وصدق الاعتزام . ثم مرض أكثر العسكر وخام للوخم . والم بالبعد
للأم . وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب
العافية . مستعقبا لأطاف الله الواقية الوافية ، ووقع المرض في
الفرنج وكان المبيد المبير . والمدني لأصحاب السعير السعير . وعم
فيهم الموت والوبا . وكثر عن ذبواتهم النبا . وتقدم السلطان بهدم
سور طبرية . وهدم يافا وارسوف وقيسارية . وهدم سور صيدا
وجبيل ونقل أهلها إلى بيروت .

عاد حديث ملك الالمان

واما ولد ملك الالمان فانتحس . ومرض اياما في بلد الارمن
واحتبس . وهلك اصحابه جوعا ومنهم من عزم رجوعا ووقع الموت
في خيلهم ، فانن ذلهم بقلوص نيلهم ، وقدم الملك لمرضه . والياث
جوهره بعرضه جموعه قدامه . وساروا امامه . وخرجوا لكثرتهم
في ثلاث نوب ، في بيض وسمر وبيض ويلب . ومعظم رجالهم حملة
عصا وركاب حمير . غير عارفين بطريق ولا متحفظين في
مسير . والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم . ويتألفون على مسالكهم
ويتلفونهم . ووصلوا إلى انطاكية ووصل إليها الملك . بعد ان ضاق
به وبجمعه إليها المسلك . وضاق به الابردنس صاحب انطاكية
زرعا ، ولم يجد لهم عنده مطعما ولا مرعى . وطلب منه القلعة
فاخلاها له . ونقل إليها ماله واثقاله . وسأله ان يجعل طريقه على
حلب فخاف . وابدى له الخلاف . وقبل وصوله إلى انطاكية قلت
جموعه وجذوده . وبلت بحشد التركمان حشوده . واجتازت الفرقة
الأولى منهم تحت قلعة بغراس . فلقيت البوس والباس . وخرج
رجالها عليهم على قتلها ، وصدمتهم ببسالتها ، واسرت منهم زائدا
على مائتين ، وطمعت فيمن وراءهم من الفتتين ، وقيل انهم حسبوا
ان بغراس باقية بحالهما مع الداوية . فجاؤا إليها سحرا بأحمالهم
واموالهم السنية . فلم يشعر إليها الا بالبغال على الباب

واقفه . والجني دان يرقب ان يكون له ايد قاطفه . فخرج اليها
وتسلمها بغير طعن ولا ضرب ، وتخلي عنها اصحابها لما عرفوا
الحال ولم يعرجوا على حرب . فاستغنى الوالي من ذلك اليوم . من
مال القوم . ثم انكر حتى لا يطالب بشيء منه . وغفلت الايام
عنه . وذكر الامير علم الدين سليمان بن جندر في كتابه . انه
انهض جماعة من اصحاب امراء حلب واصحابه . ليقتلوا
آثارهم . ويكشفوا اخبارهم فوقعوا على خلق عظيم منهم
فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم . وانقضوا عليهم انقضاض البزاة
على الحجل . وزأروا فيهم زئير الاسد في النقاد . وزاروهم
بالاجل . واسر كل واحد من اصحابنا ثلاثة واربعه . وتركوهم
متمزقة متمزعه . وعادوا بالاسارى الى حلب وبياعوهم في
الاسواق . وامتلات بالاسلاب منهم والاعلاق . فطابت قلوب
الرعايا . واذنت من الله بما ظهر من الطافه الخفايا . وطمع فيهم
اهل القرى . والتقطوهم من الوهاد والذرى . وما صدقوا بالسلامة
حتى آواهم الابرنس الى انطاكية . وراح من الامهات
الالمانية . وذاابوا في هذه الطرقات ذوبا . وصب عليهم العذاب صبا
اذا اخذوا صوبا . وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم
العسكر . وتبعه الى سقر كبير من ذلك المعشر . وحصل الابرنس
بتلك الاموال المجتمعة . والنخائر المودعة . حتى قيل انه انما رغب
في الوصول الى بلده . ليحصل على سبده ولبده .
فأخلى له قلعه . لينقل اليها خزانته . ففعل ومارجع اليها .
واحتوت يد الابرنس عليها . ثم ساروا على طريق
الساحل . بالفارس والراجل ، وخرجت عليهم خيل جبلة
واللانقية . وسقتهم كؤوس المنية ، واقتهم على البوس
والبلية . فأغذوا في السير حتى وصلوا الى طرابلس وقد نقص
نصفهم . وتم بعواصف البلاء نسفهم . وبلغ امدهم وانتهى
مددهم . وجبن الملك عن المسير على الطريق . لما لقيت جموعه في
طرقاتها من التفريق . فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على
الف . برعب قلب وقصور يد ورغم انف . واختلط مع الفرنج على
عكا فسقط اسمه . وسخط حكمه . وهلك بعد قليل . ولم يحظ

بنقع غليل ، وسألم بذكر حالاته في مواضعها . وذكر مصارف
جماعته ومصارعها .

وكتبت الى الديوان العزيز فصلا بخبر ملك الالمان عند ارجاب الارجاف به

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء . والغمة الغماء . والنكبة
الذكباء . والشدة الدهماء واليلة الليلاء . وهي ان ملك الالمان ومعه
ملوك الافرنجية وحشودها . وقوامصها وكنودها . واحزاب
الشياطين وجنودها ، والوية اللأواء وبذودها . وصل جارا على
السماء نيول قتامة . مجريا في الأرض سيول لهامه . ثائرا بأطلابه
لطلاب ثاره . سائرا بخيله ورجله كالسيل الى قراره . وانه في
عصائب صلبان في عصيبتها متصلبه . واتباع شياطين لارضائها
متغضبة . واسراب سراحين على سرح الاسلام متوثبة . وانه في
مئين من الآلاف الآلاف للمذون . واقطاب الاعطاب الدائرة لدوائر
سوتها رحي الحرب الزبون . وقد اوقدوا للشر شرارا . وأضرمتوا
للشرك الداعي الى النار نارا . فإن حسرتهم على قسامتهم
دائمة . وقيامتهم قائمة . والموت يدعوهم الى المقبرة التي
يدعونها ، والأجال تلييهم لمناياهم التي يدعونها . وكان خبر
وصوله متداولاً على السنة الارجاف . وتشيعه اعداء الله من قبل
للترهيب والتخويف . واستعدت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد
الروم في الربيع . ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع
باتفاق الجميع . وانتظر ورود خبر صحيح . ويقين نبأ بامر
صريح . حتى اذا صح الخبر . سار العسكر ، ثم انقطعت
الاخبار ، وتمادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع اذار . ونيسان
وايار . وكانت كتب سلطان الروم قليج ارسلان وولاده ورسالهم
متواصلة بما ينبيء عن التعاضد . ويبني امر الوفاء والوفاق منه
على التعاون والتعاقد ، وهم بانهاء ما يصح عندهم
واعدون . ويزعمون انهم في رد الواردين وادائهم

مساعدين ، فأخلف ذلك الوعد . وضيع ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الاوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان ، وقالوا: انهم قد توسطوا بلاد الاسلام . وانهم على قصد الشام . ثم ورد الخبر بانهم صالحوهم وصانعوهم ، واخذوا لهم الطريق وادعواهم . ووسعوا لهم في المضايق . وسعوا في أمن طرقهم من الطوارق . وهذا حادث كارث ، وباغت فاجيء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث . وناكب لعقود العقول في تعاظم ضروره وتفاقم خطره ناكث . وقد تعين الجهاد على كل مسلم . وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم . والاهتمام بدفعه من افرض المهام واهم الفروض، والخادم مذفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالتهوض . وهو واثق بان بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه . وان الذي يستبعد من النصر القريب يتساق ويتسع به سلكه ومسلكه . إن شاء الله .

فصل فيه في جواب امير

عرفنا خبر العدو المشؤوم ، الواصل من جانب الروم ، وهذه هبته اهداها الله اليها ، وفضيلة خصنا الله بها حيث اقامنا في مقابلة اعدى اعدائه، واقدرونا على مقاتلة من نازعه في كبريائه ، وقد ساقهم الموت الى المقبرة التي يدعونها ، ولبتهم المنايا التي يدعونها ولا يدعونها ، ومعاقلنا بحمد الله قوية . وصوارمنا من دماء اعداء الله روية ، فيجب ان يكون في جميع اموره محتاطا ، ويظهر بما يغذمه الله من اسلابهم واشلائهم اغتباطا

فصل من كتاب الاستنفار

قد عرف ان العدو الالمانى المخذول قد وصل فما لقعوده عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصره الاسلام من ثمرة السعاية

مجنى ، وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده واوان بذل وسعه وجده واجتهاده ، فانه محضر لا يغيب عنه الا --- ليس له عند الله خلاق ، وموقف يفي بعهد الله فيه من سبق له ، معه في السعادة ميثاق ، وانها لغنيمة اوفدها الله علينا . وهدية اهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها واسعدنا بسببها ، بل هي بلية جلوجه النعمة فيها ، بل قضية وفي الله في النجاح بموعد توافيها ، بل ملمة اختارنا الله لدفعها . وطاغية استدعى اوليائه لقمعها . وثائرة كلفنا الله باطفاء جمرها . وارداء جمعها . قلينهض نهوض الكريم الى مساعدة الكرام . وليخطب اهتمام العظيم بملاسة الخطوب العظام . وليثب وثوب الاسد على الفريسة . ولينتخ للاسلام انتحاء ذوي الانفس الابية والهمم العلية النفيسة . وليكن اول سابق في مضمار الجد . واسعد طالع في افق الجلد . فان الاسلام في انتظاره . والمطالع مستشرق الى اشراق انواره . لازالت الاقدار جارية في اسعاد الدين والدولة باقداره .

فصل من كتاب

قد احاط العلم بما عرا من المالم . وعرض من الخطب المدلهم ، ووصل من العدو السائر . ونزل من النازلة التي هي ام النوازل . والدائرة التي هي ام الدوائر . وقد أن للاسلام ان يسلم . وللإيمان ان يعدم . وللتأليث ان يعلن . وللتوحيد ان يكتم . وللکفر ان يقدم . وللهدى ان يحجم . فقد قذف البحر من الفرنج بزبدته . والبرأتى آتیه من كل بلد للکفر بسببه ولبدته . ووصل الالماني المخذول بعده وعدده . وهذا خطب قد دهم . وعدو قد هجم . وشرق نجم . وجمر داهية قد وقد . وجمع طاغية قد وقد . في جيوش جائشة . وجموع طائشة وجنود محشوره . وبزود مذشورة . وخیول مجفجه . وسيول مجدحه ، وهذا اوان تحرك ذوي الحمية . ونهوض اهل الهمم الابية العلية . فان القوم في كثرة ولايقاتلون الا بالكثرة .

وهم مغتربون بعلوهم . معتزون بعثورهم . مستنون في طريق العثرة
والسيل اذا وصل الى الجبل الراسي وقف . والليل اذا بلغ الى
الصبح المسفر انكشف . والمجلس اولى من تولى تفريج هذه
الغمة . وكشف هذه الملمة حتى تخلف امانى الالمانى . وتبطش
ايمان الايمانى . وتخذل انصار النصرانى . وتجنى وتبر رؤوس
الجنوى والبيزانى . فاين المؤدون فرض الجهاد المتعين . واين
المهتدون في نهج الرشاد المتبين . واين المسلمون وحاشي ان يكونوا
للاسلام مسلمين . واين المقدمون في الدين ومعاذ الله ان يكونوا في
نصرته على الموت مقدمين . ولولا التقيد بهذا العدو الرابض .
لأطلقت اعنه النهضة الى العدو الناهض . ولا بد من لقائه قبل تلاق
الجمعين ، واراة الملاعين وجوه حدوفهم ملء العين .

فصل فيه

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق . وزحف الى الحق الثابت باطله
الزاهق . وجال بالوجل وجاء بالوجيب . وثار لثار الصليب
السليب . وقد جمر جمعه . ورتق فتق الصبح رقع ذقعه .
وماض القضاء ختام قتامة . حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل
الضلال بظلامه . والرجاء محقق ان الالمانى مخفف بالامه .
والاسلام مشفق من اسلامه . والدين موفق بنصرة امامه . وعصمة
الله الواقية الوافية من ورائه وامامه . والله الكافل باعلاء اعلامه .
واحكام احكامه .

ذكر الواقعة العادلة

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد . وانه ملا
احشاء الربا والوهاد بالاحشاد . قالوا انه اذا جاء لايبقى لنا
حكما . والصواب ان نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما . لاسيما وقد

خفت عساكر الاسلام . وقفل اكثرها الى الشام . فحنن ننتهز
الفرصة . ونحرز الحصه . ونهتبل الغره . ونهجم عليهم هذه
الكره . ونذيقهم المرة المرة . ونفرغ من شغلهم قبل مجيء القادم .
ونمت بعز العزائم ونقل حدودهم بحدود الصوارم . فخرجوا ظهر
يوم الاربعاء العشرين من جمادى الاخرة . في حشر يذكر بحشر
الساهره . واسود بياض النهار من سوادهم . وتراءت الاجام لنا
متوافية باسادهم . وامتدوا الى الخيم العادلية ، واشتدوا بما
استصحبوه من البلية . في كل نثب امعط . وسيد قد تورط .
وسرحان سرح . واقفوان كلح ، وجهنمي تجهم فهجم ، وجحيمي
أقدم وما احجم ، وسعيري ناري استعار خدمة النار . وسقري
قسوري عاد بعادة الاقتسار . وباروني طالب للبوار . واسبتاري
راغب في التبار ، وداوي معضل الداء . وتركبولي غير تارك للبلاء .
وسرجندي كزار . وفريري غير قرار . وفارس يفرس الرجال .
وراجز يرجز الفرسان الابطال . وازرق رزقه الموت الاحمر . وانمشي
يمشي واليوم اغبر . واشقر وهو اشقى . وابقع اذا غوى في الوغى
ماترك ولابقى . وبخلوا الخيم العادلية وتجاوزوها . وقد كانت
اخليت قبل ان يجتازوها . ووقف الملك العادل بطلبه . وعن يمينه
ويساره امراء الميمنه الذين بقربه . مثل صارم الدين قايمان النجمي
وعز الدين جريك النوري . وجماعة من المعروفين بالشهامة .
والموصوفين بالصرامة . ولبت الملك العادل لبث المخادع المخاتل .
حتى يطلع من العدو على المقاتل . فقادتهم الاطماع الى الانتشار .
وافضى بهم الاعتزاز الى الاغترار . فحينئذ بدأ بالحملة ولده الاكبر
شمس الدين مودود . وهو في كل وقعة يحضرها جاد مجدود .
فعضده والده وولده مساعده وساعده . وحمل معه العسكر الحاضر .
قبل ان تتصل به العساكر . فكسر الفرنج كسرة فرشهم على
الارض وذكرت الواقعة العارضة بوقوعهم في النار يوم العرض .
وكانوا قد بعدوا اكثر من فرسخ . واجفلوا ولم يلتفت اخ الى اخ .
وركبت العادلية اكتافهم . وقلوا فيهم اسـيافهم .
وعقروهم وعرقوهم وبجـوهم وبـعـجـوهم . وحكموا في الرقاب
الغلاظ منهم الرقاق . وضربوا ممن اعنقوا اليهم الاعناق . واشبعوا

اللتوت من لحوم الليوث . وبثوا بعوث المنية في تلك البعوث . حتى
رتعت في كلا الكلى صوار الصوارم . وارعد وابرق بصواعق بوائقهم
غمام الغماغم . وتعلقت بذوائبهم ذوائب الذوابل . ووصلت بهم الى
النجاح منى المناصل . فلم تترك اللهازم لها ذماء . وغادرها شلها
بالعراء اشلاء . ورأيناها كانها اعجاز نخل خاوية . وما احسن
اجسام اهل الهاوية وهي هاوية . فكم جثة بلا راس . وبنية بلا
اساس . ونحر قد نحر . ودم قد انهر . ويد قد بقت . وكبد قد فقت .
وعنق قد قطع . وانف قد جدع وودج وجد مفريا . وظهر قد ظهر
مبريا . وحلقوم قد حلق . وغلصوم قد فرق . وداوي قد دوي . وبالم
روي . وصلبي كسر صلبه . وقلب على صدره قلبه . وحربي اتاه
الحرب . وغرب في نبع عينه النبع والغرب . وكان السلطان قد ركب
وخشي أن جانب الميمنة نكب . وسير جماعة من كمأة الممالك
والامراء على مقدمته . وانتظر الميسرة لتنهض في خدمته . فوصل
الى الوقعة سذقر الحلبي في العصبة العزيزية . وفاز من الفوزة
بالحظوة السنية . وجاء علاء الدين ابن صاحب الموصل في اثناء
المعركة . فعرف بركة سرعة تلك الحركة . لانه اخذ حظا وافرا ولقي
من النصر وجهها سافرا . وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجال
الميسرة احد ولم تمتد منها الى قتال الكفرة يد . ووصل السلطان
وشاهد من مساهم الفرنج ماسره . وعرف لطف الله وبره ونصره .
وعاين هنالك مصارع الاعداء . ومشارع البلاء . وكانوا مفروشين
في م-----دى ف-----رسخ

على الارض . وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل الى البحر
بالعرض . وكل صف يزيد على ألف قتيل . وشاع القتل من الافرنج
في كل قبيل . ولما وصل السلطان رأى عماد الدين وابن زين الدين
وامراء الميسرة قد عزموا على الدخول اليهم . والهجوم عليهم .
فانهم ندموا على ترك الاسراع . فراموا اتباعهم ليأخذوا بنصيب
الفتك بهم والايقاع . فصدهم السلطان وردهم . وشكر عزمهم
وقصدهم . وأشفق من مضرة تشوب . ومعة تنوب . فان الدائرة
كانت على العدو . وقد فاز بالنصر الحلو . والصفو المرجو . وكانت

الذوبة بلا نائبة . والغزوة بلا شائبة . وقتل منهم زهاء عشرة الاف . ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة . فاغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسره . ولما عرفت بالواقعة . والنصرة الجامعة . صدرت ثلاثين اربعين كتابا بالبشارات . بابلغ المعاني وابرج العبارات . وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره . ولارى البشائر شائره . وركبت انا والقاضي بهاء الدين بن شداد . لمشاهدة ما هناك من اشلاء صرعي واجساد . فما اعجل ما سلبوا وعروا . وفروا وفروا . وقد بقرت بطونهم . وفقت عيونهم . ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة . وسمعتها وهي خادمة بالعبرة قاذلة . ومازلنا نطوف عليهم ونعبر . ونفكر فيهم ونعتبر . حتى ارتدى العشاء بالظلام . فعدنا الى الخيام . واخذت الكتب التي نمقتها . بالبشائر التي حققتها . وجئت واذا السلطان قد استبطاني . وعدم اجابتي لما دعاني . فما صبر ولا انتظر . ولا ترقبني ان احضر . ولا مهل ان اعطي البشارة حقها . واجلوا بانوار المعاني افقها . وابلغ بالبلاغة مداها . واسبق بتقليص الضلالة ثوب هداها واصف بحدود الاقلام ما صنعت حدود السيوف . واروج نقودي عند السلطان واغنية عن الزيوف . فابصرت عنده مشرفي المطابخ والايات . ومدوني الجرائد بالاثبات . وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفة . بعبارات سخيفة . وقد عطلت الحسناء من حليتها . وعروها من بزتها . وشوهوا جمالها . واحالوا حالها . فذهب بها المبشرون . وسار القاصدون . فما كان لتلك الواقعة عند من وقف عليها وقع . ولا تم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع . وارادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسوها . ولو وردتهم بزيينة عبارتي وبراعتي زينوها . وفي تلك الحالة التفت السلطان الي وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد . وعجل بها الانفاذ . فقلت على سبيل العتب انتم ما تريدون ما يكتبه . ولا ترغبون فيما ارتبه واهذه . فقال كانك كتبت البشائر فهاتها . حتى تهدي الى طرقاتها . فقلت ما فات فات . وهيها هيها . واخرجت له ما بقي من بشارات البلاد التي انشأتها . بالالفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها . فسارت فسرت البعيد والقريب .

وخصت من جدها بالخصب الجيب . وصحت باسجاعها المناير .
وصحت بسماعها المفاخر . وظهرت بعباراتها العبر . وبهرت
بزبرها الزبر . وعمرت بمعانيها المعاني . وعمت مباهجها مناهج
الاقاصي والاداني فما اصحها كسره . وما اسحها نصره . وما بينها
محجه . وما اثبتها حجه . وما أفرجها مسرة . وما أسرها فرجه .
وما أبرحها بالكفر صرعه . وما أوضحها للاسلام شرعه .

فصل في ذكر حالهم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الاكابر . ومفارقة عدة كثيرة
من العساكر . خرجوا متجاسرين . وامتدوا متقاطرين . وانتشروا
متغاورين . واغاروا الدواء اللواء ناشرين . ووصلوا في الميمنة الى
الخيم العادلة فاخلت حتى بذلوها . وتفرقوا فيها بجموعهم
وتخللوا فركبنا اليهم . وحملنا اليهم . وتركناهم صرعي بالعراء .
فوضى بالقضاء . فما بكت عليهم الارض ولا السماء . ورويت
السيوف من دمائهم . قبل ان تشيع الوحوش من اشلائهم . وظهرت
لنا نعمة الله في بلائهم . وحبى الاسلام بهلاكهم . وضمتهم اشراك
الردى برداء اشراكهم . وانجلت المعركة عن اكثر من عشرة الاف
قتيل كافر . وثبت حكم ادالة الاسلام وظهوره باوضح دليل ظاهر .
ولو اتفق خروجهم من مراكزهم باسرههم . لكننا فرغنا من شغلهم
واخلينا بالناس بتأييد الله من امرهم . والآن قمع انطفاء جمرتهم .
وصحة امزجة العزائم بكسرتهم . وتطرق القلة الى كسرتهم . نرجو
من الله ان يسهل امرهم العسير . ويهون خطبهم الخطير . وان
ظهورنا عليهم قطع ظهورهم . وعذور هذه الواقعة بهم حقق
عذورهم والله تعالى يحقق تبارهم ويجورهم .

فصل فيه

وصلوا الى الخيم العادلية في الميمنة الميمونة . واشتغلوا باستباحة احوالها المصونة . فاطلقنا عليهم الاعنة . وشرعنا الى نحوهم الاسنة . وبعنا الذفوس لنتسلم ثمنها الجنة . وفرشناهم على الارض . واربنا باردائهم بعض الفرض . وانجلت المعركة عن عشرة الاف قتيل مشرك . وشملتهم المذون فكانهم جاؤوا على موعد مهلك . واروينا من دمائهم ظمأ السيوف . وجعلنا اشلاءهم قرى الودوش لا الضيوف . وامن الاسلام بحمد الله من الخوف . وادرك الله باخذ ارواحهم رمق الدين الملهوف . وهذا دليل ظاهر على ركود ريحهم . وخمود مصابيحهم .

فصل

حملت عساكرنا عليهم . واحاطت بهم من حوالهم . ورضتهم بالدبابيس واللثوت . وتركتهم مسرعى بتلك المروت . وساحت بتلك الساحة دأماء الدماء . واكتسى عربى العراء بتلك الاشلاء . وافضى بذلك الفضاء جمرهم الى الانطفاء . وامرهم الى الانقضاء ورتعت ثعالب الرماح من كلاء كلاءهم في المرعى . وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة الاف . فترى القوم فيها صرعى . وطابت من نتن جيوفهم ربح النصر . وحننت من سماجة مراهم وجوده الدهر . والآن الآن الله شدة شكتهم . وقط شوك شوكتهم . وهبت زكباء زكبتهم . ونرجو أن يسهل من امرهم ما تصعب ويؤلف بصدعهم من الاسلام ما تشعب .

فصل

وصلوا الى الخيم العادلية فدخلوها • وتفرقوا فيها بجمعهم
وتخللوا • وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر • وتموج بحارها
الزواجر • فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الامراء
والمماليك كولنا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايمان النجمي
وبشارة وجريدك وعطفوا عليهم عطفه صددتهم عن
الانعطاف • وصرفتهم عن الانصراف • وثارت اثارهم بدواتر
البواتر • واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الاسرار
بالحوافر الحوافر • وفضتهم بالقضاء وعرتهم من كسوة الحياة
بالعراء • ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم • واتى القتل على
اولهم وآخرهم • وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف
قتيل • ملأت كل واد وسدت كل سبيل • وقد ذلت عزتهم وضعفت
قوتهم • وعجزت قدرتهم • ولما انقضت هذه الواقعة • وثم
للهاضين اليها الرجعة • رأيت احد مماليكي ونصله قد
خضب • وعزمه قد رضي بعد ما غضب • فسأله كم قتل • والى
اين وصل فقال: اما انا فما أبقيت • وخضت البحر وما
توقيت • وهذا غلامي قتل تسعة • وشام من عارض نجيعهم
نجعة • وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا اقل من الف فقتلوا
اضعافا مضاعفة • وعدموا ممن وراءهم مساعدا
ومساعفة • وحكي من زواجر هذه الوقعة ان فرنجيا عقر فجشا
للبرعه • فعثر به راكب برزون • بغير رفيق ولا عون • فعرقب
الفرنجي فرسه بسيف في يده • فنزل بجده مستنا في جده • وقتل
ذلك الفرنجي وروى من دمه الهندي • وحل من وسطه ثمانين
دينارا • فانقلب ربحا ماعده خسارا. وامتلات الايدي بالاسلاب
والاكساب • وحصل من العدد ما لم يكن في الحساب • وبيعت
الزبديات ذوات الاثمان بالرخص ، وزادت ارباح اهل السوق بذلك
النقص

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ورد في عصره نجاب من حلب بعد خمسة ايام . بكتاب يتضمن نجاح كل مرام . وبخبر بان عسكريا مجرا من الكفار خرج للفارة على الاطراف والاقطار . فخرج اليه العسكر واخذ عليه الطريق ، وطلب ذلك الجمع في الهزيمة المضيق . فلم يصح لهم رشد في منهاج . ولم ينج منهم ناج . فعضد ذلك الخبر هذا العيان . وقاموا بهوان الكفرة البرهان . وسر الخواص والعدوام وخص وعم السرور . وانارت المطالع وطلع الدور . وشرع الفرنج في الخداع . والمراسلة في امر للجانبين عام الانتفاع . وسألوا في الصلح . والخروج من ليل الحرب في السلام الى الصبح . واذن لهم السلطان في الخروج . للنظر الى اولئك الصرعى بذلك المروج . وهي قد تورمت وأنتفتحت وجافت ، وحميت الشمس على جيفها وحافت . وضافتها القشاعم والخواص وعليها اطافت ، فساءهم ما سرنا ، ونفروهم ما اقرنا .

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهري
بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط
اشفاقا من التفريط والافراط

وما زال الفرنج في وهن وضعف ، وتوزع بينهم وخلاف ، حتى وصل في البحر . كند يقال له هري . وهو عندهم عظيم القدر . فكمل بمن وصل معه نقصهم . واحيا بعد موت نفوسهم حرصهم . وافاض عليهم بالاموال . وحلى منهم بعد عطلها الاحوال . ورصع بالرجال مراكز من هرع . وقرع السن ندامة على من قلع وقرع . وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع . فقد كان العزم بل الحزم ان نبادرهم على ضعفهم . قبل ان يمددهم البحر بضعفهم . فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتواني فيما تعين تنميته . ولما وصل هذا الكند وتمكن . وقوى اهل الكفر بكل ما امكن . اظهر انه يكبس عسكريا ليلا على غره . وبدت منه امارات

كل شره وشره . وشاع هذا الخبر على السنة الجواسيس والمستأمنين . فاحضر السلطان أمراءه وخوادمه المؤمنين الميامين . واستشارهم فيما يقدمه من الصواب . ويفتحه في المصالح الراجعة من الأبواب . فاشاروا بإسراع الحلقة . وإدارتها بالمنطقة . والتفيس عن العدو بالتأخر عن قربه . حتى يؤنس الى الخروج لحربه . فوافقهم السلطان على هذا الرأي وحسن في قلبه . فرحل يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة الى منزله الاول بالخروبة . واشتغل بالتدبير في الفوز بالنصرة . ونزل العسكر على تلك الهضاب وحوالي سفوحها . واحتوت كل جثة خيمة ممن حل فيها على روحها . ورتب اليك في المنزلة الاولى كل الف فارس بالنوبة في يومين . وضويق بأهل الصدق منهم أهل المين . وتدبر الترتيب وترتب التدبير . وعرف في اليك اوقات ذوبته وأوبته الصغير والكبير . وأما عكا فالكتب مترددة اليها ومنها السباح . والحمام اليها ومنها تحمل البطاقات على الجناح ، والمراكب تدخل اليها وتخرج ، واليها وعنها تعرج وتعرج . وأخبار ملك الالمان متواصله . بأن انصاره له خاذلة . وأنه ضعف وهى . وأنه الى انطاكية انتهى . وأنه تعرج هناك . وتوقع من مرامه الادراك . وتوقف عن المسير . واعتاض التعسير من التيسير . ووقع الفناء في جمعه . وتعجل قمعه قبل ان يصل الى محل قمعه . وأنه قد اشتغل بالانفاق في رجال الاستجداد والاستجداد . والاحتشاء والاحتشاد . وان اصحابنا يأسرونهم ويتلفونهم ويتلقطونهم . من الطرقات ويتخطفونهم . ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا . ويجمع قطافا ونطافا والطافا . ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة . وأنه مستمر على المودة راغب في المحبة . ويعتذر عن عبور الالمانى . وأنه قد فجع في طريقه بالالمانى . وأنه لاقى من الشدة . ونقص العدة . ووصل المشقة . وقطع الشقة . ما أضعفه وأوهاه . وألهبه وألهاء . وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو يذفع . ويكون مصرعه هناك ولا يرجع . ويمت بمابه كاده . وأنه بلغ في اذاه اجتهاده . ويطلب رسولا . يدرك به من

السلطان سولا، فأجيب في ذلك الى مراده . ووقع الاعتماد بما ذكره من اعتدائه .

ذكر حريق المنجنيقات

وفي رجب من السنة انفق الكندهرى بعد وصوله ما وصل معه من المال والرجال . فأعطى عشرة الاف راجل في يوم واحد ليجدوا معه في القتال . وضايق مدينة عكا اشد مضايقة . واخذ القومص والكزود بذلك . موافقه . ونصب عليها كل منجنيق . من الرمي غير مفيق . رجومه للشهب بالشياطين . ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر الى سماء الدين . فهي مجانيق مجانين . وميادين ثعابين . ومسارح سراحين . فاشتد على اصحابنا بالبلد وقعها . واحتد على صدقهم صدقها . وقالوا كيف نجد من مناصبها المناص . وهل نلقى من شؤم خصائلها الخلاص . فأجمعوا على الاقدام وأقدموا على الاجتماع . وأخذوا بالارتياء في ترك الارتياح . وخرجوا بالفارس والراجل . وأمروا بالحق أمة الباطل . وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والاستائر المضروبة الى خيامهم . وخلفوها من ورائهم واللقاء من قدامهم . فلما خلت المنجنيقات ممن يحميها . خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها . فاحترق جميعها . وغرق في بحر النار صريعها . وقتل في ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا في اللقاء . وقطع الواصلون اليهم عليهم طريق البقاء . واسر منهم خلق كثير . من جملتهم اربعة من المعروفين فيهم فارس كبير . فما أمهلوه حين أخذوه . حتى قتلوه ونبذوه فطلبه منهم الفرنج بالاموال . ولم يعرفوا بال الحال . فأخرجوه اليهم قتيلا . فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا . فباتوا يندبونه ذوحا ، وينيعون سر تقدمه فيهم بوحا . فخدموا بعد ذلك الضرام . وركدوا بعد هبوب ريح المرام . وضربت عليهم الذلة . وشجتهم عقودهم المنحلة وعقولهم المعتلة . وطمع فيهم الناس . وعرا طمعهم الياس . وصارت الخنادق تهجم . والاستائر تهتك وتضرم والحدود بالمصال تثلّم .

- ٦٠٦٣ -

والخدود بالنصال تلثم الى ليلة شعبان من السنة . فأبّت بالحالة
الحسنة . فان اصحابنا خرجوا على غرة . ومضوا الى القوم بانكاء
مضرة . وأحرقوا منجنيين كبيرين قد نصبوا بعد كل استظهار .
وانفق على أحدهما كند هري ألفا وخمسمائة دينار . وكانت الليلة
الاولى من شعبان مباركة . ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها
متداركة .

ذكر وصول بطسة بيروت في العشر الآخر من رجب

قد تواربت الشكوى من البلد أن النخيرة قد فنيت . وأن الأفكار
باستدعائها عنيت . وأن الأجسام لفقدان قوتها ضنيت . وأبطأ على
السلطان وصول البطس المستدعاة . من مصر بالفلات . فرأى ان
ذلك من تقصير الولاة . وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا . ويجعل له
اجلا موقوتا . فكتب الى والي بيروت عز الدين سامة . ان يهجر في
كل مابه عز الدين السامة . ويعطي ويتزكى ويحتال في انفاذ ميرة
الى عكا . فعمر بطسة كبيرة وأعدها . وأجد من عزيمته الماضية
فيها جدها . وتولاها بخلق سمح . وملاها بأربعمئة غرارة قمح .
ونقل اليها أنواع الطعام . واصناف الأدام . وقطيعا من الأغنام .
وهذه بطسة من الفرنج مأخوذة . وهي بساحل بيروت مندبونة فأمر
السلطان بترميمها وتتميمها . واخفاء البقية منها وتكتميمها .
وأزيحت منها العلة . ونقلت اليها الغلة . ومأنت بالشحوم والحدوم .
وبكل ماتدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم . وحمل فيها من
أحمال النشاب والنقط ما جمع به فيها بين القوة والقوت . ورتب
فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت . وأرادوا ان تشتبه
ببطس العدو في البحر . وأن لا ينكشف للفرنج مالها من السستر
فتصوروا رهبانا . وصوروا صلبانا . ومسحوا لحاهم ومسحوا
حلاههم . وتملطوا وتكوفوا . وتشبهوا بهم في كل بزة لثلا يتخوفوا
وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها في البحر بمراكب
الفرنج مختلطين . والى محادثتهم ومجاذبتهم مندسطين . والقوم

- ٦٠٦٤ -

لجهلهم لا يشكون انهم من اهلهم ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث .
وتصور الطيب بصورة الخبيث . ولما حازوا بها عكا صوبوها
نحوها والرياح تسوقها . والفرنجة تدعوهم من مراكبها وتقول ماهذه
طريقها . وهي كالسهم النافذ قد سد فوقها . وقد عقت رفقته .
وهي تكاد تعوقها . وقد دخلت الثغر وأدخلت اليه كل خير . وعجب
الناس منها ومما تم لها من حيلة في سرها . واجتزا البلد بها
شهرًا . ووجد منها لكل كسر جبرا . يالها من لطيفة قضينا منها
الارب ولم نقض منها العجب .

ذكر وصول بطس الغلة من مصر الى عكا ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قد كتب الى النواب بالاسكندرية على وجه
الاستظهار بأن يشرعوا في تجهيز البطس الكبار . ويملاوها بالغلات
واصناف الاقوات . ويعمروها بالكماة الحماة الرماة . ويرسلوها
عند موافقة الرياح الى الثغر . فان خلصت اليه ولو واحدة منها أغنته
بعد الفقر . وتمادت الايام على هذا الأمر . واستبعد وصولها مع
امتلاء البحر بمراكب الكفر . وكاد اليأس يغلب . والرجاء
يضطرب . ووردت كتب اصحابنا بعكا انه لا يبقى لنا ليلة نصف
شعبان قوت . ولا شك ان كتاب اجلنا الى هذا الامد
موقوت . فاشفقت النفوس واستشعر البوس . وامت القلوب وألمت
الكروب . ولجأنا الى الله الذي يجيب المضطر اذا دعاه . ولا يخيب
من رجاه . ولا يضيع من استرعاة فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع
عشر شعبان ظهرت من أقصى اللجة تلك بطس كأنهن الاعلام
واستبشر بظهورها الاسلام . وقد زفت عرائس جواربها الحسان
وخفت رواسب سواربها الثقال . وذكرت بقوله تعالى: (وهي تجري
بهم في موج كالجبال) (هود ٤٢) والرياح تطردها طرد النعام .
فما يرسلها على رغم أهل النار الذين هم أضل من الانعام . فما

- ٦٠٦٥ -

تراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشوانيتها . واحاطت بها
تقاتلها من اقاصيها . وأدانيها . وهي تشق عليها وتشققها .
وتعوقها عنها وتعيقها . حتى برت منها البر الإيمان الأيمان .
وهزأت بتلك الأكمات المطيفة بها جبالها الرعان . وعبرت والكفر
خزيان ينظر ، ونهضت بالعز والعدو في نيل الذل يعثر . ووصلت
الثلاث وهي سالمة ، والمثلثة راغمة والموحدة غانمة . وقد فرج الله بها
غمة الثغر . ودفع ما ألم به من الضر . وحمنا الله على الموهبة التي
أدركت الأرماق . وأدرت الأرزاق . وتلافت الأرواح من التلف .
وحملت عن النفوس المشفية مشاق الكلف .

فصل من كتاب الى سيف الاسلام في هذا المعنى

كان كتب الينا اصحابنا بعكا اننا حسبنا وإلى ليلة نصف شعبان
لا يبقى لنا شيء نقاته . وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فواته . فبينما
نحن في هذا المهم مفكرون . ومن هذا المهم متذكرون . اذ ظهرت
للعيون بالقرة . وللقلوب بالقرار والمسرة ثلاث بطس على ثبج البحر
مستقرة . يبعثها لطف الله بعثا . وتحثها الريح القوية حثا . كأنها
جبال باقبالها تروع وندسور اجنحتها القلوع . وشعر الفرنج بها
فضاقت مذاهبها . وبرزت مراكبها . ودبت عقاربها وقربت من
البطس شوانيتها . وقويت في البطش أمانيتها . وحمى ما فيها من فيها
من الرجال . وهي تجري بهم في موج كالجبال . وكأن جواربها
عرائس يزفن بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثوب بتلك
الأعلام المنشآت معلم الطراز . بل كأنها تجار تحمل الصدقات الى
ذوي الاعواز . فجاءت فجأة متسقة موسقة . وأتى الآتي بها موافقة
موافقة . فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شيني شاني . وكانت
كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كالي . وجازت والكفر خزيان
ينظر . وفازت بالعز والعدو بنيل الذل يعثر . وكان وصولها أو ان
انفضاض الأزواد وانفادها . فملأت المدينة بغلاتها . وأزواها .
وعصمت أرماقها . ودسمت أرماقها . وقسمت أرزاقها . واشبع

- ٦٠٦٦ -

جوعها . وشبعت صدوعها، وأنالت آرابها . وأزالت أجداها .
وخصتها بخصبها وصحت لها بسحبها . فأفاقت من الفاقة وأفرقت
من الفرق . وسكنت بعد القلق .

وعاد اليها بعد الفسق أسفار الفلق . والحمد لله المغني بعد
الاعدام . المنني السني بعد الاظلام . المنفي بأوليائه اعداء الاسلام

ذكر عيسى العوام وما تم عليه في العشر الاخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوام . وقد تردد بالكتب والنفقات الى عكا
ومنها في ذلك العام . وكان ناصحا امينا . يحفظ الاسرار ضمينا .
يسبح ليلا في البحر . ويعبر على مراكب اهل الكفر ويصل بما معه
الى الثغر . ولكم خاطر بنفسه فسلم . واعتورته اسباب المتالف
والالام فما الم . واتفق انه عام ذات ليلة غير مكترث بما في طريقه
من اخطار . وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها الف دينار ومعه من
نفقات الاجناد ودائع . ومحقرات بضائع . فعدم ولم يسمح له خبر .
ولم يظهر له اثر . فظنت به الظنون . وماتت تحت المنون . وكانت له
لاشك عند الله منزلة . فلم يرد ان تبقى حاله وهي مجملة محتمله .
فوجد في ميناء عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها . وانهب حرق
اليقين من الظنون بباطلها . وبراه الله مما قالوا . واحال الذي عليه
احالوا . فقد وجدت على وسطه تلك الاكياس . وتعجب من حاله
الناس . فلم يذهب بنهايه الذهب الذي صحبه . وطهره الله من
الرجس وعنه انهب .

ذكر وصول ولد ملك الالمان الذي قام مقام ابيه الى
الفرنچ بعكا

ذكرنا حديث الالمانى ولم حادثه ، وما اداه اليه من دواعي كفره
وبواعثه . وكان مسيره من انطاكية يوم الاربعاء خامس عشرين

رجب . ولقي في طريقه على اللاذقية الشجى والشجن والشجب . وانن ضعف خيلهم . بضعف ويلهم . ووجدت لهم مابين اللاذقية وجبله ستون سبعون فرسا قد عطيت . وعلى اعواد عظامها سواد الغرايب خطبت . وقد استقبله المركيس . وقصده التانيس . وان يهديه بضلاله الى الطريق التي تؤمن طوارقها . ويتسع عليه مجال الامن وان سلكت مضايقتها . فوصل به الى طرابلس في العشر الاول من شعبان . ووصل خبر وصولهم في سادسه الى السلطان . وحزهم من شاهدهم في الطريق بخمسة عشر الفا . وسمعنا في حزرهم بالقليل والكثير خلفا . ثم انتقل في البحر . الى عكا في موضع الحصر . ووصل اخر النهار سادس شهر رمضان . بعد ان عاين في البحر من اختلاف الهواء الهوان . فلم يبق له وقع . ولم يحصل لخرق القوم به رقع . واقام بين جذودهم . كأحد كذودهم . وقال الفرنج: ليت لم يصل الينا ولم يقدم علينا . فانه لو اقام في موضعه . وامدنا بفيضه من منبعه . لهيبت عظمته . وعظمت هيبتة . وارعب روعه وراع رعبه ورجي منا وخشي من المسلمين قربه . وقد قطع بنا منذ وصل . وحص لنا جناح نجاح حصل . ووصل في البحر وحده . ولم يستصحب جنده . ثم وصل اليه الاصحاب . وتقطعت بهم الاسباب . ثم رام ان يظهر لمجيئه وقعا . ويبدي له ذفعا . ويثير لذفع غلة ثاره ذفعا . فقال الام القعود عن القوم . وما بقي الا النهوض اليهم من اليوم . ولا بد من ضرب المصاف معهم . واني على الخروج اليهم لادفعهم . فقالوا له انت ما ارثت وهج قتالهم . ولا اثرت نهج نصالهم . ولا حربت بحربهم . ولا كربت بكربهم . ولو حزبت بحزبهم . لاصحب جمادك لجماح صحبهم . فأبى ونبا . وشب الشبا . فلما عرفوا جهله . وان صعب الامر عنده ساوى سهله . قالوا له: نبتدىء بالخروج الى اليزك . فلعلنا نوقعهم عند الاحاطة بهم في الشرك . فدبوا في راجل كرجل النبي . وخيل اغصت الوهاد والربا . ومرجوا في المرج . وطووا تلك المدارج طي الدرج . واشعلوا الخرصان في ليل الذقع عوض السر . وقربوا من تل العياضية . وعليه خيم اليزكيه . والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصريه . والعصبة الموصلية . فلما

بصرت بهم ثارت اليهم . ودارت عليهم . وانهضت بنات الحنايا من
خدودهم الى الجذور . واوردت ظماء الظبي منهم ماء التامور .
وانبعت بالنبيع من عيونهم العيون . واستخرجت بالضرب من
اعناقهم النديون . وطيرت بإطارة السهام الى الاحداق بهم
الاحداق . وخاطلت الاماق وماخطأت الارماق . وصار كل سهم
شهم . وخطر في محل خاطر اسرع من وهم . وركب السلطان من
خيمته وتقدم الى تل كيسان . ووقف ينهض بعد الفرسان الفرسان .
فلم تزل وجوه البيض تحمر . وشايا السمر تفتت . ونيول الذقع تنجر
وصفحات الجو تغبر . وارجاء رجاء النصر تخضر . الى ان جن
الظلام . وكف الكفر وسلم الاسلام . وكانت الدائرة على الكفرة .
فاعرضت بالوجوه المتذكرة . وابنا بالانوار المسفرة . ومر الالمانى
متألماً . ومن ظلمة حاله متظلماً . وبكلوم قلبه متكلماً . وقد عاين
ماعاناه من العناء . وشق عليه ماشق مرأثره من الشقاء . وبلي مما
بلي به من البلاء . وعلم ما جهله . واستصعب ما استهله . وذاق
ما ضاق به ذرعه . وكاد يتم في القتل رصعه لو تم صرعه . لكنه
تجرع من الغصص ما سهل عليه الموت جرعه . وقاب وماثاب . وابى
الرجوع الى اللقاء لما أب . وحينئذ جدوا في قتال البلد وحصاره .
واتباع ليل الجد فيه بنهاره .

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان . وهو في حراسة
الميناء عظيم الشأن . وهو منفرد عن البلد . محمي بالرجال والعبد .
وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الالمان في الثاني والعشرين
من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام واليات ابرزوها .
ومكر مكروه . ودبر دبروه . وبغي غي بلغوا غاياته . وريب رأي رفعوا
راياته . وشر شرك الهبوا شراره . وايد كيد ارفهوا غراره . وعنان
عناد اطلقوه . ولسان ضرام اذلقوه . ويد بطش بسطوها . وعقله
معالقة انشطوها . واحد تلك المراكب قد ركب برج على رأس

صاريه . لا يطاوله طود ولا يباريه . وقد حشي حشاه بالذفت
والحطب . وضيق عطنه لسعة العطب . حتى اذا قرب من برج الذبان
والتصق بشرافاته . اعدى اليه بأفاته . ورميت فيه النار فاحترق .
واحترق من الستائر والاخشاب مابه التصق وتستولي النار على
مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها . ولم يقربوا منها . فسهل عليهم فيه
التسلق . ولم يصعب به التعلق . وملأوا بطسه اخرى بأحطاب
يسري فيها الذفت ويسرع بالهاب . حتى يوقدوها . وعلى السفن
التي لنا بالمينا وردوها . فتعدي عدوانها . وتثير وتسدي فيها
نيرانها . وهم في مراكب من ورائها للحرب مستعدون . وللشر
مستمدون . حتى اذا تم برجائهم في البرج والمينا مناهم . نالوا من
الاستيلاء والاستعلاء غناهم فلما قدموا البطسة ذات البرج
المعمور . وصار الصاري ملاصق السور . جاء الامر بعكس
ماقدروه . واخذق ظنهم للادبار فيما دبروه . فان الهواء كان شرقيا .
فلم تجد نارهم في مطار برج الذبان رقا . بل اشتعل برج الصاري
وتراجعت ناره الى اهلها . وعاملت ذوي الجهل بجهلها . واوقدت
بطسة الحطب من ورائها . وتطايرت اليها شعل انكائها . وعادت
على الفرنج فالتهبوا . وحمي عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا .
فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا . والناجون منهم فارقوا
وفرقوا ولم يفرقوا . واحتمي برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه
ذباب . ولم يفتح للعدو في الكيد له باب .

فصل مشبع في المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب الي سيف الاسلام باليمن

وافكر الافرنج في امرهم واجالوا قداح الرأي في مكر مكرهم .
وقالوا هذا البرج المعروف ببرج الذبان . مذفرد عن البلد في وسط
البحر منقطع المكان . فاذا اخناه تسلطنا على مراكبهم التي في
المينا . واذا لم نؤثر بمجيتنا تأثيرا فلأي سبب جيئنا . ومن حديث
هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه . وهو قفل مينا الثغر على

مراكبه . وقد رفعناه واعليناه . وبالعند والرجال قـويناه .
وبالجريخية والرماة والزرايين والمنجنيقية ملأناه وبكلاءة الله
وعصمته اياه عصمناه وكلائناه . وقد حاموا حوله حولا . فلم يجدوا
على نيل غرض منه قدرة ولا حولا . فعمدوا الى اكبر بطسه واتخذوا
فيها مصقلا كأنه سلم . وهو في مقدمها مركب مقدم . وقد جعلوها
بحيث اذا قربت الى البرج ركب رأس السلم شراريقه . وصعد
الرجال اليه في تجاويقه . وتعبوا في ذلك أياما وشبعوا بثوثيقا
واحكاما . وهو بمراى من الاصحاب ينظرونه ويبصرونه .
ويستجدون الله عليه ويستنصرونه والقوم قد اصبخوا بتلك البطسة
زاحفين . وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين . حتى اذا التصق بالبرج
التصقت به قوارير النفط . وتوالت امطار البلايا من الجـروح
والحجارات والمنجنيقات على اولئك الرهط . ووجدت النار بسطة في
البطسة ولم يسلم السلم . وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذي
الم بهم والم . وقتل منهم من باشر القتال . ونزل العذاب بمن حاول
النزال . والحمد لله الذي ايات ظهور بينه متناصرة . ودلائل نصر
اوليائه متظاهره . ثم عمل الفرنج برجا عاليا في اكبر مركب وحشوه
بالحطب . وعملوا على رأس صاربه مكانا يقعد فيه الزراق . ويتأتى
له فيه الاحراق . وقدموه الى برج الذبان وسلطوا على جوانبه
جواني النيران . وقصدهم بذلك احراق ستائر البرج المنصور .
ورأوا ان في ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا ان الستائر اذا وقعت
فيها النار . تعذر على رجاله القرار وتعجل منهم للحدار الفرار
وكادت الستائر تشتعل والخواطر تشتغل . والحال تضطرب
والبال يلهب والقلوب تضطرم والكروب تحتدم . فاهب من مهب
لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس . واكبت الفرنج على
الوجوه الرؤوس . وتعس جدهم . وتعكس قصدهم . وانقلبت الريح
التي لهم عليهم . وصوبت مرامي العذاب اليهم .

فصل في المعنى

ولما وقم الله القوم . قالوا لاطاقة لنا اليوم وعادوا وقد غرموا
ورغموا . واخلف ما عزموا وزعموا واشتغلوا بملء بطس لهم
شحوما واحطابا وادهانا واخشابا واشعلوا فيها النار والهبوها .
وارسلوها الى مراكبنا في يوم ريح عاصف وصوبوها . وانذوها منها
وقربوها وكانت سفننا تحترق ومراكبنا تفترق . فانزل الله الفرج
وقت الشدة وامن من المخافة المحتدمة المحتدة . وانقلب الريح عليهم
وعانت مخالفة لهم بعد ان كانت موافقه . وحالة تلك الحالة للعانة
خارقه فاحترقوا بنارهم . وشرقوا بعارهم . وجذبت بطس اولئك
الكلاب بالكلاليب . وتوالت الطاف الله في تلك الذوب المتناسقة مطربة
الانابيب مستهلة الشابيب

ذكر الكبش وحريقه

بعد تعب العدو في احكامه وفسوية طريقه

واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة . والة للغوائل غائلة . في رأسها
شكل عظيم يقال له الكبش . وله قرنان في طول رمحين كالعمودين
الغليظين اقفال الاسوار المغلقة بها تفش . فكم سور اذا نطحته
طحنته . وكم معقل حصنه الدهر وصحنته . وهذه الدبابة في حياة
الخريشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها باعمدة الحديد . وكملوا
لها اسباب الاحكام الشبيد . ولبسوا رأسي الكبش بعد الحديد
بالنحاس . وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس الباس . فلم
ييق للنار اليها سبيل . ولا للعب عليها دليل . وشحنوها بكماة
المصاع . وحماة القراع . ورماة الحديق وكساة الحلق . وعفاة
الحثف . وجفاة الزحف . ومجتابي الزغف . ومجتبي العسف . من
كل سرحان لا ينظر الا من جلد ارقم . وكل شيطان لا يقتحم من
الحرب الا جهنم . وكل شجاع لا يعتقل الا شجاعا . ولا يرى لغير

النجيع القاني اقتناء ولا انتجاعا . فلما استدفدت لهم هذه الدبابه وماجت بالحديد لجتها العبابه . واطافت بذلك الكبش تلك التيوس النبابه . وامذوا عليها الحريق واموا بها الطريق . سووا بين يديها الارض . ومهدوا الطول منها والعرض . وصحبوها حتى سحبوها وقرروا بها اعينا بل انفسا وقربوها . فجاءت صورة يزعم مراها . وروضة يعجز مرعاها . والة تروق هياتها . وعدة تروع هيبتها . وبلي البلد من بذوها بالبلاء الداني . وتغاشت وتغاشت دونها نفس الرامي وعين الراني . وقال اصحابنا هذه مافي دفع خطرها حيلة . ولالبارق الظفر بها مخيلة . فكيف العمل . وفيما الامل . ومن للكيش العظيم وقطع رأسه . ومن لبناء الحديد ونقض أساسه . فإن كانت هذه الدبابه دابة الارض فما هذا أوانها . وما حان زمانها . ولقد قامت بها قيامة الحشر فقام برهانها ونصبوا على صوبها مجانيق . ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق . فابعدت رجالها من حوايلها . وطردت المطرفين بين يديها . ثم رموها للحزم بحزم الحطب حتى طموا ما بين القرنين بجرزة . وقذفوها بالنار فترنم في أثنائها عجاج اللهب برجزه . وبخلت من باب الدبابه فاشتعلت نار ضلوعها . وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها . وجاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبيئات . يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات . فاطفاوا نار الظاهر ولم يعلموا بنار الباطن . ولم يحسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن . وحين أخمدوا الجمر . أحمداوا الامر . ورجعوا ولم يزل اللهب يأكل سقوفها . حتى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها . وحينئذ خسفها المنجنيق . فأنهد ذلك النيق . وصوح ذلك الروض الانيق . ووهن ذلك التركيب الوثيق . ونفقت تلك الدابة واحتترقت تلك الدبابه . وخرج من بالثغر المحروس . بأشري الوجوه طيبي النفوس . وقطعوا رأس الكبش . واستخرجوا ما تحت الرماد من العبد بالنبش . وحمل كل من الحديد ما اطاق حمله . واستطاب لثلج صدره وبرد يقينه حره واستخف ثقله . وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار . فقل في الة ليست بهذا المقدار وهو أعظم مقدار . وعاد اصحابنا على عدوهم

ظاهرين . ولحزب الكفر قاهرين . وكلهم يذشد وهو يذشء ويذشد
جدا وجدا .

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط . وسخط الشيطان واستشاط
الساخت . وعلم الفرنج حين حبطت اعمالهم . وهبطت آمالهم . أن
الشقاء ادركهم، والشقاق أهلكهم . وأن مدبرهم مدبر . وأن ترتيبهم
مدمر . وأن الاتهم غير نافعة . وأن نهلاتهم غير نافعة . والحمد لله
ذي الطول العميم . والفضل الجسيم . الذي نعش . عثار الثغر بعد
ان قل للجبين فتلينا قوله تعالى (وفيناه بذبح عظيم) (الصفات :
١٠٧) وكان في يوم الاثنين ثالث عشر رمضان ، واحتترقت البطسة
يوم الاربعاء خامس عشره .

وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عسكر الشمال . يقدمهم ذو
القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب . وقد استصحب معه
الاجناد وجلب . فجاء عشية وجد بلقاء والده عهده . ثم عاد وعاد
بكرة الثلاثاء يقدم جنده . ومعه سابق اللين عثمان صاحب شيزر .
وقد استكثر معه واستظهر . وعز اللين بن المقدم . ذو القدر
الافخم . والنجر الاكرم . وحسام اللين حسين باريك وجماعة من
الامراء . من ذوي المكانة والبسالة والغناء . وقدم الملك الامجد مجد
اللين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك .
وقد استصحب غلمانه الاكايدش ومماليكه الترك . وكان لذلك اليوم
رونق . وصفاء لم يشبه رونق . واتفق في يوم الاثنين هذا من العدو
على البلد الزحف الشديد في الخلق العظيم . جحيمين يلتهبون بنار
الجحيم . وتركهم اصحابنا حتى قربوا من السور . وأقدم العدى
إقدام المتهور الجسور . فلما ازحموا وكثروا . واضطرموا
واستعروا . غنت لهم الاوتار برنين القسي فطاشت لها الاسهام .
ودعت اليهم الاقدار بحنين الحنايا فلباها في لباتهم الحمام .
وزارتهم من الزيارات الجروح . وأخذت نيرانهم تبوخ . ورضتهم
المجانيق بالاحجار . وأننت عيون نجيعهم بالانفجار . وخرج

اصحابنا عليهم فشلوهم الى الخيام . وفلوهم بعد الاقدام . وافضى الخرق بالعدو إلى الخرق . وأخلقت بجدة جننا جدة أولئك الخلق

ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب انطاكية أغار على غره بشره وبشره . ووصل الجاسوس بخبره . وبما البلاد مشرفة عليه من خطره . فرتب اصحابنا له كميناً . ثم خرجوا عليه شمالاً ويمينا . فقتلوا أكثر رجاله . وأفلت وباله في وباله . وانهاض من تلك النهضة . وضعف من تلك العضة . وفي ذلك التاريخ القت الريح إلى ساحل الزيب ، بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتغريب. وفيها امرأة محتشمة . غنية محترمة . فاخذنا واخذوا وأخذت . وجد الفرنج في استنقاذها فما استنفذت . وسرنا ما ساء العدو . وآتانا الله من احسانه المرجو . وفي عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا الى منزل يعرف بشفر عم . وخص بهذا الرحيل الذفع وعم . وكان سبب ذلك أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج . واخبروا انهم في عزم الخروج الى المرج . هائجين للثار ثائرين الى الهيجاء مائجين في دأماء الدماء لحب اللقاء . وصح هذا الخبر وصدق ، ووضع الحق وتحقق . فاحضر السلطان الامراء الاكارم . ورجال الحقائق الضراغم . الذين هم له أعوان صدق لساعات أيامه . ونخائر نصر عند اعتزامه فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم . واستتبط دفائن ضمائرهم . واستكشف منهم الصواب . وتعرف من جانبهم الجواب فقالوا: الصواب ان يفتح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج . فنصحهم في اليوم الآخر ولايتعذر بهم احداق العساكر وانما لايقدرين على القصد دفعة واحدة . الا اذا كانت أيبيهم . متساعة وآراؤهم متعاقبة فان انفردوا عن الراجل وساقوا كسرناهم واسرناهم . وان توقفوا للراجل قصدناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم . واجمعنا على أن نرحل الى شفر عم و

نخيم على هضابه . ونبطل على العدو ما كان من البيان في حسابه .
فخيمنا هناك على أحسن تعبیه . وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنيه و
رحبت المنازل . وعذبت المناهل . وعادت معالم تلك المجاهل . و
حللنا التلاع والأكام . وركزنا بتلك الأعلام اعلام . ونزلنا لمقام
الشتاء مستعيين . ولأسباب التدوقي من الأمطار مستجيين .
وأضحينا على تلك الأطواد موطين . وعند تلك الأوتاد موتدين .
وتسمنت تلك الفروع وفرعت تلك الأشعة ، وتمكنت تلك البنى وبنيت
تلك الامكنة . وتحركت تلك الجبال بسكانها . وأحببت الرجال
التوطن بها وسلت عن اوطانها . ودارت الاسواق . ودرت الارزاق .
وانارت الافاق . وصهلت الصلادم على معالفا وصقلت اللهازم
لمراعفها . ونوب اليك بحالها تدور وترويه وتعيد رسم الحفظ
والحمية وتعود والحرب تتناوب . والزحف يتعاقب ، والاقتران
تتواقع والوقائع تتقارن . والاعوان تتعاضد والاعضاء تتعاون .
والعتاق بصهيلها لحب الطراد تحمم . والرقاق بصليلها لشوق
الجمامج تجمم . والمقربات للأجراء صوافن والضوامر للشد
ضوامن . ومنى المناصل صلة القطع . ورجاء الرجال نبغ النصر في
قرع النبع بالنبع . والتوحيد للتثليث منازل . والايمان للكفر مقاتل .
ولاكارم الا للكلام . ولاسلام الا بالسلام . فلا يسمع الا اسرح
والجم . وتقدم وأقدم . وأصم وصمم . وأضر وأضر . ولاتله حتى
تلهب . ولاتعج حتى تعجب . وأقطع وصل . وأكل بصاع المصاع
وكل . ولاثقل والقي وقلقل . وكل داع إجابة . وكل سماع
اهابة . وكل سهم في المرمى فوق . وكل سهم في المرام سواق .
ولكل صعدة في الطعان صدعة . ولكل قعدة للرماة قدعة ، ولكل عقدة
بالضرب حل ، ولكل عدة في الحرب فل ، ولكل غضب عض ، ولكل
ذي حظ حض ، ومن له نصيب في الشجاعة نصب في
التشجيع ، ومن له جرأة الهيجاء حاج الى الصريخ بالجد
السريع ، والأيام منا على هذه الحالة مندرجة ، ومياه الحديد
بأمواه الوريد ممتزجة ، والفرج منتظر والنواظر متفرجة ، وتباشير
صباح الصفايح في بياجير القتام متبلجة ، والله نعمته في كل
بلية ، وسر في كل قضية .

ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل

في ليلة الثلاثاء ثامن عشري شهر رمضان وما جرى بعده من الحال قد جرى ذكر هذا الأمير ، ومات على به من الكرم والخير ، وهو يوسف بن التكين بن علي كوجك ، ومن سعادة جده ما طلب غاية في الكرم الا ادرك ، وما كان اسره يوم الحضور واحضره يوم وفاته للأسرور ، فلقد كان جارا للكاتب ، بارا بالأباعد والأقارب ، سارا بأسداء المواهب ، دارا بأخلاف الرغائب ، مارا في سبل المناقب ، قاراً على قلق النواثب ، وكان في ريعانه الرائع ، وشعاعه الشائع وشبابه الطري طير الشبا ، وحبه لعقد السود معقود الحبا ، فمرضت الأيام بمرضه اياماً ، وتلهبت القلوب منا للتلف عليه وقد امست مراضاً ضراماً ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طبه ، لما كان يعلم من منافسة اخيه مظفر الدين في — وضعه ، وأنه ينتعش بمصرعه ، فاكثفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على ما يحبه ، وهو جاهل بمزاجه ذاهل عن علاجه فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ما أنهى ازهاره ، وما أنضر نضاره ، ونقله الله من جنات الحياة الى حياة الجنان ، وعجل به ليجازيه لاحسانه بالاحسان ، وحوله من بين الاثراب الى التراب ، ومن دار الاغترار والاغتراب الى موطن الثواء بالثواب ، وأنن الزمان بعد الأجداء بالأجداب ، ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وما ظهر عليه الغم حتى قيل انه سره موته ووافقه ، وقصدناه مغزين على ظن أنه جلس للعزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع ما يحويه ، ووكل بالأمراء القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم بخمسين الف دينار حتى أخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها وسميساط والبلاد التي معه واعادها ، وزاده السلطان شهر زور ، وأحكم بمسيره الأسباب والأمور فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر قتي الدين ، لينزل في

منزلته بجنده وصحبه الميامين فوصل يوم الأحد ثالث شوال ، فعلى بعد العطل الاحوال ، وكان قد انفصل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه ونهب مغاضبا ، وكان السلطان له في الانفصال عاتبا ، فأعاده تقي الدين من الطريق ، وقبح له ما استحسنه في ترك الموافقة من عدم التوفيق ، وكان هذا سنجر شاه دخل يوم العيد بكرة للهنا ، فاستأننه في الانكفاء ، فخرج على حالته وسار وتبعه اصحابه . ولج جماعه وتعذر اصحابه فلما اجتمع به تقي الدين رده ، وبذل في صيانته منزلته عند السلطان جهده ، وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام . وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام ، وصدق الاعتزام ، وثقرر ملاله ، وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان .

من ضاع مثلي من يديه فليت شعري ما استفادا .
فلما قرأ هذا البيت ماراوح في الخطاب ولاغادي ، وغلت الاسعار عند الفرنج واستعرت الغل ، وأعلهم ماعراهم وعرتهم العلل ، وباؤوا بالوباء ، وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتضوروا من الضراء ، وشق مرائرهم استمرار الشقاء ، وعمت المجاعة الجماعة ، وعدموا الطاعة والاستطاعة ، وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم وقصرت عن القرار بوعهم ، وامحلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم ، وبعثهم الرهب ، على الهرب ، والقحط على الشحط ، لكنهم أقاموا على الموت ، واستناموا الى الفتور ، وبلوا بأمور صعبة ، وهرب الينا منهم عصابة بعد عصابة ، وقد بادوا من الضعف البادي ، وأعداهم الضر العادي ، فمن سألناه عن مقتضى قراره ، ومقتضى قراره ، يخبر انه طواء ، الطوى ، فنواه الذوى حين التوى ، من حذر الذوى ، وقد أنساه المحل النحل ، وأبغض اليه حب السلامة الولد والاهل ، وكانت الفرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لبيهم في استعار ، فما جاء الا كل ضعيف لا يقوى على النزاع والنزال ، ولا مسكة لا تعلق رمقه من الاعتلال ، فقبلناهم وانفقنا فيهم والفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم ، فتقوتوا وتقوتوا ، وأثروا بعد ما اقوتوا ، فمنهم من أسلم

وخدم ، ومنهم من ند وتقدم ، ومنهم من غدا بجريرة وعاد ، ومنهم
من ناصح فاستفاد .

ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم ، واشرقهم جرعههم ، وعرقهم
قرعهم ، واخلفهم خاف عيشهم وضرهم ضرعهم . وعيل صبرهم
وعال ضرهم قالوا: نخرج ونبلي . ونصل ونصلي ونقصد
ونصدق ، ونلي ونلق ونقل ونلق ونعز ونعزم ، ونهز
ونهمز ، ونحمي ونحمل ونقطع ونوصل ونزحف ونحفز ، ونزعج
ونعجز ونجهد ونجهل ، ونعقر ونعرق ونخرج ونحرج ونلج ونلجج
ونضري ونضرب ونغلي ونغلب ، ونجسن ونجني ، وننيف
ونفني ، ونرد ونرذي ، ونجد ونجدي ، ونقد ونقدم ، ونعدو
ونعدم ، ونصد ونصدع ونقد ونقدع ونجد ونجدع ، ونهر
ونصرع ، ونسل ونسلب ونروع ونرعب ونبدوا ونبيد ، ونقصدي
ونصيد ، ونظهر ونظفر ، ونرهب ونقهر ونقسو ونقسر ، ونسكر
ونكسر . فخرجوا في عدد خارج عن العد ، واستقاموا مع الاعوجاج
على جدد الجد ، وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا
على البلد من لازم القتال ، واخذوا معهم عليق اربعة ايام ، وزادها
واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجابهما ، وكان اليزك في تل
العياضية فركبوا ، واشعلوا القوم بنيران النصال والهبوا ، فنزل
العدو تلك الليلة على أبار كنا حفرناها عند نزولنا هناك ، والحمية
الحامية المنبعثة على تلك البعوث ما تركت الأتراك ، فباتوا حول
القوم يرمون ويدمون ، ويشوون ويصمون ، ولما اتصل خبرهم
بالسلطان رحل الأثقل الى ناحية القيمون ، وثبت الله القلوب على
الامن والسكون ، وبقي الناس على خيلهم جراند ، وقد استعذبوا
من مر الكريهة الموارد ، وركب العدو يوم الثلاثاء سائرا ، وقد عب
عبابه زاخرا ، وهب غابه زائرا ، وطما بحره مائجا ، وسما جمره
مارجا ، وعساكرنا في احسن تعبيه ، ولدعاء القرع في اوحى

تلييه ، وقد امتزجت زجرات الجاوش ، بنعرات
الجوش ، والميمنة الى الجبل ممتدة ، والميسرة الى النهر بقرب
البحر وصفوفها مشتتة مستتة ، والسلطان في القلب كالقمر في
الهالة ، عليه اكليل من أنوار الجلالة ، فسار حتى وقف على تل عند
الخروبة ، على المهاب الحالية والحالة المحبوبة ، ومقدموا
ميمنته ، عظماء دولته ، صاحب دمشق ولده المبجل ، الملك
الافضل ، وصاحب حلب الملك الظاهر ، وصاحب بصرى ولده الملك
الظافر ، وأخوه الملك العادل في آخرها ، والأمراء بعساكرها ، يلي
حسام الدين بن لاجين : قايمان النجمي صارم الدين ، والأمير
بشارة صاحب بانياس ، وهو الذي لا يرجو منازلته الا من فيه بان
الباس ، ثم بدر الدين دلدردم الياروقي صاحب تل باشر ، وقد طامنا
بشر الاسلام بما باشر ، وعدة كثيرة من الأمراء يطول ذكرها ، على
أنه يطيب نشرها ، وعظماء الميسرة ومقدموها ، وأمراءها
ومقدموها ، الملك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو العادل للاسلام
وعلى الكفر جار ، وابن أخيه معز الدين سنجر شاه صاحب
الجزيرة ، والملك المظفر تقي الدين ذو السطوة المبيدة
المبيدة ، وسيف الدين علي المشطوب ، الذي نشب بناره
الحروب ، ونصب على العدا منه الكروب ، والهكارية
والمهرانية ، والحمينية والزرزارية ، وأمراء القبائل من
الأكراد ، اقتال القتال وأجادل الجلال ، ورجال الحلقة المنصورة
واقفون في القلب ، لابي الحلق السرد خائفي بحر الحرب ، من كل
فارس فراس ، وهرماس رماس ، وضيفم ضاغم ، وضرغام
غارم ، وليث فضفاض ، ملاوثة بفضفاض ، وقصور قاسر ، وهزبر
زابر زائر ، واسد في غاب الاسل ، وقارع في القراع باب
الأجل ، وقار ثعالب الخرصان وذباب الغلبا من دم الأقران ، وقار
على الثبات على قلق ثبات الشجعان ، وقارئ (ان الله اشترى من
المؤمنين انفسهم وأموالهم) (التوبة ١١١) ثقة بوعد
القرآن ، وقارن حج النجح بعمره وبذله في الجهاد للتمتع بعمر
الجنان ، وسابق الى حلبة الشهادة ، وسامق على ذروة
السعادة ، وملابس للروع مباسل وعاسل ، كالذئب الى ذب العدا

عن الهدى بعاسل ، وسار الفرنج شرقي النهر لنا
مواجهين ، والكريهة غير كارهين ، حتى وصلوا الى رأس
النهر ، واشفقوا من بأس القهر ، فانقلبوا الى غربية ونزلوا على
القل بينه وبين البحر ، والجاليشية الرماة منا حملهم
جائلة ، وعيون اعيانهم على نصالنا سائلة ، وجرح في ذلك اليوم
وهو الثلاثاء خلق من اهل التثليث ، ومانبا عن كثير منهم ناب النائب
الكريث ، والسلطان في خيمة لطيفة بحيث يشاهد ، ولله منه الجاهد
المجاهد ، واصبح الفرنج يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء
ناكبين ، ووقفوا على سهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل
مطيف محقق بهم كالا سوار ، واصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا
أن يخالطونهم ، وأرادوا يباسطونهم ، والسلطان يمد الرماة
بالرماة ، والكماة بالكماة ، وهم ثابتون ثابتون ، ساكذون
ساكذون ، ونحن نقول لعلهم يحملون ، ويغضبون
فيجهلون . فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم .
وتفريق الغمة بنزع جمتهم . واحس العدو بالضعف . وانه متورط
في الحنف . فسار موليا . ولعذره لذعره مبليا . ومضى على مضض .
ومر بأشد مرض . والنهر عن يمينه والبحر عن يساره . وقد ايقن
ان صح منه الثبات بانكساره . وعسكرنا يصافحهم بالاصفاح .
ويكفهم بالكفاح . ويشعلهم بجمرات السهام . ويلهبهم بخدمات
الضرام . ويحرقهم ويشويهم . ويصميهم ويشويهم . ويفيض على
غدران السوايح منهم جدا ول القواضب . ويخيض في دأماه الدماء
منهم سوايح السلاهب . ويغيض في ماء الوريد منهم ماء الفرند .
ويغيط بني الكفر في الجمع بين الاختين عليهم ابنتي الغمد والزند .
وادبروا مولين . وارخصوا من مهجهم ما كانوا له مغلين .
وعسكرنا يتبعهم . ويعلق بهم ويقلعهم . وهم مجتمعون في
مسيرهم . محتمون في تقديمهم وتأخيرهم . يتحركون في سكون .
ويتظاهرون في كمون . ويتطلعون في غروب . ويتفألون بغروب .
ويتذوبون في جمود . ويتلهبون في خمود . وكالما صرع منهم قتل
حملوه وستروه . وطموا مدفنه وطمروه . حتى يخفى أمرهم . ولا

يصبح لدينا كسرهم . ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق . وقطعوا
الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق . وابلى المسلمون في ذلك
اليوم في الجهاد بلاء حسنا . وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا .
وقام اياز الطويل في ذلك اليوم مقاما اقعد فيه من الكفرة كل قائم .
وأنبه به من العزائم كل نائم . وكان مقاما هماما . واسدا
ضرغاما . يطير وحده الى الروح اذا أبدى له ناجنيه . ويجيب
المستصرخ ولا يسأله عما يدعو اليه . وهو في كل يوم يصيح في
سلاحه شاكيا . وبنار عزمه ذاكيا . ويقف بين الصفيين . ويدعو إلى
المبارزة والحين . فما يبرز اليه الا من يصرخ ولا يصل اليه الا من
يقطع . فعرفه الفرنج فتحاموه . فما راموه بعد ذلك ولا راموه .
وبذل هذا اليوم جهده وفل حدهم حده . واصابته جراحات .
 واصابتهم اجتراحات . وكذلك سيف الدين يازكوح أبلى في الجهاد
ذلك اليوم . ووقم بنصاله ونضاله القوم وخرج وبه جرح . وفي قلب
العدو وعينه من مهابة انتقامه واصابة سهامه قدح . وأصبحوا بكرة
الخميس . وقد بكر الخميس . وحمي الوطيس . وسار في اسده
العريس . فاشرفنا عليهم واذا هم داخلون الى مخيمهم سائرون الى
مخيمهم . فعاد السلطان الى سرادقه حامدا ، خلائق خلائقه . مسفرا
في ليل العجاج فلق فيالقه . واستعاد الاثقال . الى
معسكره . واستزاد من الله له الاقبال في مورده ومصدره . وفخر
بتفرده عن ملوك الارض بعون ملائكة السماء وتفرده بمفخره . وكان
مع الفرنج الخارجين المراكيس والكندهرى ، وأقام ملك الالمان على
عكا يبرى ويفري .

فصل من كتاب في المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادى عشر الشهر . واثقين من ملوكهم
الحاضرين بالظهور وقوة الظهر . وفي مرج عكا عين غزيرة الماء
يجري منها نهر كبير الى البحر . فخرجوا الى شرقي النهر . وباتوا
بالقرب من مخيمهم على البلد . وقد تخلف لحفظ حصره الوف من

اهل الجلد . ثم تصبـحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهم . والأسد سائرة بالأسل في عرينهم . والحمية مشتعلة في عيونهم وعرائينهم . ونزلوا رأس العين . وتطرق بها اليهم من عساكرنا المنصورة طارق الحين . ولما اصبحوا وجدوها بهم محدقة . وبنيان النصال والمناصل لهم محرقه . وكنا نـقول انهم يتحركون للمصاف . والأمر بالخلاف . وانهم لسهام المذون من الأهداف . وما دارت بهم الا الجاليشية تجول وتصول . وتصيب وتصوب وتطيل وتطول . وكانت الاطلاب واقفة تنتظر حملاتها وتستعد لوثباتها وثباتها . فلما ابصر الفرنج ما حل بهم من العذاب . عدوا الغنيمة في الاياب . وشرعوا في طريق الزهاب . فعادوا من غربي النهر راجعين . وساروا صوب خيامهم مسارعين . واصحابنا وراءهم يرمونهم ويشوونهم ويصمونهم . وقتل منهم خلق وسرى في حجب حياتهم خرق . ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين هائبين . ورحلوا سحرا خاسئين خائبين . وخيولهم الناجية مجرحة . وقلوبهم الراجفة مقرحة . واشلائهم من كسوة الحياة عارية وبالعراء مطرحة . وعرفوا ان حركتهم للهلكه . وان هلكتهم في الحركة . واقاموا على الضر والزاد معدوم . والبلاء لكل منهم مـفرد وعليهم مقسوم . ولا طعم لهم الا من لحوم الخيل . وهم يدعون بالثبور والويل . ومع كثرتهم قلوا عناء . وضلوا رجاء وذلوا بلاء . واعتلوا جدبا وغلاء . ولما عاد الفرنج الى خيامهم . خائفين من مراميهـم . مخفقين من مرامهم . وابصر المقيمون بها اصحابنا وراءهم يطلبون اردادهم . متعطشين الى دماءهم . يرمون ارواءهم ، وذبوا على جياهم ، وثاروا لمراد مرادهم ، ولاقوا اجمعنا بأجمعهم وفاضوا لفيضنا من منبعهم ، فاندفع الاصحاب حتى تبرزوا ، ثم ردوا عليهم الكرة فانحنوا واجهزوا . وقتل في تلك المعركة كند كبير . وشيطان لنار شره من سعيـره متسعير . وطلبوا بعد انفصال الحرب جثته فاعطوها . والتمسوا هامته فلم يجدوها . وكان رجلا يعد برجال . وسلبه قوم بأموال . ولولا ما نـفق من التياث مزاج السلطان . ما سلم من سلم من حزب الشيطان ! وله في كل قضية سر . وفي كل ليلة بر .

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقا في آرائه . ومشرقا بلالاء الآئه . ومن
آرائه الراجحه . ومساعيه الناجحة . ومتاجرهِ الراجعة . انه رأى ان
يرتب على العدو كمينا . وعلم الله يكون لنجحه ضمينا . فجمع يوم
الجمعة الثاني والعشرين من شوال منتخبى رجاله . ومنتجبي
ابطاله وخواص اتراكه . وعوام فتاكه . فانتخب منهم كل من عرفت
سابقته . وسبقت معرفته واحمدت في الجلال جلادته . وفي لقاء العدا
عادته . وعلمت في الفتك جهالته . وامرهم بأن يكمنوا على ساحل
البحر بقرب المنزلة العادلية القديمة . فمضوا وكمنوا ليلة السبت
متنبهي الهمة . متيقظي العزيمة . وخرجت منهم عدة يسيرة بعد
الصباح . منابية بحي على القلاح . ودنوا من خندق القوم . ونادوا
لا تعود بعد اليوم . ومطروهم سهاماً . واسرعوهم ضراماً . فطمع
الفرننج فيهم . وظننت انها تلاقىهم . وخالتهم صيدا قد سنح . وسربا
قد سرح . فقطعت خنادقها . وبنت علائقها . وحدثت سدوابقها .
واخاضت بحر الحرب سوابقها . وقد افاضت سدوابقها وشامت
صفائحها . وتجردت عن رجالتها . وتفردت بضاللتها . وحملت
بجهالتها . واقبلت بادلالها لا بدلالتها . وتطارد اصحابنا امامها .
وانهزموا قدامها . حتى وقفوها على الكمين . واوقعوها في الهلك
المبين . فخرج الكمين عليها . وتبادر اليها . فلم يستطع فارس منها
فرار . ولم يطق من غرته ان يمضي غرارا . وكانت في مسائتي
قنطاري . من كل مقدم باروني وبطل داوى واسبتاري . فقتل
معظمهم . ووقع في الاسر خازن الملك وعدة من الافرنجيسية
ومقدمهم . وملكوا وسلبوا وملك سلبهم . وتقطع بهم سبيهم .
وما وصلهم اربهم . وجاء الخبر اليها . فركب السلطان وركبنا وسار
ووقف على تل كيسان . فشاهد من الله هناك الاحسان . وجاءه
مماليكه يقودون اولئك الاعزة بخزائم الذل . ويجودون بما
استخلصوه من ذلك القل . ويقدمون المقدمين من سراة الاساري .
وتلونا لما شاهدناهم (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى)

- ٦٠٨٤ -

(الحج ٢) فقد رضت لهم اللتوت وقضت لهم الليوث . ويعتثهم الى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث . وترك السلطان الاسلاب والخيول لأخذها . وكانت بالأموال عظيمة . فما اعارها نظرة ولا تردد امره فيها . وفيها حصن كانها حصون . وزرد موضوعون . وخوذ منها مذهب ومدھون . وسيوف ذكور تتولد منها المذون . وملابس رائقات تحار فيها العيون . وابنا بالملوك مصفدنا . وحمدنا الله الذي بارشاده هدينا . وجلس السلطان في خيمته على دست ملكه . وقد انتظم له عقد النصر في سلكه . فمن كان عنده أسيرا أحضره . فأنعم . عليه وشكره . وكنت عند السلطان جالسا . ولحيير الحبور لابس . وقد جمع أولئك الأسراء . وما اسعد الله إلا في تلك الساعة أولئك الاشقياء . ودامت محاورته لهم مشافهه . واطعمهم بعدما أنسوا فأكهة . ثم بسطهم ببسط الخوان واشبعهم وارواهم ثم احضر لهم كسوة وكساهم . والبس المقدم الكبير فروته الخاصة فقد كان الزمان قد برد . وفصل الشتاء قد ورد . وأنن لهم في ان يسيروا غلمانهم لاحضار ما يريدون احضاره . ولاعلام من يؤثرون ان تعرف معارفه اخباره . ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال . وحفظهم بالقيود الثقال .

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشر من شوال كانت ذوبة اليزك لأخينا الملك العادل فأشار بانفاذ عدة اليه تكون في الكمين . وتقيم في الكمين اقامة خدرات الأسود في العرين . فأنفذنا اليه من مماليكينا سنية سرية سرا واستسرت وسرت . وقرت في مكمنها الى ان طابت الأنفس بصنعها وقرت . ولما أصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين وللمنايا الى ناليهم منابن . فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم . وظهروا انهم قد ظهروا عليهم وهربوا .

ورهبوا اقدامهم.. وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم . يقومون فيهم رجاءهم . حتى ابعدوهم عن المأمن . وعبروا بهم عن المكن . فخرج عليهم الكمين من خلفهم . وفتح عليهم أبواب حتفهم . وأروهم وجوه المنايا في مرايا غرر الجياد . ونزعوا عنهم لباس الجلد لباس الجلال . وقلقوا البيض بالبيض . وقلقوا الحديد بالحديد . واشعلوا نار الظبا في ماء الوريد . وفضوهم بالفضاء . وعروهم بالعراء ولتوهم باللثوث . وبتوا اعناقهم من حبل الوتين المبتوت . فلم ينج منهم ناج . ولم يبق منهم للبقاء راج . واسرت عدة من مقدميهم . ومعروفهم ومحتشميهم وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبيه . وكرة بغير كدوة . وغزوة اننت بأوفر حظوه . ووقعة اننت بل اجنت كل نصره نضرة عذبة حلوه . والحمد لله الذي تزكو انعمه بسقيا الحمد ، وتوضح عوارفه لنا كربها جدد الجد . ولولا مرضنا في الذوبة الاولى التي خرجوا فيها بأجمعهم . لما نجوا بدشاشاتهم بل تعجل مصيرهم الى مصرعهم . لكننا ما قدرنا في ذلك اليوم على الركوب . وجلسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتظر ما يكون من العسكر المندوب . والان بحمد الله قد توفرت حصاة الصحة . ولزمت منة المنحة . وكذلك مرضنا عام اول شهرين . والحمد لله على المهلة في السنتين . فاقمنا مع السقام ، وسقمنا في المقام ، وصبرنا وصابرنا . وجاهدنا وجاهرنا . ومقامنا في هذه المدة المديدة في بلد الغور . والوخم فيه يقضي على ماء الصحة بالغور ، ومامنا الا من التاث . فأعانه الله بغيث فضله المديدة بيمته الالاث . والحمد لله الذي أعان وأغاث .

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود
من سار من العساكر الى البلاد على رسم الاستراحة
والاستعداد

ولما تشتت شمل الصيف الرفيق . بشمول الشتاء العنيف .
وانحرف حريف الخريف كانحراف مضيف المضيف . واشتعلت

رؤوس الجبال شيبا للثلج ، وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج .
والتحفت كل هضبة ببرد البرد . واكتست الغدران من الجليد بالزرد
السردي . ولبست سود الذرا بيض الفرا . وجر السيل النيل وجرى .
وطمر المطر هـوادي الوهاد . وقبض انامل الانام عن البسط
للجهاد . وجمد الخمر . وخذم الجمر . وارتعدت الفرائص .
وارتدعت الاخامص . وقرست الايدي ، وامسى الجو بالجوى المسيء
يعدو ويعدى . وحل الهواء بالوهاد عقود القوى . وعقد المترفون على
حب الاصطلاء الحبا . واشتغل الملوكة بملازمة المشاتي . ومنادمة
المواتي . ومناقلة المناقل . ومعالجة العقائل . ومعاقرة العقارب .
ومسامرة السمار ، ومدانة الننان . واجتناء الجنان . ومناغة
الغواني . ومناجاة المثالث والمثاني . وملابسة السوالف والسلاف .
وملامسة اللطائف واللطاف . قلت نار عزم السلطان حد الشتاء
العاتي . ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مشى الى المشاتي .
وما صده البرد عن مقصده . ولا رده عن مورده ولم يحتفل
باحتفاله . ولم يبال ببلاله . ولم يكثر بكارته . ولم يحدث امرا
لحادثة . فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره .
وجرى على عادته في مصابرة الاعداء والجري لها في مضماره . وما
لها عن الله ولا رفض فرضه . وسما الى سماء الآلاء وارضاه لما
طهر بدم انجاس اعدائه ارضه . واستمر على بذل جهده في الجهاد .
ووفى بعهده ولم يثنه جفاء العهد . وقال انما اربأ بهذا الرب .
وأرى راحتى في هذا التعب . ويقينى يقينى في تلج صدري بلطف الله
عذف الثلج . وما يبرد قلبي مع ثقل الحر والبرد الا برد النصر
والفلاح . لكنه رأى ان مقام العساكر بجمعها . وصرفها عن العود
الى البلاد ومنعها ، يوزن بملالها . واختلال امورها وانحلالها .
والفرنج قد امننت غائلتها . وتكفى في مداومة قتالها في نوبها
مقاتلتها . فانن الجماعة في الانصراف على المواعدة في المعاودة في
الربيع . والرجوع الى مراد الروح المريع . وليأخذوا اسباب
الاستعداد لآوقات الاستدعاء . وليستكثروا من الرجال المحققين في
نصرة الحق للرجاء من اهل الغنى والغناء والمضارب
والمضاء . فسار صاحب سنجار عماد الدين زنكي خامس عشري

شوال يوم الاثنين . وتلاه صاحب الجزيرة ابن اخيه سنجر شاه ليكونا مصطحبين . وسار بعدهما ابن صاحب الموصل علاء الدين غرة ذي القعدة . وما انصرفوا الا بالتشريف والخلع المعدة . وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعه . وخلعه رائقه رائعه ، ومستعملات مصر . ومصوغات تبر . وخيل عتاق . وخير واطلاق .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل عند عود ولده اليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ماكان اسعدنا بقرب الملك السعيد،وما أجد جدنا بانارة نوره . واوفر حبور بحضوره ، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده . وما ابهج الاسلام بنصرة ناصره ونجدة وليه ووروده . واقد تمت بأيامه وبركات مقامه في العدو نكايات . وظهرت لأولياء الله من الطاف كفاياته آيات . ووقعت بالمشركين روعات . وراعت وقعات . وقد أربنا ان نستظهر بمرافقة . ونبني الامور على موافقة . فما ايمن سعده . وما اسعد يمينه . وما اقر وزنه واغزر مزنه ، لكنا عرفنا شوق المجلس الى اجتلاء سناه . بمقتضى أدابه التي استكمل بها ادوات الارتقاء في مطالع علاه ، فقد فاق بسداد رأيه الكهول . وما ازكى الفروع الطيبة اذا أشبهت الاصول . وما اسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين ادام الله علاه . وسر بفضائله اوليائه . وقد توجه والقلوب معه متوجهة . والذفوس لغيبته متكرهه . والعيون لترقب ورود البشائر عنه منتبهة . والأيام لظلمة الاستيحاش بالليالي متشبهة . والموارد الى ان يمن الله بعود الازس بعودته متسهنه . والاسن بذكر اخلاقه الطاهرة والافاضة في محاسنه الزاهرة متفوهه . والخواطر فيما تمثلته ايام الاستسعاد به من مبهجات الاله متنزهة ولاشك ان يصف بلهجته الفصيحة . ما اقتناه من المتاجر الربحيه . وقدمه من المساعي النجيحة ، واستنجه في الغزاة من مغازيه الصحيحه . وله في كل

نصرة وهبها الله للاسلام اوفى نصيب . فقد أمسى مقتل الكفر بكل
سهم مصيب . وهو المستصرخ الهدى اسبق ملب واسرع مجيب .
وان الله له بسفور صبيح سعادته ووفور نجح ارادته افضل مثيب .

ذكر ما تجدد بعد ذلك في هذه السنة

لما هاج البحر وماج . وظهر الارتجاج والانزعاج ، نزل الفرنج
سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها . واخذوا ساحل عكا من
اربابها واربابها . وخلا لنا وجه البحر وغابت عن الساحل مراكب
الكفر . فاشتغل السلطان باذقان البذل الى البلد . من الثابتين في
الجلاد على الجلد . فانتقل الملك العادل بمخيمه الى جانب الرمل
ونزل قاطع نهر حيفا في سفح الجبل . لتسهيل طريق من يسيره الى
البلد من البذل . فان المقيمين في عكا شنعوا امراضا
معترضه . واعراضا ممرضه ، وكثرة السواد مع قلة الذقة والزاد .
وكان في البلد زهاء عشرين الفا رجل من امير ومقدم وجندي .
واسطولى وبحري ومتعيش وتاجر وبطل . وغلمان ونواب
وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا . واذا عاينوا خوفا على
الموضع . موهنا عاونوا وما وهنوا . فرأى السلطان ان يفسح لهم في
الخروج رفقا بهم ورأفة . وما افكر أن في ذلك مخافة وافة ، فقد كان فيه
امراء امرؤ الامر والقوا الصبر ومانعوا الحصر . واجتروا
وتجاسروا . وصبروا وصابروا . وحاربوا وخرجوا . وجاروا
وجربوا . وزالوا وازالوا . وحاوروا واحالوا وعرفوا مكان
المكايد . وكشفوا كوامن المقاصد . واخذ كل موضعه في الحرص على
الحراسة وشاعوا بالسماحة والحماسة . وكان فيهم من يطعم
ويذوق . ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق . مثل حسام الدين
ابي الهيجاء السمين . فانه انفق ما اخضره من الالوف
والثنين ، مستمرا على انفاق لا تعتريه فيه خشية املاق وهناك
ستون اميرا ومقدما . وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنما . وكانوا
ينتفعون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق . والاعانة على ما

الامكان . ويطردونهم بقبيح الزجرة . ويكسرونهم في صحيح
الاجرة . والسلطان يجود جود السحاب . ويأمر بالاعطاء
الحساب . ويجد حث الذواب . ويجد في بعث الاصحاب . ويقول
انذقوا ولا تخشوا اقلاالا . وانهضوا الرجال خفافا
وثقالا . ولا تـؤخروا شـغل اليوم الى غد . امهـالا او
اهمالا . ولا تقدموا على هذا الفرض فرضا ولا نفلا . ولا تعتقدوا ان
لنا اهم من هذا الشغل شغلا . ونواب الديوان على عادة جهالتهم .
وعانية ضلالتهم . فما قبل العطاء غير مضطر فقير . وما دخل الثغر
الا قليل من كثير . وما صح من البدل الا بعضه . وما قضى حق
الواجب المتعين فرضه . وكان هذا من اقوى اسباب الضعف .
وأوفق دلائل الخلف . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه في سنة سبع .
قانه عاد كل مادبر بضر على الثغر لا بذفع . وأقام الملك العادل على
البحر لازاحة علل الداخلين . وراحة قلوب الواصلين . حتى عاد
الفرنج بمراكبهم . وانقطع بوصولهم الطريق من جانبهم . واقتنع
البلد بمن اليه تحول . وعلى حفظه من الله بعصمته عول .

وبتاريخ يوم الاثنين ثاني ذي الحجة وصلت من مصر بالغلة
بطس سبع . وكان لها للحاجة اليها وقع . وقيل قد تم بها للجائعين
شبع . وانقلب اهل البلد الى البحر لمشاهدتها . ومعاونة جماعتها
ومساعدتها . ونقل ما فيها من بضائع وحوائج . وطلع وروائح .
وماكول ومطعوم . ومشروب ومشموم . فقد طال بذلك كله عهدهم .
وانتهى الى الغاية جهدهم . فلما تسامعوا بالبطس تشارعوا الى
الملتصم فعلم الفرنج بانقلاب اهل الثغر . الى جانب البحر .
فزحفوا زحفا شديدا وحملوا جنودا وحبيدا . وأتوا بسلاالم
لينصبوها على الاسوار . وصارت عكا وهم حولها كالمعصم في
السوار . وترقوا في سلم واحد متزاحمين . والضيق متصادمين .
فاندق بهم السلم المنصبوب . وسطا بعصابتهم المعصوب بها لنصب
سوط العذاب المصبوب . وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا . وتعاطوا
كؤوس المنايا وتساقوا . ورأوا غمرات الموت فزاروها . وداروا

حول رحى الحرب وأداروها . واستحلوا شهد الشهادة فشاروه .
وألّفوا الأجل كامنا فآثاروه . وتواثبوا عليهم تواب السباع على
الضباع . ورفعوا لقرى العواسل الجياح نار القراع . واطالوا بشبا
العوالي للعوا في باع الأشباع . وانبعوا عيون النجيع من عيون
الجميع جداول البيض . وافاضوا فيوض الدم القاني بالصارم
المفيض . وقتلوا وسفكوا . وفتكوا وهتكوا . وردوهم على أعقابهم
ناكسين . ومن حسابهم ناقصين . ولا شتغال الناس بكشف ما عرا
من الغمة . وأظلم من الظلمة . والتهاثم بثقل الغلة . عن نقل الغلة .
وتركوا البطس بحالها . مملوءة بغلالها . حتى هاج البحر فضر
بها الحشف . وأذهب بكسرهما كل ما فيها وأتلف . وغرق من كان
فيها . وأتى الغرق على الأمتعة التي تحويها . حتى قيل هلك بها
زهة ستين نفسا . وعدموا ولم نجد لهم حسا . وناموا والقدر
منتبه . وذهلوا وحكم القضاء اليهم متوجه . وفي ليلة السبت سابع
ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا على قصيلها فهدمته .
وثغرت الثغر وثلثته . فبان منها الضوء لأهل الظلمة . فتبادروا
اليها طمعا في هجم الثلثة . فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم
وصدوا عنها بنحورهم . وبذوهم بأبدانهم الى أن بنوا ذلك
البن . وعمرؤا ما خرب وقوا ما وهن . وقتلوا وجرحوا من العدو
خلقا . واوسعوا بالمضايقة في كل ذي خرق خرقا . فانجلت الحرب
عن طريق صريع . وجريح الى الهزيمة سريع . وطلّح للعقير قريع .
وعاد الثغرا قوى مما كان وأحكم . وكل ذلك بجهد بهاء الدين
قراقوش حيث كان المقدام المقدم . وهذا الأمير قراقوش لما ضجر
الأمراء وضجوا . وطلبوا الخروج ولجوا . اقام ولم يرم . ولم ينحل
عقد ثباته ولم ينخرم . وفي ثاني عشر ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان
بمرض الجوف . ولعله من عرض الخوف . وأدرك أباه في الدرك
الأسفل من النار . وابصر في جهنم مصاير امثاله من الكفار . وزاد
بهلاكه ألم الألمانية . وانسدت بموته فرج الفرنجية . وتبعه في السفر
الى سقر . كند كبير يقال له كندتباط دافع القدر فما قدر . وهلك
منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير . واشتعلت بهم الجحيم
واشتعلت عليهم السعير . وفي يوم الاثنين ثاني عشرين ذي الحجة

عاد المستأمنون من الفرنج الذين انهضهم السلطان في براكيس .
ليغزوا في البحر ويكونوا ايضا لنا جواسيس . فرجعوا وقد غنموا
وغلبوا . وكسروا وكسبوا . وسروا واسروا . وقسروا فظفروا .
وذكروا انهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس . وفيها تجار فرنج
ومعهم من المال الجليل النفيس . واسر التجار واخذ المال . وحيزت
تلك المراكب وجذبت الى الساحل . فانا هي مشحونة بالكرائم
الجلائل . من كل أنية مطبوعة ذهبية . وحلية مصنوعة نضارية . وآلة
فضية وأباريق وأكواب وأقداح . وأطباق وموائد وسبائك وصفاح .
وكاسات وطاسات . ومرافع وشربات . فوفر السلطان عليهم هذه
الأكساب . ولم يحرمهم حيث حرموا لكفرهم الثواب . وظهروا بهذه
النهضة انهم مناصدون . وليمين الايمان مصافدون . فلما اكرموا
بتلك المكرمة . اثنوا على اليد المذممة . واسلم منهم شطرهم .
وحسن بيننا ذكرهم . وببركات الكرم السلطاني كرموا . وانسوا
واسلموا وكانوا قد احضروا برسم الهنية مائدة فضية عظيمة وعليها
مكبة عالية . ولها قيمة غالية . ومعها طبق يماثلها في الوزن . ويتعذر
وجود ذلك للملوك في الخزن . ولو وزنت الفضيات قاربت قنطارا .
فما أعارها السلطان طرفه احتقارا . وقال لهم خذوها فأنتهم بها
اولى . وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى . وكنت عنده
جالسا . وبلطفه مستأنسا فقلت له ما أظن في الوجود ملكا يسمح
بمثل هذا المال ، وخصوصا وقد اغنمه الله من الحلال . فتبسم
لقولي غير معجب به . وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه .
وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما
نيف وخمسون نفرا . فجلانا نصرا وعلا نجحا وحلا ظفرا . وفي
الخامس والعشرين منه أخذ ايضا بركوس فيه من الفرنج مقدمون
ورؤوس وهم نيف وعشرون منهم اربعة خيالة . ضمتهم من الاسر
حباله ومعهم ملوطة . مكالة باللؤلؤ منوطة . وبأزرار الجواهر
مربوطة . قيل انها كانت من ثياب ملك الألمان . واسر فيه رجل كبير
قيل انه ابن اخته وهو كبير الشان . وفي هذا الشهر كان قدوم
القاضي الأجل الفاضل رب الفضائل والقواضل من مصر فاشرفت
المطالع . واشرفت الصنائع . وبشرت المطالب بنجاحه . وغزرت

المواهب بسماحه . وغابت بحضور مكارمه المكاره . ونزع بلبسة
إفضاله لباس الخمول ذوو الفضل القابيه . واعاد روح السلطان
بإعادة الروح الى سلطانه . وسر بمكانه واقترن احسانه باحسانه .
وظهرت في وجهه به الطلاقة . وفي قلبه العلاقة . وروى رايه بري
رأيه . وتلقن آيات النصر من نص آيه . وانتعش عثاري بمقدمه .
وانتعش خط فخاري بكرمه . وحلى عطلي وحيأ أملي . وقوي عملي
ووضح منهاج مناي . وصح مزاج غنائي ونبه قدري ونوه بذكري
وسعى في رفع رتبتي وزيانة راتبي .وسن غربي واسنى غاربي .
واقربي وقربني . واستكتب الخطوط بالحظوظ كما كان استكتبني
فعشت ونعشت وفرشت بساط الغنى فرشت . ولولا انني قويته به
لأقويت . ولولا انه أولاني عارفته لما عرفت ولاتوليت . فانا شاكر
نعمه عمري . وعامر كرمه بشكري .

ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة

استشهد في عكا سبعة من الأمراء كل منهم سبع . ومافي لقائه
للقرن طمع . ومن جملتهم سوار من المماليك الخواص . ومن ذوي
الاستخلاص . وكان هذا سوار في كل حرب مساورا . ولكل هول
مباشرا . وبكل بوس عبوس باشرا . فجاءه سهم عائر . فاذا هو
الى الجنة سائر وكذلك عية من أمراء الأكراد . كانوا من الاساد .
ففازوا بحظ الاستشهاد . وخرج اسطولنا في هذه السنة . وبشوانية
المعجبة المحسنة . ليكبس شواني الفرنج في مواضع الربط .
واحراقها بقوارير النفط . فخرجوا الى شوانينا بشوانيهم . ولقوا
عوانبيها بعوانبيهم . وظفرت اساطيلنا وطالت . ووصلت اليها
وصالت . ونالت من الظفر مانالت . وأحرقت الكفر شواني
برجالها . وغرقتها بأبطالها . وكان عند العود تأخر لنا شيني
مقدمه أمير مبارز كالأسد الخادر لا يصرح الا للفريسة ولا يبرز .
وهو يعرف بجمال الدين محمد بن ارككز ، فشين الشيني وشأنه .
وما أعانته أعوانه . وامتلات بالأعطاب أعطابه . واضطربت للانكار

أركانہ . واضطربت باهل النار نيرانه فتواقع من فيه الى
الماء ، واحترزوا من البلاء بالبلاء . ووقف الأمير على قدم جلده
يجالد . ويجد ويجاهد . وقد أثقله بلبس البسالة الحديد . وخف به
العزم الشديد السيد وقد دعاه الى أمنية المنية الذكر الحميد .
والأجر العتيد . فما ارتاع للروع . ولا استطاع الانقياد بالطوع .
ولامكن العدو من مكانه . وأخذ مع الشانيء بشنانه . ولولا ان
ملاحيه جبدوا وفروا . ومناصحيه خذلوه وماقروا . لجنى بسيفه ثمر
النجاة . لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة فاجتمعت على مركبه
مراكب الجمع . وسدوا عليه سبل البصر والسمع . وقالوا خذ منا
الأمان واستأسر . وهون الأمر عليك ولا تعسر ويسر . فالعاقل
يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم . وأنت في عين الهلاك
أن لم تعطنا اليد وثبت على هذه القدم . فقال ماأضع يدي الا في يد
مقدمكم الكبير . ولا يخاطر الخطير الا مع الخطير . فسموا له كنذا
أرضاه . وأراد ان يشركه فيما الله قضاءه . فلما بنا ليأخذ يده لزمه
وعاذقه . وقوي عليه ومافارقه . ووقع الى البحر وغرقا . وترافقا في
الحمام واتفقا . وعلى طريق الجنة والنار افترقا . فارتوى الشهيد
السعيد بماء النعيم . وصلي الكند الكنود . بنار الجحيم . واستشهد
ايضا في ذلك اليوم الأمير نصير الحميدي جرح فمضى حميدا . وشهد
مقامه في الجنة شهيدا . وسعى دهره حتى قضى سعيدا . ولم تخل
وقائع هذه السنة من استشهاده جماعة من أمراء العسكر . وسعداء
المعشر وكرماء المحشر . وندماء الكوثر . وحلفاء المفخر . واستشهد
يوم تاسع جمادى الأولى القاضي المرتضى بن قريش الكاتب . وكان
صدرا تجمل به المراتب . وجريا جاري القلم . بليغا بالغ الحكم .
مهيبا يخشى مرهوبا لايفشى . وهو في أهبة من المهابة . وكتيبة من
الكتابة . صوبه في الصواب منتجع وخطابه في الخطب مستمع .
ولرأيه ري وريا . وتديره للأمور بتنفيذ الأوامر السلطانية بينا
وبنيا . ولم يكن له في الكفاية كفه . ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه
رفه . وكان رجل دمشقي بنا بلس له ملك بدمشق قد تركه . ورغب
في ابتياعه القاضي المرتضى ليملكه . فتقاضى بيناره فانفضلا على
التراضي . ونجح سعي القاضي للقاضي . وبكر البائع الى سلام

- ٦٠٩٥ -

المشتري ووثب ووثوب المجتري وطهته بمديته . وهو آمن من في
خيمته . وفتك به فتك اللعين أبي لؤلؤة بالفاروق . وخرج من الخيمة
كالسهم في المروق فلقى قاضي نابلس فقتله . ومضى بسالك سبيله .
فادركه الناس وقتلوه . وكاد يفلت لو لم يعاجلوه . ففجع المنصب
بمصابه وناب عنه اخوه مع نوابه .

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشمله شتات شمله . وعقد
البرد لم يقرب محل حله . ولغيث عيث ولزور الربيع ريث . ولل سحب
سح . وللضح شح . ولعين الشمس غص . ولوجه الغيم ومض
ولأيدي العارض بسط وقبض . ولنواظر البرق تنبه وغمض .
ولنواجز البرد كشر وعض . ولقص الفصل ختم وفض . وكل صاد في
بحر كانون كنون . وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسنون . وللأحوال
أحوال . وللأهواء أهوال . وللشمال شمول . وما للقبول قبول .
وللجنوب ندوب . وللديور في ادبارها واقبالها هبوب . وللصبا
صبايات وصبايات . وللندي الندي جنايات وسرايات . وللجو
الجوي آيات ونكايات . وللغمائم غماغم . ولهام الربا من هامي
الرباب عمائم . وللذكباء نكبات . ولشبا شباط شببات . وللرواعد
رواعف . وللهواتن هواتف . وللأرواح رواح وغدو . وحركة وهدو
ومحبة وسلو . ونزول وعلو . ونصفه وعدو . وللرعايا العرايا من
الرياح الحيارى رذايا أذايا . وخبايا المروج الثابتة في زوايا الذلوج
النازلة خفايا . والعواصف القواصف عواص غير قواص .
والعارض عارض للحب في العراض عراض . والقوارس قوارص .
والخوالس خوالص . والبحر في هيجانه والغيم في هطلانه .
والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم . ولطف الله به قد خص وعم .
والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا .
ولتجهيز البذل في المراكب الى عكا . والسفن تدخل اليها بالأزواد .
وتعود وترجع اليها بالأجناد . ويحرص ويحرص ويرسل الى
السلطان ويستنهض . والسلطان يفاوض النواب في ذلك . واليه
يقوض . وفي كل يوم يعرض الرجال . وينفق فيهم الأموال . والأمر
مستمر . والقرار مستقر . واليزكية زكية . وسنتهم في المناوبة

- ٦٩٦ -

سنية . ولوافح عزماتهم ذاكية وذوافح مكرماتهم ذكية . والمماليك
الخواص ومن خصهم وعمهم الاستخلاص . يغادرون به
ولا يبارحونه . والعدو على عكا حاشد . ولضالة ضلاله ناشد .
ويحتمون ويحمون . ويرامون ويرمون . ويذبون ويشبون . ويخبون
الى الكفرة بسوط العذاب ويصبون . وقد قسموا الاسوار على
الاجناد والابراج على الامراء . واستقبلوا النعمة في البلاء والسعادة
في المشقة التي تعدها الاشقياء من الشقاء . ان وجدوا غرة
اهتبلوها . او استوعروا كرة استسهلوها . او صادفوا ملمة
صدقوها . اولقوا غمه كشفوها . او صرفوا اوجههم الى نائبة
صرفوها .

ذكر ما تجدد من الحوادث وتكرر للعزائم من البواعث

في يوم الاربعاء تاسع المحرم . سار الملك الظاهر لقصد بلد
صافيتا بالعزم المصمم والرأي المحكم . وفي ثالث صفر عزم من بقي
من اصحاب الاطراف السقر . فان السلطان رخص لهم في ذلك .
فانتهجوا في عودتهم الى بلادهم المسالك . واقام السلطان في
اصحابه . وخواصه وملازمي بسابه . وملازمي جنابه . ورجال
رجائه . وخلص اوليائه ومقربي امرائه . وفي هذا اليوم رحل الملك
المظفر تقي الدين ليتسلم مافي شرقي الفرات . من البلاد التي كانت
مع مظفر الدين . مضافة الى ميفارقين . فصارت معه جبلة
واللاذقية والمعرة وحماة وسلمية والرها وحران وسميساط والموزر
وميفارقين . وشرط معه ان يحافظ على عهد صاحبي آمد
وماربين . والبلاد المظفرية كانت قد بقيت الى هذه الغاية . مع كثرة
الطالبين لتلك الولاية . مضنونا بها على الخطاب غير مسموح بشيء
منها للطلاب . فانه مرامها من الملوك اخي السلطان وأولاده الا من
يشترط الفسحة له في استضافة ديار بكر الى بلاده . ويقال له
لا سبيل الى قصد أحد ولا انتزاع بلد ولا ازالة يد . فان ارباب البلاد
اكثرهم لنا معاهد . وعلى ودنا معاهد . وفي شغلنا مساعد . فاما من

هو عنا متقاعد . ومنا متقاعد . فما هذا أوان مكافأته ولا زمان كف أفاته . وهو منا في حصر مخافاته . وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق وعزنا في قمعه متحقق . فلا نثير علينا من المسلم الكاشح والحاسد الحاشد . ومن يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأي الراشد . فقال تقي الدين أنا لي في ذلك الجانب ميا فارقين فاذا أخذت حران وسميساط والرها . أدركت من تكثير العساكر وتقويتها المشتبه . وبلغت المنتهى . وأنا أدخل على الشرط وعنه لأخرج وأجمع العساكر والى نصركم —ورد في الروع ومصدر ، وما زال يستسعف السلطان عمه . ويستتره في تخصيصه بتلك الولاية عزمه ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل . حتى أخذ دستوره . واستكتب مذشوره . وسار على أنه يسرع أيا به ، ويحكم في العود أسبابه . واذما يلبث ريثما يقسم تلك البلاد على مقطعيها ، ويرسم نوايه فيها . ثم يطلع علينا طلوع السحاب . ويأتي بالآتي العباب . ويعرض عساكر لا تدخل في الحساب . وسارع الى الرحيل وسار بعد ما استشار ولله استخار .

وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد . والجواد الماجد . أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه . وهو الجري الذي اذا جاري اضرابه من الملوك في حلبة المجد لم يدركوه ولم يشركوه . ومضمون الكتاب أنه خرج في آخر المصرم على جشير العدو بطرابلس واستاقه . ولم يطق الكفار لحاقه . واقتطع لخاصة منه اربعمئة رأس تلاف منها في الطريق أربعون . غير ما كان اصحابه منها يقتطعون . وأنه غنم أيضا ابقارا وأبقارا . وسار بالغنمة سارا . وأهدى لي من ذلك بغلة سرجية عالية فارساه فرنجية . وقال رسوله لما ابصرها واستحسنها . قال تصلح للعماد فانه اذا ركبها زينها . وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت . كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت . وكان فيها من الفرنج خلق . فغرق في بحر الأسر من لم يسر اليه في البحر غرق . وفيهم امرأتان سيبتا . وماهيتا بل اهيتا . وشاهدت الأسارى . قدام السلطان وقد احضروا فردهم على النين اسروا .

وفي اول ليلة من شهر ربيع الأول . خرج اصحابنا من البلد على العدو بالنائب الاعضل والناب الاعصل . وكبسوه في مخيمه . وخبموا عليه في مجثمه . فما انتبهوا لهم حتى اسروا من الفرنج وقتلوا جمعا . وأوسعوههم الى ان ضويعوا قمعا . وعادوا سالمين غانمين . كاسرين كاسبين . ومعهم اثنتا عشرة امرأة في السبي . وعرف الله لهم حق ذلك السعي . وفي الأحد ثالث هذا الشهر . شهر سلاح الحرب اهل الكفر . وخرجوا على اليزك وكانت الذوبة للحلقة المنصورة خواص السلطان مساعير المعترك . وعظمت الوقعة . وقضت الروعة . وصدمت الصدعة . واحتدمت على الفرنج بناورها الصرعة . وهلك منهم عالم كثير . وقتل منهم مقدم معروف كبير . ولم يفقد منا الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه فلم ينتعش . واستشهد ليعيش في الآخرة من في الدنيا مات في سبيل الله ولم يعيش . وهذا الخصي كان فحلا من الفحول . ناهضا على الكفر للاسلام بحمل النحول . وانتهى الينا ان الفرنج على عزم الخروج . ليحدثوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج . فلا مرعى لدوابهم ولا علف . وان لم يتلافوها بالاحتشاش خشوا عليها القلف . فأمر السلطان اخاه الملك العادل . ان يذهب ويقصد الساحل . ويكمن بهسكركه وراء التل الذي كانت فيه قديما منزلته . وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته . ومضى السلطان بنفسه في خواصه واجناده . وأقاربه وأولاده . فكم من وراء تل العياضية . في العصابة المنصورة الناصرية . وذلك يوم السبت تاسع شهر ربيع الاول . مستظهرا بصحبة ولده الملك الأفضل . ومعه ايضا اولاده الصغار ليستأنسوا بالحرب ويدمذوا على مباشرة الطعن والضرب . فعرف العدو الخبر . فما اقدم على الخروج ولا جسر . فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء . فبات فيها وحوله الملوك والامراء . ووصل اليه من بيروت خمسة واربعون اسيرا من الفرنج . اخذوا بالمراكب في البحر من اللج . وفيهم شيخ هم هرم . عمره في الكفر منصرم . قد طعن في السن . ووهن كالشن . وانحنى كالحنثية . وما أمن من المنية . وتحاماه الحمام . وعامت في بحر لياليه وايامه الأعوام . وهو ممسوخ الحليه . ممسوح اللحية . قد بلى مما بلى . وقلبي من طول

مالقي . وسئم حياته وسئم . وعدم لداته ولذاته وما عدم . وكم
جاوز قرنا وعبره أري قرن . وبارز قرنا ونازله بعد قرن . حتى لم
يبق منه الا اهابه . ولم يرقب منه الا زهابه . فتعجب السلطان من
مجيئه من البلاد الشاسعه . واختياره الضيق على الارجاء
الواسعة . فسأله كم بينه وبين وطنه . ولأي سبب حركته من
سكنه . فقال اما بلدة فعلى مسافة شهور . وانما خرجت بقصد
كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور . فرق له ومن عليه بالاطلاق .
واخرجه من ذل الرق الى عز العتاق . ورده الى الفرنج راكبا على
فرس . ولم ير قتله ولا اسره حيث رأى نفسه مرتهنة بذفس . وسأله
خدام اولاده الصغار . ان يأنن لهم في تجريب سيوفهم بجرح
الاسارى الكفار . فلم يأنن لهم في ذلك واباه . فأرضى كل منهم
بامثال الأمر الذي أباه . فقليل له لآي سبب منعته من ثواب الجهاد
المغتتم . فقال بلئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم . فانظر ما
تحت هذا القول من الرأفة والكرم .

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام

اول من قدم من العساكر الاسلامية علم الدين سليمان بن جندر .
وكان بحلب المقدم المؤمر . وهو شيخ له رأي وتجربة . ومنزلة كبيرة
ومرتبة . ومعه حصنا عزاز وبغراس . وللسلطان بقربه ومجاورته
الاستئناس . فقدم في شهر ربيع الأول في عسكره . وابيضه واسمره
وبيضه ومغفره . وجني جنده وسني سنوره . وجلبه ولجبه . وزمره
وعصبه . وبيارقه ويلبه . وبوارقه وسحبه . وقدم في ذلك التاريخ
بقدمه الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك . وقد
استصحب معه مماليكه الترك . وقد ذوى بالمشركين القتاك .
واستترهم الهتك . ولدمائهم السفك . فوصل بقواطعه وقواضيه .
وصوافنه وسلاهبه . وطلائعه ومقانبه . وحضر من المحاسن بكل ما
يعرب عن مناقبه . وقد زين ليل القساطل من اسنه العوامل يكواكبه
واظماً جواده ليرد به دماء اهل الكفر فانه يعدها من مشاربه . فعن

- ٦١١٠ -

ذلك اليوم من القادمين والمتستقبلين بذلك القضاء جيش زرت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء . وجرى ذلك الوادي مع الأجناد والأمراء بسيل خيل تردأ ماء (٤٩) الدماء . وخرق ذلك الخرق أرعن في حافات الخرق . ومن عاداته بعداته الحرق ، ومن أقاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق . ومن علاقته عند الظماء ان لا يرويه الا العلق . ومن صبابته بالسير الى عناق الاعداء بسواعد سيوفه الخبب والعنق . ومن شيمته عوض التغلف بالعبير التضمخ بالنجيع . ومن ييمته وبل الذبل من الاحداق والنواظر في نواضر حدائق الربيع . ومن صنعته اسماء حنين الحنية بسهمه . واسماع أنين المنية لخصمه . وجلونا في ذلك اليوم فوارس لاعرائس . وقوانس لا عوانس . وقدم بدر الدين مودود والي دمشق بعد ذلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، وبشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر

ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكا واسمه فليب

وفي ثاني عشر ربيع الاول وصل ملك افرنسيس الى القوم وصان حبلهم وشملهم من البت والشت . وكان وصوله في بطس ست حملت من الفرنج كل ذي شؤم ومقت . وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله . ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجري على قوله . وانه اذا جاء حكم واحكم . ونقض وابرم . وقدم ما قدم به من المال وأقدم . ونحن منه على مواعدة . فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة . ووجدة عن الفقر مباعدة . فقلنا لهم رب صلف تحت راعدة . وما هذه الأراجيف منكم بواحدة فلما وصل في العدد القليل ، والنظر الكليل ، اعجبتنا قلته ، وتشابهت عندنا عزته وذلته ، وقلنا ما يكاد تصل صولته او تدوم دولته .

نادرة

وكان مع هذا الملك باز اشهب . كأنه عند ارساله نار تتلهب .
ففارقه يوم وصوله . بحيث عجز عن حصوله . وافلت من يده وطار .
وحشا حدشاه الباز الذي نار النار . ووقع على سرور عكا . وحزن
الملك يوم سروره بفراقه وابكى . واستجابه فما استجاب . وابى
وما أب . وثبت وما ثاب . فبصر به اصحابنا فأخذوه . والى
السلطان انفذوه . فأبدى للسرور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزة من
بز الباز . واظهر به احتفالا . وعده للظفر والمنحة فألا . وبذل فيه
الملك الف دينار فما اجيب . ولا وهب له ولا هيب . وما بيع ولا
عيب .

خبر نادرة في غنيمة وافرة

كان المستأمنون من الفرنج الينا . تسلموا براكيس يغزون فيها .
يجرون بجواريتها . وينهضون بسواريتها ورواسيتها . وينهشون
بعقاربها وافاعيها . ووصلوا الى ناحية من جزيرة قبرس يوم
عيدهم . وقد جمع القس في كنيسة لاهلها شمل قريبتهم وبعيدهم .
فصلوا معهم فيها صلاتهم . ثم اغلقوا ابواب الكنيسة عليهم ليأمنوا
افلاتهم . واسروهم باسروهم وسبواهم . وبغتوهم من البلاء بما
اتوهم به وبلوهم . وكذبوا كل ما كان في الكنيسة . من الاغلاق
الذقيسة . وقسوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم الى براكيسهم .
ولاذوا باللاذقية وباعوا بها كل ما اخذوه من البيعة ومن الجملة
عشرون ذسوة سبيا . وصبيان وصبايا . فباعوها رخصا .
واقدموها خرصا . وزادوا بما نالوه خرصا . واستغنوا مما
استغنموه . واثروا بما اثاروه . واثروا وفرحوا بما راحوا به من
مغنم . وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم اربعمائة درهم . وفي
سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية

فاقتطعوا من غنم الفرنج غنيمة . وخالطوهم في خيامهم وامطروهم من وبل النبل بيمه ، وركبوا باسرههم بخيلهم ورجلهم في اثرهم . فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل .

خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليجرت الى قبرس واستيلائه عليها

وصل الخبر ان ملك الانكتير وصل الى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر . في الجمع الوافر . حاملا جموعا كالسيل الجارف في البحر الزاخر . وتقدمته الى الجزيرة . مراكب وشوان على قصد الجزيرة . فخرج صاحب قبرس اليها واستولى عليها وغنم اموالها وصدم رجالها فلما وصل اهرق دما عزمه . وأفضى فيض غيظه الى غيظ حلمه . وهو مغضب غير مغض . مريض من الم الحقد ماله سوى التشفي شاف مرض . قلبه مفاكرا . ومكث متحيرا . وتروى متخيرا . فرأى ان قبرس في يده فاستن من جده في جدد . وناشب القتال . وواظب النزال وقارع بالنصال النصال . وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالاعناق . واعتناق الفلاظ مع الرقاق . ونفذ يطلب من الفرنج على عكا نجده . ليجد شدة ويوجد شدة . فنفذوا له جفري اخا الملك العتيق . في جموع مترافقة الرقيق . وامتدت الحروب . واشتدت الكروب . ورأى ان فريضته تعول . وان حالته تحول . وان شغله يطول . واتفق ايضا انه كان رام الروم من الفرنج الفرع . وخطب كل واحد من ضيق الخطب المخرج المخرج . فتراسلوا في الصلح . وخرجوا من ليل الحرب المظلم في سنى السلم الى اسفار الصبح . واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير . واثقا بما تمن من التقريب والتقريب . وحمل له هدايا . وتحفا سنيا . ووسع له الأزواد . وبذل له الامداد . فأخذ في مأمنه . وابرز له مكره من مكمنه . وغله ثم غله . وشده وما حله . وجازاه لما اعزه بأن اذله . وغادره بغدره .

في القد والقيد . وما بطشت يد عادمة الا يد كيد الكيد . واستولي بالاستيلاء عليه على تلك الجزيرة ، وغرق في جماء (٥٠) امواله الجزيرة . وسيأتي ذكر ورويه ، وما تم به لاحزاب الشيطان وجنوده وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الاحد . وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة . وبالنجاح متجددة . وهوان اصحابنا اخذوا عند الثغر بمراكبهم الغازية في البحر من مراكب الانكثير خمسة وطرانة . ولم تكن لولا ابناء رجالها للضيم معتاده . وبحزام القهر مقتاة . وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال . ونخائر اخاير من عنة ومال ، واثقال وانفال . واخشاب والات واحمال واحوال . وفي الطرانة اربعون رأسا من الخيل الجياد . قد جلبوا البلاء بجلبها من البلاد . فحيزت وحيزوا . واجيزت الى بيروت واجيزوا . فاما السبايا فقد اخرجن على البيع بالنقود والنسايا . واما الاسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء .

وفي يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد . بالجد والجلد . والعدد والعدد والمدى والمدد والجمع المحتشد والجمر المتقد . والبيض واليلب . والبيض والقضب . والسمر السلب . والجب والجلب والصياح والضجيج . والعجاج والعجيج والوشيج بالوشيج والامر المريج . والقصد بالقصد . والزغف والزرد . والحديد والعديد . والقريب والبعيد . والاتباع والعييد . والاوباش والاشاب . والكلاب والذئاب . والسباع والضباع . والضواري الجياع . والاساود والاسود . والزرق والاحمر والاسود . ودبوا وذبوا . وشبوا وسبوا . وصابوا وصبوا . ونابوا ونبوا . وغبوا وعبوا . وجابوا وجبوا . وزحموا ورجموا . واقدما وتقدموا . وقدموا سبعة مجانيق وقربوها . ونصبوا فيها ونصبوها . فعلت كأنها قلاع . وارتفعت على التلاع كأنها تلاع . وهي في الجو مترامية . وبالجو رامية . وفي السماء سامية . ولاهل النار الحامية حامية . مرتفعة على مرافعها . مقتلة بمقالعها . منقضة احجارها لانقضاخ الجدار . منقضة اسواؤها لانقضاخ الاسوار . حاصرة حاصبه . عاملة ناصبه . قائمة قاعده . بارقة راعده . صادمة

صادعه . صارمة صارعه . حبال من الجبال أجنتها . وحنايا للحنين
على سهامها من الحجارة رنتها . ومواضع في حجورها الاحجار .
ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والنيار . حوامل على الطلق . صوائيل
بالفلق على الخلق . مطايا للمنايا . روايا لخباياها البلايا . في
كفاتها افاتها . وفي حركاتها ادراكاتها . وللتعذيب عذباتها .
وللترهيب جذباتها . وما اعظم جنايات جنادلها . واظلم غوايات
غوائلها . وهي الروائم الروامي . والحوائم الحوامي . والهوام
بالهوادي . والصوام الصوادي . ودواعي العوادي . ودواعي
النوادي . والنواعب بالنوى . والجوائب بالجوى . والصوائب
بالمصائب . والنوايب بالشوايب . اذا جذبت جذت . واذا قذفت
اقتت . واذا طوحت طرحت . واذا حلقت حلقت . واذا اطارت
ابارت . واذا اقلت القمت . فشق على اصحابنا بالبلد شقاقها .
وكادت تفتح اليه الطريق طوارقها وطراقها . فاستصرخوا بنا
وانهضوا . وحضوا على حظنا وحظهم وحرضوا . واستنفروا .
واستنصروا . واستعدوا . واستدعوا . فاصبح السلطان راكبا في
العساكر . طالبا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر . وسير من
كشف هل للعدو كمين . او كيد دفين . ثم وقفت العساكر عنه ومر
الى تل الفضول بالقرب . وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب .
ونكايتها في الضر والضرب . وعرف اماكن القتال . ومكامن
الرجال . وكلاما شاهد الفرنج عسكرنا قد اطل واظل . ذل جمعهم
وكل . وترك الزحف وانفل . واذا عادوا وعدوا . واناوا في الحرب
واسدوا .

قصة الرضيع

كان لصوصنا في الليل استلبوا طفلا من يدا مه . وقطموه رضيعا له
ثلاثة اشهر في غير اوان فطمه . واستحلوا بحكم الجهاد في جنح
الظلام ظلمه . وفجعوها بواحدتها وساعدها . وكدروا صفو

مواردها . وقطعوا عنها فلة كبدها . واسعروا عليها جذوة كمدتها .
وحرموه در لبنها قدر دمعها . وابعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر
عن كل حديث سمعها . فخرجت والهة . والحياة كارهة . وللخد
خادشه . وللوجه خامشه . معولة مولوله . مذهلة مشتعلة . وقد
شهدت ودهشت . وتاهت واستودشت . قد سلب عقلها . مذ سلب
طفلها . وغاب ذهنها . مذ غاب ابنها . وتكرر بالحنين والانين
ترجيعها . وتردد للقلوب مما فجأها وفجعها من الكروب تفجيعها .
وهي نائحة في كل ناحية نادية في كل ناد . نادية لكل فؤاد . عابية في
كل واد . فلم يشعر السلطان الا بامراة بالباب واقفه . وبالنحيب
هاتفه . وللدموع حادرة بتصاعد انفاسها . ومن الخلق مستودشة
لذهاب استثناسها . قارضة صدرها بتقطيعها . ضارعة لفقد
رضيعها . معولة على الطفل معولة على اللطف . متذكرة من الذكر
متعرفة الى العرف . فاحضرها السلطان وهي باكية . وناراكتئابها
ذاكية . تتحدر عبرانها . وتتصعد زفراتها . وتتلهب حسراتها .
تبكي ببكاؤها . وتشكي من دائها . وتتشدد ضالتها . وتطلب
مهجتها . وتسأل عن حشاشتها . وتشغل نار قلبها على فراشتها .
فلما شاهد السلطان حريبة حزينة . مسكينة مستكينة . متجينة
متحننة . مولعة مولهة . موجعة متوهه . سمع شكواها وفهمها .
ورثى لبلواها ورحمها . ورق بلطفه للطفل الرقيق . وسلك بفضل
طريق التوفيق . وطلب الرضيع . فقل له انه بيع واضيع . فان
أخذه باعوه بثمن بخس . ولم يعرضوه في سوق بز ولا سوق
نخس . فما زال يبعث ويبعث عنه . ويلوم باذله كيف لم يصنه .
حتى جيء به في قماطه . وقد كاد يلف في عباءة اعتباطه . فلما
بصرت واحدها . ضمت عليه ساعدها . ودعت وعدت . وشدت يدها
به وشدت . فأعادها . وبذواله افادها . وبرد حرها برد روحها .
وأسا ما اساء الاسبى من جروحها وقروحها . وروحها بروحها .
وفرع دوحها . واغناها بغنائها للشكر عن نوحها . وظهر سر
سرورها عليها بدوحها . وشيع معها من اوصلها الى موضعها . وقد
اجتمع شمل المرضعة بمرضعها . ومارد الطفل الا بعد ما اشتراه من
مشتريه بثمن يرضيه . وهذه نادره من جملة اياميه .

ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية

لما اصر الفرنج على مضايقة عكا في كل يوم . وخطبوا متاعبهم في
اقتياعها بكل سوم . وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعوم .
وناروا حول حمى دارها بكل حوم . ولم يكن بد من ركوب السلطان
بالعساكر اليهم في كل بكرة وعشي . وارعاب الذوم بكل حد مرهوب
وجد مخشي . وكانت المسافة نائية . والآفة دائية . انتقل السلطان
الى تل العياضية . بعساكره واثقاله بالكلية . بالعزائم والصرائم
الماضية الماضية . الراضية المرضية . ولم يكن انتقاله دفعة واحدة .
بل مهد له قاعدة . فان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلغه ان
القوم قد عادوا العوادي . ورفعوا من ضلالتهم الهوادي . وضايقوا
البلد اشد مضايقة . وعالقوه اجد معالقه . فامر الجاوش حتى
نادى . وباكر الغدو بالعساكر وغادى . ووصل بالفارس والراجل
الى الخروبة وقوى اليذك . والزم المقدمين والامراء بحفظ نوبهم
الدرك . وقدم جماعة من الخيل لعل العدو اذا عاين قتلها خرج
بالكثرة . وتورط في العثره . فلم يشغل بها بالا ولم يلفت اليها
جنانا . بل تصرف على عناده ولم يصرف نحوها عنانا . واشتد على
البلد زحفه . وامتد عسفه . فساق السلطان بالعساكر وهجم وترك
العدو الحصار واحجم . فلما جاء الظهر رجع العدو الى مجثمه .
والسلطان على قصد العدو الى مخيمه . ولما وصل الى تل الخروبة .
ونزل في خيمة لطيفة لاجله مضروية . وصل من اليذك من اخبره ان
العدو لما علم انه قد انصرف . عاد الى اشد ما كان فيه وزحف . وانه
قد اربع وارعف . وارهق وارهف . والهى والهف . وارهب
وارهج . واعجز وأزعج . وثار وأثار . والحم الملحمة بناره وأثار .
فبعث السلطان هذا الخبر على ان بعث الى العساكر بالمخيم
فأعادها . واستنهض الى الفريسة أسانها . واجرى في حلبة
الحمية جيانها . ودعاها الى طعن يبرح بالذوايل . وضرب يرنج
اعطاف المناصل . وامرها من الحرب بأمرها . وأدارها من مري
اخلاف الدم بأمرها . ثم سار اخر ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى

الى تل العياضية قبالة العدو . وضرب خيمته باعلاه ظاهر العدو .
والعدو بالحصر والزحف مصر مضر . وعلى عنائه وعنايه مستمر .
والسلطان في كل يوم يصاحب القوم بالقتال ويماسيهم . ويرواحهم
ويغاديههم . ويفاتحهم ويبادلهم . بضرب كما اشترطته حدود الطبا .
وطعن كما اقترحته كعوب القنا . وفك كما تمنته المنية . ورمي كما
حنث اليه الحنيه . هذا ومجانيق الكفر على الغي مقيمه . وللرمي
مديمه . وبالا حجار متقاطره . وعلى الاقطار حاجزة . وللجلاميد
قارعه . والصخور بالصخور قالعه . وتمكن الفرنج بها من الخندق .
فدنوا منه بذو الخندق . وشرعوا في هجمه . واسرعوا الى طمه .
وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب
النافقات . حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم . ويحملون اليه موتاهم .
واصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم قد اقتسموا فريقين . واقتربوا
قسمين ففريق يلقي من الخندق مالقي فيه . وفريق يقارع العدو
ويلاقيه .

ذكر وصول ملك الانكتير

وفي يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور . اشاع اشياع الكفر سر
السرور وعقدوا حبا الحبور . ووصل ملك الانكتير . واظهروا انه في
الجمع الكثير والجم الغفير . وكانت معه من الشـواني خمس
وعشرون قطعة . كل واحدة منها تضاهي تلعة وتوازي قلعه .
وأحدث في القلوب روعة . وأرث في الذفوس لوعة . ولعبت لنا من
خيامهم تلك الليلة نيران زائدة . وأذفاس للشرارة متصاعدة .
والأسنة للشعل نضناضه . وأشعة على الجو مفاضه . فكانما أوردت
الجحيم لقدم وارد نارها نارها . وأوصلت لوصول اولئك الشرار
شرارها . وأورت لهم أوارها . وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت
على أهل البياجير الاضواء وهتكت عنها لهتك ستر الظلام ضلالهم
الظلماء . فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم . ولما كادوا من أهل النار

ببرهانهم . وأنتهم باتيانهم . وأضافتهم في مكانهم . ومالك الملك
بأمره أمرهم . وأراهم أن بيده نفعهم وضرهم . وملأ عين الملاعين .
وأطال لتناولهم أشطان الشياطين . وحفر للمكايد أبارا . وأثر في
المكر آثارا . وأثر للشر نارا . وأثار لنصرة النصرانية ثارا .
وتحدث الناس بحادثه وحديثه . وبما تأثرت القلوب به من تأثيره
وتأثيره (٥١) . وارتابوا وارتاعوا . والتاحوا والتاعوا . وغدت
الأسنة ترجف والقلوب تجف . وكاد الباسل يجبن . والباطل
يخشن . والحق يلين . والدين يبين والسلطان قوي الجنان . روي
الايمان . صاف يقينه . واف بينه . شاف نصحه . كاف نجحه .
مثبت جديسه بثبات جأشه . عامل لمعاده . ونصر الحق في معاشه .
متأن في تفكره . متأت في تدبره . متوكل على ربه في نصرته بينه .
متوسل اليه في تأييده وتمكينه . لاتروعه المخافات ولا تخيفه
الرائعات . ولا تزعزع الخطوب طود وقاره . ولا تفض النوائب خيم
نماره . ولا يلين للشدائد . ولا يستكين للروائع الرواعد . وكمن سكن
الاسلام بحركاته . واخصبت الايام ببركاته ونام الانام ليقظانه .
وأمنت مصر والشام بنهضاته . فما راعه ما عرا . وما درأ عزمه لما
درى . ولا رد وجهه عما قصد . ولا صدف رأيه عما عليه اعتمد . بل
ازداد قوة بصيره . وازدان بسريرة لكشف اسرار الغيب مستنيرة .
وعمد إلى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل . ودلف في الارض
فوهب تربها للقسطل . وأعلم ملك الانكثير ان جمع كفره للتبشير .
وان نشاط سره للتفتير . وان أسنة اهل التوحيد مولعة من نحور
أهل الاشراك بهتك الستير . وركب في مراكب حلت المنايا الحبا في
كتائبها . لتحدي اعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها .
بخيل تأبى الضيم مثل إبابه . وفخر مثار الذقع يذوب عن لوائه .
ووجه كالمع البرق في ضيائه . وقلب كصدر العضب في مضائه . وأقام
السلطان على هذه الحالة . ساميا في مطالع الجلالة . لم ينض
سلاحه . ولم يخفض جناحه . ولم يركز رماحه . ولم يردع للروع
مراحه .

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر في بيروت بطسه . وزادها من العدد والالات . وأودعها من كل نوع ميره ، وكلاها غلة ونخيرة . وأركب فيها زهاء سبعمئة رجل مقاتلة لهكا . من كل من طهر وتزكى . وشكره الاسلام إذا الكفر منه تشكى . فلما توسطت ثبج اللجة . وتورطت على نهج المحجة . صادفها ملك الانكثير . بحكم قضاء الله والتقدير . وأحدث بها شوانيه . وعدتها عوانية . وقاتلتها نصف نهار . وهي لاتذعن لاقتسار . فأكبت من العدو مراكب . وجبت لها غوارب . وأحرقت وأغرقت . وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت ، وقتل من الفرنج خالق عليها . وما امتدت يد عدوانهم اليها . فلما يئست من سلامتها . وزلت عن استقامتها . وجالت على الاصطلام . قال مقدمها : علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل . والشع بالدين أحب إلينا من البذل . فنزل إلى البطسة فخرقها ومانع عنها حتى أغرقها . وسعد أهلها . وأقترقت وسيجتمع في دار النعيم شملها . ووصل إلينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الاولى . فقلنا الدهر يومان : نعمى وبؤسى . وما يزالان على ذلك حتى يزولا . وكانت هذه الواقعة أول حادثة للوهسن محدثة . وللهم مورثه . ولنار الآسى مؤرثة .

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة . قد أظهرت لها في الشر غائلة . ولها أربع طباق . شدها على الارتباط باق . ولها من الاحكام باس ولباس . وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس . وقربوها الى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس . وفي طباقها سباع ضوار وذئاب طلاس . وبلي البلد منها بكل بلية . ورزي بكل رزية . وكانت هذه الدبابة على العجل . ليقتربوا بتقريبها أسباب

الأجل . فباتت القلوب منها على الوجل . وكاد أصحابنا يطلبون
الامان . وخضع كل أبي واستكان . فقارعوا عندها أشد قراع .
وماصعوا أجد مصاع . وتوالت عليها من مساعير الرهط . قوارير
الذفط . وهي تضرب في حديد بارد . وتضرب عن كل شيطان مارد .
وتدبو عن الاحراق وتنبي عن الاخفاق . حتى بدت قارورة انقضت
على شيطانها كالشهاب . فاخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسومهم في
الالتهاب . فعودناها بسورة (والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم
وما غوى) فجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب . ومن حر
انفاسها برد الذفوس . وكشف شعاعها ظلم الكروب . ونزعت
بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس . وأنارت نارها لنا بكل نور .
ولهم بيوار قوم يور . ودبت شعلها في أضلاع الدبابة وجذوبها .
فاحرقها الله احراق أهلها بنذوبها . وكما أضاعت الافاق بنيرانها .
اظلمت بدخانها . فجلت لنا بياض النصر في السواد . فكانه سواد
الناظر أو سويداء الفؤاد . بل سواد المداد يأتي من أنواره بالامداد .
فجلا حريق هذه الدبابة صداً قلوبنا المغتمة بالبطسة الغريقة .
وأحمت نارها في حماية الحق حمية حماة الحقيقة . فانما احترقت
الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة . فكان تشميتاً لتلك العطسة .

ذكر وقعات في هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا في عكا عند زحف العدو دق
الكؤوس . حتى اذا سمعناه جدينا في الزحف الى العدو بالذفائس
والذفوس . ولما أصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا
من كوس البلد نعراته . ونظرنا من جانب العدو مثار غبراته .
فعلمنا بزحفه . وعملنا في حثفه . وضرب الكوس السلطاني اصراخا
لصراخ ذلك الكوس . فتمايلت أعطاف ذوي الحمية من حميا العزائم
لامن حميا الكؤوس . وركب السلطان في كل مشمر للبرد . مضمر
للجرد . فضفاض السرد . قضقاض كالاسد الورد . مشتاق الى
الطرد . ملتاح من ماء الوريد الى الورد . من الترك والاكاديش

والعرب والكرد . يهوي الى الاقران هوي المصلتات الى الرقاب .
ويظمأ الى إرواء الاسل الظماء فيطيل صدى الخيل العرباب . وكل
ثمّل كأنه نزيّف الحميا . يعيد السماء من الارض بركضه شاحبة
المحيا . وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا
وقاره . وكل طلاع مع الذوب لاينام ناره . ولايثبت في الجفن غراره .
وكل منصلت ينير في ظلام العجاج بنجوم الاسنة . وكل مطرد يعيم
السوايح السوابق في بحور الأعنه . وكل رام فروج المازق حتى تفرى
بأيدي المذاكي . وكل شاك في السلاح مشكور في اشكاء الحق
الشاكي . وكل مصمم مصم درعه غير محقبة . وسهامه غير
مجعبة . وسيوفه غير مقروبه . وقبابة مداومة اجراء فيه غير
مضروبة . وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب
جحفله . وأبيضت بلمع التراثك مذهب قسطله . وأشتبهت في الذقع
الوان خيله . وامتدت الى قرار اللقاء أعناق سيله . فكانما غارت
الشمس من شمس شمس فتوارت بالحجاب . وعد الذقع في وبل
الذبل من حساب السحاب . وولجت العساكر عليهم في خيامهم .
وحملت ليالي القتامة الى أيامهم . وغلت الصدور بما فيها . حتى
وصلوا الى القصور على اثافيها . وهتكوا وفتكوا . وادركوا
وسفكوا . فتراجع الفرنج واصطقوا على خنادقهم . ووقعوا
بقنطارياتهم وطوارقهم . واجتمع عسكرنا لعلهم يحتمون ويحملون .
ويعلون من دمائهم وينهلون . وبخل الظهر وحمي الحر . فافترق
الفريقان . وتراجع الى خيامهم الجمعان .

وقعة اخرى

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر . ضايق أهل الكفر
البلد على الحصر . وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة . وكانت
من أشدها واجدها كريمة . غير انه في هذه الذوبة عرضت نبوة .
وكادت تتم كبوة . فان الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من

- ٦١١٢ -

عسكرنا داخل خنادقهم . فحملوا عليها بسباق رجلهم وراكبي
سوابقهم . فانتشب الحرب . واستجر الطعن والضرب . وكثرت
الجراحات . وكثرت الاجترافات . واستشهد ممن عرف من
المسلمين اثنان تسلمهما رضوان الى الجنان . وقتل من المشركين
جماعة اسرع بهم مالك الى النيران .

ومن عجائب هذه الواقعة . أن رجلا من مازندران من اهل
الرفعة . وصل في تلك الساعة وافدا . واستأنن وقت السلام على
السلطان ان يقدم مجاهدا . فحين شهد الواقعة استشهد . فلقى الله
بعهده كما عهد .

وقعة أخرى

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العدو فارسا
وراجلا . ورامحا ونابلا . وامتدوا من جانب البحر اطلابا .
وتحزبوا في ذلك الفضاء احزابا . وركب السلطان من مجالس
عادته . الى مجال سعادته . موقنا ان اداء عبادته . في إبرة العدو
وابادته . وتقدمت المقدمة وأقدمت . وجحمت نار اقدامها وما
احجمت . وما زالت نجوم النصول تنقض . وختوم النحور تنفض .
وعيون العيون ترفض . وبيون النحول وحقوق الحقود تقتضي وابكار
الدروع بحدود الذكور تفتض . في شعواء خضرها الثياب الغائب ،
ونكباء لها من الدوابل ذوائب . وبحر تسبح فيه السوابح . وشرب
بكاس المنية منها المهج غوايق صوابح . وغبراء اسود نبالها تدواب
عن عقارب القسي . وئعالب لهازم صعادها تتلاعب في اراقم
السمهري . وذباب ظباها تطن في مسامع الذئاب وعقبان راياتها
تحلق إلى مطالع السحاب ، وغدران سوابقها تفيض عليها جداول
القواضب . وغران سوابقها تفيض في غطامط الغياهب . وارواح
اغماها البارية عن الاجسام بريه . وقلوب اسادها الضارية على

الردى جريه . حتى نخل على ليل الذقع الليل . وجرى من بيمة الدم
السيل . والتفت لما التفت بالخيال الخيل . وأفرج المازق عن قتلى
جرى عليها من السواقي النيل . واستشه: من المسلمين بدوي
وكردى . ولكم وقع من المشركين رد رديء . له في الهاوية هوي .
وعليها من زفير جهنم دوي . وأسر من العدو فارس بفرسه . ولا مته
وقودسه (٥٢) . وتفرق الأفريقان عن المعترك عند معتكر الدجى .
وقد عم من الشجب ماشجا .

وقعة اخرى

واصبح العدو يوم الاحد التاسع والعشرين . وقد أخرج من جانب
النهر راجلا في عدد رمل يبرين . بقواطع يبرين . وقواطع يفرين .
وطوال غروب في الطلى يغرين وبالردى يغرين . وانتشروا ممتدين
وامتدوا منتشرين . فلقبهم اليك بكل من يزكبه عند شهوده مضاء
كالقضاء . ويوافقه القضاء في المضاء . وكل معتقل للريني اخف الى
الوغى من سنانة . وكل مشتمل للمشرقي خضيب الغرار ريانة . وكل
ملتم بعشير حصانه . معتق لعطف مرانه . وكل صبح كالصباح
نضارة وجهه في شحوبه مدفونة . وكل قارح على قارح شرارة عزمه
في سكونه مكدونة . وامتد راجلنا امامهم . وأثبتوا اقدامهم . وطال
القتال وطارت النبال . وحاضت الذكور . وفاض التامور (٥٣)
وأعمى العثيرة وعم العذور . واسروا منا واحدا فاحرقوه فصحب
نوره بين يديه الى دار القرار . وأسرنا منهم واحدا فاحرقناه فشبت
به تلك النار إلى النار . وشاهدنا النارين في حالة واحدة تشتعلان .
والصفان واقفان يقتتلان .

وفي يوم السبت الماضي هرب خادمان ذكرا أنهما لاخت ملك
الانكتير وانهما كانا يكتمان ايمانهما في سر الضمير . وأخبرا انها
زوجة صاحب صدقلية فلما هلك . صادفت في الاجتياز بها أخاها هذا
الملك ، فالزمها بان تتبعه واستصحبها معه . وقدراما النجاة من تلك

الفاجرة نجاة الآخرة ، فأكرم السلطان وفادتهما . وأجزل
بالاحسان افادتهما .

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب في ذلك

وفي الاثنين انسلخ الشهر ذكر عن المركيس أنه هرب الى صور .
وأنه كشف للجماعة المستور . ونفذوا وراءه قسوسا . والقوا عليه
من الضلالة في الاستمالة دروسا . فنبأ قبوله . وانقطع وصوله .
وكان سبب نفاذه . وموجب استشهاده . ان هذفري كانت زوجته
ابنة الملك الذي هلك والقدس في يده . وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل
ملكه الى ولده . وسواء في هذا الميراث . بين الذكور والاناث .
فيكون الملك بعد الابن اذا لم يخلف ابنا للكبرى . فاذا توفيت عن غير
عقب كان الصغرى . وكان الملك العتيق كي اخذ الملك بسبب زوجته
الملكة فعزلوه عن الملك لما احتوت عليها يد الهلكة . وبقيت هذه زوجة
هذفري . فاصبح المركيس عليه يجتري . ويقول لست من اهل الملك
لتكون الملكة لك زوجة . ولا بد لي من تقويم هذا الامر حتى لا أبقي فيه
عوجه . وغصبتها منه وصرفها عنه واتخذها له عروسا . وأحضر
لذكاحها قسوسا . وقيل انها كانت حبلى ولم تخرج من حباله
الحبل . فما شغلتهم حرمة الرحم المشتغل . وادعى المركيس ان
الملك انتقل بها اليه . وأن أمر الفرنج بشرعهم في يديه . فلما جاء
ملك الانكتير تظلم اليه هذفري والملك العتيق فاندفع بذلك له إلى
مواخنة المركيس الطريق . فاستشعر المركيس منه وما قر . وأخذ
معه الملكة وفر .

ذكر من وصل في هذا التاريخ من العساكر الاسلامية

وفي يوم الاثنين انسلخ جمادى الاولى قدم عسكر سنجار . وقد
سد بسواد عبيد النهار . وافاض ببياض حبيده الانوار . ومقدمه

مجاهد الدين يرنقش الشهم الشديد . والسهم السديد . واللمعي
اللودعي . والكميش الكمي . والنقاب الذقي . والعف الدقي . وهو
ذو همة في الغزو عالية . وعزيمة بالمضاء المضي حالية . وقيمة في سوم
السلطان لقربه غالية . وسريرة خالصة صافية من الكدر خالية .
وأكرمه السلطان في استقباله بذفسه واقباله عليه بأنسه . وسار
بعسكره الى ان وقف تجاه العدو من جانب البحر مماليي النيب .
وقد احسن في عرضه التدبير والترتيب . ثم عاد في خدمة السلطان
مكرما الى جذبه . مقدما على صحبه . فأنزله في خيمته وخصه
بمواكلته . وتقدم اليه بالنزول في ميسرته . وفي يوم الاربعاء ثاني
جمادى الاخرة . وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة . بالحنة
الوافرة والقوة الظاهرة . مثل علم الدين كرجي . الذي يسرع الى
لقاء اقرانه ولايرجي . وكسيف الدين سنقر الدوري دي الزند الوري
والسيف الروي وأمثالهما من المماليك الناصرية . والمساعير
الاسنية . أسد العرين . الشم العرانيين . الفرالميامين . وفي عصر
هذا اليوم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل الى الخروبة ونزل
بها . ليصل بكرة الى المعسكر بالعساكر في احسن أهبتها . فركب
السلطان اليه ولقيه وعاد . وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد .
وأصبح يوم الخميس في خميسه . سائرا بأساده في عريسه . مقبلا
بكل فارس من جيشه فارس من خيسه . في غلب كانهم اجادل
والجياذ مراقبها . وخيل كانها الظلماء والتراذك كواكبها . ونقع
كانه الاتي والمقربات قواربه . ومجر تصادم مناكب الاكام مناكبه .
وتملا الوهاد طوالعه وغواربه . عاريات غروبه . عاليات غواربه .
ثقال مذاكيه باعباء عواليه . كانما نهضت لاذكاء نار الهياج
حواطبه . وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقانبه . وتلقاه
من اولاد السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق . وهو من جملتهم
البحر بل الغيداق . والملك المؤيد نجم الدين مسعود ، وهو كاسمه
مسعود مجدود ، وتلقاه الامراء والعظماء والخواص والاولياء .
وساق على تعييته . واجابته دعوة الاسلام وتلبيته الى جانب
البحر . ليرعب اهل الكفر . وعرض وتعرض وعلم العدو بانه اليه
نهض واستنهض ، ولما انفصل السلطان أخذه معه الى خيمته

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكر وصول ولده ووصف الحال في ضعف البلد

قدم علاء الدين دام علاؤه في مقدمي الجنود الانجاد ، ووقف
اجتهاده على موقف الجهاد ، وما اكرمه قائما في المقام الكريم .
وعظيما خاطبا دفاع الخطب العظيم . ووصل فوصل جناح النجاح .
وانشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح . وجاء والكريمة
ذاهبة بالارواح . والحرب ساقية طلاء الطلي في صحاف الصفا .
وشارك في الجهاد وشد الأزر . وسدد الأمر وأزر وعضد . وظاهر
واسعد . ولاخفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع
ملوكهم وكذوبهم . وتوافد امداد حشودهم . وقد استشرى شرهم .
واستشرى ضرهم . واعضل خطبهم واستفحل امرهم . واشتغلوا
منذ وصلوا بنصب منجنيقات . وتركيب آلات ودبابات ، وزحفوا الى
بلد عكا بجمعهم . ووقدوا بجمهرهم . واخذوا فيه ذقوبا . وحكموا في
الاسوار من الاسواء بضرب المجانيق ضروبا . والثغر الآن قد
اشرف . والعدو بخندقه محتجز . وفرصة الغفلة عنه منتهز . ومن
جثوم الموت عليه في مجثمه محتزر . ولم يبق الا ان يتدارك الله الثغر
بلطفه . ويجريه على المعروف من عانة نصره وعرفه . والمجاهدون
فيه قد هانت عليهم المهج . ووضع لم في ثبات جنانهم المنهج . وفي كل
يوم يسدون بأشلاء الهاجمين التلم . ويجلون عنهم بما يشبون من
نيران الظبا الظلم . والعدو قد لج . والحديد من قرع الحديد قد
ضج . والبلد مشف . والبلاء عليه موف . والمأمول من الله ان يأتي
من نصره بما ليس في الحساب وان يعيد ما جمع من امر الأصحاب
الى الأصحاب . ويكفي هذه الذوبة الصعبة فهو كافي الذوب
الصعاب .

فصل في وصف عسكر عماد الدين

وصلت العساكر التي وفّت بعدتها المناجده . ووافّت بعدتها المنى
جده . واقبلت اقبال الآساد في عرين الوشيح . وماجت موج البحار في
غدير الزغف الذسيح . واستهلت استهلال الرواعد البوارق . وأملت
بالعدا المام العوادي الطوارق . ولقد جاءت في وقتها منجدة من
جده . موجدة للانتقام من الكفر بكل موجه . واستظهر الاسلام
بظهورها . وسفرت وجوه النصر بسفورها . فأحجم الكفر
باقدامها . وانتظمت احداق المشركين في عقود سهامها . وخيمت
مضارب المضاء بمضارب خيامها . وفرض بالقضاء ختام قتامها .
وما اشكر الدين والاسلام لعزائم عماده وغيائه . وابعث امداد الظفر
لاحتزاز نصل نصره وانبعائه .

فصل في الاستنفار

قد عرف ان العدو قد احتشد بجميع ملوكه . وغصت مسالكه
وطرق بطوارق سلوكه . وهو حديد الشوكه . شديد الشكه . قد لجّ في
حصر الثغر ونصب الآله . وركب عليه منجنيقاته . ووالى الضروب
من الضرب . واخذ منه مواضع في الذقب . وقد اشفى على خطر
عظيم . وخطب جسيم . واذا لم يصل في هذا الوقت فمتى . ومن اتى
في غير الوقت المحتاج اليه فما أتى . وهذا اوان رفض التدواني .
ونهبوض المسلمين من الاقاصي والاداني . والوصول بكل ما يقدر
عليه من العسكر . والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الاظهر والجد
الاوفر . وهذا يوم الحاجة وأوان الضروره . والنهبوض بعسكره الى
نصرة عساكرنا المنصورة . فلا يجنح الى عذر فللا عذاراوقات ، ولا
يلتفت الى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين الى سواه التفات .
وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم . ويتقاعد عن هذا
المقام العظيم وهو عظيم .

ذكر خروج رسل الافرنج

كان قد خرج مذايام رسول ، وسأل ان يكون له الى السلطان وصول . فاجتمع والملكان العادل والافضل . وقالوا له لا يمكن لقاء السلطان لكل من يرسل . وما كل مقصود عنده يعرض . ليعلم في الاول هل هو مما يقبل او عنه يعرض . فأعلمهما الحال . وعرفهما ما سبب الارسال . فأحضراه بالنادي السلطاني فمثل بين يديه . وأوصل تحية ملك الانكثير اليه . وقال هو يؤثر بك الاجتماع . ولخطابك الاستماع . فان اعطيته امانا خرج اليك . وأورد مقصوده عليك . أو شئت كان الاجتماع به في المرح ، خاليتين من مقتضيات المرح . وكلاكما عن عسكره مذهب رد . ولحديثه في الخلو مورد . فأجابه السلطان وقال لو اجتمعنا فهو لا يفهم بلساني وانا لا افهم بلسانه . ونحيل بالبيان على ترجماني وترجماته . فيكون ذلك الترجمان رسولا . فلعله يرد برسول ويصدر رسولا . فمالح في الطلب . وألح في الأرب ، استقر ان يكون الحديث مع الملك العادل . وان تنجح من عنده وسائل الرسائل . وبخل وقد أخذ امانا . واذ قطع بعد ذلك زمانا فشاخ عنده ان ملوكهم منعه . ومن ركوب الخطر فزعوه . فأنفذ ملك الانكثير رسوله بعد ايام . يذكر ما شاخ من تأمر للافرنج عليه واحكام . وقال الامور مفوضة الي . وانا احكم ولا يحكم علي ، وانما تأخرت بسبب مرض عرض . فأفانني الغرض . ثم قال الرسول من عادات الملوك المهاده . وإن دامت بينهم الحرب والمعاده . وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون في حمله وقبوله . وأخذه من يد رسوله . فقال الملك العادل نقبل الهدية بشرط المجازاة . واستدامة المكافاة للموازاة . فقال عنينا بزاة وجوارح . قد لقيتها في سفر البحر جوائح . وقد ضعفت فهي طلائع روازح ، ونريد طيرا ووجاجا (٥٤) تصلح لطعمها . فاذا استوت حملناها للهدية على رسمها . فقال العادل لا شك ان الملك مريض وقد احتاج الى وجاج وفراريج ، ونحن نحمل له منها كل ما اليه احتيج . فلا تجعل حاجة طعم البزاة في طلبها حجة . واسلك غير

- ٦١٢٠ -

هذه المحجة محجة . وانفصل حديث الرسالة على قول الرسول هل لكم حديث . فقلنا انتم طلبتونا لا نحن طلبناكم وما لنا معكم حديث قديم ولا حديث . ثم انقطع حديث الرسالة الى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة فخرج من عند الملك في الرسالة مقدم . ومعه اسير مغربي مسلم . واحضره على سبيل الهدية واصل الى السلطان ماحمل من التحية . فشرفه بخلعته . واعتد له بهديته . ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة . وماكانت رسالتهم تسفر عن مقصود بل فيها رثاثة وغثاثة . وهؤلاء طلبوا للملك فاكهة وثلجا . ولم يسلكوا في غير الحاجة نهجا . فاكرمهم السلطان بما سألوا . ووفر لهم منه فحملوا . وسألوا ان يتفرجوا في الاسواق . ففسح لهم فيه على الاطلاق .

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الافرنج من تكرير الرسائل تفتير العزمات وهم مشتغلون بموالة الرمي بالمنجنقات وتسوية المنصوبات وتعبية الالات . وتعديل العرادات وتثقيل الحجارات . حتى تحلل السور وحان انهدامه . وتخلخل وبان انثلامه . وتزعزت اركانه . وتضعفت ابدانه . وكاد يهي ليهوى . ولايقي ولايقوى . كي يثوى . واهل المدينة قد كثر تعبهم لكثرة الذوب ولقلة العدد والحجر هاتك . والاسهر ناهك . والعمل دائم . والخلل لازم . والقلوب قلقه . والظنون مخدقه . والمتاعب شاقه . والمشاق متعبه . والاحوال متصعبه . والاهوال مرهبه . وكانت في البلد المنجنقات تنصب . وتفيض بها قوى الرجال وتنصب . فلما اشتد الزحف . وزاد الضعف . احتاجوا الى رجال المنجنق للمقاتلة . والتناوب على المنازل . وهناك ظهر ان العدد لا يقي ولايفي . وان القليل لا يكف ولايكفي . وان خروج من كان في البلد لاجل دخول البدل لم يكن صوابا . وان تقصير الذواب ابتداء في الاعطاء جلب في الانتهاء

اعطابا . ولما علم السلطان سابع جمادى الآخرة يوم الثلاثاء . بما عليه البلد من غلبة البلاء . زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهم . وطرق اليهم بوائقهم . ونهب من خيامهم ما تطرف . واسرف في ارهاقهم بما اشرف . وحمل الملك العادل بذقسه مرارا . واجرى من الدم انهارا . واراهم بالنقع النهار ليلا وبالبيض الليل نهارا . وامسى السلطان تلك الليلة ساهدا لم يذق طعاما . ولم يستطب مناما . ثم امر بدق الكوس سحرا حتى عادت العساكر الى الركوب والقساوير الى الوثوب والفوارس الى الفرس والانداب الى الندوب . واعادت الى الطلوع غروبها بعد الغروب . بكل من يلقي الجيوش على الجيوش . ويرمي الوحوش على الوحوش . ويرعف الصدور بصدور الرواف . ويشير بالامن عن مواقف المخاوف . وكل من للضرب في جبينه شامة . ولطعن في جبينه علامة . على خيل كامثال القنا تحمل القنا . وضممر كالحنايا تهوي هوى السهام إلى الوغى :
في غداة صباحها في حداد

نسجتها ايدي المظهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب . فجرى ذلك اليوم من القتال اشد مما كان امس . واتصل من طلوع الفجر الى غروب الشمس . وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها ان العجز بلغ بهم الى غايته . وانتهى الضعف بهم الى نهايته . ولم يبق الا تسليم البلد إن لم تعملوا شيئا . ولم تنجدوا في الذب عنه سعي . فضقنا بهذا الكتاب ذرعا . وقلنا لاحول ولا قوة الا بالله لانملك لاندفسنا ضرا ولا نفعا . والسلطان من هذا في امر عظيم . وهم مقعد مقيم . وهو مجتهد في بذل وسعه . سائل من الله لطف صنعه . معاود الى الحرب في كل صباح . طائر الى اللقاء بجناح كل نجاح . وفي يوم الاربعاء . بعث العساكر على اللقاء . وبخل راجلنا الى خنادقهم وخالطوهم . وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم . وذكر انه وقف في ثغرة من تلك الثغرات افرنجي . كانه جنى مستشيط نجى . وهوي دافع ويمانع . ويكافح على تلك الثغرة ويقارع . قد اتخذ طارقه لجسمه صدفا . وصار لسهام المنية هدفا . وهو كانه مما نشب فيه النشاب

- ٦١٢٢ -

القنذذ . وتلك السهام من لبس الحديد لاتنفذ فلم يزل واقفا الى ان احرقه بقارورة الذفط زراق . فأمسى وهو حراق . ووقفت ايضا امرأة بقوس من الخشب ترمي . وتديم اصمائها وتدمي . فلم تنزل تقاتل حتى قتلت . والى سقر اندقلت .

ذكر خروج سيف الدين علي المشطوب الى ملك الافرنسيس

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكا من جانب . وعروه بكل نائب . وملا اصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرح . وقلة البديل الذي كان قد اقترح . ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنه . وزادت المخافة فلم يبق معها امه . خرج المشطوب الى ملك الافرنسيس بامان . وحضر عنده بترجمان . وقال له قد علمتم ماعاملناكم به عند اخذ بلادكم . من النزول عند طلب اهلها الامان على مرادكم وانا كنا نؤمنهم . ومن المسير الى مامنهم نمكنهم . ونحن نسلم اليك البلد على ان تعطينا الامان ونسلم . واذا فعلت هذا فقد حزت المغنم . فقال ان اولئك الملوك كانوا عبيدي . وانتم اليوم مماليك عبيدي . فأرى فيكم رأيي من وعدي ووعيدي ، فقام المشطوب من عنده مغتاظا ولم يلبث لحظه ، وأغلظ له في القول عملا بقول الله تعالى (وليجدوا فيكم غلظه) (التوبة ١٢٣) . وقال نحن لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا ، ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين . ومتى عرف ان الاسد يسلم العرين .

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب . ولم يظفر بالفرض المطلوب . قال جماعة من الأمراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء ، هذا

الأمير الكبير ، والمستشار والمشير ، قد اشتغل باله . فسواه
مأباله . وعمرؤا بركوسا . ورأوا في هربهم رأيا مذكوسا وربحا في
دار البقاء مبخوسا . وذلك ليلة الخميس التاسع . وقربوا عليهم
الأمر الشاسع . وجاؤوا الى العسكر مختفين . ومن رفقائهم في
نسب الوفاء . والوفاق منتفين . فنى الى السلطان الخبر بهرب
الجماعة . وانهم خرجوا لله وله عن الطاعة . وانهم جذبوا عن بذل
الاستطاعة . وخفضوا عنهم صيت الشجاعة . وأبدلوا الاضاعة
بالظلمة والحفظ بالاضاعة . وكان فيهم من الأمراء المعروفين .
وذوي الشهامة الموصوفين . عز الدين ارسل . وهو الذي كان المثل
بشهامته يرسل . وحسام الدين تمرناش بن جاولي . وهو شاب أول
ما توفي والده وجاولي . وسنقر الوشاقى من الاسدية الاكابر .
ومقدمي العساكر . وكل منهم محظوظ بالاقطاع الواقره فقطع
السلطان اقطاعاتهم واقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة
بشاشة وجهه ومنعها . واستعاذ ارسل بالاسدية ثم بالملك الأفضل .
المفضل المؤمل . وتوسل ابن جاولي بالملك العادل . وكلهم توسل
بفضل الأجل الفاضل فلم تعبد معيشتهم . ولم تعذب عيشتهم .
وعانيا ممقوتين . وبحدود ألسن الذم منحوتين . وبضعف القلب
وقوة الخور منعوتين . وكان من جملة الهاريين عبد القاهر الحلبي
نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها . فشفع فيه على انه يضمن على
نفسه العوبة ويتلزمها . فعاد في ليلته . واسقط عنه المذمة بأوبته .
ووقع بعد ذلك في الاسار . واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة
دينار .

فصل من كتاب الى مظفر الدين صاحب اربل في المعنى ووصف الحال

قد سبقتم مكاتبتنا اليه بشرح الأحوال ، وما نحن عليه من رجاء
النصر الذي هو متعلق الآمال ، وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد
وصلوا ، ونازلوا الثغر واحتفلوا . والآن فان منجنيقاتهم . هدته

بكثرة الضرب . وكثرت ثلم السور في مواضع النقب . وعظم الخطب . واشتدت الحرب واشتفى البلد واشرف . واشتفى العدو بما فيه واسرف . ولما لج العدو في الزحف . واستسهل في التطرف الى البلد طريق الحتف . ركبنا في عسكرنا اليه . وهجمنا عليه لكنه بسوره وخندقه محتدم . والى مطمحه البعيد من أمره مرتد . ولما عاين اصحابنا بالبلد ما عليه من الخطر . وانهم قد اشرفوا على الفرار . فر من جماعة الأمراء من قل بالله وثوقه . وأعمى قلبه فجوره وفسوقه . ولقد خانوا المسلمين في ثفرهم . وباءوا بدوبال غدرهم . وماقوى طمع العدو في البلد الا رهيبهم . وماأرهب قلوب الباقين من مقاتلته الا رهيبهم . والمقيمون من أصحابنا الكرام . قد استحلوا مر الحمام . وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الأعداء اضعاف أعدادهم . وأنهم يبذلون في صون ثفرهم غاية اجتهدهم . وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشتروطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا ايديهم في القوم وبسطوا . فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقب . والله تعالى يسهل تنفيذ ما هم فيه من الكروب . ونحن وان كنا للقوم مضايقين وبهم محققين وعلى جموعهم من الجوانب متفرقين ، فانهم يقاتلوننا من وراء جدار ، ويعلمون انهم ان خرجوا الينا في تبار ، والهجوم على جمعهم مستصعب ممتمنع ، والعسكر على مركزهم متألف مجتمع ، والله قدر لايرد ، وقضاء لايصد ، وسر لايشارك في علمه ، وأمر لايفالب في حكمه ، وعلى الله قصد السبيل ، ونجح التأميل وتدقيق الطاقة في دفع الخطب الجليل ، وماتوفيقنا الا بالله وعليه توكلنا وهو نعم الوكيل .

ذكر ماجري من الحال

وفي ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس . وحمي الوطيس وتحرك بالضراغم الجيش واسود الجو . وانسد الضو ، وانقضت

القضب انقضاض الشهب . واشتبهت الدهم والكمث بالشقر والشهب ، واختضبت البيض وتألّق من بوارقها الوميض ورقصت قدود السر على غناء الصواهل . وحركت رياح السوايق ذوائب الذوابل ، فللدروع من الضرب قعاقع ، ولعواصف الألوية زعازع ، ولغربان الرماح نقيب ، ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب ، ولحريق الطبا معمه ، ولرحى الحرب الزبون جمعجة . واللاحقيات سابقة ولاحقة ، والسريجات راعة وبارقة ، وشموس الترائك على بدور الأتراك شارقة ، ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقة . وأيدي الأسنة هاتكة لحرز النحور سارقة . وثعالب الأسل في لبة الأسد ضابحة . ونشاوى اللدان من نجيع الأقران غابقة صابحة . في رايات يجاذبها ذراع الفلك فتقدود عقبانها العقبان . وصدفاح يصافحها شعاع الشمع فيكسو لجينها العقيان . وتقدم السلطان الى الأمراء فترجلوا ونزلوا حين نزلوا . وهجموا على الضراغم في أجامها . واحوجوها بحد الأقدام الى أحجامها . ونصب صارم الدين قايمان النجمي علمه على سور الفرنج بيده . ووقف عنده بجلاله . وجلده . ووصل في ذلك اليوم عز الدين جورديك ومعه من الذورية المماليك . فترجل وقاتل الليلة على الخيل تحت الحديد ، منتظرا لنجح الأمل البعيد فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد أنهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سري السيل ، ويذبون عن أنفسهم بسيوفهم ، وينجون بأنفسهم وعزائوفهم ، ولو صح هذا الموعد ، لنجح المقصد ، ولكن الفرنج اطلعوا على السر ، فاضطلعوا بالشر ، وحرسوا الجوانب والأبواب ، وارتابوا بما أراب ، وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاربين ، خرجا الى الملاعين ، وأخبراهم بجلية الحال ، وعزيمة الرجال ، وأصبح يوم العسكر الجمعة العاشر ، وقد جمع من الخيل والرجل المعاصر . واقفة على ترتيبه صفوفه . ومرهفة على عدوه أسننته وسيوفه . ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفة . ولم يتحرك من القوم ساكن . ولم يظهر من العدو كامن . بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل . فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسما من

أقسام الرسائل . وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط . ولأنى مقامه بمقامه مميط . وبتنا على تلك الحالة . وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة . واصبحنا يوم السبت وقد ركبت الأفرنجية وتدرعت . وتحزبت وتجمعت . وحتى ظننا أنهم على عزم اللقاء . فهاجت العزائم منا الى الهيجاء . وخرج من بابهم اربعون فارسا ووقفوا واستوقفوا . واستدعوا ببعض المماليك الناصرية فلما عطف اليهم . عطفوا اليه وأخبروه . ان الخارج صاحب صيدا في اصحابه . وهو يستدعي نجيب الدين ابا محمد العدل لخطابه . وهذا العدل من أمناء السلطان . وقد اذس الأفرنج به لترديه في الرسائل نحوهم في سالف الأزمان . فلما حضر أرسله الى السلطان . ليتحدث في خروج من يعكا بأنفسهم بحكم الأمان . وطلبوا في مقابلة ذلك ما لا يدخل تحت الامكان . وزادوا في الاشتطاط وتناهوا في الاشتراط . فأنفذ السلطان الملكين العادل والأفضل . ليفصلا المجل . ويجملا اذا حزا (٥٥) المفصل فتريد العدل مرارا . ووجد منهم على الاضرار اصرارا . ولم تتحرر قاعة ولم تظهر فائدة . وانفصلوا على غير قرار . وعادوا والأمر بغير إمرار .

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صاحب شيزر ، وفي يوم الاربعاء بدر الدين أيوب بن كنان وقد حشد وحشر ، وفي يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقد ابهج بقدمه العسكر ، وفي هذا التاريخ ضعف البلد . وعجز من فيه ضعفا لا يمكن تلافيه . ووقف كرام اصحابنا وسددوا الثغر بصدورهم . وباشروا الاسنة المشرعة اليهم بنحورهم . وشرعوا في بناء سور يقطع جانبا . حتى ينقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا ،

ذكر ماطلبه الفرنج في المصالحة على البلد

وكانوا اشتطروا اعانة جميع البلد . واطلاق اساراهم من الأقياد . فبذل لهم تسليم عكا بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا . وبذل لهم في مقابلة كل شخص اسير . فلم يقبلوا وسمح لهم برد صليب الصليب اليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا وكيفية دخولها

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة . ماجت الفرنج ببحور جموعها الزاخرة وسالت الى ثغر البلد سيل الاتي الى القرار . وطلعت في السور المهذوم . طلوع الأوعال في فرج الأوعار . وانحدر عليهم اصحابنا انحدار الصخور المدهمة ، وفرسوههم فرس الاساد المحرجة المكروهة . وردوهم اقبح رد ، وصدوهم افظع صد ، ومازالت الكرات تتناوب والحملة تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال وعرفوا ان الفرنج يستولون وعلى احد منهم لايبقون ، ولايخلون فخرج سيف الدين علي بن احمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا امان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ومائتي الف دينار وألف دينار للمركيس وأربعة آلاف دينار لحجابه فلم نشعر الا بالرايات الفرنجية على عكا مركزوزه ، وأعطاف أعلامهم مهزوزة ، وماعندنا علم بما جرت عليه الحال وماأحد منا الا والبال منه قد عراه الوبال ، وعم البلاء ، وتم القضاء وعز العزاء وقنط الرجاء ، ولوت أعناق المسار اللاواء ، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره الى تقي الدين وماعن له في سفره ، فانه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وأثار في بيار بكر الاختباط ، والاختلال وتأخرت عساكرها عن القدوم فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم ، وكذلك لم يكن في البلد عدد

يفي بصونه ، وما كان يضبطه السلطان الى هذه الغاية لو لم يكن الله في عونه ، ونقل الثقل تلك الليلة الى منزله الاول بشـبـفر عم ، وأقام بخيمة لطيفة متلفها على ماتم ، ثم انتقل سحرة ليلة الأحد تاسع عشر الشهر الى المخيم ، صابرا على حكم القضاء المبرم ، وحضرنا عنده وهو مفتـم ، وبالتدبير للمستقبل مهتم ، فعزينا وسلينا ، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله وقد استعادها عدا ، وقلت له ان ذهبـت مدينة فمما ذهب الدين ، ولاضعف في نصر الله اليقين ، وماوعكت بعكا القلوب ، الا وكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس ، ولو حشـتها بعد الحادثة الموحشة تأنيس ، ولهذا اللين وان تداعت قواعد بقعة من بقاعة بالعز ليفاعه تأسيس ، وخرج في هذا اليوم أقوش ، رسولاً ندبه بهاء الدين قرا قوش يخبر ماقرروه من القطيعة ، ويصف كيفية الملمة الفضيلة ، وقال : ادركونا بنصف المال وجميع الأسارى وصليب الصلابوت قبل خروج الشهر ، وان تأخر شيء من ذلك يقينا تحت الأسر ، ونصف المال يصبرون به الى شهر آخر ، فأحضر السلطان الأكابر وقاوضهم في ذلك وشاور ، فقالوا اخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون ، وهل لنا عذر ونحن لهم مسلمون ، فتقبل السلطان بتحصيله وتعجيله بجملته وتفصيله .

وأنشأت في استيلاء الفرنج على عكا هذه الرسالة
وسيرت بها كتباً

قد عرف أمر عكا وأن العدو قصدها ورصدها ونزلها ونازلها . وقابلها وقاتلها وبرك عليها بكليلة . وحفل عندها بجذلة . وتواصلت اليها جموعه أفواجا . وجلب البحر نحوها على أثباجة أمثال أمواجه أمواجا . وجاءت رابضة أمامها . ضاربة خيامها . ملهبة بها غرامها . ملهبة فيها ضرامها وانتهت المدة الى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمدادها بحارا . وبرد الماء

الرجوم مزينة . فاحدقت بالثغر من البر والبحر . واحباطت
بمركز الاسلام دائرة الكفر . وأطافت منها الأسوار بالأسوار .
والظلماء بالأنوار . ومنعت الداخل والخارج . وسدت على ناقل
الميرة وحامل السلاح . الموالج والمناهج . وزاحفوه بكل منجيق
كنيق . وكل برج وثيق . وكل دبابة كأنها دابة الارض التي تقوم
عندها القيامة . وكل سلم لاترجي معه العلامة . وكل آلة آلت إن
الفتح منها بالحدف . وأقسمت أنها تقسم سهام سهامها لذوي
الحفز بالزحف . هذا والعدو قد حفر من جانبنا وعمق . وسور
وخندق . وتدرع بأسواره وخنادقه . وتستر عن طوارق البلاء
بستائره وطوارقه . فلا يخرج منه إلى معاركه . ولا يدخل إليه لضيق
مسالكه . وهو متحر متحرس . متستر متتسر . عاص على
الهمج . عاص على العجم . لا يقتحم سده . ولا يذلم حده . ولم تزل
الحالة تتمادى والواقعة وليدها لا ينادى . والمدى يتناول . والمدد
يتواصل . والقضية تترامى . والرمية تتقاضى . ومقاتلة الثغر
صابرون مصابرون . مكابرون مضابرون (٥٦) . فمن مستشهد
عدله الجرح . ومن مستنجد عطله القرح . ومن دام بالجرح رام
عنه . ومن نازع في القوس نازع منه . ومن متعرض للموت خوف
عار عارض . ومن ناه عن السلم أمر بالحرب ناهض . ومن ندب
فيه ندوب . ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب . حتى ضج
الحديد من قرع الحديد . ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد . هذا
وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص . وظل المصابرة يقلص . والعدم
يتمكن من الوجود . والقيام للأنخان في زي القعود . وكاد البقاء
يودع الباقيين . والمنون تلاقى الملاقين . فلم يشعروا إلا وبعض
المقدمين المشهورين قد تاخر وتستر . واستشعر الذعر فتعذر
وتحذر . واستبدل الجبن من الشجاعة . واستملى العجز من
الاستطاعة . وقدم العصيان على الطاعة . وظن إنه لانجاح له في
العزيمة . ولا نجا له إلا في الهزيمة . وجنب أمثاله من الجبناء .
وجمع إلى أمره جماعة من الأمراء . فخرج بهم من الثغر فارا وذهب
على وجهه معهم مارا . ورهب فهرب . وحسب فتحسب . فأضعف
قلوب البقية استشعارا . وأعدمهم عدم قراره قرارا . لكنهم ثابوا

إلى صبرهم . وثبتوا على أمرهم . ودفعوا مكر العدو بمكرهم .
وما برحوا على مصابرة ومكابرة . ومقارعة ومعاقرة . ومكافحة
وملافة . ومواقعة ومواقحة . ومطاحنة ومناطحة . وجلد على
الخنادق التي طمت . ورمي في خروقتها التراب ورمت . وطرقها
العدو بالسوء إلى السور . وطرق الظلمة إلى النور . وهجم على
السني باليجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب . وأسعر
بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . وأشرفت
مرابيه . وكثرت ندوب نقوبة . وكثرت خطاب خطوبه . ودخل العدو
بالسوء إلى السور . وطرق الظلمة إلى النور . وهجم على السني
باليجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب . وأسعر بمساعيره
حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . وأشرفت مرابيه .
وكثرت ندوب نقوبة . وكثرت خطاب خطوبه . ودخل العدو في النقب
فلم يجد لكونه مجدلا أو مجرحا أو مخرجا . وتوغل في الباب فوجد
باب الخلاص المرتجى مرتجا . وكل من اصحابنا قد سد الثغرة
بنفسه ولقي الوحشة بأذنه . وفارق لوصال أهل الجنة أهله .
وأثبت في مستنقع الموت رجله . ولم يزل النقبابون يوسعون
ويمشون . ويعلقون ويحدثون ويخرقون ويحرقون . ويجمعون
ويفرقون . حتى تساقطت الأبدان فعادت تلولا . وتعاذت الاسياف
فزادت فلولا ، وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم
قوائم اليمانية في الايمان . وبردت بمجالدة أجلا الشراك أيمان
أنجاد الايمان وأصحابنا ليهولهم الهائل ولا يميلهم إلى الحذار
الجدار المائل . ولا يزعهم الخطب الوازع ، ولا يردعهم الرعب
الرادع . يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع . ويردون
بغربهم الطالع ، ويقدون بدهم الدارع . اذا انتظموا مع العدو
ذئروه . واذا نهضوا له أقعدوه وعثروه . واذا صعد اليهم حدره .
واذا بادر اليهم بدره وندروه . حتى أقاموا منه عوض أبدان السور
أبدانا . وكم تركوا على تلك المصارع من جاثمها جثماننا . وما زالوا
يقتلون ويقتلون . وينهلون من ورد النجيع وينهلون . ويصاؤون
ويقطعون . ويشعبون ويصدعون . ويكيلون بصاع المصاع .
ويجيئون للعمر الراحل داعي الوداع . ويتناجون بالأسنة المناصل .

- ٦١٣٢ -

ويتقابلون بوجوه الصواقل . ويتشاركون بكلام الكلام . ويتلاقون
بسلام السلام . ويتساقون بصحاف الصفاح . ويتماشون بمراح
الرماح . ويستحلون ضرب الضراب . ويسجلون صفحات الصفائح
من قراب الرقاب . الى أن انتقل القتال من السور الى الدور . ومن
الستائر الى الستور . ومن الطوارق الى الطرق والسطوح . ومن
المضايق الى السفاح . ومن المراقب الى السفوح حتى لم يبق من
المجاهدين الا سبائك زحوف . وترائك حتوف . وبقايا طرائع .
ورزايا طلائع . ومشوق (٥٧) جرائع . ومشوق وضرائع . قد
فصلتهم المشرفيات . وخاطتهم الخطيات . ورشقتهم القسي
القاسية . ورشفتهم الظبا الضامية . ولاينهض قويمهم من الكلول
ولايفرى قريهم من القلول . وقد شغلوا بسد تلك المضايق . ورد
أولئك الخلايق . فما شعروا الا وقد دخلت من أقطارها . وتوغلت
من اسوارها . وأزدحم العدو في مشارعها وسبلها . وبخل المدينة
على حين غفلة من أهلها . ولما عرف العدو الداخل . والعادي
الواغل . أن القوم مستقلون والموت مستقبلون . وأنه لا طاقة له
بمقاومتهم . ولا قوام له بطاقتهم . وأنهم لا يسلمون وهم يسلمون
ولا يبقون وهم يبقون . اعطاهم أمانا أخطر من المخافة ودخل على
الاغارة باسم الضيافة ، وعز اصحابنا بما بذلوه من الوسع وما
هأذوا . وما وهذوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما
استكانوا . ولا مرد لما فيه الله من المراد . ولا مدفع لحكمه في البلاد
والعباد . وأن زهبت مدينة فلم يذهب الدين . وإن غاض معين فما
غاب المعين . وإن ارتاب المبتلون فما فارق الحق اليقين . وإن فتح
المرتج فما فات المرتجى . وإن أدلهم الديجور فلا بد أن يسفر عن
الصبح الدجى . ولا يشمت عدو بما جرى . فعند الصباح يحمد القوم
السرى .

فصل من كتاب الى قطب بن نور الدين بن قرا أرسلان

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة من مدد ملوكه . وكثر على نهار الاسلام باظلام ليل الكفر وحلوكه . فالاسلام يذشد ظهيره . ويطلب الدين لكشف غمته من ابن زوره زوره . وهذه عكا التي كنا عنها ندافع . وعن ثغرها نمانع ونجري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها . ونرد للرد عنها مكاييد العداة في نحرها . قد تمكن منها الكفر على كره من الاسلام . واجتاح من أبي اسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الاسلام . وكانت مودودة فعادت مؤودة . وصارت مفضوبة بعد أن كانت عارية من الكفر مردوبة . وإذا أفكر من خذلها . وما اخذلها . وغاب عنها وما حضرها . علم أنها أسيرة إهماله . وأخينة إغفاله . وحاشى أن يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا . وعن النجدة عند تحقق الحاجة اليها متغاضيا . وما بقي للفرنج مع استيلائها على الموضع . الا زائد قوة في المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف وصد صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف والله كافل بينه بالنصر . والمردى بمكره أهل المكر وما هذا اوان الوني . بل هو زمان استنتاج المنى . فان العدو الخادر قد أن أن يصحر . وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

ومن رسالة أخرى في استدعاء مظفر الدين من إربل
تشتمل على حادثة عكا ووصف الحال الجارية فيها

قد علم مادهم المسلمون من العدو الكافر . والطاغية الحاشد الحاشر . وأنه ورد في البحر بكل من للكفر في البلاد والجزائر . وما قصده الا بيضة الاسلام وحوزته وان الله تعالى هو الذي تكفل بذلة اعدائه عزته . ولا شك انه عرف ماتم منه على عكا بعد ذبنا عنها

في هاتين السنتين . والمضايقة للفرنجة ممن بعكا ومنا بين .
الحصارين . وانهم كلما دبروا أمرا دمرناه . وكلما حققوا كيدا
أبطلناه . وكلما قدموا منجنيقا . أخرجناه وعطلناه . وكلما ركبوا
برجا أحرقناه . وكلما كشفوا حجابا خرقناه . وكلما أوقدوا نارا
للحرب أطفأها الله ، حتى لم يبق لمكرهم ولا كيدهم مجال ، ولم
يتسق في هذه المدة لهم حال ، وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين
ألف مقاتل ، من فارس وراجل . ولم نشك في استيعابهم
بالردي ، وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى . وحسبنا أنهم
بائدون . فاذا هم زائدون ، وظننا أنهم هالكون . فاذا هم في نهج
القتال سالكون . وهم حطب نار الحرب . وطعم الطعن
والضرب . وكم بذلوا ارواحهم على حب المقبرة . وحصلوا تحت
العجز لزعيمهم أنهم يأتون بما فوق القدرة ، ولما دخلت هذه السنة
أشفقنا على من في عكا ، من الأصحاب والأجناد . وقلنا هؤلاء قد
بذلوا في الجهاد ما كان في وسعهم من الاجتهاد . ورأينا أن نجدد
للبلد البديل . وأن نسد ونسد بما نستأنفه الخلة والخلل ، وكان فيه
أكثر من عشرة آلاف رجل ، ومن كل ذمير مشيخ وكمي بطل . فخرج
هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العدة ، ولم يكن أيضا من بخل بذلك
الجد بتلك الشدة . فان البحر قبل استكمالها منع راكمه . وحمل
جانبه . ووصل العدو وعجل مراكبه فاكثف في البلد بمن فيه ومافيه
كفاية واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة وقاية . وجاءت
ملوك الفرنج خلاف كل عام . في جد واعتزام وحد واهتمام . وجمع
لهم ونار تعجلها العدو من جهنمه وضرام وغرام بالواقعة
وعرام . واحتداد للحادثة واحتدام . وبأس واقدام . وناس
واقوام . وحشد ملأت به سفنها ، وأخلت منه مدتها . ووصل ملكا
افرنسيس وانكتير . وقد احكما التدبير . وأجلبا بخيلهما
ورجلهما . واناخا بكل كل كلهما . وبركا بثقلهما . وزحفا بجهدهما
وجهلها . ووافوا بكل برج وثيق وكل منجنيق كنيق . وكل آلة
هائلة . ودبابة للبلايا حاملة . ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على
موضع واحد . واهبطوا حجارا السور بكل حجر
صاعد . وباشروا بالباشورة بالهدم ، والخندق بالطم والسور بالنقب

والذلّم . وخرج من نقابي البلد من ارتد عن الدين . وأعان نقابي
الملاعين . حتى وقعت ابدان السور وأبراجه وتبادر الى الذلّم أعلام
الكفر وأعلاجه وأصحابنا مع ذلك ثابتون . ناكبون كابتون . قد
سدوا تلك الثغر بذقوسهم . وجعلوا حجارات الفرنج وجراخاتها
مغافر رؤوسهم . وكشفوا وجوههم لقبيل السهام . وتلفعوا من
وقع بيضها بدمر اللثام . ترشف شفاه الشفار دماءهم . وتشكر
ملائكة السماء سماحهم بالمهج وكلما اجتمع به فرقه بطعنهم
وضربهم . وهم يواقعون ويواقعون . ويكافدون ويلافدون . وكل
قد وقف في موقف الكرام وسل نصله . وأثبت في مستنقع الموت
رجله . وودع للجنة في لقاء أهل النار أهله . فخانهم بعض الأمراء
الجبناء . وأخذ للحياة بترك الحياء . وفر من البلاء الى
البلاء . وحسب النجاة في النجاء . وهرب في بركوس قد أعد له لذلك
اليوم . وأثر على جراح السيف جراح السب واللوم . واستصحب
أمثاله . واستتبع وأبعد في فراره وأبدع . وأضعف بضعف قلبه
قلوب الباقيين . وأمطى أفاعي الكفر في نهش الراقين . على أن
الأصحاب ما أنذوا بالأصحاب . ولم يقابلوا الضراب
بالأضراب . وما زالوا يواصلون بالقواطع . ولا يرتاعون
للروائح . ولا يريمون مقام المقامع . ويطالبون من الأرواح
بالودائع . حتى اندقل القتال من السور الى الدور ومن القوارع الى
الشوارع . وبخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة . وأمن
أخوف وأخطر من كريهة . وقطيعه فضيحة . كل منة لها غير
مستطية . ولولا ما اتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة . لم
تكن عكا بالممكنة للعدو ولا المذعنة . وأن ذهب المدينة فالدين لم
يذهب وأن عطبت فالاسلام لم يعطب . وأن ملكت واحتلت فما اختل
الملك . وأن سلكت ووهت فما وهى السالك . وانما نبه الله بها
العزائم الراقدة . وأجرى مياه الهمم الراكدة . وبعث الحميات
الناعسة . وحرك النخوات المتنافسة . وكما أظهر عجزنا عن قدرته
وقدره . وسيظهر عزنا بنصرته وظفره . ونحن الى الآن كما كنا
محدقون بخنادقهم أخذون بمخازنهم . ونوسعهم الردى في مضايقتهم
ونجذبهم في كل يوم الى مصارعهم . ونكدر بعلق نجيعهم صفو

مشاربهم ومشارعهم ، فما خرج منهم من دخل . وما انقطع الا من وصل . وما اصحر الا من ندبه عريسه وعرسه . وما برز الا من واره من بطون الخوامع رمسه ، فهم مقيمون لا يريمون مخيمهم . ولا يرومون ان يهجروا مجثمهم ، وما انسوا بمرايض المضارب . الا لذقرتهم من مضارب القواضب ، وهم مع ذلك يرجفون تارة بالخروج الى المصاف ، وآونة بالنهوض الى بعض الأطراف . وفي كلا القصدين ان شاء الله دمارهم المعجل . وبوارهم المؤمل . فانا نعترضهم اين واجهوا ونواجههم أين اعترضوا . ونعثرهم اين نهضوا . ونثيرهم للموت أين ربضوا . وربما غرتهم عكا فطمحوا وطمعوا . واتفقوا على المصاف واجتمعوا . ووقعوا على نار الحرب وقوع الفراش . وتعوضوا مصارع امثالهم والثرى لهم وثير الفراش . فان برز العدو قالمذون له بارزة . والعزائم له مناجزة . والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزة . والمجاس اولى من يتنخي ويحتمي . والى هذا المرام من قهر الكفر يرتمي وينتمي . ويصل بجمعه اللهام الملتهم . وبجمره المحتد . المحتدم . وبفيلقه القالق ترائك العدا . السافك السابك في نار الوغى سبادك الغلبا . الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى . وهو لا شك ينهض ويستنهض من وراءه . ويستدعي من اذا ناداه اجابه وجاءه .

ذكر لطف من الله في حقي خفي

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنه عمل ترجمة تفرد بها القاضي ابن قريش لمكاتبة الاصحاب . ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب . فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابا بخطي . وخرج حكم عكا في الكتابة عن شرطي . فقلت لاصحابي ما صرف الله قلومي عن عكا الا وفي علمه ان الكفر اليها يعود . وان النحوس تحلها وترحل عنها السعود . واستعانني الله من استعادتها . وردها الى شقاوتها بعد سعادتها . ولقد عصم الله قلومي وكلمي . وعرف شيم مخايل الطافه من شيمي . وهذا قلم جمعت به اشتات العلوم مدة عمري .

وما جراه الله الا باجري . فالحمد لله الذي صانه . وعظم شأنه .
وما ضيع احسانه . وهو لافقه والفتيا . ومصالح الدين في الدنيا .
وما عرف الا يعرف . فما صرف الا عن صرف . وما سفارته الا في
نجح . وما سفاره الا عن صبح وماتجارته الا لربح فهو يمين الدولة
وامينها . ومعين الملة بل معينها . بمداه يستمد امدادها . ويسداده
للثغور سداده . ودواته دواء المعضلات . وبعده حل المشكلات .
وبخطه حط عوادي الخطوب . وبقطعة قط عوادي القطوب . وببريه
برء الامراض . وبجريه جري الجياد للجهاد . وبسعيه سعي
الامجاد للانجاد ، وبسرركته سكون الدهماء . وبسرركته ركون
الرجاء . فما كان الله ليضيعه في صون مالا يصونه . وعون من
لا يعينه . فخفت على عكا من وقوف قلبي عنها . وكان قد الهمني
الله فانه صانه ولم يصنها . وشكرت الله على هذه اللطيفة .
والعارفة الطريفة .

ذكر ما جرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكا من الوقائع

وفي يوم الخميس انسلخ جمادى الاخره . خرج الفرنج من جانب
البحر بالعدة الوافرة . وانتشروا بالمرج الى الآبار التي كان حفرها
العسكر . فحضر الكؤوس السلطاني . فثار المعشر وقام المعشر
وانهض السلطان الى اليزك من قواه . واتبعه بمدد تلاه . وقد طار
غراب الغبار . وتبرقعت بالتراب عراب المضمار . وشبت الوغى بكل
شبوب تمانع سوى فارسها ركابها . وتغير الشمس من نسج
حافرها نقابها . في غلب كالعواضب . يروون القواضب . وطوالع من
الغروب يعدن في الغوارب غوارب . وحمل على ابطال الباطل حماة
الحق . فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق . وانهزم
الفرنج فجالت العرب دونهم . وحالت بينهم وبين اسوارهم واحالت
عليهم مذونهم . وصرعوا زهاء خمسين رجلا . كروا عليهم بكاسات

المدون نهلا وعللا . وردوهم الى مراكزهم ولم يبن لقادرهم فضل
على عاجزهم . ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمة . كادت
تحدث هزيمة . فوقف اصحابنا وثبتوا ثم وثبوا . واسمعوا نار
الحديد والهيب-----وا . ونظم-----وهم
بالقنا . ونثروهم بالظبا . وفرشوا منهم قتلى على الربا . واحتببت
سيوفهم بالاعناق والطللى . وحلت من حياة العدا الحبا . وبخل
القوم الى خنادقهم ووقفوا وراء اسوارهم بإثارة عثيرهم وأثار
عثارهم . وانتصف الاسلام في ذلك اليوم بعض الانتصاف . واخذ
يد النصر على المصافاة بمصافحة المصاف . وفي يوم الجمعة ثامن
رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقررة . لخلاص الجماعة
المستأجرة . واخبروا أن ملك افرنسيس صار الى صوره ورتب
الدوك نائبه وولاه الامور . وأنه قد عزم على العود الى بلاده . بعد
ما جرى الامر بعكا على مراده . وأنه وكل المركيس في قبض نصيبه
ورضي بتدبيره وترتيبه . فانهض اليه السلطان وراه رسولا
بتحف تليق به . يستخرج ضمائرهم فيما هو من اربه . ونقل خيمته
يوم السبت العاشر الى تل بازاء شفر عم وراء التل الذي كان عليه
نازلا . وحلى الموضع الذي حله وخلى الذي اخلاه عاطلا . ومازالت
الرسل تتردد . والرسالات تتجدد ، والاراء تجتمع وتتبدد . حتى
احضر مائة الف دينار والاسارى المطلوبين وصليب الصلבות .
ليوصل ذلك كله الى الافرنج في الاجل المضروب والوقت
الموقوت . ووقع الخلاف في كيفية التسليم والتسلم . وكيف يحصل
الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم . فقال السلطان اسلمه اليكم
على ان تطلقوا اصحابنا اجمعين . وتأخذوا بباقي المال على سبيل
الرهن قوما معينين . فابوا الا اخذ الجميع . في الزمان السريع .
والوثوق بأمانهم وامانتهم . والتفويض في اصحابنا الى خيرتهم .
فقلنا لهم تضمّنكم الداوية فما دخلوا في الضمان . وساء فيهم ظن
السلطان . وقال اذا سلم اليهم من غير شرط الاحتياط عليهم . كان
فيه على الاسلام غبن عظيم . وعار الى الابد مقيم . فلو أيقنا
خلاص اصحابنا . وعرفنا بنجاتهم انتظام اسباتنا . سمحنا لهم في
الحال ، بصليب الصلבות والاسارى والمال . وبقي الامر واقفا الى

ان انقضى الاجل . وانتهى الترم الاول . وجاء الرسل وابصروا
الاسارى حضورا . والمال موزونا موفورا . وظنوا ان صليب
الصليبوت قد ارسل الى دار الخلافة فليس له وجود . فسألوا
احضاره وهم شهود . فلما احضر خروا له ساجدين . واقروا به
شاهدين . وعرفوا ان الشرط بالوفاء مقرون . وان الاداء بخلاص
اسارانا مرهون . وظهرت علامات مكرمهم . ولاحت امارات
غدرهم . وفي يوم الاربعاء العشرين من رجب اخرج الفرنج الى
ظاهر المرج خياما ضربوها . وقبابا نصبوها . وخرج ملك الانكثير
الى خيمته . ومعه خلق من خياله ورجاله .

ذكر غدر ملك الانكثير وقتل المسلمين المأخونين بعكا

وفي عصر يوم الثلاثاء سادس رجب ركبت الفرنجية بأسرها
وخرجت من مستقرها وسارت بخيلها ورجلها . وجدفها وحفلها .
وجاءت الى المرج الذي بين تل العياضية ودل كيسان . ونفذ اليك
وأخبر السلطان . وركبت العساكر نحوها متسابقة متلاحقة .
وشامت صوارم صادفة وعزائم صادقة . وكان الملاعين قد احضروا
اسارى المسلمين . وفي الحبال واقفين . وحملوا عليهم وقتلواهم
بأجمعهم . والقوهم على مصرعهم . فحمل عليهم العسكر
وهاجمهم . وضرب بأمواجه امواجهم . وقتل منهم خلقا . وأوسع
فيهم خرقا . واستشهد منا كردي حميدي وبدوي . وكلاهما من
الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روي . فلما
انصرف العدو الى خيامه ، وركد الروع بخار قتامة . شوهده
المستشهدون بالعراء عريا . وانما عروا ليكتسبوا من حلل الجنان
التي اكرمهم الله بها وشيا . ومضى الناس اليهم فعرفوا معارفهم .
ووصفوا في سبيل الله موافقهم . وما اكرمهم رجالا . واحسنهم في
الشهادة والسعادة حالا . ولما غدر الفرنج بسفك الدماء . وهتك ستر
الوفاء . تصرف السلطان في ذلك المال . وبسط فيه يد النوال .
واعاد اسارى الفرنج الى دمشق لتعاد الى اربابها . وترجع الى

ايدي اصحابها . فانهم كانوا جمعوا من اهل البلد الحاجة اليهم . فلما استغني عنهم ردوا عليهم صليب الصليبوت الى الخزانة . لا للاعزاز بل للاهانة . فان غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد . والمصاب به عندهم على مر الجيدين جديد . وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا . وانفذوا بعد رسول رسولا . فما وجدوا قبولا ولا صادفوا سولا .

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر . وقاربت البحر . وضربت بينهما الخيام . واثبتت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الاجام . ففيل للسلطان . ماحركة القوم الا لقصد عسقلان . فجاشت همومه وعب عبايه . واجتمع بنايه لاجالة قداح الرأي اصحابه . وسح سحابه وصح حسابه . وحكم فاحكم . ويرى فايهم . واستشار وأشار . واستثار وأثار . واستورى زناد الاراء . وامترى مراد الامراء . وقال هذا العدو طغى واستكبر . واصحى له الافق وافاق واصحر . وقد تحرك بعد سكونه . وظهر بعد سكونه . وظهر بعد كيمونه . وغرته عكا فطمع في عسقلان . واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان . وهذه جموعه بارزة . وكعوبه راكزة . وعوراته بانيه . وثوراته عابيه . ونكراته معروفة . وغدراته موصوفة . وكنا نقول اذا برز نبارزه . واذا خرج نناجزه . واذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه . واذا ركب الطريق نركب الى طريقه . واذا توجه الى موضع اوضعنا الى مواجهته . واغرينا أسنة الاسنة بمشافته ومسافته . والان الان الله لنا الشيد . وادنى علينا البعيد . واخرج العدو من الضيق الى السعه . وابرز من وراء الاسوار والخنادق الممتنعه . وان لم نلقه في طريق مسيره . ونجد في التدبير لتدميره . وصل الى عسقلان فصار لنا منها شغل عكا واصعب . وحينئذ نتعب . وصعدنا بها لايشعب . فقالوا هو يسير بالبحر محتميا . وعن النهج منتبيا . ويقصد الساحل الساحل . ويقتصر المراحل . والذي يلي الساحل في الطريق اما اجام وغياض غلقه متاشبه واما رمال وتلال ضيقه متكثبه . وهناك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق . ومواقعه

- ٦١٤١ -

بالعوائد . فتقدم السلطان الى علم الدين سليمان بن جندر . وامير
من اهل الخبرة آخر بالسير الى تلك المناهج . ومشاهدة مالها من
المخارج والمبالغ . وكشف المواضع التي يلقي فيها العدو . ويؤمل
بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو . فسارا يذقسان تلك المسالك
ويكشفان الاماكن التي تكون معارك . وتتخذها لمبار المرام مبارك .
ولدار المراد مدارك . وعادا وقد ظفرا يقاع ويقاع وعينا على اماكن
ومكان . ومواطىء ومواطن . ووقع الاجماع على الاجماع على
اللقاء والقراع . في مذهب تعينت . ومسارب تبينت . وسهول
عرفت . ومروت وصفت . وصمم العزم على ان الفرنج اذا ساروا
سرنا على عراضهم واستقمنا على جدد الجدد في اعتراضهم
واعترضهم .

ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا للقاهم

وفي سحرة الاحد غرة شعبان . اضرم الفرنج في منازلهم النيران .
واصبحوا على الرحيل . والاصوات مختلطة بالصهيل . والارض
مضطربة والسماء محتجة . والقباب تقوض . والعياب تندفص .
والجباب تنثل . والهضاب تنثقل والذئاب تعسل . والزغب
تفاض ، (٥٨) والحدف يخاض . والخيول تسرح . والسيول يمرج .
وذوائب الذوابل تنتشر . وانبات الذوائب تكشر . ولواء اللاواء
يعقد . وضرام الضراء يوقد . والبيارق تخدق . والديوارق تسألق .
والدودو . والجوجو . والحديد تبوج . والعديد تموج . وقد ثارت
الجواء . وفارت الجأواء . ودجت الاضواء . ورجت الضوضاء .
وسال الوادي . وعدت العوادي . وسار الاعادي . وعلم السلطان
تديبرهم . وعرف مسيرهم . فرعدت كوساته . وغرقت بوقاته .
وصاحت طبوله . وساحت سيوله . وانسحبت نيوله . واصطحبت
خيوله . وبرقت لوامعه . واشرفت طوالعه . ومضت عزائمه .
ومضت صوارمه . وحلقت العقبان الى مطار مطارده . وتألفت
الخرصان في معاقل معاقده . وسار وارضه جردا الضوامر . وسماؤه

نسج الحوافر . في بحار سوابح يموج على شكاثمها اللعاب .
وغدران سوابغ كالزلازل لمعه الحباب . ومجر ملتهب الجوانب .
مشتعل القواضب . وقب معقودة السبائب . مقودة الجنائب .
معصوبة الهواذي هابيه العصائب . وعرب ملوية العمائم بالشهب
ملوثة البرود بالقضب . وترك كالأقمار في هالات التروك . ومماليك
في حالات الملوك . عتاق الوجوه على الوجيديات العتاق قد خلقوا
للثبات مع قلق الاخلاق . واعاجم على العرب . هضاب على
هضاب . وكرد بحصون الدروع محتمين . وبقياب اليلب
مستعصمين . في مسرودة الحلق . مسدودة الحلق . تقهقر عنها
اللاهزم . وتقهره اذا قلت بها الصوارم . وجيش يصيب العدو
ولا يصاب . ويعيب الاقران ولا يعاب . من كل ناصر الحق على ضامر
السبق . خارق للذقع راقع للخرق . فاتق رائق الافتق . معنق الى
الضرب ضارب للعنق . وفلق همه فلق الهام . وجدف ملتهم
للجدف الهام . يحوي كل اغلب عبل الذراع . واشم رجب الباع .
خواض الكتاب . فياض القواضب . رواض الرعان . نضناض
الستان . موار العنان . فوار الجنان . قائد الخيل زائد السيل .

رائد الليل وهاجت العساكر وماجت الزواجر . فزرات القساور .
وأزهت الزواهر . وتناوحت جذبات الحديد . وعذبات الحرير .
وأشبه سهك الماندي بعبيق العبيرو كانت ذوبة اليزك في ذلك اليوم للملك
الافضل وهو في نخبة الجدف بدور ليل لقسطل . وشموس يوم
المحفل . فوقف لهم وقفاً أثرهم وألهبهم بنيران النصال .
وأسعرهم . وقطع طريقهم . وقصد تفريقهم . وسطاً على
أوساطهم . ونادى بأيراء زناد إيراطهم فأنقطعت أواخرهم عن
أوائهم وسدد سهام المذنون إلى مقاتلهم وأرهق إليهم الأجل .
وأحرق عليهم العجل . وطرق نحوهم الوجل . وأنهمز من تقدم
ولحق الأول . وتعكس من تأخر وأنخذل وأنخذل ، وأوقد ناراً على
أهلها مشعلة . وترك تلك الواقعة للمجاهدين الحاضرين مشغله .
ونفذ الى والده يستنجه . حتى يسرع اليه مدده . ويقول ان امددت
بألف ما أبقيت من هؤلاء واحداً . ومتى تتدفق مثل هذه الفرصة لو اري لي

مساعدًا . وترددت الى السلطان رسل استنجاده واستمداده . وهو متحقق أنه لو ساعده القدر بالقدره لمرى در النصر على مراده . فسار من كان حاضرا من العسكر على عزم انجاده واسعاده . ثم قيل للسلطان ما كنا ركبنا بنية المصاف في هذه المرحلة . والناس قد سبقوا الى المنزلة . وهناك عند قيسارية الحرب امكن . والقلب الى انهاز الفرصة أسكن . وأبطأوا عن الاصراخ . فأنزح روح الفرنج بالافراخ . وعرف ملك الانكثير بما تم على ساقته . وان الذي وراءه في عاقته قصر فعرانه وصرف عناده . وعاد عابيا بحماته . فحمى بمدده امداده .

والملك الافضل قد بذل وسعه . وأوضح في الجد بشرعه . وقتل من وص-----لت اليه يده
والقد كان يضعف عدد الاعداء لو تضاعف عدده . وبقي يتلهف على ما فاتته من الفرصة . واعوزه في حصة تلك الحصنة . فقد انهاض بانتهاضة جناح الكفر . وكان يفتتح لارتجائه رتاج النجاح في النصر . ومن جملة من كان مع الملك الافضل من خواص الامراء والممالك . سيف الدين يازكوج وعز الدين جريك . واتفق قولهم على ان العدو كان قد انكسر . وتبدد نظمه وتبتر . وانه لو اتصل بهم مدد . لم يبق من الاعداء أحد . ونزلنا تلك الليلة بالقيمون في الوقت الميمون . وعلى الساقة المنصورة لحفظ الاثقال لتؤمن على ما تخلف فيها من العدو الغار . علم الدين سليمان وحسام الدين بشاره . ورحلنا يوم الاثنين ثاني شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الاساود . وامر السلطان للمشورة بحضور اوليائه وامرائه . الاماجد الاجاود . والفرنج لما وصلوا الى حيفا وقد وصل اليهم الحيف . وساق ساقهم السيف . وخلصوا من نواجذ النصال . وانياب النبال . اقاموا بها حتى يندمل جريحهم . ويستريح طليحهم . وتهب بعد الركود ريحهم . وركب السلطان الى الملاحه وهي بعد حيفا منزلة القوم . وكشف ما حولها بالحووم . وعرف هل عليهم منها مدخل . وهل يصاب منهم فيها مقتل . ثم عاد الى منزلته واقام بها يوم الثلاثاء . وسير الاثقال الى مجدل ياباليلة

الاربعاء . واصبح راحلا . فما حل حياه بارض الا احيا ماحلا .
ونزل على النهر الذي يجري الى قيسارية . وعسكره قد طبق تلك
البرية . وكان العدو قد تحول الى الملاحة . ومكث بها للاستراحة .
واقام السلطان بتلك الناحية يجول من رابية الى رابية . ويرهف
للقاء الفرنج بحضه وحده كل عزيمة نايبة . وأتى مرارا بأسارى
خطفوا من موافقهم وقطفوا من منابتهم ، وطرق الانكدار الى ثواقب
ثوابتهم . فامر باراقة دمهم . واطاحة رممهم . واخبره بعض
الأسارى انهم يوم رحلوا وصلوا الى حيفا حيارى وطرح منهم
وجرح كثير ، سوى من اخذ فهو الآن اسير . وهلك بين عكا
وحيفا اربعمئة فارس . ونجوا منكم بانفسهم على اخر نفس . ولو
انكم كبستم كسبتم . واعريتموهم من الحياة لو انكم بهم التبستم .

فصل من كتاب الى مظفر الدين

بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكا الى هذه الغاية
لا استدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكا حسب ان كل بيضاء شحمه . وان كل
سوداء فحمة . فرحل على صوب حيفا واقعا في حيفه . باحثا عن
حذفه بظلافه . زاعما انه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه في قصده
وزعمه . وهو حاصل منا على صده ورغمه . وكان رحيلهم مستهل
شعبان ومالك انكثير قاندهم الى البوار . ووافد اهل النار الى
النار . واقيناهم من بواترنا بواتر القبار . وقد رحلنا في عراضهم
لاعتراضهم . وتعثيرهم في طريق انتهاضهم . واقوا يوم رحيلهم من
اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديدة . وكل روعة لهم مبيدة . فانهم
قطعوا ساقه العدو عن الحاق بمقدمته . وفلوا عن الحدة في الحركة
حد عزمته . وقتلوا خيلا وخيالة . وفوارس ورجاله . وقدروا
وتمكذوا . وجرحوا فائخذوا . ونهبوا وسلبوا واخذوا رؤوسا
قطعوها . ووقدوا نفوسا قلعوها . وغنموا اقمشة واسلحة .

وحصوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة • ونزلوا على نهر حيفا
وقد تم عليهم الحيف • وتحكم في فلهم السيف . فأقاموا إلى هذه
الغاية لداواة جريحهم ومواراة طريحهم • وإراحة طليحهم •
وإثارة ماركد من ريحهم • وقد رحلنا وسبقناهم إلى طريقهم •
عازمين على تبديدهم وتفريقهم • وتشتيتهم أيدي سبا وتمزيقهم •
فقد تمكنت بتأييد الله أيدي الأيد من سبيهم وقتلهم ، والله يجمع
شملنا لتفريق شملهم ، وما يجده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة •
ولاعدائنا من عبطة • الا ونبادر ببشراه إلى المجلس لتقوى في
نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق في مواقفنا شيمته وتروض
مواحل الامال مع اوان الليمه الربيعية نيمته ، ويغلو في سوق رواجه
من الدين ماظن أنه رخصت قيمته - وكيف لا يأخذ ذلك الكريم بثار
الاسلام وقد سبيت من عكا كريمة ، واذا تأمل عرف أن الخطب
عظيم وما لدفعه الا العظيم ، والهم مقيم وما لرفعه الا بأسه المقعد
المقيم وسيقتضي بين هذا الدين الغريم الزعيم .

وقعة قيسارية

وفي غدوة الاثنين تاسع شعبان ، جاء من اخبر برحيل الفرنج
السلطان ، وأنهم سائرون ثائرون وعلى اجنحة الجرد طائرون
وحول رجالهم بخيلهم باثرون . وهم في جمع لهام . وقد انقسموا
ثلاثة أقسام كل قسم راجله بخيله مدفوظ . وبأعين القسمين
الاخرين من خلفه وقدامه ملحوظ . وكان السلطان تقدم من الليل
بركوب الخيل . فركب في كل خواض الغمرات . فياض بالعزمات ،
رواض للجامحات نهاض بالجانحات ملتئم مع اللثم بالنقع والدجى ،
ملتحف لولا الروع بالحلم والحجا ، مقتحم في حومة الوغى مضطرم
بجمرة الظبا ، على نزائع يذقلن الردى على صهواتها وصواهل
يقذفن الحمام من لهواتها . ويكشفن الظلام بجهاتها . وبارين
الصفاح بصفحاتها . وتعاسل الرماح باعناقها وطلاتها ، وفيهم من
رجال الحلقة المنصورة كل سابق الى المذون على سابق ، وكل تائق

إلى المازق مازق • وكل طائر في الغبار على سابع • وكل غابق
بالنجيع صابح ، في عراب متمطية بالعراب ، ورقاق متخطيه إلى
الرقاب ، وسار العدو وسرنا نبريه ونباريه ، ونجتري عليه
ونجاريه . والجاليشيه ترمي وتدمي • وتصمم وتصمي ، وطيور
السهم تقصد من الاحداق اوكارها • والأتار تذشد بالارنان
اوتارها • وهم في لباس حديد سد على السهم المنافذ • واشتك
الذشاب فيهم فاشبهوا قنافذ . وكانت هناك بركة كبيرة . ومياهها
غزيرة . وهم على عزم ورونها . والاحاطة بحدودها . فحللأنهم
عنها . وأبعناهم منها . وكان الحزم تركهم حتى يخرجوا الى
القضاء . فيدخلوا من تمكنا منهم تحت القضاء . لكنهم ارتادوا
وارتاعوا . وطلبوا النزول بها فما استطاعوا . فانحرفوا الى
الساحل . وانصرفوا بالفارس والراجل . واجتمعوا سارين .
وساروا مجتمعين . ومازلنا نلزمهم ونهزمهم ونحذفهم ونحزهم .
حتى تمت مرحلتهم . وعمت مقلتهم . وتذلمت الصفايح . وتحطمت
الرماح . واجرت الأنهار الجراح . وجرى بالأرواح السماح .
وحضر السلطان مع الجاليشية . ناجح الارادة نافذ المشية ، ونزلوا
على نهر يقال له نهر القصب . وقد انصبوا الى النصب ، وما كانوا
يرجون . وما كادوا ينجون . ولما نزلت بهم في مسيرهم النوازل
نزلوا . وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا .

مقتل اياز الطويل

واستشهد في ذلك اليوم الهمام المقدام . الاسد الضرغام ، الطاعن
الضارب . الباسل السالب . الغضنفر الهرماس . الفارس
الفراس . اياز الطويل وطالما عرض نفسه في سوق الشهادة ، واقدام
اقدام الساعي إلى السعادة . وكان الى الصريخ اسمع متنصت .
ولعطاس الذقع اسرع مشمت . والى ضيف الحمام اسبق متلفت .
ولسيف الاقدام ارشق مصلت . لا يروعة الروع اذا حفزته عزمته .
ولا يهولة الهول اذ همت به همته . وهو اول من يركب وآخر من ينزل

ويدبر سواه وهو يقبل . ويسابق الى المضار ولا يهمل . وهو ابدا يدعو الى المبارزة . ويعدو على المناجزة . ويقف بين الصافين على صافته . ويرحل على مطايا الحنايا من بنات كنائنه الى مقاتل المقاتلين ظعائن ضفائنه . فما برز اليه الا من برزت اليه مذونه . وفاضت بالدم من عيونه عيونه . فكم كفى للكفر كفها . وبكر النصر زفها . واذف للشرك جدعه . وذى انف للفتك صرعه . ولبه للفضنفر ضبحت لثعالب رماحه . وطلية للمتقشمر طنت فيها انيه صفاقه . واجفان للاقران نبتت فيها أهداب سهامه ، ووجوه للشجعان تفصلت في حساب حسامه . فلما جاءه الاجل ما أجل . ولكن الى الجنة به عجل . فان حصانه خانه وما صانه . فعثر به في حالة الاقدام . وجلا قمره في هالة الحمام . ولم يخف لنقل الحديد للقيام وطعن وضرب وأتاه من الكوثر سلسيله فشرب ، ولما أدركه الأصحاب ألفوه ، وقد فات ، ورافق في عليين الأحياء في سبيل الله لا الأموات ، ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة ، شديدي الشوكة حديدي الشكة ، ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصب في أوله ، وهو الذي نزل العدو في أسفله ، وتقاربت ما بيننا تلك الليلة المسافة ، وعندنا الأمن وعند العدو المخافة ، ولما أصبح السلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدو ، ينتظر ما يكون من خبر العدو ، وأقام الفرنج على حالهم ، لتعبهم وكلالهم ، ولأسباب منها جراحاتهم ، عدموا منها منهاج راحتهم ، وكذلك ماملهم من رعب الهلاك ، والابتراك في ارتباك .

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقدم في ساقية البزك ، مستيقظا للحفظ والدرك ، فبصر بجماعة من الفرنج مقبلين ، كبوا بغير عدة مسترسلين ، ولأخبار عسكرنا مستشرقين . وهم مما تم عليهم غير متخوفين . فعبر اليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم في لقائهم فقتل منهم عدة ، ولقوا منه شدة ، واسر ثلاثة ، قبل ان ينالوا

اغاثة ، ثم ركب الفرنج اليه . وحملوا عليه وكانت وقعة عظيمة . جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة . واحضر الاسارى عند السلطان . بحزام الذل والهوان . فأخبروا أنه جرح بالامس منهم الف . وسرى فيهم وهن وضعف ، وقد جرى عليهم أمر عظيم ، وبلاء مقعد مقيم ، ورحلنا وقت الظهر وعبرنا شعراء ارسوف في الطريق الوعر ، ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من ذلك المذهب ، على قرية يقال لها بيرا الراهب ، ومضى السلطان جريدة الى قرب ارسوف واطال هناك الوقوف ، حتى رأى أرضا في طريق العدو تصلح للقاءه ، والاحداق به من أمامه وورائه وأقام يوم الاربعاء في ذلك المنزل ، والعدو في منزله الاول

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكثير

كان في اليك علم الدين سليمان بن جندر ، قد ظهر فيه واستظهر ، وراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجمع به ، وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه فاجتمعا ، يوم الخميس ، على التأسيس ثم تحدثا في الحوادث ، وعوادي الحروب البعوانث ، وان السلم متعينة والسلام فيها متبينة ، والمصالحة مصلحة ، والفائدة مترجحة ، قال وما جئنا الا لاصراخ اهل الساحل ، فوقعنا في الشغل الشاغل . فان اصلحتهم واصطلحتهم . استرحنا واسترحتم ، فقال له الملك العادل : مالذي فيه تحاور وله تحاول ، فقال رد البلاد برد البلاء ، وسلوك مسالك الاسعاف والاسعاد ، فقال العادل : هذا لامطمع فيه ، وهذا رسم باطل حقنا معفيه ، ودون حدود البلاد حدود الحداد ، وخطل القتام وخطرت القتلاد وصرف عنان صرف العناء الى المتصرفين بالعناد ، وأدركه حكم الحمية والحفيظة ، وغلى مرجل غيرته في الكلمات الكلمات الغليظة ، وكان الترجمان بينهما هذفري بن هذفري ، فلما سمع ملك الانكثير مآراعه ، ما استطاع سماعه ، وثار ثورة المحذوق المحرق ، وآل اجتماعهما الى التفرق .

وقعة ارسوف

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ما جرى بينه وبين ذلك الطاغية ، وأنه مصر على تلك المباغي الباغية ، جمع يوم الجمعة وقت الاصبح الاصحاب ، واستحضر من أسد غابرة من غاب ، وأمر برحيل الأثقال ، وأقام في رعيال الرجال ، وركب في عجم انجاب وعرب على عراب ، وكرد على جرد ، وكل سابق ورد على سابق ورد ، على خيل من سماتها آثار الطعن ، وعلى جبهاتها أذوار اليمن ، بأكباد غلاظ على العدا ، ورقاق حداد على الطلى . ونبال مصمية لبان المصمم . ورماح لدتها ضغم الضيغم المعلوم . فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه ، وبات وقد فارق جفنيه غرارا نصله ونومه ، فلما أسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ، ركب العدو على صوب ارسوف وقد ضم الرجال والفرسان ، وهو سائر في ليل حالك ، وسيل سالك ، وخيل عالك ، وحزب الشيطان . وحرب الايمان ، واصحاب الجحيم ، واقطاب الضلال النهيم ، وخطاب الخطوب ، وانداب الندوب ، وكفــــــــــــاة الكفاح ، وصفاة الصفاح ، وأجناس الكفار ، وانجاس الداوية وأرجاس الاسبتار ، وكل غيران غير وان ، وأفعوان معققل افعوان ، وكل ارقم في جلد ارقم ، وكل ازرق اشقر على أدهم ، فأحدثت به أحلاف عساكرنا احداق النار بالحلفاء ، ونقلت بنسور ضـــــــــــــوامرها الأرض الى الســـــــــــــماء ، وخاضت الغمرات ، وأفاضت الجمرات ، وأفاضت المهجات ، وشبت نيران الهنديات ، وأهبت رياح العربيات ، وألهبت شعل اليمانية . وألهمت بها مقل الفرنجية ، وجال عليهم في الجاليش . الترك على الأكاديش ، وأحدثت سهامها كالأهداب بالأحداق ، وبرزت ببيضها لمعانقة الأعناق ، ولمع شرار النصال في بخان العجاج ، وخرقت بنات الحنايا الخرق حجاب الحجاج ، وافضى ينابيع النبع الى أعجال الاعلاج ، فإن الفرنج اغذوا في سيرهم وجدوا ، واحتدموا وامتدوا وقربت منهم الاصلاب ، واختلط بهم الاصحاب وتعانقت

الرفاق والرقاب ، وأخرج القوم وتقطعت بهم الأسباب ، وقربوا من
أرسوف ، وقد لاقوا منا الحتوف والخسوف ، وضاق
خناقهم ، وحاق بهم أرهاقهم ، ونشبت الجاليشية فيهم
بالنشاب ، وشبت نيران المرفقة في أولئك الأوشاب ، فاحتملوا في
جلودهم الجرح ، ومن أجلهم الطرح ، ووجدوا الموت الغالي
مسترخسا ، وايقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصا ، وعرفوا أن
البلايا عليهم متصلة غير منفصلة ، وأن قواهم لما فوق ما لقوه من
الزكايه غير محتملة ، فحملوا على الأطلاب المنصورة حملة واحدة
زحزحتها عن مواضعها ، وكادت تحلثها شوارع القنطاريات عن
مشارعها ، لكنها تحيزت الى القلب المنصور ، وفازت من وجوه
النصر بالصفور ، واستشهد في تلك الفورة الثائرة ، والثورة
الفائرة ، سعداء استقبلوا بالأسنة الأسنة ، وأجابوا دعوة الله بأن
لهم الجنة ، فما صرعوا حتى صرعوا ، ولما اشرعت اليهم الرماح
اشرعوا ، ثم كرت عليهم نخب الرجال كرة أردتهم
وردتهم ، وصددتهم عن الاستئان في جدد تلك الحملة
وصدتهم ، وفرست منهم فوارس ، واتعست معاطس ، وفرشت
بالعراء لهم أشلاء ، واتخذوهم طعانا ورماء . فنزلوا في أرسوف
وقد كسروا وخسروا . وقتل قوم منهم وأسروا . وفي ذلك اليوم ثبت
على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين . وحمل في أصحابه أسد
العرين وسدد الى نحورهم الشوارع وقلع منهم قلائع . وثبت
عسكر الموصل . وكذلك قايماز النجمي في موضعه الأول ، وكانت
العساكر في شعراء أشبه ، وشجراء منتشبة ، فلما رأى العدو
اندفاع المسلمين قدامهم ، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم ، فعاد وعبر
أرسوف ونزل قريبا من الماء ، وبات السلطان تلك الليلة على نهر
العوجاء ، وأقام العدو يوم الأحد في موضعه ، مذكوبا بتعب
تبعه ، ثم رحل يوم الاثنين سائرا الى يافا ، ليستدرك بها ورطه
ويتلافى ، ونازلتهم العساكر بالنوازل الى أن نزلوا وقطعوا طرقاتهم
حتى وصلوا .

فصل من كتاب السلطان الى الديوان العزيز

يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل من
عكا

وسلكوا في مواضع مالىذك عليهم فيها سبيل. ولا لقحاح القراع في
مجالها مجيل، وعساكرنا تضايقهم في كل مضيق ، وتطرقهم بالبلاء بل
المنيا في كل طريق ، وهم على البحر لا يفارقونه ، ومن المورد الى
المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه ، فان المياه قريب بعضها من بعض
ومسيرهم بمقدار مسافة ما بين المنهلين ، واذا لزوا لم يبعدوا بين
المنزلتين ، وكانت لنا الى هذه الغاية معهم في كل بقعه وقعه ، وفي
كل مرحلة مقتله ، وفي كل منزلة منازله ، وأوردناهم الردى في كل
مورد ، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد . وسلبنا حماهم للحمام
في كل سبيل ، وسار صبايحهم منا في كل مغدي ومقيل ، وطريقهم
على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ، ومواضع لا يتسع فيها مجال
ولا يتهيأ قتال ، وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم ، وأرهقنا حدود
العزائم والصوارم وأرهقناهم ، وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر
فيها يبور . ودائرة السوء على اهله بنا تدبير ، وماء اهل النار
بفيض بأسنا عليهم يغور ، ولولا ان الله تعالى قد اخر مواعده في
نصر اوليائه ، وقهر اعدائه ، لوقع الفراغ من شغلهم ، وشملت
نعمته لنا بتبديد شملهم ، فمنها يوم رحيلهم عن عكا ارهقتهم
الليزكية الزكية ، وذكأت فيها منهم الرمية بل المنيه ، وكان الولد
الافضل يومئذ متولى اليزك . فتولى اسعار لهب المعترك . ووقف لهم في
المضيق على الطريق . وباشر جمعهم بالتفريق . وقطع آخرهم عن
اولهم . وعاق الساقة عن الوصول الى منزلهم وبتر وبتك ، وفكك
وهتك ، وقتل وسفك ، وطلب وأدرك ، وعبر الفرنج نهر حيفا لما
دهمهم من الأمر ، واحتموا بالمنزل الوعر ، ووصل عساكرنا وقد
تمنعوا بالنزول . وتجمعوا في الوعر عن السهول . ولم يبق اليهم

نهج للوصول ، وأقام الفرنج في تلك المنزلة أياما ، وقد نالت معاطسهم أرغاما ، حتى استجدوا عدا ، واستنجدوا مددا ، واستجدوا ممن وراءهم عدا ، وأحسكموا التدبير ، واستأنفوا المسير ، ومنها يوم انفصلهم عن قيسارية ، بارثهم الرماة وبرتهم بالمبرية ، وأنفذت اليهم رسل المنية ، وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولن تزل السهام الى مقاتلتهم مصوبة مسدده ، الى ان احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول ، وقد قتلت من خيلهم عدة الف رأس ، لم ينفصل رايها الا وهو من ثوب النجيع كاس ، ثم كانت المياه في طريقهم متقاربة المناهل ، والمسافات غير متباعدة المنازل ، فاذا لزوا بالمنازلة ، ارتزوا الى المنزلة ، ولادوا وهم اهل النار بالماء ، وقادهم العجز عن الاحتمال الى الاحتماء ، ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم . وعابهم شاكين في منتهتهم ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم . والخيل تجري بهم جريان السيل ، والراجل يلدف عليهم في مثل سواد الليل ، والعساكر الاسلامية جائلة في عراضهم ، مائلة الى اعتراضهم ، موفقة في مرامها ، موفقة لسهامها محرقة اهل الجحيم بضرامها ، ولما نشب فيهم النشاب واعجزهم وازعجهم وأخرجهم بكثرة الزكايه فيهم وأرهجهم ، كابروا وصابروا الى أن وصلوا ارسوف ، وقد شارفوا الخوف وقاربوا الحتوف ، فحملوا بحملتهم حملة واحدة ، وجاءوا كاسحاب بارقة وراعدة ، واندفعت الاطلاب الاسلامية امامها ، ولم تثبت قدامها ، حتى ابعدوا بحملتهم في جملتهم ، وتفردوا بحركتهم في معركتهم ، وظنوها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة انها كانت عزيمة . فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز ، وموثلا للمتفرز المتحرز ، ووقف الاخ العادل ثابتا قلبه ، ثابتا طلبه ، وكر عليهم في حربه ذوي الحمية ، والانف والابية ، والهمم العلية ، كرة ردتهم واردتهم ، وصدفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم ، فاستدركت ما فرط في الذوبية من النبوة ، واستمسكت بما استأنفته في العزमे من القوة ، وقتلت منهم كندا كبيرا وعددا كثيرا ، وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيرا .

ونزلوا بارسوف ، راغمي الأنوف . قد فل جندهم ، وقتل كندهم ، وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاعين ، وابليس تلك الشياطين ، والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه قبل وصول ملوك الاشراك ، وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية ، ونفذ امره على الداوية والاسبتارية ، وكان من عظم شأنه ، وفخامة مكانه أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ، وجزع ملك الانكثير لمصرعه ، وفزع من ورود مشرعه ، ونزلت العساكر الاسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار ، وخيمت عليه بحكم الاضطرار ، ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده اياها تلافه وتلافي ، فحال دونهم لقدح مذونهم مجيلا ، ومن جمعهم بقمعهم ميلا ، وعلى قومهم بقمعهم محيلا ، حتى باسطهم في ميادينها ، وضالطهم في بساطينها ورابطهم بالاسود في عرينها ، وأسرى الحين الى سراحينها ، فما وصلوا المدينة الا وقد تخطفوا من حولها ، واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة النكاية وعولها ، وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا ، وعلموا انهم ان خرجوا اخرجوا وان سلكوا هلكوا ، وزعموا انهم اذا صبروا ملكوا .

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج الى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرملة ، واجتمعت الاثقال كلها به في تلك الرحلة ، ورحل ليلا واصبح على يبنى ، وجاوزها الى نهرا مران الخيام به تبني ، وزرنا قبر ابي هريرة رضوان الله عليه ، وتبادر الناس التيمن به اليه ، ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر ، وشرع فيما عزم عليه من الامر .

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة احضر عنده اخاه العادل واكبر الأمراء ، وشاور في عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على ما بها ، ووافقه الجماعة ، وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعة ، فان هذه يافا وقد نزلوا ولا تفي الحال بحماية البلبين ، فإن كل واحد منهما يحتاج في حفظه الى عشرين الف مقاتل ، والى الاستكثار لأجل نخائره ، ممن كل حاصل ، فانظر الى اصوب الرأيين فقدمه ، وابصر اخطر الداءين فاحسمه ، واعمد الى اشرف الموضعين فحصنه واحكمه ، وتيقن ان عسقلان اذا وصلوا اليها هي سالة تسلموها ، واستظهروا بها واحكموها ، وثقوا بها على سواها ، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم الى منتهاها ، واقتضت الآراء ، اقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم ، ومن قصده على عزم ، ووصل السلطان الى عسقلان ، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان ، ولو حفظت لكان حفظها متيقنا ، وصونها ممكنا ، لكن وجد كل له متجنباً متجنباً . وقد راعتهم زوبة عكا وحفظها ثلاث سنين . وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلق واعتذر عن دخولها . وحل عقد عزمه عن حلولها ، تدخلها انت أو احد اولادك ، فدخلها اتباعا لمرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض اسوارها ، وغض انوارها ، وفض سوارها ، وتعفية آثارها ، ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها ، مذيوم فتحها واقتنائها ، لما تطرق الى ايدها خلل ، ولا الى ايدها شلل ، ولا الى حدها فلل ، ولا الى ودها ملك ، وقد كنت ركبت اليها وطفقتها واستحسنها واستلطفها ، ورأيت سورها قبل فصرم سوارها . ونورها قبل نيول نواره ، فمسا رأيت احسن منها ولا احصن . ولا احكم من مكانها ولا امكن . وسكانها كانوا في رفاهية . فانتقلوا منها على كراهية . وباعوا انفس الاعلاق

بابخس الاثمان . وفجعوا بالاطار والاطان . وساعت اسواؤها .
ونأت ادواؤها . وناخت لاواؤها . وباخت اضواؤها . وسمع غناء
المعاول في مغانيها المعولة . ورثيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزلة .
وناخت تلك الذواحي . ومسحتها المساحي . وجرفتها المجارف .
واخافتها المخاوف . ونكرتها المعارف . وبهرجتها الصيارف .
ونعتها الذواعب . ونابتها الذوائب . ونزلتها الذوازال . وغالتهها
الغوائل . وسفتها السوافي . وعفتها العوافي . وخلت مدارس اياتها
من التلاوة . وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوة . وصوحت
مجاني مبانيها . وطوحت معاني مغانيها . ودجت معالي معاليها .
وعادت مقاوي مقاريها . ووقفت على طولها واستوقفت . وأسيت
عليها واسفت . وتلهبت وتلهفت . وشاهدتها وقد حسرت وحفيت .
ومحي سنا محاسنها وخفيت . وبكيت تلك الربوع . وأهديت
لسنقياها الدموع . فلقد اصيب الاسلام بعروسها . وعبست الوجوه
لعبوسها . حين ثار نقع بوسها . فلما خلت مساكنها من ساكنها .
وتخلف بالبيوت رماد نيراتها . رحل السلطان يوم الثلاثاء ثاني
شهر رمضان ونزل على يبنى . بعد ان ترك سور عسقلان وقد تعذر
ان يبنى . ونزل يوم الاربعاء ثالث الشهر بالرملة . وتفضيل جميله
باد على التفصيل والجملة . وامر بتخريب حصنها وتخريب لد .
وبذل كل في ذلك الجهد . وركب جريدة الى البيت المقدس واتاه يوم
الخميس . واعاد اليه رسم التأسيس . وخرج منه يوم الاثنين ثامن
شهر رمضان بعد الظهر وبات في بيت ذوبة . وقد نال بما رقبه من
مصالح القدس الماثوبة . وعاد الى المخيم يوم الثلاثاء ضحوه . وقد
اكمل من كل مارامه حظوه . وفي يوم الاثنين ثامن شهر رمضان
وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان . ملتجئاً
من اخيه وابيه الى السلطان . فتلقياه الملك العادل . وجاءت منه
الفواضل . واقام في الخدمة السلطانية مدة . واستجد بها جدة .
وقوة وشدة . واستظهر بالمصاهرة . وقوي منها بالمضاهرة . فانه
تزوج بابنة العادل . وعاد بتاريخ مستهل ذي القعدة ناجح الوسائل .

وفي هذا التاريخ وهو الاثنين خرج ملك الانكتير في خياله متذكرا . ليكون لحشاشة لهم وحطابة مخفرا . فخرج عليه الكمين . ونشب به اللعين . وجرى قتال عظيم . وكان لاصحابنا موقف كريم . وكاد الملك يؤخذ ويوقد . والطعن في لبتة ينفذ . ففداه فارس من اصحابه بنفسه . وشغل طاعته بما عليه من حسن لبسه . فاشتغل به واسره . واقلت اللعين واخفى اثره . وقتل واسر من خيالاته جماعه . وانهزموا من امر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعه ، وجرت ايضا يوم الجمعة ثاني عشر الشهر . حرب بين اليزكية وبين اهل الكفر . سفرت لنا بها وجوه النصر . وقتل مقدم لهم معروف بالشجاعة موصوف . ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشره ونزل على تل عال عند النظرون . وهي قلعة منيعة معجبة للظنون والعيون . فأمر بهدها وهدمها . وفل غربها وثلمها . واشاع بها الاقامة . واقاض فيها على العسكر الكرم والكرامه . وتمكن الناس هناك من الاحتياط على الاثقال . وانفاذ الجمال لنقل الازواد والغلال .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والاسلح

قد نهك العسكر طول البيكار . وانضاه قتال الكفار بالليل والنهار . لاسيما في هذه السنين الاربع . فانه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا مربع . ولا شتا ولا صاف . الا حيث صف العدو وصاف . وقد تكررت عليه الزحوف . وتعثرت به الحتوف وتفلت منه السيوف . وتحللت به الصفوف . وتمحضت باحاده الالوف . وتمحضت لجني بيضه وسمره من ورق الحديد الاخضر القطوف . حتى سنم ومل . وضجر وكل . وكم عقد عزمه وحل . وانهل نصله من دم الكفار وعل . وامل النصر فقال عسى ولعل . واما خيوله فقد اجهدها الجهاد . وانضاه الطراد . وفري جلودها الجلال . وعزت منها لكثرة الجراح الجياد .

واعادت شهبها كمثا حدود البيض الحداد . وحيث داخلها الرعب من خروج الجروح للجروح . وتفريق السهام منها بين الجسم والروح . صارت تنفر من رنة الحنيه . وأنة المبرية . كأن عندها للاوتار اوتارا . ولطائرات النصال في لباتها اوكارا . أو كأنها لما رأت أنها تباريها في المطار . وتجاربيها في المضمار . ثارت لادراك الثار . وهذا سبب ماحدث من الذفار . وماعادت الان تدخل على راجل الكفار . واما العدد فقد فقدت بالكلية وعدمت . وتكسرت وتحطمت . وتقصفت وتقصمت . وقتلت قبل المقاتل بها وفي يد من استشهد استشهدت . واما الذشاب فانه قد فني . بعد ان اتخد من اخشابه جميع ماوجد واقتني . وقد عدمت اشجاره في منابتها . واعوزت اخشابه من مناحتها . ونفضت الكنائن . وانفضت منه ومن كل ماينخر الخزائن . وماتبرح الصناع في الممالك بمصر والشام . ومايجري معها من بلاد الاسلام . يبرون ويريشون . وينصلون ويعملون . ويكلمون ويحملون . واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال . الى احمال كثيرة لايفي بها الصناع ولايرفعها العمال . وحسبها ان نصولها اعدم من حبيدها المعانين . وخلت من ذخائرها الاماكن . هذا والخادم قائم باداء هذا الفرض وحده . مستهدف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده . ومااستمر على مساعدته . وموازرتة ومعاقبته . الا صاحب الموصل وسنجار . وكلاهما عن سنن الاسعاف والاسعاد ماجار . فهو يحضر تاره بنفسه وأونة بولده . ويستمر من جد الموازرة على جده . ويواظب بعدده وعدده . ومدده في مطاولة مدده .

ذكر ماتجدد لملك الانكتير من المراسلة والرغبة في المواصلة

وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصافحة على المصافاه . والمواتاة في المواقاه . وموالاة الاستمرار على الموالاة . والاخذ بالمهاداة . والترك للمعاداة . والمظاهرة . بالمصاهرة . وتردبت

الرسول اياما . وقصد التثاما . وكادت تحدث انتظاما . واستقر
تزوج الملك العادل باخت ملك الانكثير . وان يعول عليها من
الجانبين في التدبير . على ان يحكم الملك العادل في البلاد . ويجري
فيها الامر على السداد . وتكون الامراة في القدس مقيمة مع زوجها
وشمسها من قبوله في اوجها . ويرضي العادل مقدمي الفرنج
والداوية والاستبار ببعض القرى . ولا يمكنهم من الحصون التي في
الذرا . ولا يقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان . ولهم منا
امان واحسان . واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد .
وجماعة من الامراء من اهل الرأي والسداد . وهم علم الدين
سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعزالدين بن المقدم وحسام
الدين بشارة وقال لنا: تمضون الى السلطان . وتخبرونه عن هذا
الشأن . وتسالونه ان يحكمني في هذه البلاد . وانا ابذل فيها ما في
وسع الاجتهاد . فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب . وما اخرج
الجواب . وشهدنا عليه بالرضا . وحسبنا انه كمل الفرض
وانقضى . وذلك يوم الاثنين تاسع عشري رمضان وعاد الرسول الى
ملك الانكثير لفصل امر الوصلة . وراحة الجملة . وازاحة العلة .
واعتقنا ان هذا امر قد تم . ونشر انضمام . وصلاح عم وصلاح
أذن . وحكم مضي . واستحكم به الرضا . وان الاثنى تميل الى
الذكر . وتزيل وساوس الفكر . وان بركوب الفصل . النزول عن
النحل . وان الشكر يجلب الشكر . ويبذل بالعرف الذكر . وان
الوقاع يؤمن من الوقائع . وان القراع ينقضي بانقضاض القارح
القارح . وان الحرب بكسر الحاء وحذف الراء سلم . وان غرم
العرس في العسر يسر وغنم . وان هذا الاخ لتلك الاخت كفو . وان
هذا العقد للخرق المتسع رفو . وان الكدر يعقبه صفو . وان التزويج
ترويح . وتقويم لما فيه تعويج . وشاع الذكر . وضاع الذشر . وذاع
السر . وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤوسهم . فقصوه على
قسوسهم . وعسروا على عروسهم . فجهوها بالعذل والذع .
ونجهوها بالقدع والقذع . وقالوا لها كيف تفجئتنا بافجع ملم مؤلم .
وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم . فان تنصر تبصر . وان تسرع فما
تعر . وان ابي ابينا . وان اتى اتينا . وان خالف خالفنا . وان

حالف حالفناه . وأي وجه ههنا للائتلاف . ونحن لاختلاف الدين ندين بالخلاف . قهرهبت بعد ما رغبت . وبطلت بعد ما طلبت . وسألت بعد ما سألت . ونزت بعد ما نزلت . وكهرت وكانت شرهت . وكانت اكتحلت فودت انها مرهت ، فأرسلت الى الرسول واقبلت عليه القبول . ثم تصليت في القسم بالصليب . انها مجيبة الى التقرير والتقريب . وانها مسارعة الى التكمين . لكن بشرط الموافقة في الدين . فانف العادل وعدل عن استئناف الحديث . وأبى الله ان يجمع بين الطيب والخبيث . واعتذر الملك بامتناع اخته ، وانه في معالجتها وتعرف رضاها في وقته . وكان قد استقر مع تمام العهد . وانتظام العقد . مفاداة كل اسير بأسير . كبير بكبير . وصغير بصغير . وبشر اولياء الهاغوت بصليب الصلابوت فبطل التدبير . وعطل التقدير . وذلك ثاني يوم العيد .

وفي يوم العيد الثلاثاء اعد السلطان من الليل خلع الاكابر حتى سارت اليهم بكره . واحداث بحسن احتبائه لكل عين وقلب قرة ومسرة . ثم استدعاهم الى سماطه . ونشر لهم بساط نشاطه . وجلس الملك معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان عن يمينه . واعزه بتقريبه وتمكينه . وويله حسام الدين خضر اخو صاحب الموصل . ولسمو منزلته بذو المنزل . وعلاء الدين ابن اتابك الموصل عن يساره . وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بايثاره . ومجاهد الدين يرزقش مقدم عسكر سنجار جالس . والاكابر كلهم هناك في منزلته منافس . ثم تفرق الناس باندس جامع . وعرف شائع . وعرف ضائع .

ذكر نزول السلطان جريدة بالرملة ليقرب من العدو ومواقفته له في كل يوم .

تواتر الخبر بان الفرنج على عزم الخروج . وانهم على الاجتماع في تلك المروج . فسار يوم الاثنين سابع شوال . وقد اركب العسكر

للقتال . فلما بلغ قبلي كنيسة الرملة . جميل الحال حالي الجملة . خيم وبات . وذوى البيات والثبات . وجاء الخبر في غد . بانه خرج العدو الى يازور في اوفر مدد ، وتسارع العسكر اليهم . وتكاثروا عليهم . وقربوا من خيامهم . وأخذوا عليهم من ورائهم وامامهم . وناشبوهم بالذشاب . وكاثروهم بالأوباش والأوشاب . فركب الفرنج اليهم ركبة . أوجبت رهبة . وحملوا على الناس حملة واحدة . وحلت عجاجة عليهم عاقدة . فاندفعوا بين ايديهم . فادركوا ضعافا طمعوا فيهم ، وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهادة . وكانت مسعاتهم الى السعانة . وكذلك في كل يوم ركب السلطان مايخلو من وقعه . ولا بد للكفار فيها من صرعه .

ذكر وقعة الكمين

وفي ليلة الاربعاء سادس شوال امر السلطان رجال الحلقة المنصورة . بان يكمنوا في جهة عينها في المواضع المستورة . فكمنوا وامنوا وصبروا وانتظروا . وخرجت الفرنج للاحتشاش . وباشروا عثار انحصارهم في الاصحار بالانتعاش . واقيتهم اعراب على عراب . بصوارم في ايمانهم كانها بروق في سحب . فركبت اليها من الخيام . ورحبت في ترحيب صدورها بصدور الحمام ، فاندفعت العرب امامها . وحققت انهزامها . وما قدرت على قصدموضع الكمين . لانسداد الطريق بالاساد الشم العرانيين دون العرين . فمرت العرب في جانب والكمين في جانب . والخيل تركض بسالب من سالب وناهب من ناهب . ونجا العرب . وفاتهم الطلب . وحضروا باسارى ونهاب . وافراس واسلاب . فاما اصحابنا في الكمين فانهم ابصروا الفرنج ناهضين وفي المعترك راكضين . فخرجوا على ظن انهم على قصدهم . فلما بصروا بهم نشبوا بردهم عن ردهم . وركضوا اليهم على بعد . فاتعبوا الخيل بما جدوا فيه من احضار وشد . ووصلوا الى الفرنج والجياد قد رزحت ، والقوى قد نزحت .

فاضطروا الى القتال وقاتلوا على الاضطرار . وقتلوا جماعة من كفاة الكفار ، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار . وهم اياز المهراني . وجاولي الغيدي . وصارو . وسروا في جنات النعيم بما اليه صاروا . واسروا من الفرنج فارسبان معروفان واحضروا عند السلطان وانفصلت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الاسلام عن حزب الكفر . وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه . والخييل تقاد اليه . والأسارى يحضرون بين يديه . واخوه العادل عنده جالس . وكلاهما لأخيه مؤانس .

ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لأجل ملك الانكتير ثلاث خيام . واعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام . وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما المحادثة . ودامت المثافنة والمنافثة . ثم افترقا عن موافقه اظهراها ومصادقة قرراها . ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلي المعروف بالصنيعة ليذهب الاسارى الذين بيافا . ويتدارك امرهم ويتلافى . وكان قد وصل صاحب صيدا من صور برسالة المراكيس . وانه يرغب في سلوك نهج التأنيس . وان يكون للسلطان مصالحا . وله على الطاعة مصافحا . حتى يقوى يده على ملك الانكتير . ويفرد هو بالملك والتدبير . وعرف ملك الانكتير بالحال . فوصل رسوله ايضا بالاحفاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صيدا . الى المراكيس على شرائط قررت ونسخ ايمان حررت واما مراسلة الملك فلم تسفر عن المقصود . ولم تجر من تلونه الا على المعهود وكالما ابرم عهدا نقضه ونكثه . وكالما قوم امرا عكسه وعلائه . وكالما قال قدولا رجع عنه . وكالما استودع سرا لم يصنه . وكالما قلنا يفي خان ، واذا خلنا انه يزين شان ، وعن كل خزي ايان ، وفي يوم الاحد سابع عشر عاد السلطان الى المخيم بالنظرون . وأقام على الثبات والسكون وفي يوم الخميس مستهل ذي القعدة سار ابن قليج

ارسلان صاحب ملطيه مودعا وركب السلطان وسار معه مشيحا ، وعقد له على ابنة الملك العادل بصادق مائة الف دينار . ومضى وقد حصل على ذخائر من استبشار وافتخار . واستبصار واستنصار . ويسر ويسار .

ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذي القعدة وتقدموا الى الرملة ونزلوا بها . وخيموا في اقطارها وسهوبها . ولم نشك في انهم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس . وأقام السلطان وفي كل يوم له سرايا ، للكفر منها زوايا ، ولنا في كل يوم وقعة شديدة وفتكة بالكفر مييده . وما يخلو يوم من اسرى تقاد . وغنائم تستفاد ، ثم توالى الأمطار ، وتوعرت السهول ، وتوحدت الأوعار . فعزم على الرحيل ، وأمر بالتحويل .

ذكر الرحيل الى القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين ذي القعدة.

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل . والنصر شامل وفضل الله متواصل . ونحن معه سائرون . ومن بركة الجهاد الى بركة القدس صائرون . والقاضي بهاء الدين بن شداد يسايرني . وفي مسألة من الخلاف يباحثني ويناظرني حتى وصلنا الى القدس قبل العصر . وقد نشر السلطان لواء النصر . ونزل بدار الاقساء المجاورة لكنيسة قمامه . وذوى بها الاقامة . وشرع في تحصين المدينة . لتحصيل السكينة . وصلى يوم الجمعة مستهل ذي الحجة في قبة الصخرة . وضجت الألسنة في الدعاء له بالنصرة .

وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة وصل حسام الدين ابوالهيجاء من مصر ، بعسكر مجر . وتبعته بعد ذلك العساكر المصرية . ووصل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون . وأنن ذلك بتزاحم الافكار وتراجم

- ٦١٦٣ -

الظنون وتزايد السكون . وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة .
تم على العدو بها صرعه . فان السلطان نفذ تلك الليلة الى اليزك
قريب بيت نوبه . عدة من الفرسان مجدة لم يستصحبوا الا حصنهم
المجذوبة . فوقعوا على سرية الفرنج فاستأصلوها . واسروها
وقتلوها . ووصلوا بزهاء خمسين اسيرا الى القدس . وعاد ذلك منا
ببرد القلب وطيب النفس . وكانت بشرى عظيمة . ونعى كريمه .
وحسنى عميمه . وكذلك سابق الدين صاحب شيرز . ومن معه من
العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة واسر اربعة .
وترك بالمعركة منهم مصرعه . وكسب منهم خيلا . وكسبهم ويلا .

يوم عيد الأضحى بالقدس

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة في هذه السنة وتضاعفت الحسنة
على الحسنة غير ان العيد بالقدس كان يوم الأحد ، فلم ير ليلة
الخميس الهلال احد . ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه
الخاص . وصلى الناس في القبلة العيد حوالها العراص ، ثم
انصرف السلطان وقد بر عمله . ودرامله ، ووفراجره . واسفر
فجره .

وقعة

في يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجة أغار على طريق الفرنج
بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وكلاهما يجد في
الجهاد ولا يقصر . واخذا غنائم واموالا . وساقا خيلا وبغاللا .
وكسبا احمالا واثقالا . واسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين . ووقفوا
بين يدي السلطان على ركب الذل جاثين . وتوالى على الفرنج
النهوض والنهوب وكسرت وكثرت منهم الكسوب . واستعرت فيهم
الحروب . وزادت الكروب وضائق عليهم الارض . واستولى على

- ٦١٦٤ -

عقود عزائمهم النقض ، ورأوا انهم قهروا فقهروا ، واحاط بهم
البلاء من الجوانب فمصابروا . ورحلوا الى الرملة
عائدين . وبالسهول من الحزون عائدين ، فان الذلوج دامت على
اولئك العلوج . وصدتهم عن الدخول والخروج . ونزلت بهم النوازل
في تلك المنازل ، فذفروا راحلين الى السواحل . وذلك يوم الخميس
الثامن والعشرين من ذي الحجة . فطابت قلوبنا بما وضع في النصر
من المحجة . وثبت الحق على الباطل من الحجة .

ذكر ما اعتمده السلطان في عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سورہ واعادة رونقه

وفي هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين . وعدتهم
خمسون رجلا . اذا اجتمعوا قطعوا جبلا وقد سيرهم صاحب
الموصل الى القدس للعمل في الخندق وتعميق الحفر . والقطع في
الصخر . وقد سفرهم بذفقة . وجعلهم من الاحسان على ثقة .
واصحبهم بعض حجابہ . ونداهم بندي سحابة . وسير مع المندوب
مالا يفرقه عليهم في رأس كل شهر . ويتعاهدهم في كل يوم بتفقد
بر . واقاموا نصف سنه . واتوا في صنعتهم بكل حسنة . وصمم
السلطان على حفر خندق جديد عميق . وانشاء سوروثيق وأحضر
من اسارى الفرنج قريب الفين . ورتبهم في العمارتين . وجدد
ابراجا حربية من باب العمود الى باب المحراب . وأنفق عليها من
المال ما خرج عن الحساب . بناها بالأحجار الكبار الثقال ، فجاءت
ارسي وارسخ من الجبال . وكان الحجر الذي يقطع من الخندق
يستعمل في بناء السور واذا تكملت العمارة على ما رتبہ للقدس
المعمور . كان أمنا من قصد العدو المدحور . وفي عصمة الله من
المخوف المحذور . وقسم بناء السور في مواضع على اولاده واخيه
الملك العادل وامرائه . وصار يركب كل يوم ويحض على بنائه .
ويخرج الناس على حمل الحجر الى مواضع البناء . ويتولى ذلك

بذفسه وبجماعة خواصه الامراء . ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية . وحواشي العسكر والاتباع والرعية والسوقية . وكنت اركب في غلماني واتباعي واحفظ قلب السلطان في نقل الحجر واراعى . فبني في اقرب مدة ما تعذر بناؤه في سنين وبذل جهده في التحصين لتأمين المؤمنين .

ذكر من توفي من الأكابر والمعروفين في هذه السنة وفاة تقي الدين

توفي الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ابن اخي السلطان . يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان . وهو على حصار ملاز كرد من عمل ارمينية وقد سبق ذكر مسيره الى بلاد الجزيرة . لاستمداد الامداد الكثيرة واستجناد الانجاد . والاستتجاد بالاجناد . والجمع من جميع الجهات للجهاد . والعود سريعاً بالدشود الجامعة والجموع الحاشنة . والجيوش المترادفة المترافدة . والجنود المتوافرة المتوافده . والقواضب الفاصلة . والهواضب الهائلة . والمصافحين بالصفاح . والمختالين في اعطاف المراح باطراف الرماح . والحاملين الجبال على الرياح . والمتعطشين الى انتجاع النجيع لارواء الارواح . ومكث السلطان على انتظاره . متوجساً لأخباره . مستوحشاً من ابطائه . متعطشاً الى انبائه . منتظراً لوفائه . فلما اخذ الفرنج عكا نسب ذلك اليه واحتسب الله عليه .

فأما تقي الدين فانه عن له ان يمضى الى ميافارقين . واستصحب اليها عساكر ماريين . ونفذ الى السويداء وانتزعها من ايدي اصحابها . واستحوز على جميع ما بها . وحاصر مدينة حاني فتملكها . وكانت له مقاصد في بيار بكر فأدركها . واقتطع بلاداً من ولاية ابن قرا ارسلان واقطعها . وارعب القلوب بما ابتدا به

وابتدعه وروعه . وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر بيار بكر .
وحصلت منه على عذر وذعر . وراعت هيبتة ، وهبت روعته . ودبت
الى الخواطر مخافة اخطاره . وشبت في القلوب لوافح ناره .
وارتجت تلك الأجام من زاره . وازورت من مزاره . وبلبت تلك البلاد
ببلائه . وهابيت الأعداء هببة أعدائه . وزلت الأقدام
لاقدامه ، وانخفضت الاعلام لاعلاء اعلامه . نفى عدله من جبل جور
جبله الجور ، وأنهى بسبب نهابه اليهسا فـــــوران
الفتنة على الفور ، وبخل قلب قلب ، وحكم في عداتها الغلب
القضب ، وقصد عسكره عسكر بكتمر فكرسه ، ثم سرح بالاحسان
وأطلق من أسره ، فغار بكتمر واشتعل بنار الأنف أنفه ، واعتلق
بانن الشذف شذفه ، وانتخت حميته ، وحميت نخوته ، وغيرته
غيرته ، وعيرته رعيته ، وأودعته الهم همته ، وحركته
عزمته ، فاجتمعت جماعته وأمه أمته ، وما أرجأ له نجح رجائه
رجاله ، وما أبطأ له عن اعانتة أبطاله ، وأجناه ثمر الطاعة
أجنانه ، وأنجاه بجهد الاستطاعة انجانه ، وجر عسكرا
مجرا ، وساق الى الحرب بحرا ، وأوقد بالجمع جمرا ، وجلب
بيضا وسمرا ، ودهما وشقرا ، وصوارم بـــــترا ، وصواهل
ضمرا ، وانهض كمتة وكماته ، وحشد رعيته وذوي حميته
وحماته ، وساكني ولايته وولاته ، ونسوره وبغاثه ، وسمانه
وغثائه ، ومثانه ورثائه ، وشباعه وغراثه ، وجاء في سواد اسود
منه الجو ، وانسد بظلامه الضو ، وتحلى بنجومه ليل
العجاج ، وتجلي بسفوره صبح الهياج ، وأبرق وأرعد ، وتحدر
وتصعد ، وسار بين الأكام بالأكام ، وضاهى الاعلام
بالاعلام ، وأنكى مذاكيه الجياد ، وأجرى ضوامره وهواديهها قد
ملأت الوهاد ، وأبنى الى الأساد الأساد ، وأغرى بالجلاد
الأجلاد ، وجذب الجماع عرانه ، وجلب الكفاح رعانه ، وضرع
المراح رماجه ، وأطلع في سني الصباح صفاحه وماجت غدران
دروعه ، وماجت غران جموعه ، ومالت المراز ، وجالت
الأقران ، وسال المرت ، ومرت السيول وتسهلت الوعر وتوعدت
السهول ، وانقض القضاء ، وانقض القضاء ، واشتكت الارض من

الحوافر الحوافر وقعا فاثارت لفرط تألمها على شرط تظلمها الى
السماء نقعا ، وحدثت في وجه الفلك ترابا ، وحدثت الاتراب الاتراب
طعانا وضرابا ، وخاف على خلاط واختلط من المخافة ، فقصر الى
الملك المظفر طول المسافة ، فلما عرف اصحار خارده ، وانتشار
بوادره • وانتهاض قواده ، وارتكاض صلاومه ، وانفضاض
شهب قواضيه ، وانفضاض دهم سلاهبه ، اصطف بمن اصطفاه
من الانجاد الانجاب ، وفض على الفضلاء سحاب
الصحاب ، وبسط على البسيطة رداء الردى ، وأعدى بعلمه على
العدا ، وركب في كل ضرب بعد الضرب ضربا من الضرب ، وكل بطل
لحق المبطل محق الطلب ، وكل باسل سالب من كباش الاقران
القرون ، وكل عاسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المذنون ، وكل شجاع
اشاجعه وصائل القواطع ، وكل مقدم قواده عوائد الوقائع ، وكل
طائر بأجنحه السوابق ، زائر بأسلحه البوائد ، محلق بخواني
الخوانق ، مطرق لطواريء الطوارق ، وكل ذمر مشيح بالذمار
شحيح ، وكل قاس قدوسه عاطف ، وكل راع نصله راعف ، وكل
صاد عزمه صادق ، وكل رام لحظ سهمه الى المقاتل رامق ، وأيد
رجاء الرجال بأيايه ، وقوى عزائم اوليائه لاضعاف
أعاليه ، ورغب بالרגائب واملى ضيوف الآمال بفيوض أمواه
المواهب ، ونخى المنتخين ، وانتخب المنتخبين ، وأقدم في كل مقدم
مقدام ، وضيغم ضرغام ، وهمام همام ، ومعتقل اسمر يرشف ظلم
القلوب ، ومشتعل ابيض يكشف ظلم الحروب ، وكل من يخال
الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام ، وكل من ينال اعتزاز
الجد بجد الاعتزام ، وكل من يعيد اقاحي البيض شقائق ، ويصل
بها اذا فارقت اغماها المرافق ، وكل من عنانه في يمين
الجماح ، وسانه مرود عيون الجراح ، وكل من ذبال سمهره
يلتهب ، وذباب مشرفيه يضطرب ، ووجوه صوارمه تبكي
وتضحك ، وعيون تفتك وتبتك ، ولحاظ سهامه عن حواجب قسيه
ترمي ، وسواعد سيوفه من أيدي الأيد تمذ وتدمي ، وكل اشعث
الهامة ذي همة ، تشعب صدع كل ملمة ، وكل شهيم شيطمي • اباء
حمي • مجرب محرب • مقرب على مقرب • مظهر على

مطهم • جار بمرجم ، باز بمخدم ضار بأرقم ، جواد حلیم تحمد في
الوغي جهلاته ، على جواد كريم ، تدعو الى الردى صهلته ، وكل
بحر مستلثم بغدير ، وكل من عنده اذا لبس الحديد انه لا بس
حرير ، فلما بصر عسكر خلاط بعسكره اختلط ودلوا استدرك
الغلط ، وجاش وطاش ، ورام من عثرته الانتعاش ، وولى
هزيما ، ولوى هشيما ، وأغزم العسكر التقوي سلاحه
وخيله ، وجبر على تراب الذلة نيله ، وظفر الملك المظفر
بالمالك ، واسلم العدا الى الهلك ، وقيد اليه امراء اسروا واصحاء
كسروا ، فأطلق سراحهم ، وانفض بتشريقاته جناحهم ثم رحل من
صحراء موش ، وساق الى خلاط الجيوش ثم بدا له من حصارها
فأقرها بسلب قرارها ، وعرج على قلعة شميران فتشمر لها ، وفتح
مقفلها. وكان مجد الدين بن الموفق وزير خلاط بها محبوسا ، ومن
حياته يؤوسا فخلصه واستخلصه ، وكسر حتى طار منه
قفصه ، وانه لمن اعجب القصص لو شرحت قصصه ، ثم راح الى
ملار كرد ونازلها بالتضييق ، وقاتلها بالمنجنيق وحشد اليها
الامداد ، واروى فيها من عزائمه الزناد ، وجاءته عساكر أرزن
الروم منجدة من جده ، موجهة لما لها من موجهة ، تقدمها الملكة
ماما خاتون بنت سلق ، وكأنها في الأهبة والأهبة من ملوك
سلجق ، ووفد الى تقي الدين الجنود ، ووافقته السعود ، وخافته في
غاباتها الاسود وغربت به العقول وعلقت به العقود وتوطدت له البلاد
وتوطأت وتهيب وتهيات ، واستننته الممالك القاصية ، وأطاعته
المقاصد العاصية ، وتشذفت له مسامع الأقطار بافراط السمع
والطاعة ، وعم الأمحال تلك المحال ففض بما افاضه من فواضله
مجاة الجماعة ، ورجي وخشي واعتقي وغشي وامتلات الطرق
بالوفود والجنود ، وتوالت اليه أمداد البأس والجود ، فبينما هو في
غفلة من القدر ، وغفوة من الكدر ، وغرة من الغير ، وقد ألهاه
حديث النيا عن الحادث الداني ، وجني الحياة عن الموت الجاني
وزيادة الامـل ، عن زيارة الأجـل ونزل المنى عن نوازل
المنون ، وسكن الأتراب عن التراب المسكون ظهر له سر الغيب
المكتوم ، وأدركه القضاء المحتوم ، ومرض اياما ثم قضى وانقرض

عهدہ وانقضی ، وکتبم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته ، الى ان خرج من ذلك الاقليم وجاوزه وفاته ، وفتحت ملاز كرد بابها ، وسلم الرب اربابها ، وخرج ولد تقي الدين بعسكره وماله سالما ، وجد في مقام والده يظهار شعاعه قائما ، وجاءت رسله الى السلطان تسأله في ابقاء بلاد ابيه بيده ، حتى يبقى مستمرا على جده ، وطلب من السلطان الميثاق له بأغلب الايمان فلم يقبل الشرط واشتط فشط وجلب له الشطط السخط ، وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول مأمته فرط ، ونسبوه في استيحاشه الى العصيان ، وسعوا له في اسباب الحرمان ، حتى انتخى له الملك العادل فمضى لاحضاره وجرى الأمر على إثارة . وسيأتي ذكر ذلك في حوادث سنة ثمان .

وتوفي في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن اخت السلطان

توفي بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقي الدين فأصيب السلطان بابن اخيه واخته في يوم واحد ، كلاهما له اقوى ساعد ، وأوقى مساعد ، فياله من حسام أغمد ، وهمام الحد ، وركن وهن . وكنز دفن ، وبحر غاض ورز هاض ، وصبح كسف . وبدر خسف . لقد غامت الايام لغمه ، وثكلته الدولة ثكل أمه فانه كان واحدا وعضدها ومعاضدها وهو الذي فتح نابلس وأبقاها السلطان معه ، وأبقى فيها من سنن العدل ما شرعه ، وقد سبق في الكرماء ما ذكره ، وذكر في المكارم سيفه وقرظ حذقه ، ووصفت مقاماته ، وقمت بصفاته ، فان له مواقف في الجهاد مشكوره ، ومقاطف لحنى النصر مشهورة ، فقطع الأجل عليه طريق الأمل ، وأعاد حلية الزمان به الى العطل ، وأوهن عقد شبابه الطري وحله ، وثلم حد شباه الطرير وقله ، وما زال في غزواته مثيرا للتراب الى أن سكن عليه التراب وسكنه ، وطالبه

- ٦١٧٠ -

الثرى بحق خلاقه معه فاسترهنه، وغارت عليه الأرض بانطلاق سموه ، الى السماء فاعقلته ، ووجدته في اوج الفلك في النيرات فذقلته ، وماكان انكاه وانكاه ، واصحه واصحاه ، وابهجه وابهاه ، وأضوعه وأضواه ، وأوعاه للفضائل وأحواه ، ولقد فجعت به صديقا صدوقا ، وشقيقا شقيقا ، ورفيقا رفيقا ، فلهفي عليه من شهم توطن التراب ، وسهم اصاب بعد ما اصاب.وجواد بلا حساب لم يخطر بالبال من رزئه حساب (لكل أجل كتاب) (الرعد ٣٨)

وتوفي في هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته ، ومواقفه ومقاماته ، وكان في الخدمة مقيما ، والسلطان الى الانس به مستنهما ، فعرض له مرض استأذن لأجله في العود الى وطنه بطلب ، وسمح له السلطان بجميع ما طلب ، وتوجه من القدس سادس عشر ذي الحجة ، واستقام على المحجة ، وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قرية غياغب ، وستر التراب منه المناقب ، ووصل الخبر بوفاته الينا يوم الخميس ثامن عشرين الشهر .

وفي هذه السنة فتك بأتابك مظفر الدين قزل ارسلان ابن ايلد كز في همذان ليلة الاحد مستهل شعبان .

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعروف ببهلوان في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت ارادته ، ورجحت سعادته ، وصالحت عاداته ، وكان السلطان السلجقي طغرل بن ارسلان تحت حكمه ، وهو ابن أخيه لأمه ، وله اسم السلطنة ولقزل حكمها ، وله سموها ووسمها ، فأذف السلطان من كونه تحت حجره ، وبحكم نهيه وأمره ، فانه لم يكن له صاحب ولا غلام الا من عنده ، ولم ينفرد منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل ، واتصل به بعد ذلك من انضم اليه من الخيل ، ودام غائبا في نواحي دامغان مدة ، واشتد مصابه واصاب شده ، فاتصل به عدة من مماليك

بهلوان الخواص ، وسلکوا معه نهج الاخلاص وأعادوه الى سرير ملكه ، وانتسق امره في سلكه ، وقويت يده . وتأيدت قوته . واجتمعت كلمته . وتكلمت في الأمر والنهي جماعته . ورهبه قزل ارسلان ولازم ذعره . وأخذ منه حذره . وتنافس الأمراء ومماليك بهلوان النين تبعوه . وأعلوا شأنه ورفعوه . وسعى بعضهم ببعض وقابلوا كل ابرام من مكرهم بذقن . وقالوا له هؤلاء البهلوانية يغتالونك . وبالسوء ينالونك . فابطش بهم قبل أن يبطشوا . وعثرهم قبل أن ينتعشوا . فسمع مقالهم . وتبع محالهم . وقتلهم بحضرته وهم غارون . وساءهم باغتيالهم وهم بالمغالاة فيه سارون . فذفر منهم كل أدس . وحفظ نفسه من كل منافس . وزال بشره وبقي بوجه عابس . وفارقه بنو البهلوان بجنايته على مماليك أبيهم . ولقوه بتأبهم . وقصده قزل ارسلان فأزعجه . وأخرجه من دار ملكه وأخرجه . وأجلس سلطانا آخر موضعه . وكدر عليه بالشواثب والنواثب مشرعه . وخطب لمعز الدين سنجر بن سليمان شاه وأطعمه طعمه . وأرضاه بالاسم . وأجراه على الرسم . وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد . وانتظمت بينهما أسباب الانجاد . وكان السلطان طغرل إذا خلت همذان من قزل ارسلان يعود إليها . ويستولي عليها . ثم اذا عرف قربه بعد . واذا علم بعده قعد . وشرع يقتل أصحابه بالتهم . ويشد في النهب لشدة النهم . فقتل فخر الدين رئيس همذان . وبث العدوان . وقتل وزيره العزيز بن رضي الدين المستوفي لأمر توهمه . ولخاطر لم يكشف مهمه . فالجأ الزمان إلى الوصول إلى الأمير حسن بن قفجاق . وشكا إليه من أهله وأصحابه الشقاق . فخرج معه وأزره وضافره . وظاهره بعد أن صاهره . وزوج أخته منه . وحمل جانبه وذبح عنه . وراسل سلطاننا قزل ارسلان حتى يصلحه . ويصافحه على الوفاء ويسامحه . وكاد أن يتم الصلح . ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح . فلما تقاربا للمصالحة تحاربا . واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا . وأوقع قزل ارسلان به بالتركمان . وعادت الفتن ملتبهة النيران . وساق السلطان طغرل الى همذان . فمضى وراءه قزل ارسلان . فخرج اليه ثقة بما سبق من الايمان . فصرف

- ٦١٧٢ -

عنانه • وقبضه وأعرض عنه واعترضه • وحبسه في بعض القلاع •
وأبعد عينه وأثره عن الابصار والأسماع • فأتسقت له المملكة •
واستقر منه السكون والحركة • وكانت أصفهان منذ توفي البهلوان
قد اضطربت واحتربت • واقتربت الساعة بها وخربت • وقتل في
ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف • وتوالت بها حتوف
وزحوف • وكانت الشحن من جانب قزل على الشافعية • وقروا
أيدي الترابية في تخريب المدرسة النظامية • فاحوجت الضرورة إلى
أن اصحابنا دعوا بشعار السلطان • ووجدوا القوة به أمام قوته
والامكان • فلما اعتقل طغرل • واستمر أمر قزل • مضى إلى
أصفهان فاخذ رؤساء الأصحاب في الحال • وأجرى عليهم القتل
والاغتيال • ثم عاد إلى همذان وقد قوي وروي • ونال ما هوي •
ونشر من أمره ما كان طوي • وجلس على سرير الملك وضرب النوب
الخمسة • ووجد بعدم من يوحشه الانس • ولها ولعب • وشرب
وطرب • وغفل عن القضاء المشتبه • ونام عن القدر المنتبه • واغتر
بالعيش الرفه • وحلم عن الخطب السفه • وبات في قصره • وقد غاب
في سكره • وهو بين خدمه • وحشمه • وعسسه • وحرسه • وعقائه
وأرقائه • ومستخصية • ومستخلصية • فوجد على فراشه وهو
قتيل • ولم يذكر كيف قتل ولم يكن عليه سبيل • فذسب قتله إلى
الاسماعيلية تارة وإلى الخاتون الانيانجية أخرى • والله أعلم بما به
حكمه أجرى • ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه وحل العقاب به دون
أربابه • وجلس قتلغ اينانج بن البهلوان موضعه • وجمع له ملكه
ومتعه • ومضى أخوه نصره الدين أبو بكر إلى اذربيجان وأرانيه
سائقا إليها واستولى عليها • وأما السلطان فإنه أيس منه • وسلا
من كان يواليه عنه • فتعصبت له امرأة متولي القلعة ودبرت في
خلاصة • وهونت على زوجها أمرا استصعابه واعتياصه •
واستعانت بمن أعانها • وأعلت بإعلاء شأنه شأنها • ولما برز دخل
مدينة تبريز • وكانما الكير أخرج الأبريز • ثم جمع ومضى على
سمت همذان • فلقي قتلغ اينانج وعسكره بين أوه وزنجان •
فكسره وهزمه • وفل حده وثلمه • ومضى إلى همذان • وجلس على
سرير ملكه وذلك في سنة ثمان • وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله •

وتوفي في هذه السنة بدمشق من المعروفين من أصحاب السلطان صفى الدين أبو الفتح ابن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريا . وبالحمد حريا . وفي حلبة المكارم جريا . ومن الخيانة في ولايته بريا . ومن العار عريا . ولم يزل زند مضائه وريا . وكانت له سياسة ورياسة . ونفس ونقاسه . ورأي وفراسه . وفطنة وكياسه . ومروءة وفتوة . وثبات جنان وقوة . وكان قد خدم السلطان أيام عدمه . وهو في كفالة أبيه وعمه . فلما ملك مصر أمرجه في أموالها . وحكمه في أعمالها حتى نال المنى . ووجد الغنى . فقال له قد اكتفيت واستغنيت . وإن صرفت الآن ما باليت . فاصرفني عن العمل . فقد نلت غاية الأمل . فعاش غنيا . ومات جشريا . وورث السلطان بعض ماله . وذلك ما فضل عن الفضاله ، فانه فرق على مماليكه املاكه وماله ، واخفى بعد وفاته بما بذله حاله .

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول توفي الحكيم الموفق ابن مطران وكان بارعا طريفا ، نظيفا عفيفا ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال اسباب الاحترام ، وتقدم عند السلطان . وماشانه وهو كبير الشأن ، وكانت له دراية ودراسة ، وذكاء وفراسه ، ولم يزل متلطفا في طيه ، متعطفا بحبه ، متحببا الى القلوب . متقلبا من قبوله في المحبوب ، صبيح البهجة فصيح اللهجة ، صحيح الحجة بوضوح المحجة ، ولم يزل له عند السلطان وذوي الجاه جاه ، ولجه انتباه ، ولداواته بالشفاء شفاء ، حتى حان اجله . وخان امله وبان عنه حلى حاله وبان عطله . وكانت له عندي يد اذكراها واشكرها . وعارفة اعرفها ولا أنكرها . وذلك انني في ذي القعدة سنة ثمانين كنت متوجها في خدمة السلطان وفي صحبته متوليا للانشاء منفردا بمرتبه . فلما وصلنا الى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض وشكا جوهرى العرض ، وانتهى اليه بدمشق ما الم بي من الالم ، فتقسم فكره من خبر السقم ، وركب ووصل في يومه حتى ادركني ، ومرضني وما تركني وداواني حتى

أبليت ، وأزال الله انحراف مزاجي بطيه فاعتدلت ، وصحبني الى دمشق وسبق الى أوليائي بالبشرى وشكرت الله على النعمي ، وكذلك كان يطلب مرضاتي ، في جميع مرضاتي ، فلما مرض الطبيب لم ينجع في مرضه الطب ، وتوفاه الرب .

وفي آخر هذه السنة توفي الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الحبوشاني بمصر وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الامام الشافعي رضوان الله عليه وأحيا شعار التوحيد ، وبنى امره على التشديد والتسديد ، وحفظ شمل الشافعية من التبديد ، وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ، ويقضي له من الدوائج ما يقتضيه ، ووقف على المدرسة التي بناها وقوا واعطاه في بنائها الوفاء فلما توفي طلب المدرسة جماعة من العلماء ، فلقوا بالاباء ، ثم شفع الملك العادل في صدر الدين علي بن حموية وهو شيخ السيوخ ، ويعرف في العلم والعمل بالرسوخ ، فكتب بها له ، ورتب بوقتها وتدريسها استقلاله ، وذلك في اواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة ، وبذلت الوحشة من الانسه .

فصل كتب الى بعض الأكابر في الدخول الى القدس

اتفق بدخول الشتاء وتواتر الأنداء ، وتوفر الأنواء وسح الأرض وشح السماء وانقطاع الجلب واتصال الغلاء ، وبعد الراحة لقرب الأعداء ، وملل العساكر لدوام الهيجاء ، والمقارعة واللقاء . وكانت مدينة القدس محتاجة الى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعدة والنخيرة ورأيانها من أحسن المدن وأحصنها وأحكمها وأوجدنا بها جدتها بعد عدمها ، ورتبنا بناء سوارها على جوانب أودية وسفوح ، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح ، وهذا أمر الله وفي طاعته ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولاعلاء كلمته ، ولحماية أمته ، ومالنا فيه الا السمسرة ، وما رجاؤنا الا الأجر والمغفرة ، وما نصيب الا نصيب واحد من المسلمين المجدين .

والمؤمنين المعين للدين . فما اسعد من ساعد فيه . ووفى باسعاف عافيه . هذا والكفر قد اناخ بكلكله . وحفل بجحفله ويرز الى الاسلام بكليته . وعراه ببليته . وقامت قيامته لقيامته . وثار لثار قمامته ، ورمى مهجته على الموت لمقبرته ، والبيت المقدس الذي شرفه الله وكرمه ، وعصمه كما عصم وحرم حرمة ، مقام الانبياء المرسلين ، ومقر الاولياء والصديقين . وموضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين . وفيه نزل جبريل بالبراق . وصعد المصطفى صلى الله عليه وسلم . الى السبع الطباق . واهدى الله ليلة الاسراء بحدول السراج المنير فيه الاشرار الى الافاق . وهؤلاء الملاعين قد اغذوا لقصده ، واعدوا لورود ورده ، وقد فرض في هذا الاوان رفض التواني ، واستدعاء ذوي الحمية من الاقاصي والاداني ، وان لم يتساعدوا في الربيع القابل ، على انهاس الجحافل ، صعب الامر واشتد واحتدم الخطب واحتد ،

فصل في شكر صاحب الموصل على اذفاذ الجصاصين لحفر الخندق

قد اصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرف عن فضيلة منجده ، ويفصح ، فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح ارجاءه ، الحامون بحفر خندقه ارجاءه ، وما فيهم الا من ابان عن جده ، وابان بحده والان الشديد بشده ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهذه لاشك مقدمه لما وراءها من نتائج النجاة ، وجدوى سابقة للواحق في مناهج الجدات . وعارفة معرفة في قمع العداة باجراء العادات في انجاز العادات ، والعدو انتظار لنجدات بحرية وارترقاب . ومضات جمر تحت رماد كيده يوشك ان يكون لها التهاب ، والهمة السامية لاتفتقر في هذا الباعث الى باعث ، وعند عزائمه حديث كل حادث .

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت مذشور حسام الدين
سياروخ النجمي بولاية القدس .

وكانت ولاية مديسر الله فتحه ، وحقق للامل فيه نجحه ، واطلع
لليلة النصر صبحه ، الى الفقيه ضياء الدين عيسى مفضوه .
وصعاب اعماله وشعاب احواله بنصرة آرائه ونصرة الاله
مروضه ، وقد استتاب فيه اخاه الظهير ظهيرا ، ولم يزل رواؤه
وبهاؤه به شهيا شهيرا الى ان استشهد في شعبان سنة خمس
وثمانين ، وتوفي الفقيه عيسى في ذي القعدة منها وانتقل الى
عليين . فأبقى السلطان ذوابه من بعده ، محافظة على عهده ، وكان
الأمير سياروخ بالقدس مقيما . والنظر في مصالحه
مستديما . ويضم من امره ما يراه مذشورا ، وكتبت له في التاريخ
المذكور باستقلاله مذشورا :

الحمد لله الذي اقصى من المسجد الأقصى من دانه من الكفر
وبذسه ، ونزه البيت المقدس من رجس اعدائه المشركين بأيدي
اوليائه الموحدين وطهره وقدس ، وانطق محرابه ومنبره بتلاوة
الذكر المبين وأسكت الناقوس واخرسه نحمده على ما عصمه من
الدوزة وحرسه . وفرجه من الشدة ونفسه ، ونسأله ان يصلي على
نبيه محمد المصطفى الذي شرع الدين وشرحه ، ومهد الشرع
واسسه . وبطل الكفر وعطله . وارغم الشرك واتعسه ، وعلى اله
 واصحابه النين اعلى الله بهم منار الحق . واضفى ملبسه واصفى
مورده ، وازكى مفرسه ، وبعد فانا مذفتح الله لنا بيته المقدس
وخفض باعلاء اعلامنا راية الكفر ونكس ، وكسا بأيامن ايماننا وجه
الدين البشر من بعد ما كان تعبس ، وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا
به الحظ الاجزل الافضل الاكرم الانفس ، مانزال نطلب وليا لله
يكون له واليا ، ويعود عاطله بتأثير احسانه وحسن آثاره وايتثاره
حاليا ، ويرجع بنظره الشافي وتدييره الكافي ما انخفض من منار
الهدى عاليا ، ولا يزال على بال منا ان نحيا به من رسوم الايمان

ونجد من معالمة ماظل بمقام اهل الضلال فيه دارسا باليا ، وقد
اختبرنا الامير حسام الدين فالفينا لاهلية هذه الولاية
جامعا ، والى مضمار السبق في هذه المكرمة مسارعا ، ووجدناه
باعباء الامانة ناهضا ، ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخضا
ماخضا ، فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه في ولاية مدينة القدس
واعمالها ، وعذقنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام
اشغالها . وحكمناه في تحصيل مصالحها ، وتسهيل
مناجحتها ، وسداد ثغرها ، وسداد امرها . ورعاية امورها
وعماره حريمها وسورها ، وتطويل باع ساكنها ، وتأهيل رباع
اماكنها ، واسكان مواطنها ، وتوطين مساكنها ، وتطهيرها من
اناس ابني الناس . وتعميرها بالعدة والعدة والشدة والقوى
والباس . فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية وروية مبصرة
وبصيرة روية . وليستشعر تقوى الله التي تقوى بها العزائم .
وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم . جاريا على مقتضى الشرع في كل
ما يحله ويعقده . ويقدره ويمهده . ويصدره ويورده . والله عز وجل
يوافقه ويسعده ويعضده .

وبخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس في
دار الاقساء جوار قمامه ، واظهر بها لتقوية البلد الاقامة ، وقد
قسم سور البلد على اولاده ، واخيه واجنائه ، فشرعوا في انشاء
سور جديد ، محدق به مديد ، وكان يركب كل يوم مصح ، مشمس
مضح ، فينقل الصخر على قربوس سرجه ، فيستن الاكابر
والامراء في نقل الحجارات بنهجه ، فلو رأيتة وهو يحمل حجرا في
حجره . لعرفت ان له قلبا كم حمل جبلا في فكره . ولقد جد في حماية
الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور ، وانشرح صدره
لانضمامها الى صدره حتى باشر صدور ممالكه به الصدور ، وما
تغلو دار يبنيتها في الجنة بنقل حجارتها ، ليكون ملاكا في دارها
وقمرا في دارتها ، وكل بناء قفلت حجارتها ، ووقفت عمارتها ، ركب
وبكر اليه ، وجمع الحجر بنفسه واجنائه عليه ، فإذا اكتفى انتقل
الى موضع آخر ونقل اليه الحجر ، ولقد بنى به في غرفات الجنات

الحجر . واثـر رواة سيرته الحسنـة منها الاثر ، وما أعمـر احسانـة
واحـسن ماعـمر . وداوم البـكور بالركوب وعرض وجهه الكريم
للشـحوب ، والتزم الأمر التـزام الوجـوب ، ولان له الصـخر لين
الحـديد لداود . وجد في فضـ جدته وأفاض الجود . وكان حجر
الـخندق صـلداً لايتأـتى قطعـة . ولايتـهياً بكـل آلة صدعه . فاتخذ من
الـفولاذ قطعـات . واخترع على الحـدادين آلات . فأمكن الصـلد
ووهـن الجـلد . وتيسـر الصـعب ولان الصـلب . وصرخ الصـخر لما حاف
الحـفر ، وضج الحـديد لجـلد الجـلمود ، وصفا قلب الصـفا لاصـاخة
الصـيخود ، واعولت المعاول ، وجدلت الجنادل ، وسمعت الصـماء
صوت السـطو ، وخرج جـرج الاسـاءة اليها عن الاسـو . وفـلقت
الـقطع وقطعت الفـلق ، واتسع الضيق وتعمق الخندق ، وطاب العمل
وطال الـامل ، وحـز الحـزم وحـزن الحـزن ، وركنت القـوة وقوي
الركـن ، فلا ترى الا سورـا يعلو وخندقـا يسـفل ، وبنـاء يسـمو وحـفرا
ينـزل ، وبرجا يسـقف ، وبنـاء يشـرف ، وحـجارة تبـني ، وعمارة
تثنى ، وكلسـا يحرق ، وأسـا يوثـق ، وطاقـا يعقـد ، ورواقـا
يمهد ، وطلاقات تطلق ، ومرامي تخـرق ، وستائر تحـجر ، وحـفائر
تقـعر ومصاعد تهندس . وقواعد تؤسس . ومعارج تسـفح . ومخارج

تفسـح . وموالج تسـرب ومدارج ترقب . حتى احكم المـكان بكـل ما في
الامـكان . واتصلت الابراج بالابدان مشـيدة الاركان . والـسلطان
يشـرف في كل يوم . على عمل قوم . فيمدحهم باحسانهم ويجازيهم
باحسانه . ويعير جنان المتولي من قـوة جنانه . ويدركه بما يستأنفه
من عمله . ويحلي بالفضل مايبـدو له من عطـله ، وكان ذلك دأبه مـدة
اقامتـه ، وقد جد غـرامه بغـرامته بل يرى ان كل مال ينفقه نـخر باق .
وانه إن فاق كريم فيانفاق ، وماعنده خشية املاق . بل يده جاريه
باطلاق جوائز وارزاق . وانه تتجلى له اعماله الصالحة يوم يكشـف
عن ساق ، وان وفق الله واستمر ماـدبره في حفر الخندق وبنـاء
السور ، بقي بيت الله المقدس مع الاسلام على ممر الدهور .
ولايبقى عليه لاسـلم فزع . ولافيه لكافر طمع . ولو عاش بخت نصر
لعرف عـجزه . وسلب عز الاسلام عـزه . ورأى من المعـجزات

ماحيه . وقهقر عن البأس الذي ان ثبت له قهره . فسبحان الذي
اقدر السلطان على ما عجز عنه الملوك . وهذاه من الفضل الى نهج
ضلوا فيه السلوك .

ذكر الحوادث مع الفرنج في هذه السنة

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة الى عسقلان
ونزلوا يوم الاربعاء بظاهرها . وتشاوروا في اعادة عمائرهما ، وكان
سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والاسدية نازلين في بعض
اعمالها ، مجدين في نقل غلالها ، وركب ملك الانكثير عصر يوم
الخميس ، ومعه حزبه من جنود ابليس ، فشاهد بخانا على البعد ،
وما عرف ما عنده من العسكر المعد ، فساق متوجها الى تلك الجهة
وجد ، وتبعه عسكره وامتد . فما شعر اصحابنا الا بالكيسة وقد
بغتت ، فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت ، وذلك وقت المغرب وهم
مجتمعون على الافطار . فارغة الافكار من شغل الكفار ، وكانوا
نازلين في موضعين ، مقيمين في منزلين ، فلم ير العدو الا احد
القسمين فقصده بحزبه ، واطلق عنانه لحزبه ، فعرف القسم الاخر
هجوم العدو ، فهجروا مهاد الهدو ، وركبوا الى العدو فدفعوه حتى
ركب رفقاؤهم المقصودون ، واجتمعوا وهم المسعدون ، وردوا العدو
شوطا . وصبوا عليه من عذاب القراع سوطا ، ثم تكاثروا الفرنج
عليهم ، وتواصلوا وسبقوا اليهم ، فاندفعوا من بين ايديهم ،
والفرنج تباريهم ، وساقوا اذقالهم قدامهم ، وقد ثبت حفظها على
الاقدام اقدامهم . وما فقد من اصحابنا ممن عرف الا اربعة : ونجا
الباقون وخواطرهم لاجل اولئك متوزعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع
الله خطرهما ، وهون ضررها ، وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب
السلطان على عادته في نقل الحجارة ، والجد في العمارة ، ومعه
الملوك اولاده والامراء . والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد
والاولياء . وخرج كل من بالبلد . وجاء المدد بعد المدد . وهو قد حمل
على سرجه . واستوى في نهجه . والناس يذقلون معه على خيولهم .

- ٦١٨٠ -

في قفافهم ونبولهم . ولما دخل الظهر نزل في خيمة ضربها ولده الملك
الظافر بالصحراء . واحضر فيها السماط لمن يدعو من الامراء .
فحضر على ذلك السماط . واحضر طعام مطابخه وبسطه على ذلك
البساط . وكنت قد مضيت فريني . وبتقريبه امديني . فلما فرغ
وفرغنا . وبلغ مراده وبلغنا . صلى هناك الظهر وركب عائدا الى
داره . آيبا بايثاره وحسن آثاره . فائزا بسرور اسراره وخير
اختياره .

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت وبرت

كان عز الدين جريدك تجرد في سرية سرية . بارية رقاب ذوي
الفلول من الغل بريه . فاغارت يوم الاربعاء الحادي عشر من الحرم
على يبني . وفيها الفرنج بنية السكني . فغنمت اثني عشر اسيرا .
وخيلا ودواب واثاثا كثيرا .

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر اغارت السرية وفيها جريدك . وعسكر
القدس وجماعة من المماليك . على ظاهر عسقلان . واوفدت
بتناصرها على الكفر الخذلان . وغنمت ثلاثين اسيرا قيبت في
الاغلال . سوى ماكسبته من الخيل والبغال .

سرية فارس الدين ميمون القصري

باتت ليلة الاحد رابع عشر صفر . بتل الجزر . وسرت حتى اصبحت
على يبني وكمنت . وصبرت الى ان استرسلت الفرنج الى الطريق
وامنت . ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبرت . فكبست وكسبت .
وكسرت واسرت . واخذتها بأسرها مع رجالها . وبغالها واحمالها
واذقالها . ثم اغارت على يافا فقتلت وفتكت . وسفكت دماء
وهتكت . وعادت بالغنيمة والسبايا . واستغنت بذقودها عن

النساي . وعجز جماعة من الاسارى عن المشى فضربت اعناقهم ،
واجب ذلك للباقيين في المسير اعناقهم ، وعادت سائمة ساليه ، غانمة
غالبه .

ذكر خروج سيف الدين علي بن احمد المعروف بالمشطوب من الاسر

قرر على نفسه قطيعة خمسين الف دينار فأدى منها ثلاثين .
واعطى رهائن على عشرين ووصل الى القدس واجتمع بالسلطان
يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر . فقام اليه واعتذقه وتلقاه
بالوجه الباشر ، واقطعه ناپلس واعمالها ، وحلى باياله لها
احوالها ، وعاش الى اخر شوال من هذه السنة ، وتوفي الى رحمة
اله باعماله الحسنة ، فعين السلطان ثالث ناپلس واعمالها لمصالح
البيت المقدس . وتشيد ركن سوره المؤسس ، وابقى باقيها على
ولده . وتركه في تصرفه ويده .

نكتة

لما خرج المشطوب من الاسر . تلقاه ولده روي السرى قوي الازر .
فوجده على زي اولاد الاتراك مضفور الشعر . فبدأ منه الانكار
والاكبار . وقال ماللاكراد في شعورهم هذا الشعار . فقطع
ضفيرته ، وقصر وفرته ، فتطير الناس من قطع شعره على ابيه ،
وقالوا هذا دليل مصابه الذي يأتيه .

هلاك المركيس بصور

اضافه الاسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الاخر فاستوفي
رزقه لموافاة اجله ، ووصل الى الباب قاطع امله ، وقد دعي الى

جهنمه ، ومالك على انتظار مقدمه ، والجحيم في ترقبه ، والدرك الاسفل من النار في تلهبه . والسعير في تسعره ، ولظى في تلظيها لتنظره . وقد قرب ان تكون الهاوية له حاويه ، والحامية عليه حاميه ، والزبانية في ايقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه ، وقد فتحت النار له ابوابها السبعة . وهي جائعة الى التهامه وهو ملته بالاكل يستوفي الشبعة . فاكل وتغذى ، ومادري انه يتردى ، واكل وشرب ، وشبع وطرب ، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان . بل ذئبان امعطان . وسكنا حركته بالسكاكين ، ودكاه عند تلك الدكاكين . وهرب احدهما ودخل الكنيسة : وقد اخرج النفس الخسيسه : وقال المركيس وهو مجروح وفيه بقية روح . احمّلوني الى الكنيسة فحملوه ، وظنوا انهم حاطوه لما نقلوه . فلما ابصره احد الجارحين . وثب اليه الحين . وزانه جرحا على جرح . وقرحا على قرح ، فاخذ الفرنج الرقيقين ، فالقوهما من الفداثية الاسماعيلية مرتين ، فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير . فقالا ماك الانكثير ، وذكر عنهما انهما تنصرا منذ ستة اشهر ، ودخلا في ترهب وتطهر . ولزما البيع . والقرما الورع . وخدم احدهما ابن بارزان والاخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس . واستحكما بملازمتها اسباب التأسيس ، ثم علقا بركابه ، وفتكا به . فقتلا شر قتله . وجهل عليهما اشد جهله . فيالله من كافرين سفكا دم كافر . وفاجرين فتكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركسا . وفي جهنم منكبا مذكسا . تحكم ملك الانكثير في صور . وولاها الكندهري وعذق به الامور . ودخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته . وادعى أنه احق بزوجه . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها. وذلك افطع من سفاحها ، فقلت لبعض رسلهم : الى من ينسب الولد . فقال يكون ولد الملكة ، فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركه. ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة . وان كان من طواغيت الضلالة . لانه كان عدو ملك الانكثير ، ومنازعه على الملك والسرير ، ومنافسه في القليل والكثير ، وهو يراسلنا حتى نساعد عليه ، ونفزع ما اخذه من يديه وكلمنا سماع ملك الانكثير ان رسول المركيس عند السلطان ، مال الي المراسله بالاستكانة والاذعان ، واعاد الحديث في قرار الصلح ،

وطمع في ليل ضلّاله باسفار الصبح ، فلما قتل الماركيس سكن روعه وروعه ، وذهب ضوره وضوعه ، وطاب قلبه ، واب لبه ، واستوى امره ، واستشوى شره ، وكان قد تعصب لمضانة الماركيس للملك العتيق . فظهر له ود الشفيق الشقيق . وولاه جزيرة قبرس واعمالها وسدد بسداده اختلالها . فلما هلك الماركيس عرف انه قد اخطأ في تقويته . وخشي انه لايسلم من عابيته . ولا يأمن من غائلته . فلما عدم عدوه . وجد هدوه . واب سكونه . وثاب جنونه . ولم يحدث مقاطعته . ومرى رسل مراسلته ورمى سهم مخادعته ومخائلتها . ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته . وراسل في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فانه يبقى لنا بمدينة وقلعته . سوى كنيستهم المعروفة بقمامه . فانهم يعتقدونها لملتهم الدعامة . فابى السلطان أن يقبل هذا القرار . وأبدى لهم الانكار وسامهم ان ينزلوا عن يافا وعسقلان . ويأخذوا على مايبقى في ايديهم الامان .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر . وكانت منها مضرّة كبيرة لما كانت مع الكفر فلما فتحت حفظت وتركّت وابقيت . وبالميره والنخائر والرجال ملئت . وخربت عسقلان وغزة دونها . وتسالمها علم النين قيصر على ان يصونها . فلما شرع الفرنج في اعادة عمارة عسقلان تردوا مرارا اليها . وداروا حولها وأشرفوا عليها . وأنفق السلطان في جماعة وقواها بها . وشد بالنجدة قلوب اربابها . ثم نزل الفرنج عليها . وقضهم وقضيضهم . وسعرهم وبيضهم . وفارسهم وراجلهم . وصارمهم ونابلهم . ورايحهم ونابلهم . واشتد زحفهم عليها . ونهوضهم اليها . عشية السبت تاسع جمادى الاولى بعد ان اخذوا فيها نقبا وحرّقوه . وحشروه وأحرقوه . وطلب اهلها الامان فلم يجدوا . وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا . ولما عرف الوالي انهم مأخوذون . وانهم موقومون . عمد الى الخيل

والجمال والدواب فعرقها . والى النخائر فاضرمها والهبتها .
وفتحوها بالسيف . وعرضوا اهلها على الحيف ، واسروا منهم عدة
يسيرة . وكانت هذه الذوبة على الاسلام كبيرة . ثم لم يلبثوا بها ولم
يرغبوا فيها . ورحلوا عنها وتنفخوا عن نواحيها . ونزلوا على ماء
يقال له الحسي . وقد طاش بهم الغي والبغي . وذلك في يوم الخميس
رابع عشر الشهر . وقد انسوا بما ظنوه من اسباب الغلبة والقهر .
ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحباب .
فخرجت عليهم اسد اليزكية المكنة من الغاب . فقاتلتهم قتالا
شديدا . وتركتهم بحد الحديد بيذا . وغادرت حبل قصدهم الجديد
جديدا . وكرت عليهم فكررت في ردهم عن جهتهم تريدا ، وقتل منهم
في جملة من قتل كند كبير . واتاهم من مباريها لهم مبير . وعادوا
مفلولين مثلومين . مخذولين مهزومين . مثلولين مهضومين . ثم
رحل الفرنج من الحسي يوم الاحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين
وبعضهم عاد الى عسقلان وبعضهم جاء الى بيت جبرين . فتقدم
السلطان الى العساكر والامراء بان يكونوا لهم مبارين . وفي يوم
السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصافية ، بجموعهم الوافرة
الوافية . ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنظرون .
فأرجفت الالسنه بانهم على قصد القدس على حسب تـراجـم
الظنون . وسرت اليهم السرايا . وتوالت عليهم البلايا . وظهر
السلطان مقامه بالقدس . لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالانـس ،
وفرق الابراج والابدان على الامراء والاجناد . وذوي القوة
والاستعداد . وامرهم بنقل الازواد . ثم زال الرعب . وطاب القلب .
وخرج الناس الى خيامهم يتخطفونهم . ويعسفونهم
ويتحيفونهم ، وجرت وقعة بعد وقعة ، وكبسنهم دفعة بعد
دفعة ، ومن ذلك ان بدر الدين دلدزم كان في اليزك ليلة الجمعة
التاسع والعشرين . فبعث من أصحابه والعسكر الى طريقهم من يافا
من لزم الكمين ، فجازت بهم فرسان من الفرنج مستقيمون على
النهج ، فخرجوا عليهم وقتلوا واسروا ، وفازوا ونصروا ، وفي يوم
السبت نزل الناس اليهم وقاتلوهم في خيامهم ، والهـبـوهم
بضرامه ، وركب العدو ساق الى قلونية وهي ضيعة من القدس على

فرسخين ، ثم عاد بأيدى الشان بادى الشين ، وعساكرنا قد ركببت
اكتافه ، وهي تقطع اطرافه ، وتهز اعطاف البيض لتحزن
اعطافه ، وفي يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة ، خرج كميننا في
طريق يافا على السابلة العابرة ، فظفروا وفازوا ، وحووا وحازوا
وكسروا واسروا .

ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله . ويدعوه نجدة
لاهل القدس على الكفر واهله ، ف ضرب العسكر خيامه على بلبيس
مدة حتى اجتمع الرفاق ، وتهيأ لمن تأخر عن السابق
الحاق ، وانضم اليهم التجار ، وحصل لهم بـكثرتهم
الاغترار ، والعدو اقدمهم الانتظار ، وعنده بجواسيسه
الاخبار ، فجاء الخبر من اليزكية الى السلطان ليلة الاثنين التاسع
من جمادى الآخرة ان العدو ملك الانكثير ركب في سبعمائة فارس
وألف تركبول ومعه ألف راجل ، وسار عصر يوم الأحد سير مخادع
مخاتل ، ولايدري اي جانب قصد ، ولاي نائب رصد ، وجرد
السلطان اميرا آخر اسلم ، خوفا على الواصل ليسلم ، وندب معه
الطنبة وعة من العادلية ، وأمرهم بأن يأخذوا بالناس في طريق
البرية ، فعبروا على ماء الحسي ، قبل وصول العدو اليه ، واتصلوا
بالقوم وأخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس احد عليه ، وكان مقدم
العسكر المصري فلك الذين أخذوا العادل ولم يسأل عن المراحل
والمنازل ، وقصد اقرب البرك ، وغفل عما يعرفون من الفرق
والفرق ، وترك الاحمال على برك اخرى سائرة ، ورأى الامنة
ظاهرة وأوجه السلامة سافرة ، وجاء ونزل على ماء يعرف
بالخويافة ، والاماني تغره بالمواعيد المخافة ، ونادى تلك الليلة انا
جزنا مظان المخافة ، وفزنا بالسلامة من الآفة ، فلا رحيل الى
الصباح ، فـاغتر الناس بالنداء الصراح ، وناموا
مسترسلين ، وباتوا متغفلين ، فصبحهم العدو عند انشاق الصبح

بالصدمة الشاقة والخدمة الحاقة ، وعاقابن ذكاء باذكاء بنت
الداهية العاقة ، فجاءهم فجأة ، والصبح لم يبد اضاءة ، والخيوط
الأبيض من الخيط الأسود لم يتبين ، وهبوب الأعين من هبوة
الغفوة لم يتعين ، وكل غرار في جفنه قار ، وكل قلب بأمنه
سار ، وكل جنب على فراش ، وكل عاش له النعاس غاش ، فلما
يفتوا بهتوا ، وطلبوا ان يفلتوا فما التفتوا ، وركب كل منهم على
وجهه . وربما كرهه ، وفيهم من ركب بغير عدة
حصانه ، واسلم اخوانه وغلمانه ، وانهم زموا نحو
الأثقال ، فوقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والأحمال . فوقع
العدو في سوابقها ، واشتغل بها عن لواحقها ، فتفرقت في البرية
وعاد معظمها الى التيار المصرية ، ومنهم من عاج الى طريق
الكرك ، فلم يقع في الشرك ، ولم يحصل في الدرك ، فأخذ الكفار
جمالا لاتعد ، وأحمالا لاتحد ، وكانت هذه نكبة عظيمة ، ونائبة
عميمة ، ونوبة ذات نبوة ، وكبة ذات كبوة ، ووقعة ذات
روعة ، وعولة ذات لوعة ، فظننت الظنون وارجفت
المرجفون ، وقالوا قد حصل للفرنج من الظهور ما يحملهم
وينهضهم ، ومن المال ما يبطرهم ويحرضهم ومن الآن
يقابلهم ، وبأي عسكر وعدة نقاتلهم ، ووصل الجند
مسلوبين ، ومنكوبين منهموبين ، فسلاهم السلطان عن
أموالهم ، بما قوى من آمالهم ، وحضهم على الحظ من الأخذ
بثأرهم ، والجد في دمار القوم وبوارهم ، ولها الملاحين بما ملا
العين من المال ، عن القيل والقال والقتل والاقتال ، وحلا لهم
ما حاولوه من الحال ، وجرى هذا كله والملك الأفضل والملك العادل
غائبان ، وعساكر الموصل وسنجار وبيار بكر متباطئة في الاتيان .

ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وما جرى لهما من الأول

كان الملك الأفضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ، ونزل عن جميع ماله من الولايات ، وأنه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان ، وعنا له من بها من ملوك الأطراف ودان ، ورحل من القدس في ثالث صفر وقد ازمع السفر ، ووجه عزمه الماضي المضي قد سفر ، واقام في دمشق حتى استعد ، واستجدي من ابيه ماكمل به الخزانة واستجد ، واطلق له السلطان عشرين الف دينار ، سوى ماأصحه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار ، ثم سار في مجر مجر سيل خيله جـار نيل نقعة على المجرة ، شاغل بالسير والسرى اسرار ذوي الأسرة ، باينة على صفحات صفاحه نضرة النصر ، ووصل الى حلب ، وقد مرى افانيق التوفيق وحلب ، واحتفل اخوه الملك الظاهر لقدمه ، وقام له بسنن الكرم ورسومه ، ورحب للترحيب به صـدره وجناحه ، وسحب على روضه صحابه ، واصحب فيض فضله صحابه ، ووقف لخدمته مائلا ، وهـز عطـف الابتهاح اليه مائلا ، واحضر له مفاتيح بلده ، وقدم له كل ما في يده ، ولم يبق من الجميل شيئا الا عمله ، ولاذوعا من الفضيلة الا كمله ، وعرض عليه الحصن العرب ، والتحف والثياب ، وخلع على خواص اصحابه وعوام اجناده ، وخصهم وعمهم من الجود بامداده ، وعول ان يسير معه الى الجهة التي يقصدها ، ويساعده على الضالة التي يذشدها ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه ، ودفع منه الى ماأرجه وأرهقه ، ووصل رسوله الى الملك العادل وهو بالقدس لاجيا الى ظله ، وراجيا لأفضله ، ولائذا بجنابهـه ، عائذا بيبابه ، مستجيرا بأرعائه ، مستجيبا لدعائه ، مفوضا ماحل به الى أنوار آرائه ، مـروضـا ماحل بأنواء آلائه ، فـاحتمى له واحتمله ، وقوى على تقويته امله ، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه ، وشقق في امره واستشفعه ، وقال أنا أمضي اليه

وأستحضره وأؤمنه مما يحذره ، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ، وتشد من رجائه بذلك ما وهي ، وتعطيه في السنة الاخرى حماة والمعة ، وتكفي المضرة والمعة ، ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ تلك البلاد ويحويها ، ويملك حوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها ، واستقر ان ينزل عن اقطاعه بمصر ونصف خاصه ، واذا اخذ تلك البلاد فما يجاوره يجتهد في استخلاصه ، فأبدى على الرضا بذلك وجه كراهيته واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر ، فتمنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر من ابيه بأضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل في العشر الاول من جمادى الاولى . وكتب السلطان بعود الملك الافضل فجاء هذا راجعا ، وذهب ذاك مسارعا ، ووصل الى حران والرها ، ففاز من تدبيره بالنجح المشتى ، وبلغ من مراده الى امد الامل المنتهى ، وعاد في آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقي الدين ، ووصل في هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل مجاهد الدين يرندقش ، واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأنس ، والكفر يستوحش ، وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير في خدمته ، وتتجلى راياتها في مطالع رايته .

ذكر رحيل ملك الانكثير صوب عكا مظهرا أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس ، وعرفوا أن مرضهم به في الذكس ، ورأوا ان ثغر بيروت قد براهم ، وعراهم من القوة مامنه عراهم ، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه ، وقد فجعوا بمصائبه ونوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخلا القدس من جملة كتائبه وجمرة مضاربه ، فنبادر اليه من يافا وعسقلان ، من يجد في تملكه الامكان ، فلما عرف السلطان ما عزموا عليه من

- ٦١٨٩ -

القصد ، ودبروه من الكيد ، امر الملك الأفضل بمباراة القوم في الرحيل ، وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل ، وسبقهم الى مرج عيون ، وحتى اذا تيقن من قصدهم المظنون سبقت العساكر الى بيروت وبخلتها ، ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها ، وكتب السلطان الى العساكر الواصلة الى دمشق ان يكونوا مع ولده وأن يضموا أمدادهم الى مدده ، ونزل بمرج عيون والفرنج بعكا بعد ، تجاوز ولم تعد .

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكتير وسار وخلي وراءه النيار ، ترك في مدينتي يافا وعسقلان ، جمعا من منتخبي الرجال والفرسان ، ووصاهم بالجلد ، في حماية البلد ، فانتهاز السلطان فرصة الغيبة ، وأوفد الى مساغ رجائهم غصة الخيبة ، ونهض بعسكره الحاضر ولم يتمهل لا انتظار العساكر ، ووافى يافا ووفاهها بـكيل المنجنيق أحجارا ، وأراق دماء وساق دمارا .

وزحف الناس وحفز الباس وفرعت المدينة ، ورفعت منها السكينة ، وقتل من بها ومسح وأخذ ما بها وكسح ، ووجدت الاحمال المأخوذة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعلت الأيدي والسيوف من الدماء والأموال ونهلت ، ونفضت كنائن ونظفت خزائن ، واستخرجت دفائن ، وولجت مكامن ، وحصل استمتاعنا بأمّعة ، وانتفاعنا بكل مذفعة ، وامتلا البلد الكافر بالمسلمين ، وبقيت القلعة وطلب حمايتها الأمان ليكونوا لها مسلمين. وكان الناس قد سبقوا اليها ، وقرب ان يستولوا عليها وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب . وقد شارف من فيها الشجب ، فلما طلب الأمان رد الناس وكفوا فظن ان الغنيمة تصفوا. فانه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الأكابر ، على

- ٦١٩٠ -

أن يدخلوا تحت حكم الأسار ويسلموا جميع المال والعدة والنخائر
على أن يطلق كل واحد منهم بأسير

ويبقى صغير بصغير . وكبير بكبير وشرعوا في الخروج احاداً
وعشرات . وعصبا متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا
الى الصباح . وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ما عيذوه
من الاقتراح . وما زال يخرج منهم من يستدعي زيادة التوثقة
وتدريس خناقمهم بالمضايقات المرهقة . حتى وصل ملك الانكثير في
البحر . في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر . ودخل هو القلعة
من الجانب البحري ونادوا بشعار الغدر . فاكثفنا منهم بمن حصل
في الاسر . وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم . ولا نفع بعد فوات
الفرصة للندم . ولو ان السلطان توقف في تأمينهم . واستمر على
توهمهم ، لقلعت اساس تلك القلعة ، ونقضت رقعة تلك البقعة .
ولقد كان ذلك فتحاً عظيماً ، وفضلاً من الله عميماً . فقد امتلات
الايدي بغنائم تلك المدينة . وهت اسباب قواهم المتينة . واستعيد
ما نهبوه من الكيسة المصرية . وفزنا بالغنائم السنية . وقتل من
اقام بالبلد واسر وكشط جلد تلك المدرة وبشر . وحصل في اليد من
مقدمي القلعة سيف وسبعون . وتركوا وهم بالثبور يدعون . وكان
القصد في الاول رجوعهم عن قصد بيروت . وخشي على فرصة حفظها
ان تفوت ، فمن الله تعالى بحصول المقصود . وفزنا بجني الجهاد
بغير بذل المجهود . وجرى الامر على الوجه المأمود . وانما وقع
التندم ؛ كيف لم يقع في اخذ القلعة التسرع والتقدم . فتعاصت بعد
الاذعان . وتعذرت بعد الامكان ، وجمحت بعد الاصحاب . وجنحت
بعد الاكثاب . وافلتت وقد وقعت في الحباله . واستقلت بعد العثرة
والاستقالة . وضعف الفرنج من تلك الكرة . واذن نشاطهم بالفترة
وما انتعشوا ولا انجبروا من تلك العثرة والكسرة . وعاد السلطان
وخيم على النطرون . والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء اليه
الملك الافضل ولده والملك العادل اخوه . واسفرت بالاسار الوجوه .
وكان ولده الملك الظاهر ايضاً قد وصل . وفي هذه الغزاة حضر
وبينهما حصل . وكذلك كان قطب الدين سكرمان بن محمد بن قرا

- ٦١٩١ -

ارسلان حاضرا . واخذ من السعادة حظا وافرا . وحصل بيده جرح
يؤس ان يؤسى . وظن تلك النعمة يؤسى . ثم اندمل جرحه . وفازت
قداحه وحاز السنى قدحه واقام السلطان حتى اجتمعت العساكر
ولحقت اوائلها الاواخر . ووصل الملك المنصور ناصر الدين ابن تقيه
في بيضه وسمره ومشرفيه وسمهريه . هذا والملك متأخر في المخيم .
بسبب عارض السقم وملم الالم . ورحل السلطان ونزل بالرملة
والعساكر في عدد الرمل والاسلام قرير العين من اهله بجمع
الشمل . والفضاء قد امتلأ . والقضاء قد اجتأ . والقدر قد اسعد
والسعيد قد قدر . والنصر ابدى الصفو وذهب الكدر . وتلك البرية
قد حوت البريه . وجمعت العسكرية والكمات الجارية والكمات
الجرية . والاعراب والعراب . والمحارب والحراب . والاجاود
والجياود . والاساود والاساد . والبياض والساد . والعدد
والاعداد .

فصل في وصف الحال من كتاب الى الديوان العزيز

الخدم حاله على ما انهاء غير مرة في مرابطة اهل الكفر مستمرة .
واقاويق النصر على حفولها تارة وبكثها اخرى مستدرة . والحرب
سجال . وللإسلام في مضمار الظفر مجال . وقد تجاوزت القصة عن
حد الانهاء . وكلما شارفت القضية الانتهاء . عادت الى الابتداء .
والحادثة متصله والواقعة مستقبلة . والنعمة من الله في اجراء
اوليائه على اجمل عاداته بانجاد عادته في قمع عداته مؤمله . وما
ينقضي يوم الا عن نصره تتجدد ، ونعمة تتمهد . وجمع العدو يتبدد .
وجمر لنكاية فيه يتوقد . وخذ للسيف من حده بسدم الشرك يتورد .
وفتح بكر من العوان بلقاح البيض الذكور يتولد . واخر ماتم في هذه
الايام . من مرهجات الكفر ومبهجات الاسلام . حظوة حلوة . ونوبة
مالها نبوه . وهي ان الفرنج لما اعجزهم قصد البيت المقدس . ولم
يستقم لهم ما سولوه في الانفس عكسوا زعمهم . ونكسوا عزمهم .
وعادوا خائبين . ونكسوا هائبين . واستأنفوا مكية اخرى .

- ٦١٩٢ -

وشرعوا في شر خلف الشرك به يمري . واجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها اعداء الله اولياء الطاغوت . فسارت العساكر الاسلامية على مباراتهم . لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم . وتجرد الخادم في خواصه ووافي يافا . موقنا من الله تعالى ان مدد نصره اليه يتوافي . وحمل اليها من معتقلي نبات الاسل ومشتقلي بنات الخلال الاسد والعرين . (فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) [الصافات ١٧٧] فاخذها بالسيف غزوة . واعاد ضرام النيران بها جنح الليل ونزل البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا وبخلوا تحت القهر فبيناهم مشتغلون بالنزول . ومنقطعون الى الوصول . جاءهم الغوث في البحر . وظهرت منه . وامارة الغدر . ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله . ونصر الاسلام واخذ له . وسره بما يسره له واجذله . ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله . وكان المقصود ردهم عن موردتهم . وصدهم عن مقصدهم . فابى ماقيضه الله من فتح الهدى وحترف العدا على الارب . واهتزت اعطاف البيض والسمر المنشية من كاس نجيعها للطرب . والقوم الان قد اشتغلوا بمصائبهم . واجتمعوا لضم ما انتشر من اسبابهم . وراسلوا في الصلح على ان تخلي لهم عسقلان فما اجيبوا . وعلموا بجهلهم انهم ما اصابوا فيما دبروه لادبارهم فاصيبوا . والعساكر الاسلامية اليوم مجتمعة . ومسالك المهالك لضائقتهن ومضايقتهم متسعة . وقد آن ان تحل معاقد معاقلهم التي هي ممتتعه . وكل ما يجده الله من علو يظهر . وعدو يقهر . ونصر يزهر . واصل بالظفر يشهر . فهو ببركات الاستمسك بطاعة المواقف الشريفة الامامية الناصرية . وبحمد الله ويمن ايامها وفضل انعامها دلائل النصر ظاهرة . واسباب الظهور متناصرة . ووجوه الامال بنشر نجاحها ويسر ما في اقتراحها سافرة .

ذكر الهدنة العامة

لما عرف ملك الانكتير ان شمل العساكر قد اجتمع . والخرق عليه
قد اتسع وان القدس قد امتنع . وان العذاب به وقع . خضع
وخشع . وقصر الطمع . وعلم انه لا قبل له بمن اقبل . ولا ثبات مع
الجدف . وقد حفل . فظهر انه إن لم يهادن اقام واستقبل . وللاشر
استقبل . وانه عازم على العودة الى بلاده . لامور مردها يعود الى
مراده . والبحر قد أن أن يمنع راكبه ، ويسئم بالامواج غواربه ،
فان هابنتم وطاوعتم تبعت هـواي ، وان حاربتم وعصيتم القيت
ههنا عصاي واستقرت نواي ، وقد كل الفريقان ، ومل الرفيقان ،
وقد نزلت عن القدس وانزل عن عسقلان ، ولا تفتروا بهذه العساكر
المجتمعة من الجهات . فان جمعها في الشتاء الى الشتات ، ونحن
اذا اقمنا على الشقاق والشقاء . رمينا انفسنا على البلاء ، فاجيبوا
رغبتي . واصيبوا محبتي ، وادعوني العهد ودعوني . وادعوني
وودعوني ، فاحضر السلطان امراءه المشاورين وشاورهم في
الامر ، واظهرهم على السر ، واستطلع ما عندهم من الرأي ، وسرد
لهم الحديث من المبادئ الى الغاي ؛ وقال لهم نحن بحمد الله في
قوه ، وفي ترقب نصرة مرجوه ، فانصارنا المهاجرون الينا ذوو دين
وكرم ومروه ، وقد افنا الجهاد . والفينا به المراد ، والفظام عن
المألوف ، وماتصدع الى اليوم بتأييد الله لنا شعب ، ومالنا شغل
ولامغزى الا الغزو ، ومانحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو ،
واذا تركنا هذا العمل فما العمل ، واذا صرفنا عنهم الامل فقيم
الامل ، واخشى ان يأتيني في حالة بطالتي الاجل ، ومن الف الحلية
كيف يألفه العطل . ورأيي ان اخلف رأي الهدنة ورأيي ، واقدم
بتقديم الجهاد اعتزازي واليه اعتزائي . وماانا بطالب البطالة .
فارغب عن استحالة هذه الحالة . وقد رزقت من هذا الشيء فأنا
الزمه . ولي بتأييد الله من الامر اجزمه واحزمه . فقالوا له الامر
على ماتذكره . والتدبير ماتراه والرأي ماتدبره . ولا يستمر الاماتمره
من الامر . ولا يستقر الا ماتقرره . وان التوفيق معك في كل ماتعده

وتحله وتورده وتصدره . غير انك نظرت في حق نفسك من عادة
السعادة . و ارادة العبادة . واقتناء الفضيلة الراجحة . والاعتناء
بالوسيلة الناجحة والانف من العطله . والعزوف للعزله . و انك
تجد من نفسك القوة والاستمساك . ويقيذك يعرفك بالالاماني
الادراك . فانظر الى احوال البلاد فانها خربت وتشعثت . والرعايا
فانها تعكست وتعلثت . والاجناد فانها نصبت ووصبت . والجياد
فانها عطلت وعطبت . وقد اعوزت العلوفات . وعزت الاقوات .
وبعدت عنا العمارات . وغلت الغلات . ولاجلب الا من الديار
المصرية . مع ركوب الاخطار المهلكة في البرية . وهذا الاجتماع
مظنة التفريق . ولايدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق فان المواد
منقطعة . والجواد ممتنعه . والمترب قد ترب . والمعدم قد عطب .
والذين اعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالي السعر .
وهؤلاء الفرنج اذا يؤسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة
واستنفاد المنه . وصبروا على المنية في طريق الامنيه . وابوا في
الاقبال على بينهم قبول الننيه . والصواب ان نقبل من الله الاية
التي انزلها وهي قوله (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (الانفال
٦١) . وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها . وتكثر في مدة
الهدنة غلاتها واثمارها . وتستجد الاجناد عدتها وتستريح زمان
السلم ومدتها . فاذا عادت أيام الحرب عدنا . وقد استظهرنا
وزدنا . ووجدنا القوت والعلف . وعدمنا المشاق والكلف . ففي
ايام السلم نستعد للحرب . ونستجد ادوات الطعن والضرب .
وليس ذلك تركا للعبادة . وانما هو للاستجداء والاستجداء
والاستجداء . على ان الفرنج لايفون . وعلى عهدهم لايقفون .
فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا . وقد شقوا بما لقوا .
ومايقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويستقل بالملازمة .
وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي . واجاب الى ما اقتضي .
وكانت قد بقيت بين العسكرين منزلة واحدة . والعجاجات على
الطلائع متعاقدة . فلو رحلنا رحلناهم . وعلى الهلك احلناهم .
لكن مراد الله غلب . واجيب ملك الانكثير من الصلح الى ما طلب .
فحضرت لانشاء عقد الهدنة وكنت نسختها ، وعينت مدتها وبينت

قضيتها ، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لاول ايلول لمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر ، وحسبوا ان وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل امدادهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر والبدو والحضر . وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور . وابدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور . وادخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية . والاعمال الدانية والنائية .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في شرح ذوبة يافا ثم افضاء الامر الى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بانتهاء حاله . وما هو لا يزال مستمرا عليه من جهاد العود وقتاله . وما كان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب . والحشر والحشد المضطرم المضطرب . وانهم قد اجتمعوا على قصد البيت المقدس . وعزموا على بذل المصونين من النفائس والانفس . وسلوكوا في القصد كل طريق . وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق . وبنوا على ظن ان جنى الفتح لهم دان ، وان شبا الحتف عنهم وان . ولما قاربوا عرفوا ان المرمى بعيد المرام . وانهم لا يستطيعون مقاومة عسكر الاسلام . فذكصوا على اعقابهم . وذكسوا ماضربوه من ارائهم وارايبهم . وعلموا عقبي ما جهلوه . وقطعوا من اسباب العزم ما وصلوه . وذكثوا من عقد القصد ما برموه . وشرعوا في أمر آخر توهموه . ومضوا واستأنفوا الاستعداد . واستنهبوا الامداد ، وحصنوا بلادهم . وجمعوا فيها طرافهم وتلاذهم . وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة . والعدة النافعة . والشوكة الرادعة . والشكة القاطعة . واستظهروا فيها بكل ماقدروا عليه من المنعة الحامية . ورجال الصبر على النار الحامية . ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة .

وظلال الضلال الممدودة وصلال الصلادم المقودة . مستمطري
شأبيب الاناييب . مستذفري سراحين السراحيب ، وتوجهوا على
سمت ثغر بيروت بنية العصر . وغفلوا عمسا اجـراه .
الله لاوليائه على أعدائه من عوائد النصر . ولما نذى خبرهم . وطار
شرهم . وخيف ضررهم . أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى
مقابلتهم . ومباراتهم ومقاتلتهم . ونزل في مماليكه وخواصه .
ورجال الاقدام ذوي استخلاصه . على مدينة يافا فأخذها بالسيف
عذوة . وجب بها من سنام الكفر ذروة . وحل منه بفزوته اليها
عروة . واستكمل للاسلام . بتملكها حظوة . وقتل كل من حوته
وسبى . وناب المشركين بما بنى مجده ومضى حده فيه وما نبا .
وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل . وأسر من وجد فيها
وقتل . ونهب من آلات الحصر ما خرج عن الحصر . وابتذل كل ما
صين من الغلال والعدد والمال الدثر للنخر . وطلب أهل القلعة الامان
من القتل خاصة دون الأسر . وشرطوا أنهم لايمكنون من الدخول
اليهم من جاءهم للنجدة من البحر . وأخرجوا على سبيل الرهينة
مائة رجل من محتشميهم . وكندوهم ومقدميهم . مثل البطرك الكبير
والقسطلان والمرشان ومن يجرى مجراهم من الفرسان . فلما
أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا . وامتنعوا بعد انقيادهم
للعجز حين قدروا . وخيم العدو هناك في جموعه . وندب الى عسكره
من يأمره برجوعه . ووافت في البر جحافة حافلة . وتواربت في
الاسراع إلى الصريخ ظلامانا جافلة . فاجرى الخادم على الرهائن
حكم الاسترقاق . وسيرهم إلى دمشق في أقياد الوثاق . ورجع الى
القوم فهزمهم وردهم الى عكا . بعد ما نكى فيهم وأضحك من
دمائهم البيض وأبكى . وعاد إلى العدو ونزل عليه . وكدر الموارد
لبيه حين زحف إليه . واجتمعت من أهل الاسلام العساكر .
واقسعت على المشركين في المضايقة الدوائر . ورجا المؤمن وخاب
الكافر . وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر .
وعاينوا العذاب الواقع . وعدموا الدافع . وشاهدوا المصارع . فما
زالت رسالهم تتردد بالضراعة . وبذل الطاعة . والنزول عن
الاشتطاط . والدخول تحت الاشتراط . والغبطة بما هزله الاسلام

عطف الاغتياب . واحتوى عليه بيد الاحتياط . وكانوا لا يجابون إلا بالاباء . ولا تلقى رسلهم إلا بتصميم عزم اللقاء . حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها . وأولياء الطاعة والباؤها . وأشاروا بعقد الهدنة . والانتهاز فيها الفرصة المكنة . واستقرت المهادنة على ما أعزه للاسلام الانوف وأذل من الكفر الرقاب . ورجح وأنجح من أهل الايمان الآراء والآراب . بعد أن نزلوا عن البلاد والمعازل التي تملكوها . وبعدوا عن الطرق التي سلكوها . وسألوا الامان على الاماني التي استدركوها وما أدركوها . وسلموا عسقلان . وغزة . والداروم . وبينى . ولد . وتل الصافية . وغير ذلك من الاعمال والاماكن الوافرة الوافية . واقتنعوا بيافا . وعكا . وصور . واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور . ورأوا عزهم في ذلهم . وصونهم في بذلهم . وسلامتهم في سلمهم . وغناهم في عدمهم . ولانوا بعد الاشتداد . ودانوا للانقياد . وهانوا بعد الاعتزاز وهابوا بعد الاغترار . وأقروا بعد الانكار لتعود جفونهم الى الفرار . وأمورهم الى القرار . وخلوا بيارهم وأخلوها . وما سألوا عن حب الاوطان والاطوار وسلوها . ومدة الهدنة التي اخذوا بها اليد واعطوا اليمين . ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين . ووضعت الحرب أوزارها . ورحضت بماء السلم أوضارها . وأخذت من أهل النار نارها . وقصدت الفرنج من وراء البحر بيارها . ولا شك أنهم يستعدون في هذه المدة . ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة . ويستجدون عزمة العودة . وقد شرع الخادم في تحصين الثغور . وإمرار الامور . وإبرام معاهد المعازل . وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل . وإتمام أسوار القدس وخنادقه . حتى يبقى على الدهر أمنا من طروق العدو وطوارقه . وإعادة الاعمال والاحوال إلى عادة عمارتها . وحلية نضارتها . وإجمام العساكر واراحتها . ليوم تعبها الذي هو عين راحتها . ولقد كان الخادم للسلم متكرها . ولا يرى أن يكون كشسيمة ملوك العصر عن الفوز مترفها . لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوي الآراء على أن المصلحة في المصالحة راجحة . وأن صفقه الكفر فيها خسارة وصفقة الاسلام رابحة .

وان في اطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عاما . وأمنا تماما .
وتفريقا لجمع الكفار لشملة النصر عليهم ضاما . فهي سلم أنكى من
الحرب فيهم . وانها تقصيههم من هذه البيار بل تنفيهم . والى متى
تجتمع هذه الاعداد الهائلة لهؤلاء الاعداء . وتتفق هذه الامداد
المتواصلة من أهل النار في الماء . وما صح لهم هذا الجمع على
التكسير إلا في خمس سنين . وما وافى اليهم مددهم من ألوفه سوى
مئتين . وكل ما كان لهم من أموالهم في بلادهم نقلوه وانفقوه .
وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه . فمتى انفضوا انقضوا . وقد
أن ان يرفضوا ويرفضوا . وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع . ويعزم
ذاهبهم على الرجوع . يكون الاسلام قد استظهر بقوة . واستكثر
من نجدته ومن جدته ، فرأى موافقة الاجماع . وقبل مناصحة
الاشياع . وتفرق جمع الكفر وباخ جمره . وأمن ذكره ومكره .
وانشرح صدر الاسلام وتضوع نشره . وتوضح بسنى النصر
فجره .

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان الى القدس وعادت عادة سعادته . واشتغل باتمام
السور والخندق وتكميل عمارته . وفسح للفرنجة كافة في زيارة
قمامة . فجاؤوا ووجدوا الامن والسلامة . وزاروا ورازوا . ولما
عجزوا أن يحتازوا سألوا ان يجتازوا . ففسح لفريق من بعد فريق .
وتوافوا في طريق وراء طريق وقالوا إنما كنا نقاتل على هذا الذي
وجدناه مع الصلح، ومازلنا سائرين في ليل القصد حتى وصلنا إلى
الصبيح . وكان ملك الانكثير راسل السلطان وسأل منع الزيارة الا
لمن وصل معه كتابه أو رسوله . ورغب في أن يجاب سؤاله في ذلك
ويصاب سوله . فقليل مقصوده انهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة
الزيارة . فيبقون على الاستنفار والاستثارة . ومن زار برد قلبه .
وتندفس كربه . ولم يبق له في مشقة العود أرب . ولم يتصل له لهذه
البيار سبب . فكان الامر كما حسب فاعتذر إليه في الجواب الذي

كتب . وقيل له أنت أولى بمنعهم . وردهم بردعهم . فانهم يصلون إلينا وافدين . ولزيارة الكنيسة قاصدين . وما يقتضي كرمنا أن نرد الوفود . ولأنبلغ من يقصدنا المقصود . ومرض ملك الانكثير مرضا ألهاه عما اشهاه . ولم يبلغ في هذا الغرض إلى منهاه . وركب البحر وأقلع . وعجل في مفارقتة وأسرع . وسلم الامر الى من يليه . وهو الكند هري ابن اخته من أمه . وهو ابن اخت ملك أفرنسيس من أبيه وتبعه فرنج الجزائر . ولم يقف الاول على الآخر .

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم . وكتب الى مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر بأن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الازواد والنفقات . والثياب والكسوات . فقبل له لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك وعرفته بنهجك . حتى لا يظن بك أمر انت منه برىء ويعلم أن قصدك في المضي مضيء . والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الافاق . ثم هذه البلاد اذا تركتها على ما بها من الشعث . لم تبرم مرور حبلها المنتكث . وهذه المعازل التي في الثغور ، حفظها من أهم الامور . ولا يغير بعقد الهدنة . فان القوم على ترقب المكنة . والغدر دابهم . وملئ البغي إهابهم . فما زال الجماعة بالسلطان حتى حلوا من العزم ما عقده . واطفأوا من نار جده فيه ما وقده . فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته . وتهذيب عمله ومعاملته . وكان الوالي بالقدس حسام الدين سياروخ . وهو تركي يقتدى به في زهادته وحسن سيرته الشيوخ . وكان فيه دين ولين . وحبله في الخير متين . ولم يزل مستوفيا لحق الامانة . مستعفيا من الولاية لطلب الصيانة . فانصرف حميدا أثره . كريما مورده ومصدره . وفوض السلطان ولاية القدس الى عز الدين جريدك . وقال تهديك في الامور يغنيك عن ان نهديك . وإنما اعتمدنا عليك لاجتماع خلال الكفاية والشهامة والديانة فيك . فتول أخذًا بالحزم في تثبيتك

وتأنيك . وترويك وتأتيك . وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، فخرج إليها وتولاها . وأمر بذقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين . واعانة المقطعين ، وكذلك أمر بذقل الغلات من مصر الى أعمال عسقلان . ليعيد إليها الزراعة والعمران . وسأل الصوفية عن أحوالهم وآذن سؤاله عنها باجابة سؤالهم وسرلهم . فانه كان وقف دار البطرك مجاورة قمامة لهم رباطا . وجعل لهم كل يوم فيه سماطا . وزاد في الوقوف . وحكمهم في الانفاق بالمعروف . وكان قد جعل كنيسة صندحنا عند باب الاسباط للفقهاء الشافعية مدرسة . وردها بنية على التقوى مؤسسة . وزاد في أوقافها . ووفر مواد تلابها وطرافها . وأمر بان تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة بيمار ستانا للمرضى . واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الامراض على اختلافها تقضى ، ووقف مواضع عليها . وسير ادوية وعقاقير عزيزة الوجود اليها . وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف الى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم . وعول منه على أمين كريم .

ذكر خروج السلطان على عزم دمشق من القدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال . وقد دبر الاحوال . وأقام بعدله الاعتدال . وأفاض الفضل والافضال . وجاوز ناحية البيرة . وقد جلا جلاله سني راياته المنيرة . وبات على بركة للداوية . بالهمة الروية والعزيمة القوية . ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعة . وجمع شتات مصالحها المتوزعة . وكثرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها . وأنه قد طرق الرنق الى مشاربها . وزاد في رسومها ونوائبها . فاقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالمها . واضحك بالعدل والاحسان مباسمها . واسقط رسومها الجائرة . وأمات سننها الضائرة .

وأصفي بها شرعة الشريعة . وأصفي ظلال الرعاية للرعية في
مراعيها المريعة . ورحلنا بعد الظهر . وبتنا ليلة الأحد عند عقبة ظهر
حمار بموضع يعرف بالفريديسة . ورتعنا في مروجها الانيسة .
وأصبحنا راجلين . ونزلنا ضحوة على جبين . وهناك ودعنا
المشطوب وداع الابد . قانه انتقل بعد ايام الى رحمة الواحد
الصمد . وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال .
ورحلنا يوم الاثنين وجئنا ضحوة الى بيسان . وأزال حلول
السلطان عنها الدؤس واشاع الاحسان . وصعد إلى قلعتها
المهجورة الخالية . فابصر قلها العالية . وقال هذه اذا عمرت دامت
في حضانة الحصانة . وكان جبلها لوثوقه مستودع الامانة .
والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب . ولم يزل حتى بين كيفية
بنائها ورتب . ووعد باحكامها ، وإعلاء اعلامها ، ثم ظهر ظهرا
وبات على قلعة كوكب . وشاهدها وصعد نظر رأيه فيها وصوب .
ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء . وهناك
لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الاسر . وتلقيناه بالبشر
والبر . واقمنا بها يوم الاربعاء لتوافر الانداء . وتواتر الانواء .
ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صفد تحت الجبل . وصعد
السلطان اليها وأمر بتسديد ما فيها من الخلل . ثم سار يوم الجمعة
على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضبعة يقال لها الحبش . وهي
عامرة محدوية على سكانها . كأنها العش ، وسرنا منها وخيمنا
على مرج تبنين . وبتنا باحوال قلعتها معتنين . واصبح السلطان
حوالي حيطانها باحوالها محيطا . ممتليا قلة قلعتها ولاسباب
اختلالها مميطة . ووصى الوالي بعمارتها وجعل مصالحها بكفايته
منوطة . وسداها بسداه منوطة . ثم رحلنا بكرة السبت وجزنا
على قلعة هونين . ونزلنا من الجبل . وبتنا على عين الذهب
 واجتمعنا بالثقل . ورحلنا يوم الأحد وخيمنا بمرج عيون . وجلس
السلطان على عاقته معنا في تسدير الممالك تلك الليلة وسهرت
العيون . ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير بالسرى . وقطعنا
في الطريق الوعر الوهاد والذرا . وعبرنا بين عمل صيدا يسرة وعمل
وادي التيم يمنا على الضياع والقرى . وعرسنا على مرج تلفياثا

- ٦٢٠٢ -

مقابل مرج القنعة . ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة . ثم أصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلقائنا فخيمننا على جسر كامد . والسلطان مشغول في طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحامد . ثم غدونا يوم الأربعاء وخيمننا بناحية قب الياس وقد اصحرننا إلى الفضاء . وأقمنا ذلك النهار راتعين نت الفواضل السلطانية في النعماء . ولما جن الليل جمعتنا بالخضرة السلطانية الاذوار . وسرت اسماعنا منه اسماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الأسعار ، وبخل السلطان يوم الخميس إلى بيروت ، وانجز بالوصول إليها وعدة الموقوفات ، ونزلت الاثقال على مرج قلميطية بالبقاع ، وأقامت خمسة أيام على الاستراحة والأياداع .

ذكر وصول السلطان إلى بيروت ودخول بيمنند
الابرنس صاحب أنطاكية عليه والاستجارة به وذكر
سامة

ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليها عز الدين سامة ، بكل ما توفرت به الكرامة ، واستقبل الأصحاب بصدر رحيب وظل خصيب ، وسماحة اريب وسجاجة لبيب ، وفتحت الأهرام على غلاء الغلات بالثغر ورفع اغلاقها ، وسد لها وما قيد اطلاقها وقدرى واضاف ، وادنى القسطاف ، واصدفي العطاف ، وتلطف في الهدايا وأهدى الألفاف ، وفرق على الصغير والكبير التحف ، واحضر السلطان ولكل من معه الطرف ، واغنى واقنى ، واعدم في الجود الموجود واقنى ، واعطى الخيل والمماليك والجواري والملابس ، وبذل النفائس ، وزف على اكفاء المحامد من ابحار المناقب العرائس ، واظهر في مكان الشدة الرخاء ، وفي مظنة الضن السخاء ، واهب في اعصار الاعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء ، واحضر كل ما عنده مما كسبه في الغنيمة ، جريا

- ٦٢٠٣ -

على كرم الشسيمه ، ومن الجـوخ الأفـرنجية والثياب
البندقية ، والهنايات الفضـية والأكواب اللجينية ، والسروج
واللجم ، والأكسية والـزم ، والمهـاميز والملايط
والغفافير ، والعروض والدراهم والدنانير ، ففرق من ذلك ما
جمعه * ورفع الى كل منه ما اسمى قدره ورفع . وما انفصل عنه
الاكل مواصل بشكره ، مساجل امثاله بذكره ، مضوع كل ناد
للكرام بنشره ، وقام بالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه ، واعجب
واعجز ما صدق باهتمامه .

ذكر وصول الابرنس بيمند ودخوله على السلطان

ولما اراد السلطان عن بيروت الانفصال ، وذلك في يوم السبت
الحادي والعشرين من شوال ، قيل له إن الابرنس الأنطاكي قد
وصل الى الخدمة ، مستمسكا بحمل العصمه . داخلا حـكم
الذمه . فثنى عنانه ونزل واقام وما ارتحل ، وانن للابرنس في
الدخول ، وشرفه في حضرته بالثول ، وقربه وأنسه ، ورفع
مجلسه ، وأظهر له البشاشة والهنشاشة ، وسكن من روعه
الحشاشة ، وكان معه من مقدمي رسانه اربعة عشر
بارونيا ، ووهب كلا منهم تشريفا سريا ، وأجـزل له ولهم
العطاء ، وأبدى بهم الاعتناء . وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة
بمبلغ عشرين الف دينار ، وخص اصحابه بمبار ، واعجبه
استرساله اليه ودخوله عليه بغير امان ، فلا جرم تلقاه بكل
احسان ، وودعه يوم الأحد وفارقه ، ووافق مراد السلطان انه
يمراه وافقه ، وانصرف المذكور مسرورا ، بين اسرته
مذكورا ، محبوبا بالمنح والمنن محبورا .

ذكر وصول السلطان الى دمشق

لما خرج السلطان من بيروت يوم الأحد بات بالمخيم على البقاع ، واحضرنا تلك الليلة في نادي فضله للمؤانسة والامتناع . وتجاوزنا اطراف الآراء ، وهزنا منه اعطاف الآلاء ، واستدنيينا قطاف النعماء ، وقد قرب الدخول الى البلد ، والوصول الى الأهل والولد ، وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتراحا ويظهر الى سكنه ومسكنه ارتياحا والتياحا . فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين الجر وبتنا على مرج يبوس ،، وقد شرح الله الصدر واطباب الذفوس ، ووصل الينا من اعيان دمشق من سبق للتلقي والاستقبال ، واهلهم بقدومنا أسباب الاحتفاء والاحتفال ، وجاءتنا فواكه دمشق واطايبها ، واغتصت بالواصلين الينا مسالكها ومنازلها ، ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا بالعراة ، وجرى المتلقون في التحفي بالتحف على العادة ، واصبحنا يوم الأربعاء ودخلنا الى دمشق وقد اخرجت اطفالها ، وبرزت نساءها ورجالها ، وكان يوم الزينة ، وخرج كل من بالمدينة ، وحشر الناس ضحى ، واشاعوا استبشارا وفرحا وكانت غيبة السلطان عن دمشق اربع سنين في الجهاد طالت ، فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بفضائله الاعين ، واقرت بفواضله الألسن ، وذاعت اسرار السرور ، ورقت حبرات الحبور ، وطابت الأنفس ، وغابت الأبؤس ، وانجلت المكاره وتجلت المكارم ، واقتربت المباسم وهنت بموسمه المواسم ، وتهويت التهاني ، وهويت الأمانى ، وغنت المغاني ولذت المجاني ، وسفرت المجالي ، وظفرت المعالي ، وتحلت الأحوال ، وتملت الآمال ، وراج الرجاء ، وارجت الأرجاء ، وفاض الجود . واستفاضت السعود . وعم العدل . وتم الفضل . وشرقت الافاق . وأفاق الاشرار ، وكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء . وحل في القلعة حلول الشمس في برجها ، وقد جلت اوجه السعود بأوجها ، وأخذت بحار سماحه في

موجها ، وسلكت المناجسح في نهجها ، وجاءت المناائح في فجها
بفوجها ، وصفت شرعة الشرع لواردها ، وضفت حلة الكرامة على
وافدها ، وفتحت مرتجات ابواب الالاء لمرتجيتها ، واستجدت عادات
انجاز عادات الجوائز لمستجديها ، ويسر اليسار لاسعاف
العافي ، وتمت على السن الانام اوصاف الصافي ، وجلس السلطان
في دار العدل فأعدى المستعدي ، ولبى المستعدي ، وأجاب
واجار ، وأنال وانار ، وجاد واجاد ، وبدأ واعاد ، وفي هذا الشهر
خلص بهاء الدين قراقوش من الاسر ، واجتمع بنا يوم وصلنا الى
طبرية ، ولقي من السلطان اللطاف الخفية ، ووصل معه الى
دمشق واقام الى ان خلاص اصحابه من الاسر ، وتوجه الى
مصر ، وقد صان نفسه ببذل ماله ، واخرج ثروته وبخل في
اقتلاله ، وخرجت السنة والسلطان في اسنى سنانه ، وابهى جلاله
وأجلى بهائه ، والناس راتعون في رياض نعمائه ورسد الممالك
الغربية والشرقية عنده يخطبون ويطلبونه ، وينتظرون عزمه
ويرقبونه ، وهو يعدم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر
الربيع واقتاراره ، والتهاب زهرازهارة ، وانتهاب سرح سلاح
اسحاره ، وانتباه عيون بهاره ، واندلاق غرار عراره وانتلاق انواء
انواره ، وانطباق نواظر ثماره ، واصطفاف اوراق
اشجاره ، واذفتاق كمامه واتساق نظامه . وانتثار منظومه .
وانتظام مذكوره ، وانفجار صبح اسفاره ، وانفراج وجه
سفوره ، واجتماع لقيف اعشابه ، واستتماع حفيف
اقصابه ، والتماع بريق سحابه واتساع طريق صحابه ، وانشقاق
شقائقه ، وانعقاق عقائقه ، واشتمال شمائله ، واقتبال
قبائله ، وتأرج صبا صباحه ، وتبلج صبا صباه ، وتورد وجنات
جناته ، وتوقد جمرات ثمراته ، وتذسم ضمير ضميراته ، وتصور
خدود تفاحه ، وتدور نهود رمانه ، واخضرار آس عذاره ، واحمرار
خد جلناره ، وتشنف اقطار النادي اقراط قطار الندى ، وتفوف
حافات الوادي بالوشي الوشيع من حول الرباب حول الربا ، فإذا
طاب النسيم وذسم الطيب ، ودعا الابلل ولبى العنديل ، وتعطر
عبير الربيع وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ، ووافق

مراد المرعي من المراد المريع ، وحلا الجني الجيني . وحلى النضير
النضاري ، وبقل العذار البذفسجي . واشتعل الخد الجلناري
الناري ، ونجم في الروض النجم السماوي المائي ، وابتسم الثغر
الاقاحي ، وتذسم الضوع الصباحي ، وتحرك العرف السحري
الشجري ، وتأرج النثر الروضي ، وتبلج البشر الوضي ، وانتش
الذش الشكالي الشمولي . وانتعشت عاثرات اعشاب الشعاب ،
وقابلت القبول خطبة الفضل بفضل الخطاب ، وصبت الصبا في
محل خطيئة المحل بصوب الصواب ، فحينئذ آل جماح الاصحاب
الى الاصحاب ، وصرفت اشاجيع الشجعان وأيمان أهل الايمان كل
مواج العنان رواج السنان ، ونزعت النزائع الى الحلاب ، ورشفت
القواطع بشفاه ضرب الضراب ، واجتمعت العساكر وعسكرت
الجموع ، وسرت الطلائع وسر الطلوع ، ونهض اهل الجدد وجد
النهوض ، وفاضت المنابع ونبعث الفيوض ، وضرب السرايق
السلطاني حيث النصر ينزل ، والسعد يقبل ، واليمن
يشمل ، والنجح يسهل ، والظفر يمثل ، والأمر يمتثل ، والجدد
يسمن . والهزل يهزل ، والعزم يولي . والوني يعزل ، ويعم العدل مع
اعتدال الزمان كل مكان ، ولا يتذفس الا بحديث الطاعة من يحدث
نفسه بعصيان ، واقمنا على هذا العزم الى آخر السنة ، والاجفان
مغضوضة على طيب السنه ، وظل البرد الشديد مديد ، والجلد واه
والهواء جليد ، وحد الشتاء في التشتيت حديد . والجبال قد اشتعلت
رؤوسها شيبا ، والذلوج قد زرت على اعناق اطـواها
جبيا ، والجوفي نظم ونثر ، والثرى من التراث مثر ، والهتون ناكب
ناكت ، والهتوف ساكن ساكت ، والمزن مزين ، والحزن
حزين ، والاسماء سماء ، وللشاص نشاط ، وللصحاب
حساب ، والبرق والرعد انتحاء وانتحاب ، والبرد من ثلجه
برد . والمطر في نهجه طرد ، والغيث عيث ، واللوحل ريث ، وكاذون
قد اكن الربا . وشباط قد شب الشبا . والنار محبوبة
مشبوبة ، وحـدود النكب مـذروبه ، وحـدود التـرب
مـذروبه ، والسلطان مشغول بالصيد والقنص ، منتـهـز في العمر
للفرص ، مبتـز بالبـزاة والصقور ، حشاشات الوحوش

والطيور ، بكل جار جارح ، وطائر طارح ، يذني اجل الحجل
وحمام الحمام ، كأنه غريم لها لاهي الغرام ، وكل شهم ينقض
انقضاض السهم ، ويبط بطن البط بالحزم ، وأكثر الجالوس
بدمشق في دار العدل ، واغزر لمنتجيه در الفصل . وحكم
وقضى ، واسخط بالحق وارضى ، ووقف وامضى ، وما منع بل
اعطى ، واصاب وما اخطا ، وجاد واجاد ، وابدى واعاد ، ووافد
وافاد ، واحسن وزاد ، واغنى واقنى واجدى واسدى ، وأولى
وولى ، وأجار واجاز ، وحاز وفاز ، وقرب العلماء ، وأكرم
الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وتكلموا عنده في المسائل
الشرعية ، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية ، وما كان احسن الى
الحق اصغاه ، وأسرع للباطل إلفاه . ولكل ذي فضل منه حظ .
ولكل ذي حفظ منه حفظ . ولكل محروم منه رزق ، ولكل مرزوق
الى حمده سبق ، ولكل فهم عنده سبق ، ولكل سهم عنده
فوق ، ولكل أدب لديه داب ، ولكل عاتب عدم ممن جوده
أعتاب ، ولكل مكرمة عنده باب ، ولكل دعوة عاف من اسعافه
جواب ، ولكل مستجد اجداء ، ولكل مستهد اهداء ، ولكل سائل
نائل ، ولكل ماحل وابل ، ولكل ظام ري ، ولكل حائم ورد
هني ، فما أسح مزنه ، وما أصح وزنه ، وما أسمع يده ، وما أوضح
جده ، وما أعلى جده ، وما أجد علاه ، وما أجدى كفه وما أكفى
جده ، وما أكثر حياهه وأغزر حياهه ، وأرج رباه . وأبلغ محياه .
وممن توفي في هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج ارسلان بن
مسعود بن قليج ارسلان ، وكانت وفاته يوم الخميس منتصف
شعبان .

كان له عشرة من البنين فولى كلا منهم اقليما ، وقصد به لناد
امر ذلك الجانب تقويما ، فقوي كل منهم في ثغره ، واستقل
بأمره ، ودب في طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ، ومد عينه الى
ما في يد صاحبه من البلاد ، وكان أكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قد
استحكمت قواه . واستطال هواه ، وهو حينئذ متولي
سيواس ، فأطاع في التملك على ابيه ملكه الوسواس ، وسعى الى

أن أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن غفراس ، وصور له انه يريد أن يستولي على الملك ، ويذفر بانتهاء المسالك وانتظام السلك ، وساعده صاحب ارزكان وأمن اختيار الدين الى المذكور واختاره ، واستأنن السلطان ان يقصد نياره ، ويقيم عنده الى أن يصلح أمره مع أولاده ، ويأذن له في العود الى بلاده ، فاستصحبه صاحب ارزكان ، وأوقع عليه في الطريق التركمان ، فقتلوه شر قتله ، ومثلوا به وبولده مثله ، فلما عرف ملكشاه أن وجه والده خلا ، وأنه عن حسن بن غفراس سلا ، ساق اليه ، وأخنى عليه ، وبذل قونية دار مملكته ، واستبد بحوز حوزته ، وقوي بعزته ، وعز بقوته ، وقال لوالده انا بين يديك ، واشفق عليك ، وأنفذ أوامرك ، وأوفر مأثرك ، وقتل أمراء كانوا لأبيه ، وألزم خدمته من لا يشتهي ، فبقي معه كالمعتقل ، يظن حاليا وهو في العطل ، واستكتبه أنه ولي عهده ، والقائم بالسلطنة معه ومن بعده ، وتصرف في خزانته وملك أقسرا ، وفرع وفرى ، وقرع وقرا ، وقطع وبرى ، وقد مضى حديث ملك الألمان ، في ذلك الأوان ، وكيف وصل وعبر الى الشام ، وكيف قوي بهم في وهن الاسلام ، واستصحب معه والده الى قيسارية واقسر اخيه نور الدين سلطان شاه وحصره ، وأظهر انه بأمر والده وأنه شاد ظهره . وخرج عسكر البلد وصف ، ووقف وكف ، ورأى قليج ارسلان ، أن ولده عنه مشغول ، وان عقد حراسته له محلول فخرج من الصف مفارقا للولد ، وانفصل ملكشاه الى قونية وملك تلك الأمكنة ، وقد استبد بالسلطنة ، وبقي قليج ارسلان يتردد في بلاده ، وفي ضيافته أولاده ، وينتقل من بلد الى بلد ، ومن ولد الى ولد ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو فقواه وأزره وضافره وظاهره ، وجمع وحشد له وأخذ له وما خذله وجاء به الى قونية فدخلها ، وحلى به عطلها وخرج ليأخذ أقسرا فتعذرت وتمنعت عليه وتعسرت ، واسترغب الأوجيه ، وجمع العسكرية ، فمرض فجاء به وقد توفي الى قونية في محفه ، ونزل يمشي قدامها ويظهر انه من المرض الذليل في خفة ، حتى دخل المدينة وقلعتها ، واجتازها

واجتاز مملكتها ، واستدعى الأعيان ، فاستحلهم ، واستمالهم وتآلفهم ، ثم أظهر لهم وفاة أبيه وأنه وارث ملكه ومتوليّه ، وقوي على قطب الدين ملكشاه أخيه .

وتوفي في هذه السنة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش وكان من أهل الفضل ، والرياسة والنبل ، وهو قاضي العسكر الحاكم المحكم ، والكريم المكرم ، والسلطان يعول عليه في المهام ، وفي الأمور العظام ، وبؤهله للرسائل وأخذ الموائيق والعهود ، وتولى الولايات والعقود ، ولما أخذ شهرزور سلمها اليه ، وعول فيها عليه ، وما برح بها حتى أنعم بها على صاحب اربل مظفر الدين فعاد القاضي شمس الدين فأرسله السلطان الى قليج ارسلان وأولاده ، ليصلح بينهم ويعيد امرهم الى سداه ، فتردد بينهم سنه . ولم تزل مساعيه مستنجة مستحسنة . وعاد ووصل الى ملطية ، وقد استكمل من عمره الله العطية ، وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من السنة ، وانتقل الى الله بأعماله الحسنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بدمشق في داره ، وممالك الآفاق في انتظاره ، والايام مشرقة بمطالع أنواره ، والليالي مترقبة صباحها لاسفارة ، ورسال الأمصار مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والوافدون قاطفوا جني جنانه . والضيوف في فيوض انعامه عائمون . وبفروض حقوقه قائمون ، والفقراء في رياض صدقاته راتعون ، وفي كلاء كلاءته راعون وادعون ، ودار العدل بالفضل داره ، واسرار المنى بالمنايح ساره ، والسلطان يجلس في كل يوم وليله لاسداء الجود وابداء السعود ، ويث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم وامضاء العزائم ، وتشديد الدعائم وتقرير العظام ، والاهتمام بمصالح الاسلام ، ومناجج الانام ، والاغتنام للمسلمين بما يتم في بلادهم من الخطوب ، ويتم من الكروب ، وبمجالسة العلماء ومساجلة

الفضلاء ، وموالاة الأولياء ، ومصافاة الأصفياء ، واعداء
الملهوف ، واسداء المعروف ، ومل ملازمة البلد ، وخرج عن حكم
الجلد ، وبرز الى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر
يوما ، وأوسع من لم يوافقه على الخروج لوما ، واستصحب معه
أخاه العادل وأبعدوا في البرية ، وظهروا عن ضمير ضمير الى الجهة
الشرقية ، وطابت له الفرص ووافق مراده القنص ، ثم عاد يوم
الاثنين حادي عشر صفر ، ووجه بشره قد سفر ، ووافق ذلك عود
الحاج الشامي فخرج للتلقي ، وسعاداته في الترقى ، ولما لقي
الحجاج استعبرت عيناه ، وكيف فاته من الحج ما تمناه ، وسألهم
عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم
من غلات مصر وصدقاتها ، وعن المجاورين والفقراء ورواتبها
وادراراتها ، وسر بسلامة الحاج ، ووضوح ذلك المنهاج ، ووصل
من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام ، فتلقيه بالاكرام وأنزله في كنف
الاهتمام ،

ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق

جلس ليلة السبت سادس عشر صفر في مجلس عادته ، ومجلى
سعادته ، ونحن عنده في أتم اغتباط ، وأتم نشاط ، حتى مضى من
الليل ثلثه ، وهو يحدثنا ونحن نحدثه ، ثم صلى به وبنا
إمامه ، وحان قيامه ، وانفصلنا بأحسانه مغتبطين ، وبامتنانه
مرتبطين ، وأصبحنا يوم السبت وجلسنا في الايوان ، ننتظر
خروجه لوضع الخوان ، فخرج بعض الخدام ، وأمر الملك الأفضل
ان يجلس موضعه على الطعام ، فجاء وتصدر وترجع في
دسته ، وجلس بسمته وسمته ، وتطيرنا من تلك الحال وتفللنا بحد
ذلك الفال ، وبخلنا اليه ليلة الأحد للعيادة ، ومـرضه في
الزيادة ، وتوفي بكرة الأربعاء السابع والعشرين ، ونقله الله في
دسته العالي الى أعلى عليين ، ومات بموته رجاء الرجال ، وأظلم
بغروب شمس فضاء الأفضال ، وغاضت الأيادي ، وفاضت

الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الأفاق ، وخاب
الراجون ، وغاب اللاجون ، وخاف الأمن وخاب الأمل ، وقنط
السائل وشحط النائل ، وطردت الضيوف ، ونكر المعروف ودفن
بالقلعة في داره وفجع الزمان بأنواره ، وعدمت الأيام
صباحها ، والآمال نجاحها ، ودفن معه الكرم ، وغلب بعد وجوده
وجوده العدم والعدم ، وبقيت تلك الأيام لأفـرق بين الدجى
والضحى ، ولاجد قلبي من سقم الهم وسكره صبح
ولاصحا ، وحالت حالي وزال ادلاي ، وبطل حقلي واتسع
خرقي ، وتنازل جاهي ، وتنازق اشباهي واعضلت ادواء الدواهي
وبقيت المعارف متكره والمطالع مـكـفـهـرة ، والعيون
شاخصة ، والظلال قالصه ، والأيدي يابسـه ، والوجوه عابسة
وعادت أبكار خواطري عانسة ، ونجوم قرائحي وشواردها الأنسة
خانسة كانسة ، وبقي باب كل مرتجى مرتجا ، ومنهج كل معروف
منهجا ، وظن الغنى عني ، واختالف في ضمن الاحلاف بي
ظني ، حتى تولى الملك الأفضل بدمشق مقام أبيه ، وقام بالأمر
بعزم تأنيه وحزم تأنيه وعز تأنيه ، فعرف افتقاره الى معرفتي
وفقرتي ، والى عطل الملك ومحلـه من غزارة حلب دري ونضارة حلي
دري ، فكتبت له ، وحليت من الملك عطله ، ووشيت الكتب
ووشعتها ، وجلت الـرتب ووسعتها ، وهزنت الـيراعة ٠ وأغزرت
البراعة ، وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة .

ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة
صغيرة ، وأبقى له مآثر أثرية ومحاسن كثيرة ، ولم يخلف في
خزائنه سوى ديناراً واحداً وستة وثلاثين درهماً ، فإنه كان باخراج
ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مفرماً ، وكان يـجـود
بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزائنه بالحوالات عن
الوصول ، فإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وخص

الآحاد من ذوي الغناء في الجهاد بآلافه ، ولا جبهه أحد بالرد اذا سأل ، بل يلطف له كأنه استمهله فانه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى وأن كان يبسطى . وإنه يصيبه بالذوال ولا يخطى ، وكان ولي مجده بالشام الملك الأفضـل نور الدين علي ، وأنه كاسمه سام علي ، ونور فضله كسمته جلي ، وهو الذي حضر وفاته ، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته ، وقام بسنة العزاء ، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الألاء وادناء الأولياء ، وخلع على الأماثل والأمراء والأفاضل والعلماء ، وكان بالباب رسل ووفود وملوك ، ورجال لهم في مسالك الرجاء سلوك ، فخابوا وغابوا ، ونهبوا وما أبوا .

ذكر من تولى ممالكه بعده من اهله

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين ابو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها . وابقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها . وأحيا سنتي الجود والباس . وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس . واطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاه . وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة . وجاد واجاد وابدى الكرم واعاد وبسط وقبض . وأبرم ونقض . وحل وعقد ، وبر وافتقد . ووضع ورفع ومنح ومنع . وابصر وسمع وضر ونفع . وقطع واقطع . واصل وفرع . ووعد وانجز . وأوعز بغنى من اعوز . وبرز وبرز . وجاهد وجهز . وعرض الكتاب . وفرض المواهب . وأجرى الصدقات . وتصدق بالجرايات . وادر وادار . واجاز واجار . وأغنى وأسعد . وأدنى وابتعد . وقدم امر بيت الله المقدس . واعتمد في اعتماد الأشوس الأسوس . وعجل له بعشرة آلاف دينار مصرية . لتصرف في وجوه ضرورية . ثم امه بالحمل . وأفاض عليه من الفضل . وقرر واليه عز الدين جريك على ولايته . وقوى يده برعايته ووالى حمل الفلات من مصر الى القدس وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس . وجلس في دار العدل

ففضل ووصل . وأحسن وعدل . وقضى وحكم . وامضى وأحكم .
وأحضر ذواب ديوانه في ايوانه . واستعرض منهم قوانين سلطانه .
واستقرى الضياع والاقطاع . وعمم الاصطفاء والاصطناع . وحل
من اقام بالشام . وألزم جند مصر بالخدمة والمقام . وما أبقي إلا ما
في يدي من الضياع . وصان حقوقي من الضياع . وأمر بتخليده .
وأجد جدي بتجديده . فجاءني كتابه الكريم بكل كرم مكتوب .
ومحبوبه من الرقد محبوب . ورعى في عهد الوالد . وأضاف الطارف
عندي من العرف الى التالذ . هذا وأنا غائب . وبرائي رائب .
واسوء كاتب ونائب . وما احوجني في الذوال الى السؤال . وأغواني
عن الارسال . ولم تفتقر مقاصدي ووسائلتي الى تسيير القصائد
والرسائل . وما أغرب بدار فواضله حلول بدار الافاضل . ثم اشفق
من غدر الفرنج في فسخ الهدنة . فأتى من تجهيز العساكر الى البيت
المقدس بكل ما في المكنه . ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم .
وتابعهم وشايعهم . قد خرجوا في ايمانهم حاذئين . ولعقد ايمانهم
ناكثين . فخيم ببركة الجب . واستشار امراءه . أهل الرأي واللب .
وجهن جيشا جادشا . وبعثنا لعشار الدولة ناعشا . في كل مقدم
مقدام . وهمام همام . وضيغم ضرغام . وقرم قمقام . فوصلوا الى
دمشق وقد قرغ العادل من حرب القوم وسلمهم . وهز منهم اعطاف
الاستكانة له بعد هزمهم . فرأى ان الحمد اعود والعود أحمد .
وسياتي ذكر ذلك في مكانه ، عند ذكر الملك العادل ومارفع الله من
شأنه .

ذكر دمشق وما يجري معها ومن تولاها

وتولى الملك الافضل نور الدين ابوالحسن علي ولد السلطان
دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد ونفذت البلاد أوامره .
ونفذت في الرجال نخائره . ورتب الامور اجمل ترتيب . وهذب
الشؤون اكمل تهذيب . وجلا السريير السلطاني بذوره . واسفر
صباح الاقبال باقبال سفوره . وهدى وهدا وملا بالبشر المتبلج

- ٦٢١٤ -

والذشر المتأرجح الملا . وهذب وانهب . ورغب وارهب . ورتب وربت
واصلى وأصلت . وأثر وأرث . ولم الشعث . وابهى وابهج . وأجد
المنهج المنهج . ورجح ونجح . ومن وشح ، وارسى وارسخ . وبذ
وبذخ . ووعد واوعد . وجدد الجدد . واذاع بحميته سر حمايته
واعاذ . ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ . وامر وأمر . ونضر ونظر .
وعز واوعز . وحاز وحز . وساس وراس وملك الباس والناس .
واشاع البر واعاش . واشيع الجياح وروى العطاش . واستخلص
ذوي الاختصاص . واختص اهل الاخلاص . ونهض واستنهض .
وعرض واستعرض . وربط عزمه الرباط واحاط علمه وحاط .
وحفظ أولي الحفائظ . ولاحظ العرف وعرف انه لاحظ لغير
اللاحظ . وصنع واصطنع . وابدى وابدع . ومد الظل واسبغ .
وسوى الفضل وسوغ . واهمى العوارف . واهمى الرواعف . وحقق
الحقوق . ورتق الفتوق . وضم الملك ونظم السلك . وجلس في دار
العدل ، وأتى بالحكم الفصل ، وحزم وجزم ، وعزم والتزم ، وزاد
وزان . وأغاث واعان . وأبرارباب الهوى . وامر من ارباب التقوى
القوى . وحمى النابه . ومحا المكاره . وفاض بفزارة العطايا .
واستفاض بطهارة السجايا . وأوي اليه اخوته . وضم جماعته .
وجهاز اخاه الملك الظافر مظفر النين خضرا . واصحبه عسكريا
مجرا . وانهضه لانجاد عمه الملك العادل . فانار في فضاء الفضائل .
وسار الى الجدفل الحافل . فالتزم الشروع . وهزم الجموع .
وقارع القروم . وكان الهازم والعدو المهزوم .

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجري معها في المملكة
الافضلية داخلية . وامداد طاعات الولاة والاولياء بها متواصلة .
وصاحب حمص والرحبة الملك المجاهد اسد الدين شيركوه بن محمد
ابن شيركوه ابن ابن عم السلطان وهو اثير الشأن اثيل المكان .

فوصل الى دمشق مطيعا . واسر صدقه ونشر صداقته مزيما
مشيعا . فانحلى له الملك الافضل جنى شهيا . واحله جنابا وسيعا .

- ٦٢١٥ -

وعقد له حبا الحب ، وحياء بكل ما سافر عن سفور مدوة القلب .
ووفور مواد القرب .

وكذلك وصل صاحب بعليك الملك الامجد مجد الدين بهرامشاه بن
فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب طائعا . وللأمر الأفضلي تابعا .
فأدناه واجناه . واحبه وحباه . وأسناه وأسماه . وأواه وأساه .
فتأكدت بينهم القرابة المتشعبة . وتشبكت اللحمة المنتسجة .
وتمهدت الأصرة الممتزجة . وفتحت أبواب الألفة المرتجة . وتوافقوا
على التوافق . وتصادقوا على التصديق . وتعاضدوا على الأخذ
بالتساعد . وتعاهدوا على ترك التقاعد .

ذكر حلب وما يجري معها

وتولى حلب وأعمالها وحصونها ومعاقلها . وكرائم البلاد
وعقائلها . الملك الظاهر غياث الدين أبو الفتح غازي . وهو برجachte
وسماحته للطود والجود الموازن الموازي . وتلك مملكة اقطارها
واسعه . وامصارها شاسعة . فحواها وحماتها . وبماء العدل
رواها وقواها . واعز رجال الرجاء . وهزاعطاف العطاء . ورحب
لوراه . ورواه رحابه . وسحب بحيا الاحياء سحابه . وابرت
ميراته . واثرت مآثراته . وسح وصح غيثه وغيائه . ورعى رعيته
فشبع ورويت ظماؤه وغرائه . وزخرت امواجه . وزهرت بثواقب
المناقب ابراجه . وصابت سماء سماحه . وطابت صبا صباحه .
وعزت بسيرته كتب التواريخ . وعزى قلمه وسبقه الى عطارده
والمريخ . وسعدت وفوه . ووفدت سعوده . وأثر من امره النفاذ .
وكثر بظله اللياذ . وادنى الأبرار . واقصى الأشرار . وخص الأعزة
الخواص . وتمهد لسلطانه الأساس . واطرد لاحسانه القياس .
ووجد من عثر من ايد يده الانتعاش . وعشا الى جدواه المجتدي
وعاش . وفرض القرص . ورفض الرخص . وأدى الفروض . وقضى
القروض . واستدنى من المناجح شاحطها . واستدرك من المصالح

فارطها . ومالك خلق التحفظ . وسلك طرق التيقظ . وفرق وجمع .
وخرق ورتق . وغلب وبلغ . ودمى اهل الكفر والذفاق ودمغ . وشفى
واشتفى . وكفى واكتفى . وراع وراق . وفات وفاق . وطلب
وادرک . واخذ وترك . وفاض بالفضل . وراض بالعدل . وقدم
الحزم . وصمم العزم . وأحيا السنن . وأولى المنن . ولها بالجد عن
الله . وانتهى بالعدو الى اليأس المر وبالولي الى النائل الدلو . وأمر
ونهى . وأوهن معاقد ذوي المكاييد وأوهى . ووفى للوفى . وصفى
للصفي . وأقر البيره واعمالها وما يجري معها على اخيه الملك
الزاهر مجير الدين داود . ولم يزل مقبولا امره غير مردود . وبخل
في امره صاحب حماه . وأعزه وحماه . وهوناصر الدين محمد بن
الملك المظفر تقي الدين واتسع الملك واتسق السلك . وكاتب الجوانب
وراسل . وفارق من رأى وواصل . وطال باعه . واطاع اشياعه .
وهمت همته بالزيانة وسمت لسمت السيادة .

ذكر الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب اخي السلطان وما جرى له بعد وفاة اخيه

كان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته . وكان موافقه
ومرافقه في مقتنصاته . فلما عاد السلطان الى دمشق ودعه ومضى
الى حصنه بالكرك للاستراحه ، غير مطلع في سر الغيب في الاقضية
المتاحة . فتابه النائب . ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب .
فلما عرف وصل الى دمشق بعد ايام ولم يقيم لتنفيس كرب الحادث
ولم يحدث نفسه بمقام . ولم يرم ثلاثا ولم يرم لباثا . ورحل طالبا
لبلاده بالجزيرة . حذرا عليها من اهل الجريرة . وكان السلطان
جعل له كل ما في شرقي الفرات . من البلاد والولايات . ومضى كما
ومضى بارق . وتخوف ان يطرق بلده طارق . فلما وصل الى
الفرات . وجد مما خافه دلائل الفتريات . فأقام بقلعة جعبر . ولم
يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة في السلم والسلامة . ومحبة للدعة
المستدامة . وسير الى الولايات الولاة . ووصى برعاياه الرعا .

واستناب في؛ ميا فارقين، وحاني، وسميساط، وحران، والرها . وشحنها بالشحن واستقام امرها وحسب ان الاعداء اذا سمعوا بسمعه . جمعوا لجمعه وتدافعوا لدفعه . وسكن وسكت وتبين وتثبت . وعلم العدا أنه في خف فخذفوا وعرضوا وصفوا . وما كفاهم ما هم فيه فهموا وما كفوا . وسافوا تراب الطمع واسفوا . فجرت حركتهم وهلكتهم . وانهب الله عند مجيئهم بركتهم .

ذكر اهل الشمامات وما قدر الله لجمعهم من الاشتات

كان الامير بكتمر صاحب خلاط . قد هجر الاحتياط ووصل الفشاط . وضرب البشائر لرزء صلاح الدين . وظهر في النوب الخمس بشعار السلاطين . وتلقب بالملك الناصر . وحدث امله بجر العساكر . وراسل صاحبي الموصل وسنجار . وطير اليهم كتب الاستنصار . وضم اليه من ماردين ، ماردين ، وطار وطاش . وارتاش وانتاش . وخلط من خلاط الاوشاب والاباش . فبينما هو في اتم غرور . وانم سرور . واحب حبور . واشب سفور . وارقد عين . واغفل قلب . واهل لب . واطول امل في اقصر امد ، واكثر مدد في اقل مدد . وقد خرج من الحمام . ولم يدرا انه داخل الى مغتسل الحمام ، استشهد على ايدي الاسماعيليه . ولعل الله غفر له ونقله بشهادته الى جنته عليه ، وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة . وكان ايامه كانت احلاما رؤيت في السنة . واول بادئ بالخروج متولى ماردين فانه مرد . وحشد المند ، ونزل على حصن الموزر . بالعزم المزور والجد المزور . وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن اعمال مازدين . حين كان اهله عليه مازدين . فلما صالحهم استبقاه واستنناه . وأضافه الى نائبه بالرها واعطاه . ثم تحرك عز الدين اتابك مسعود بن مودود بن زكي صاحب الموصل . وخرج في الجدفل الحفل . وأضافه اخوه عماد الدين زكي بنصيبين وخرجوا لنداء اللقاء مجيبين . وقد موا الرسل الى الملك العادل سيف الدين . وقالوا : تخرج من بلادنا .

وتدخل في مرادنا . فكتب الى بني اخيه يستنجدهم ويستنصرهم . ويستصرخهم ويستتصرهم . فانجدوه بالامداد . وامدوه بالانجاد . فجاؤوه من كل فج ووافوه فوجا بعد فوج . وكان انجاد حلب اقرب . ولدر الاسعاف احلب . ولما عرف الملك الافضل اغتتم واهتم . وجمع عسكره وضم . وخص وعم . وكتب الى صاحبي حمص وبلعبك . واستدعى عسكرهما الترك . فسار اخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر . وروض عسكره بورق الحديد الاخضر نضر . والملك العادل لقدمه منتظر . واما المواصلة فانهم ما اسرعوا بل ابطأوا ، وما اصابوا بل اخطأوا . وسمعوا ان الامداد العادلية الوافية متوافية . وان فنته كافة كافيه مكافيه . فتجذبوا وتجنبوا وكانوا قد وصلوا الى رأس عين فأقاموا وسكنوا . والملك العادل مخيم بظاهر حران في جموعه وجنوده . واعلامه وبذوده . ومساعديه وسعوده . وعزمه على اللقاء مصمم ، وقلبه بحب الظافر متيم وجده غالب . وحده سالب . وجده لظباء النصر جالب . ولطيب الذكر جالب . وسيف الدين باتر واتر . ولحظ الشمس من غبار خيله الاسائر فاتر . وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه . ورجال اليزك تتناجي وتتناجه . وكان من قضاء الله المحتوم ، وسر قدره المكتوم . تقليل غروب القوم وتقليلهم . وحار تأملهم وخار تأميلهم . وجعل رآلهم ورتع رعيهم . وذلك بما قدره الله من مرض اتسبك صاحب الموصل . ولم يطق الاقامة بالمنزل . واشفى على الخطر . واشرف صفو حياته على الكدر . فعاد الى الموصل في محفه . ورجا ان يتبدل ما الم به من ثقل الم بخفه . وقهقر عماد الدين راجعا ولن وثق به اشياعه فاجعا . وتضرع صاحب ماربين وتذرع . وتشفع بالامراء والاكابر وخضع . حتى وقع عنه الرضا . وصفع له عما مضى . واجري على القاعدة السلطانية معه . وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وماوسعه . ورأى عماد الدين ان القوم خانوا واستكانوا . ومارعوا له العهد كما كانوا . فاضطر الى الانكفاء وكف عن اللقاء . فخلا الجو . وجللا الضو . وعلا الذو . وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن اخيه الملك الظافر الى الفرات . في عسكر دمشق أهل الثبات . فكاتبه بمنازلة سروج وهي من اعمال

عماد الدين . وامده بابن تقي الدين وابن المقدم عز الدين ليث
القرين . فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم
الاحد تاسعة واستولوا على البلد واماكنه ومواضعه . ورحل الملك
العدل منتصف رجب الى الرقة وتسلمها في العشرين منه . وكانت
اليد البيضاء فيها للملك الظافر على ما ذكر عنه . ثم رحل وتملك بلد
الخابور جميعه ، وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه . وجاء الى
نصيبين ونزل بظاهرها . وشرع في ضم نخائرها . فجاءت الرسل
العمادية في طلب الصلح . واسفر ليل الحرب بسنى السلام عن
الصبح . ورحل ونزل دارا . وكان صاحبه دار مع القوم وما داري .
فبسط عذره . وقبض نعره . واتاه خبر وفاة صاحب الموصل
وتسليم بلده من بعده . الى نور الدين رسلان شاه ولده . وجرى بينه
وبينهم صلح . وكان له في كل سفرة تجارة وربح . وكتب اليها ان
اهل خلاط كاتبوه . وعلى تأخره عنهم عاتبوه . وان كل صاحب
حصن قد ضبط موضعه . وانتظر مطلعه . فانه تولاهم بعد بكثر
المعروف بالهزار بيناري . فلم يرضوا باياله لخلاط ولم يروه كفروا
لتلك الهدي . ثم اشرف العدل على خلاط . فوجد اهلها قد كملوا
الاحتياط . ورأى ان البرد يشتد . وامتد الحصر يمتد . فعاد الى
حران والرهاء واعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع
امرها .

فصل في المعنى أنشأته الى الديوان العزيز في آخر رجب عن الملك الافضل

لا شك في احاطة العلم الاشرف بحال النين النين حالوا عن
الانصاف بالانصاف ومردوا ومروا لخلاف الخلاف . وعادوا عن
خلق التلافي الى الائلاف . وبددوا بالانتظام في سلك الفدر شمل
الائتلاف . ونكثوا بعد ايمانهم . حتى قيل كفروا بعد ايمانهم .
وباءوا في بغيهم بغيهم . وابدوا قوتهم في وهبهم وعزموا انهم اذا
زعموا نالوا فرصة . ووجدوا اذا جدوا في العزيمة رخصة . وجاؤوا

- ٦٢٢٠ -

الى البلاد التي للخدم من انعام امير المؤمنين صلوات الله عليه
ليتملكوها . واستسهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوها .
واغتروا باعزازهم واعتزوا باغترارهم . واصيدوا اذ لم يصيدوا
ببصائرهم وابصارهم . وبخلوا في دائرة السوء وخرجوا من
بيارهم . واجتمع صاحب الموصل واخوه صاحب سنجار وصاحب
ماربين وحسدوا وحشدوا وماالظن بشر الحاسدين الحاشدين .
ووعدهم الشيطان فصدقوا كذب الواعدين ، وكان العم الملك العادل
سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد ؛ لابقاء امورها على السداد .
واثقا منهم بالمواثيق . محتفلا بالوفاق الحافل الافاويق . وهو في
خواصه . وذوي استخلاصه . لم ينتظم عسكره ولم ينضم اليه
معشره . ولم يصف لدفع الشوائب وردع الذوائب مورده ومصدره .
فلما عرف بكرهم . وعلم في مكرهم مكرهم . توافت اليه الجموع .
وحنت على قلبه الضلوع . وحنت الى اصله الفروع . وتوافد اليه بنو
اخيه في الجنود . وتوافوا نجدة ساعدت السعود . وامتد الاخ الملك
الظاهر من حلب بالامداد المتظاهرة . والانصار المتناصرة . وندب
الخدام اخاه الظافر خضرا وانفضه . وسار معه عسكره الذي
بدمشق عرضه . وسمع الاخ الملك العزيز خبر القوم . وانهم من
حول ورد الردى على الحوم . فاخرج المضارب وابرزها . وانفق في
العساكر وجهزها . وذكر عنة النجدة فانجزها . واهتبل فرصة
الفريضة وانتهزها . واقبل على نخيرة الفضيلة فاحرزها . وتحركت
السواكن . وثارت الكوامن . وهاجت الاقطار . وماجت البحار ،
وشابت الاكدار ، واصابت الاقدار . واظهر الله قبل الاجتماع معجز
اياته في اهل الشمات . وخص جمعهم بالشتات وحبلهم بالبتات ،
وحص من تلك الثبات اجنحة الثبات ، وشغل كل منهم بوباله وباله ،
وحطه من بقاع اعتلائه الى حضيض اعتلاله . واعادهم على
اعقابهم ناكسين ، وبعقابهم ناكسين ، وفي ارائهم وارايبهم ناقسين
واظهر الله في كل واحد من اعداد الاعداء اية للعاة خارقة . وقدره
لاقدار الاولياء للسعاية خالقه . وقتلهم وماقاتلوا ، وقابلهم
وماقابلوا . وغادر الغادرين عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتفكرين .
وعلم صاحب ماربين انه اخطأ وما اصاب ، فابان عن ندمه واناب ،

وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالامراء في امره وتذرع ، فأبدت له صفحة الصفيح ، وعادت له بعد عابية الخسر عانة الربح ، وأجري على القاعدة المستقرة له في عهد الوالد رحمة الله عليه . فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا اليه . وكان الاخ الملك الظافر خضر قد وصل الى الفرات . حين حكم الله لجموع اولئك بالشتات ، فعبر الى سروج يوم السبت ثامن رجب . وقلب العدو من الفتح الذي وجب وجب ، وفتحها يوم الاحد ضحوة . وجاءت هذه المنحة من الله حظوه . ورحل الملك العادل بالعساكر الى الرقة لاسترجاع وبيعته المستحقة . وهذه بركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة وببمن الائتمار بأوامرها . وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها . ومال السعانة الا لمن شملته سعودها . ومال الجد الا لمن وصله جودها ، ومال الكرامة الا لمن كرمته عنده بالوفاء عهدوها ، ومال العصمة الا لمن لزمته في حمده النعماء عقودها .

ذكر سيف الاسلام باليمن

واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن ايوب اخي السلطان ، وهو هناك سلطان عظيم الشأن ، مستول على جميع البلدان . مختص في مكانه بالامكان . وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بايام . فلم يظفر بمرام . ووصل كتابه الى اخيه . وهو غير عالم بتوفيه . فلما استقر الملك الافضل على سرير ابيه كاتب عمه سيف الاسلام بغمه . وهم في كتابه بما كتب الله من همه . والكتاب باندشائي عن الملك الافضل يشتمل على شرح مالم . وخص به الرزء وعم .

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو صدرت هذه المكاتبه معربة عن النبا العظيم . والخطب الجسيم . والرء العميم . والحادث الاليم . والكارث المقعد المقيم . والنائب الباغث . والمصاب الساحت . والفجيعة الفاجية . والزكبة الناكبة . والطارقة الطارية .

واللمة المؤلة والبلية البارية . والواقعة الرائعة . والصدمة
الصادعة . والحدثه اللافحة . والروعة القاذحة . والغمة التي غامت
بها الايام . وغم لها الانام . واعتل منها الاسلام . واحتل النظام .
فقد عدت المطالع ضياءها . والمشارع صفاءها والثغور سداها .
والامور سداها . والعيون قرتها والنفوس قرارها . والقلوب ثباتها
والجفون غرارها . والايدي ايدها والوجوه سفورها . والصدور
انشراحها . والاسرار سرورها . فقد فقدت الدنيا بهجتها . وضلت
العلياء محبتها . واهتدى الضلال الى الهدى . وأقوى نادي
الندى . واقفرت مغاني الغنى . وكفهرت مجالي السنن . وأمرت
مجاني المنى . وخفيت مناهج المناجح . وعطلت مناهل المنافع .
وعميت مذاهب المواهب . واظلمت مطالع المطالب . وارتجت ابواب
الفتوح . ودجت أضواء الوضوح ودرست معالم المعالي . وطمست
زواهر الليالي . واضطربت الدهماء . واضطربت الدهياء وبطلت
مواسم الحق . وأبهمت مظالم الخلق . وانقطعت مسالك الجهاد .
وتفجعت ممالك البلاد . وأخلفت عدات الاعداء على الاعداء .
وانكسفت أنوار آمال الاولياء . وذلك بما أجراه الله من قضائه
المحتوم . وأظهره من سر قدره المكتوم . بمصاب مولانا المالك الناصر
روح الله روحه . وروض في جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه .
فقد عظم الخطب وجل . وحل عرى الجلد حين حل . وثلم غرب
الصبر وفل . وأجرى غرب الدموع . وازكى كرب الضلوع . وبست
حبلى اللاجئين . وشت شمل الراجين . واعلمنا أن الدنيا النية
حبالها رثا . وحبائرها غثا . وعقودها انكاث . وسهولها
أوعاث . وقصورها اجداث . وسرورها غرور ومواهبها احداث .
وسكونها قلق . وامنها فرق . وصحتها سقم . وأملها ألم . وغبقتها
ندم . ووجودها عدم . وبقاؤها فناء . ونعيمها بلاء . وراحتها
عناء . وملكاها هلاك . وسترها هتك . واخذها ترك . وسلمها حرب
وصلحها فتك . ووفاءها غدر . ووفاقها مكر . وعرفها نكر .
ووصلها حجر . وخيرها شر . ونفعها ضر . وجبرها كسر .
ومتاعها قليل . وباعها في التناول طويل . ومالعتها مقليل . ولا في
ظلمها مقليل . ولا ارب فيها لأريب . ولا الباب فيها للبيب . فان

ظلها قاصص . وفضلها ناقص . وعمرها قصير . وغنيها فقير . وريها جرع . وزيتها خدع . وحليها عطل . وسعيها زال . واجداؤها إجداب . وإعطاؤها إعطاب . وإصحابها إظلام . وإرغابها إرغام . وسماحتها بخل . وسجاحتها عتل . وعقدها مفسوخ . وعهدتها منسوخ . وربحها خسار . وجرحها جبار . ويسارها إعسار . وخصبها محال . وحبها محال . وعمارتها شعث . وشيمتها عيث . وعبث . وترباها تراث . ولاسكنها اساس . ولاساكنها اثاث . ولاكيدها في كبدها يد . ولامكرها في جد مكرها جدد . والسعيد من استعد في معاشه للمعاد . واستكثر مدة مقامه في الدنيا لسفر الآخرة من الأزواد . ومن نظر اليها بعين القلى . وعرف انها دار البلاء والبلى . وتقوى فيها بالتقوى . وجد في الاعراض عن جدواها للآفوز العرض بالجدوى . ولقد كان السلطان السعيد قدس الله روحه بحقيقتها عارفا . ولزخرفها عاثفا . ومن ملكها أنفا . وعن مالها متعاففا . فاشتغل عن الدنيا بالدين . وخصه الله بتأييده في علم اليقين . واقتدى بسنة النبي صلوات الله عليه فما زاغ بصره وما طغى . (ونهي النفس عن عن الهوى . فان الجنة هي المأوى) (النازعات : ٤٠ - ٤١) ووقف حياته على احياء معالم الهدى . والاعلان بشعار التقى . وإعلاء منار الجهاد . وأشاعه سنن العدل والاحسان في البلاد والعباد . وافاضة سجال الفضل والافضال . حتى كفل جوده بفيض الارزاق ووفى بنجح الامال . واخلص له عمله . ولاملك ملكا ولاتمول مالا الا في سبيل الله انفق وبذله . وكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من كان لله كان الله له) . فلا جرم اذل الله له الملوك الأعزة . ووهب لاعطاف الدولة للتباهي بملكه الهزة . وملكه الاقاليم والامصار . واجرى باقداره الاقدار . فازال عن مشاريع الشريعة الاكدار . وعطل البدعة بمصر واليمن والشام . وقمع اعداء الاسلام . ومد الله في عمره حتى بلغ المراد . وفتح البلاد . ووفى في حق الجهاد الجد والاجتهاد . وقدر على ما أعجز عنه الملوك . ونهج في نصره الدين نهجا اعوز من قبله فيه السلوك . وأخرج الفرنج عن الساحل وابادها . وملك عليها بيارها وبلادها . واوهى على الكفرة معاقد معاقلها . وطال بحقه على

بساطها . واقصى عن المسجد الاقصى مبدئيه . وازال عنه ايدي
غاصبيه . واصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الارجاس . وابعدها
عنها اجناس الانجاس . وقهر الكفر وخذله . ونصر الايمان
واخذله . واحيا للكرم كل سنة حسنة . واستمرت محاسن ايامه
سنة بعد سنة . وتعديت بعدله الجوانح . وتذلت بيباسه الجوامح .
ودانت وبنيت له الممالك القاصية . واذعنت إذعنت لحكمه الاماني
العاصية . وملك القلوب والقبول مهابته ومحبته . وعمت الخواص
والعوام عارفته وعاطفته . ونفذت في الشرق والغرب مراسمه .
وقامت بالحمد والشكر مواسمه . ووفقت بامل الداني والقاصي
والطائع والعاصي مكارمه . واسعده الله وامهله . حتى حقق في ذويه
امله . وولى في كل اقليم من يعمل له في العدل والاحسان عمله . ثم
توفاه حميد الاثر . كريم الورد والصدر . ظافر الرجاء رائج الظفر .
صالح العمل . ناجح الامل . طاهر القطرة . ظاهر النصرة . كاسيا
من الفخار . عاريا من العار . مرتديا بثوب الثواب . مرتويا من
صوب الصواب . مبهيجا بنصرة النعيم . متارجا بعرف نسيم
التسليم . وما كان ابهج الايام بايامه . والاعصار بمزايينه .
والامصار بمحاسنه . والاسلام بسلطانه . والافاق بسني احسانه .
وما كان اسعدنا بجدوده . واجننا بسعوده . واغنانا بعدله وجوده .
فقد فقد الصباح فلا سنى . ودفن السامح فلا جدوى ولا جنى .
وغاض البحر فلا غنى . وهو الطود فلا ثبات . وذوى الروض فلا
نبات . ووهى الركن فلا سند . وانتهى اليمن فلا جدد . وغلب الكمد
فلا جلد . وعز العزاء فلا عزه . ولا قوة ولا عضد . إنا لله وإنا اليه
راجعون . ولأمره تابعون ولحكمه طائعون . ولا راد لارادته .
ولا صاد لمشيئته . ولا صائف لمصادف قضائه . ولا صارف لصرف
بلائه ولقد كادت الانوار تغرب . والانواء تعذب . والمنابع تغور .
والصنائع تبور . والاحوال تحول . والاهوال تهول . واضواء
المعارف لاتضيء . وافياء العواطف لاتفيء . وزهر السماء لاتشرق .
وازهار الروض لاتؤنق . ومعاهد الاسلام تهى . وميامن الايام
تنتهي . لولا ان الله تدارك الارماق بالطفافة . وتلاقى الامال
باسعافه . وجلا وجه النعمى من خلال البؤس . واهدى البشر بعد

العبوس . وانزل السكينة عند الزلزال . على النفوس . واجرى
الدولة على احسن العوائد . وارشد المقاصد واثبت القواعد . من
استمرارها على الالئام . واستقرارها في النظام . واستدرارها
بافاويق الوفاق . واهلال بدورها غب المحاق . وطلوع شموستها من
الافاق . وارتفاع فروعها في سماء السمو . وامتداد اصولها في
منابت النمو . واندفاع احداقها النواظر عن نور الابصار . واندفاع
حدائقها النواضر عن نوار الازهار . حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة
واتحدت . وانتظمت الالفة المتبددة وتساكت . وسكنت القلوب
الراجفة واندست . وسكنت الالسنه المرجفة وخرست . وناثرت
الخواطر المظلمة . وافاقت الظنون الراجمة والافكار المنقسمة .
وزاد الرونق وزال الرنق . وانجلي الفسق . وتجلي القلق . واستقامت
الامور . واستنامت الى حفظها الثغور . ووصلت الكتب العزيزية
والظاهرية من مصر وحلب . بكل ما انجح الارب ووصل السبب
ومرى در النصر وحلب . وبكل ما اظهر القوة وقوى الظهر . وشد
الازر . وامر الامر . وسر السر . ونصر الحق وحقق النصر . من
الموافقة والموافاة . والموالاة القاضية من الجدة المنجدة بالموالاة .
والتابعة والمشايعة في كل امر يبرم . وكل حكم يحكم . وكل عزم في
قمع العدا يصمم . وكل عقد في نصر الهدى يلزم ويتم . ووصل
المولى الملك العادل فتولى امر المملوك بكل ما اوفق ايثاره . واشاع
على عادة الوالد رحمه الله تعالى شعاره ورفع مناره . واخلى من
كل شاغل باله ورفه اسراره . وراح افكاره . وما في الجماعة الا من
خطب الجمعية وخطب في الجمع ، واعرض عن الهوى للحق المتبع .
فالكلمة متحدة وإن كانت الانفس متعددة ، وما اخلقت هذه الدولة بل
استمرت على تجدد الايام متجددة . وانما اشفت في حال الصدمة
الاولى وبيد الرزية الطولى على بيت الله المقدس . ومن غدر الفرنج
يقصدها فان القدر شيمة لهم في الانفس . فوقى الله شرهم . ودفع
مكرهم . واوهى امرهم ، ولم يزل من قلوبهم الرعب . ولم يؤثروا
على الصلح الحرب . بل طلبوا بقاء السلامة بابقاء السلم . وخطبوا
اجراءهم في الوفاء بعقد الهدنة على الرسم . وبركات نية المرحوم
شملت . ووصاياه نفذت وكملت . وتوجه الملك العادل الى بلاده

الجزرية . شرقي الفرات لاصلاح تلك الولايات . واخراس شقاشق الهادرين بالارجاف من اهل الشمات . ويرد بالباس مكاييد الحاسد الحاشد . والحمد لله الذي اجد الامن وقد عرت المخافة . وانزل الرافة وقد فجأت الافة . وابقى الاسلام بعزه والكفر بذله . وثبت قواعد الملك الناصري بجمع شمل اهله . واحيا بهم سني احسانه وعدله . وشيئتي افضاله وفضله . وفي دوام اقبال المجلس السامي دوام اقبالهم . ونظام احوالهم . وسيدو غ ظلالهم وبلوغ امالهم .

ذكر ما افترضه الملك الافضل من خدمة دار الخلافة
المعظمة وانفذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف
سنايا

لما استقر الملك الافضل بدمشق في مقام والده . وشفع طارف ملكه بتالده . واضاف موروث الفضل الى مكتسبه . واكرم نسبه بكرم حسبه . بدا بالاهم الافرض . والاتم الامحض . فقدم الى الديوان العزيز النبوي نجابين بالكتب . وانهى الحال فيما الم من الخطب . ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهر زوري في الرسالة . الى منزل الرسالة وموقف الجلالة . واصحبه عدة والده في الغزاة . اوان لقاء العداة . وسيفه ودرعة وحصانه واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العرب ما استنفذ وسعه وامكانه . فما تهيأ مسير الرسول الا في اواخر جمادى الآخرة . حتى حصل كل ما اراده من الهدايا الفاخرة . وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله . حتى لا يظن انه انفرد برسوله . وقصد مداراة اخوته . وفضل بفضل نخوته . وذلك بعد ان جدد نقش البينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين . وولي العهد عدة الدين . وامرني بانشاء الكتب وتحريرها . وتقريب المقاصد فيها وتقريرها .

فصل من الكتاب الى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء . وقلبه معمور بالصدقاء . ويده مرفوعة الى السماء للابتهاال بالدعاء . ولسانه ناطق بشكر النعماء . وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء . وطرفه مغض من الحياء . ووجهه مقبل نحو وقلة الاستجداء . وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء . وهو للارض مقبل . وللفرض متقبل . وبالطاعة مائل . وللاستطاعة باذل . وللجهد والاخلاص . عارض ضارع . وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صارع . وهو يمت بما قدمه من الموات . واسلفه من الخدمات ونخره نخر الاقوات لهذه الاوقات . واتخذ عاصمة من النائبات . وعونة من الطارقات . ومؤلفا للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصام بها في ا زمن الازمات . وسلوة من الاسى واسوا الجراح المصيبات . ولاخفاء بما اخافه . وقاض له من بحر البرح وضافة . واغاض نطافه . وعاق او ان رجاء جني النجاح قطافه . لولا ان الله تداركه بفضله واولاه الطافه . فانه دهمه ما هدمه وفجأه ما فجعه . وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه . ونابه مارابه . وجرعه مصابه صابه . وواقاه من وقاة والده رحمه الله ما كدر صفو الحياة . ومحا عن صفحة صبحه آية الآياه وألم بألم الأمل . وأحال الحل الى العطل . وحسب الأ عن النهل والعلل . وأذهب بهجة الأيام . وأشمت الكفر بالاسلام وسر الشرك منه ماساء التوحيد . وقرب من اشفاق القلوب واشفاء الكروب البعيد . وعطل الجهاد وأراح الحديد . وشب حقود العداة على أنها ماشيت الا لتخمد . وشام حدود العتاة على أنها ماشيت الا لتغمد . وهذا الحادث ارجف المرجفون بحديثه . وأثاروا كوامن النار وحركوا سواكن الأوتار بتأثيره وتأثيره . وأخرج أهل النفاق رؤوسهم من كل نفق . وعاد ثبات ثباتهم الى نفار وقلق . ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى . مستلثما من عدد أيامها ومسدد انعامها بالدرع الأقوى الأوقى . فانه لا يحتفل بحفون

أخلاق أهل الخلاق . ولا يتحلل طود حجاه الراسي وحصاه الراسخ
لعواصف ذوي الاجحاف . وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله
بأن الوالد السعيد . الشديد السديد . المبير للشرك المبيد . لم يزل
أيام حياته والى ساعة وفاته . مستقيما على جدد الجد . مستقيما
في صون فريضه الجهاد الى بذل الجهد . مستنفدا في كل ما يحوز به
المراضي الشريفة وسعه . ومستقرغا طاقته في الشغل الديني الذي
يهدي بصره وسمعه . فكم قبض يدا بسطتها بالفطنة الفنة
العادية . وكم فرض سنة أعلنت سنائها للمجتلين وأحلت جناها
للمجتدين الدعوة الهادية . ولكم أخرس دعاة الأدياء وحرس
ولاياته الأولياء وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقلام
أقاليد . ولم تزل جذود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بممالك
الدار العزيزة وعبيدها عبايد، وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها
شآبيب . وأقام بها منار الاسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها
أنابيب وأسعرها من كمة الوغى وحماة الورى بمساير وأنجدها
بضوامره . ضوامن الظفر بمضامير ، وهذه فتوحه تفوح بنشر
النصر وتضوع . وعقوده ترووق في سلك الملك وتروع ومصر بل
الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة، والانجاد والأغوار في نظر عزمه
واحدة والبيت المقدس من فتوحاته . والملك العقيم من نتائج
عزماته . وتوفره على العبودية لملك رقة سيدنا أمير المؤمنين أوفر
حسناته . وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته . وما زال ظاهرا
على العدا . ناصرا للهدى معليا معالم العلى . محيا مواسم
التقى . مسنيا سنن الشرع وفروضة مديما بأعباء الطاعة بقدر
الطاقة نهوضه وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقها . وأسر
طواغيت الكفر وشد وثاقها . وقمع عبدة الصلابان وقصم
اصلابها . وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها . ونظم اسبابها وسد
الثغور . وسدد الأمور وأذل للدار العزيزة كل عدو . وأخذ لها على
يد كل ذي عتو . واستمرت على الأيام مساعية في الخدمة
ناحجة . ومعانيه على موازين الموازين راجحة . وسيرته حسنة
وحسناته سائرة ومحاسنة ظاهرة . وسيرته ظاهرة . وختم الله
له بالسعادة، وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة . وقضى وقد

قضى من آرائه آرايه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه
حسابه . وقبض وعدله مبسوط ، وأمره محسوط . ووزره
محطوط . وعمله بالصلاح منوط . وأمله بالنجاح مشروط . وملكه
ب حفظ الله وكلائته مضبوط . والمذاهب مهذبة والمراتب
مرتبة . والأسباب محكمة والأحكام مسببة . والأحوال
حالية . والأعمال راضية . والمصالح مصنونة . والمناجح
مضمونة . والرعية مرعية . والعوائد مرضية والقواعد
متأثلة . والمقاصد متحصلة والثغور مسدودة . والخطوب
مصدونة . وأصول الدولة ثابتة . وفروع الدولة نابذة . وماترك
أمره بعده غير مستقيم ولا نهجا غير قويم ، ولا خالف لمن خلفه
ما يحتاج الى تقريره وتقديره . ولا أبقي لمن بقي له ما يفتقر الى ترتيبه
وتدبيره . وما خرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الامامية
داخل ، وبمخرجها الرابع الى دار المقامة راحل . ولم تكن له وصية
الا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستسعاد
بسعادتها . والاستعداد لعيادتها ، وما بنيت القواعد الا على
اساس وصاياها . ولا مضىيت العوائد الا على قياس
سجايها ، ولا أبرم الا ماعقده ، ولا أحكم الا ماأكده . واقتفيت آثاره .
واجتليت أنواره . واتبع ايثاره . واتمرت في انتمار الاوامر
الشريفة أوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الامامية الناصرية فان
الله ناصره . وما يفتخر العهد الا بما ورثه في ولائها من
الفخار . وبعثه من الاثنا الغزار . ونعشه برفعة من
العتار . وعرفه بعرفه المبر المبار . ولا يتسم بالملك الا من يتسامى
بأنه لها مملوك . ولا يوصل الى السعادة الابدية الا مسلك الى
رضاها مسلوك ، ولئن مضى الوالد على طاعة امامه ، فالممالك
أولاده وأخوه في مقامه ، والامر في كل مكان بالامن والسكون جار
على نظامه . والكفر مغلول الغرب . مخذول الحزب . مجبول على
الرب . مغلول بقيد السلم عن الحرب . فان الله أجرى المشركين
مع كثرتهم على حكم القلة ، وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية
بالذلة ، وقد استمرت الحال الى الآن على الهدنة ، وهم لا يؤمنون
اذا احسوا بالمكنة فان الغدر في طباعهم مركزوز ، والسوء في

- ٦٢٣٠ -

غرائزهم مغروز ، والعبد أخذ بالحزم ، عائد بتأييد الله في العزم
متيقظ لمخوف غدرهم متحفظ من مكر مكرمهم ، مستعد بكل
امكان ، مستجد كل ما يفتقر اليه من نجدة وقوة بكل
مكان . مستظهر بما تأكد له من مظاهره المواقف المقدسة في
أموره . مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره . ظاهر بقوة من
أيدها وأياها قوي بظهوره . مدلل بما له من الموات
الأكيدة . والسوابق الحميدة . والشوافع المقبولة . والذرائع
الموصولة . وموقن ان الرعاية تدركه . وأن العناية تملكه ، وأن
اختصاصه بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص . وأن
فاتحة الحمد منه والاخلاص تفتح له باب الاحماد
والاستخلاص، ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول . وأنه يزداد
بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة
والحول . عول على القاضي ضياء الدين في المثل بالخدمة الشريفة
وانهاء حاله ، والانتهاه الى مناجح أماله . والسفارة فيما يسفر
عن صبح المرشد ، ونجح المقاصد ونصح العقائد . وشرح الأحوال
في المصادر والموارد . وأن بلاغته وفية بالابلاغ ، وملية باشباع
القول في اعتفاء الطول المليء بالاسباغ . وقد فاوضه فيما فوضه
اليه . واعتمد في استنجاهه واستنجاهه عليه . ولا زالت أيادي الدار
العزيزة دارة غزيرة . سارة أولياءها وباحياء موات مواتها جبيرة
ان شاء الله تعالى

ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله

كان مشغوقا في سبيل الله بالانفاق . موقوفا عزمه في الأعداء
بإبناء الآجال وفي الأولياء بأجراء الارزاق . وماءقر في سبيل الله
فرس أو جرح الا وعوض ماله بمثله . وزاده من فضله . وحسب
ما وهبه من الخيل العرب والأكاديش الجياد ، للحاضرين معه في
صف الجهاد . مدة ثلاث سنين مذنزل الفرنج على عكا في رجب
سنة خمس وثمانين الى يوم انفضالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان

- ٦٢٣١ -

وثمانين . فكان تقديره اثني عشر ألف رأس من حصان وحجر . وأكديش طمر وذلك غير ما أطلقه من المال . في اثمان الخيل المصابة في القتال . ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب او موعود به وصاحبه ملازم في طلبه . ومحضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه فاستعاده . فكلهم يركب خيله . ويطلب خيره . وهو يستعير جوادها . ويستعر في الجهاد اجتهدا ، وكان لا يلبس الا مايحل لبسه ، وتطيب به نفسه . كالكتان والقطن والصوف .

وكسوته يخرجها في اسداء المعروف . وكانت محاضره مصونة من الخطر . وخلواته مقدسة بالطهر . ومجالسه منزهة من الهزل والهزل . ومحافله حافلة أهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط . ولا لفظة فظة تسخط . يغلظ على الكافرين الفاجرين . ويلين للمؤمنين المتقين . ويؤثر سماع الحديث بالاسانيد . وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد . وكان لداومة الكلام مع الفقهاء . ومشاركة القضاة في القضاء اعلم منهم بالأحكام الشرعية . والأسباب المرضية والأدلة المرعية . وكان من جالسه لا يعلم انه جليس السلطان . بل يعتقد انه جليس اخ من الاخوان . وكان حليما مقيلا للعترات . متجاوزا عن الهفوات . نقيا تقيا . وفيها صفيا . يغضي ولا يغضب . ويبشر ولا يتقطب . مارد سائلا ، ولا صد نائلا ، ولا اخجل قائلا . ولا خيب أملا .

ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه في بعض سفراته . الأمير ايوب ابن كنان مشغولا بمهمات . فلما وصل سألته عن سبب تخلفه . وما الذي وقفه عن موقفه . فذكر ان غرماءه لجؤا والحدوا . وضنوا باطلاقه وشحوا . فأحضر غرماءه وتقبل باللين وتكفل بالعين . وامرني بأن احيلهم على مصر فحسببتها وهي اثنا عشر ألف دينار مصرية وكسر . فقدم نوابه وفاءها على الحمل لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل .

ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة ابن

مذقذ من مصر وهو بها نائيه . وقد وضحت في الكفاية مذاهبه ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الف دينار وتسحب . وربما وصل الى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب . فجاء الى السلطان من اخبره ان الرجل على الباب وخال انه اليه به تقرب . فقال قل له ان ابن مذقذ يطلبك فأجهد أن لا تقع في عينه . فعجبنا من حلمه وكرمه بعد ان قلنا قدم الرجل بقدمه الى حينه . ومما اذكره له في أول سفري معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين . ووردت بها من فضله العذب المعين، أنه حوسب صاحب ديوانه . عما تولاه في زمانه . فكانت سياقة الحساب عليه سبعين الف دينار باقية عليه فما طلبها ولاذكرها . واراها كأنه ما عرفها على ان صاحب الديوان ما انكرها . وكان يرضى من الأعمال بما يحمل عفووا صفوا . ويحصل عذبا حلوا . وكله يخرج في الجود والجهاد . ورعاية الوفاء والقصاد ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة . ولم ير انزواءه في بيت العزلة فولاه ديوان جيشه واولاه ما بنت له به مجاني جاهه وعيشه .

ولما كنا بظاهر حران في سنة احدى وثمانين عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بدمشق ان يتصدق بخمسة الاف دينار صورية فقلت له الذهب الذي عنده مصري . قال : فيتصدق بخمسة الاف مصرية . واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما . ويرتكب في كسب الأجر أثاما . فسمح ومنح وتاجر الله وربح . وسمعت بعد ذلك الصفي . وكان في الخير مجلي كل مضماري يقول: قد احصيت فقهاء المدارس بدمشق وكانوا ستمائة فأطلقت لهم ستمائة دينار.

ولما عزم على الرحيل من حران . أفاض بها الفضل وبث الاحسان وقال لي يوم الرحيل . انظروكم بقي بالباب من الوافدين ابناء السبيل . وهذه ثلاثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم . وفضل على اقدارهم في القسم . وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة . ولم

- ٦٢٣٣ -

تجده ميسره . فعينت لكل اسم قسما . وعينت بهم خلقا مني ورسمنا
فبلغ اربعمائة دينار . ثم وقفت اهُكر وأريد النظر اليه وأكرر فسألني
ما الذي عملت . وهل قسمت المبلغ وكملت فقلت جرى قلبي بقسمة
اربعمائة دينار . فهل انقص من كل اسم ربعا ؟ فقال اجري ما جرى
به القلم واحسن صنعا ،

وكان رحمه الله اذا اطلق لعارف عارفة ، وقلت له هذه ما تكفيه
ردها مضاعفة . وكان اصحاب المظالم وارباب المطالب . والراغبون
في الرغائب والذاهبون في المذاهب . يحضرون عندي . ويعرفون في
انجاز امرهم وانجاح قصدهم بذل جهدي . فأكتب لهم توقعات
بمتوقعاتهم . وانتهي في الاملاء بنهاية مأمولاتهم . فيجريها
ويمضيها . ويضع علاماته فيها ويرتضيها . واذا افى توقيعا بخطي
علم فيه . ولم يقف بنشره على سر مطاويه . الف بما الفه من
صحبتي ومناصحتي . وكفاء للملمات وكفاية للمهمات بكفايتي .
وكان يأمرني باجابة كتب المداوك واصحاب الاطراف عن كتبهم في
حالي سلامهم وحربهم . وهي تشتمل على اسباب متنوعة وأرب
متفرعة . بحسب الحوادث المتجددة ، والبواعث المتمهدة ، فإذا قلت
له بماذا اكتب وما الذي اخطب . فيقول انت اعرف . وبحسب ما
تعلم من حالنا تتصرف فاكتب من عندي بالاجابة . وتوافق منه
الاصابة فقد كنت مطلعا على سره . مضطلعا بأمره ، ما يخفي عني
مرايه . وانا اتيقن لمن ولاؤه وودائه . فأتي بمدانة الأغراض
ومداواة الأعراض وموازنة الجواهر والأعراض . والتمييز بين اهل
القبول واهل الأعراض . فكم اصلح قلمي بينه وبين من
عاداه . وراض الجامع من سخطه وقاده الى مدى رضاه .

وكان يفضي للكبائر . ولا يغضي عن الصغائر . ويرشد الى
الهدى ويهدي الى الرشاد . ويسدد الامر ويأمر بالسداد ، فكان
مماليكه وخواصه بل امراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد .
ورأى يوما لي دواة . بالفضة محلاة . فاذا حل الحلية . وادعى
حظر القنية . فقلت على سبيل المدافعة . وطريق المناظرة والممانعة .

أوليس تحل حلية السلاح . واستصحابه في الكفاح . فدواء دواتي
انجع . ومدد مدادي انفع . ويراع براعتي القصير اطول ، وسلاح
قلمي أجد وأفتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الاسلامية
الا بقلمي ولا تفرقت جموع الكفر الا بكلمها من جوامع كلمي . فقال
ما هذا بدليل ولا يعيد تحريما الى تحليل . حتى قلت له ان الشيخ ابا
محمد والد الامام ابي المعالي قد ذكر وجها في جوازه ونحن نتبعه فلا
وجه مع هذا الوجه المحلل لمن يحظره ويمنعه . ثم لم اكتب بعدها
عنده الا من دواة الشبه . وتجذبت طرق الشبه وتركت المحلاة
مخلاه . وعادت الشبهية مجتباة مجتناه . وكان محافظا على
الصلوات الخمس في أوائل اوقاتها . مواظبا على اداء مفروضاتها
ومسذوناتا . فما رأيتة صلى الا في جماعة ولم يؤخر له صلاة من
ساعة الى ساعة .

وكان له امام راتب ملازم مواظب . فان غاب يوما صلى به من
حضره من اهل العلم . اذا عرفه متقيا متجذبا للأثم . وكنت للآزمتي
اياهم يقدمني اماما في الصلوات . ومستشارا في المشورات . وكان
يأخذ بالشرع ويعطي به . وينفق من حل المال وطيبه . ويجود
بالموجود وبالمعدوم في الحال رجاء الوجود . فما تتجدد جنة الا
ويستوعبها انجاز الوعود . ولم يكن الى المنجم مصفيا . ولم يزل
لقوله ملغيا . فما عنده منجا لمن جاء بمين المنجمين ولا قبول لمنطق
المنطقيين . فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل
الشرع واستقصاء الدين في كل قاص ودان . ولا يتعيف ولا يتطير
ولا يعين وقتا ولا يتخير . بل اذا عزم توكل على الله . وأقبل على
محكم امره وأعرض عن مظان الاشتباه . فكم فل سلفه ذي
الفلسفة . ودل بمعروفه في المعرفة . وما زال ناصرا للتوحيد . قاهرا
جمع اهل البدع بالتبديد . مستجليا سنى السنه . مستحليا جنى
الجنة . شافعي المذهب اصولا وفروعا . معتقدا له معقولا ومسموعا
يدينني أهل التنزيه . ويقصي أهل التشبيه . ويديم استفاة فقه
الفقيه . واستزادة نباهة النبيه . ووجاهة الوجية . فالعاملون في
عدله . والعاملون في فضله والبلاد في أمنه . والعباد في منه . والبرية

- ٦٢٣٥ -

في برسعيه . والاسلام في حماية حميته . والدين في ادالة دولته .
وشرعة الشريعة صافية بصفائه . ومادة المولة له وافية بوفائه .
وقامت بعده طريرة طريه . ومن العار عريه ، وببر البرية من
الشائيات والشائنات بريه . وبالحرية حرية . وبسرور السر سريه .
فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها وافضلها وظاهرها . وفخرت
بمفاخرها . ورويت بروائهم آثار مآثرها ، وتبجلت الآفاق وتآرجت
بحسن تباشيرها وطيب بشائرها ، وبرزت الأرض في ازهارها .
والسما في زواهرها . والحمد لله مجري الأقدار ومصفي
الأكدار ، ومدبر الليل والنهار ، ومدبر الأيراد والاصدار ، وسلم
تسليما كثيرا آمين

- ٦٢٣٧ -

الحواشي والهوامش

البرق الشامي

- (١) مطموس بالأصل .
(٢) موقع ما يعرف اليوم باسم نبع السريا في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .
(٣) مطموس بالأصل .
(٤) ريموند الثالث صاحب طرابلس .
(٥) طمس بالأصل بثلاثة أسطر .
(٦) مطموس بالأصل .
(٧) النسخة التي اعتمدت عليها هي نسخة وحيدة لا يعلم الآن مكان وجودها ، سوى أنه سبق للمرءوم المختار السوسي أن أودع عنها شريطا مصورا في الخزانة العامة بالرباط . وقد لاحظ النسخة بمض الطمس ، وخطها مغربي من الصعب التعامل معه ، وهذا الحال أضاف لي لفة العماد معوقات وعراقيل جعلتني رغم ما بذلته من جهد غير مطمئن تمام الاطمئنان . وقد اكتفيت بهذا النص كنموذج ، وفيما وجد أبو شامة - صاحب الروضتين - التعامل مع البرق الشامي أمرا صعبا ، ولعله لم يكن قادرا على قراءة النص الكامل للكتاب أو وجد قلة الفائدة في ذلك لهذا اقتبس منه بضع فقرات من هنا وهناك - انظر الروضتين : ٢ - ٧٤ - ٨٢ . وخيرا فعل الفتح البنداري فيما بعد حين أقدم على تهنيب بعض كتب العماد ، وكان منها البرق الشامي هذا .

(الفتح القسي)

- ١ - الصيلة : قولك هي على الصلاة ، هي على الفلاح ، القاموس
- ٢ - الوخش : الردىء من كل شيء ، ورثال الناس ، القاموس .
- ٣ - كرثة الغم : اشتد عليه ، القاموس .
- ٤ - طفر : قفز ، القاموس
- ٥ - الدأماء : البحر ، القاموس .
- ٦ - النهيث : المزثير . القاموس .
- ٧ - سحابة دلوح : كثيرة الماء ، القاموس .
- ٨ - الريح تحركت فهي ذؤوج ، وللريح نشيج : أي مر سريع ، القاموس .
- ٩ - بلخ : تكبير ، القاموس .
- ١٠ - بظاهر بلدة نوى في حوران سورية
- ١١ - في وادي الأردن قرب عقبة أفيق .
- ١٢ - الأوام : الدخان ، القاموس .
- ١٣ - السلت : القطع والاستئصال .
- ١٤ - ابن بارزان هو بالين صاحب يبنى ، والقومص هو ريموند الثالث صاحب طرابلس .
- ١٥ - البيكار فارسي معرب يعني الحرب .
- ١٦ - يقق ، ابيض القاموس .
- ١٧ - طحرت العين : قذاها ، القاموس .
- ١٨ - أي تنعدم الاقوات فيها .
- ١٩ - الأمره : الابيض ، القاموس .
- ٢٠ - أي بحيرة قطينة خارج مدينة حمص .
- ٢١ - حامت : شديد الحلاوة ، القاموس .
- ٢٢ - الأطعمة التفة : ما ليس لها طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة ، القاموس .
- ٢٣ - المنذر : فرس فيه نكت فوق البرش ، القاموس .
- ٢٤ - السمند : الفرس ، والغبسة : الظلمة أو بياض فيه كدرة رماد ، القاموس .
- ٢٥ - الشوار : اللباس والسمن والزينة ، القاموس .
- ٢٦ - الحلاحل : السيد الشجاع ، القاموس .
- ٢٧ - الحصن : حلق الشعر ، القاموس .
- ٢٨ - العنق سير فيه تهختر والذميل السير اللين ماكان فوق العنق ، القاموس .
- ٢٩ - الأرى العسل ، القاموس .
- ٣٠ - لثق يومنا : ركبت رمحة وكثر نداء ، القاموس .
- ٣١ - الأوام : العطش ، القاموس .
- ٣٢ - أمهى السمن والشراب : أكثر مائه ، وأمهى الحنينة : أحدهما وسقاهما الماء ، القاموس .
- ٣٣ - انعط العود : تثني من غير كسر ، القاموس .
- ٣٤ - اللوب : العطش ، أو استتارة الحائم حول الماء وهو عطشان لا يصل اليه ، القاموس .
- ٣٥ - أبهى الخيل : عطلها من الغزو ، والباهي من البيوت : الخالي المعطل ، القاموس .

- ٦٢٣٩ -

- ٣٦ - الضفدو : السبوغ والكثرة وفيضان الهوض ، القاموس .
٣٧ - رجل نيق : كيس ، والنيق : أرفع موضع بالجبل ، القاموس .
٣٨ - السوننيق : الصدر أو الشامين ، القاموس .
٣٩ - تافل : أزيد ، القاموس .
٤٠ - خدمة النار : شدة اشتعالها ، القاموس .
٤١ - خطا لحمه : اكتنز ، القاموس .
٤٢ - باركاه : فارسية تعني خيمة ملكية ، أو جناح استقبال ملكي .
٤٣ - كنا بالاصل وهو وهم قلعله أراد قوله تعالى « كذلك نجزي كل كفور » (فاطر ٣٦) ولم يرد قوله جل وعلا « كذلك نجزي من شكر » (القمر ٣٥)
٤٤ - الكتهور من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم منه ، القاموس .
٤٥ - السنني : ضوء البرق والنار ، والسنور : الدروع أو السلاح . القاموس اللسان .
٤٦ - ابي الثغرية أو الحدونية .
٤٧ - القرب : الذشاط والتماني والحدة ، القاموس .
٤٨ - السنور جملة السلاح ، القاموس .
٤٩ - النأماء : البحر ، القاموس .
٥٠ - الجماء : الفغير . النهاية لابن الاثير .
٥١ - التاريت : الاغراء بين القوم وايقاد النار ، القاموس .
٥٢ - القوننس : ما يوضع على أعلى الرأس ، القاموس .
٥٣ - التامور : علة القلب ودمه ، النهاية لابن الاثير .
٥٤ - الوج : القطا والنعام ، القاموس .
٥٥ - حزأ : خمن أو حزر وقدر ، القاموس .
٥٦ - ضبر : وثب ، القاموس .
٥٧ - المشق : السرعة في الطعن والضرب ، القاموس .
٥٨ - الرغفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، أو الرقيقة الحسنة السلاسل ، القاموس .

المحتوى

٣ - توطئة

- ٧ - من كتاب البرق الشامي
- ٧ - سنة ثلاث وثمانين
- ١٠ - ذكر سرية الأفضل علي
- ١٣ - ذكر الدخول الى الساحل
- ١٦ - ذكر ما اعتمده الفرنج
- ١٨ - فتح طبرية
- ٢١ - ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء
- ذكر الذشاب ووصفه
- ٢٤ - ذكر يوم هطين

★ ★ ★ ★

- ٣٣ - كتاب الفتح القسي
- ٤٧ - ذكر ما كان بين ملك الفرنج وبين القومص من خلاف
- ٤٨ - ذكر دخول السلطان صلاح الدين الى بيار الفرنج
- ٥١ - ذكر فتح طبرية
- ٥٦ - ذكر الصليب الأعظم
- ٥٧ - ذكر فتح حصن طبرية
- ٥٧ - ذكر ما اعتمده في الاسارى النارية والاستنارية
- ٥٨ - ذكر فتح عكا
- ٦١ - فتح عدة من البلاد
- ٦١ - فتح الناصرة وصفورية
- ٦٢ - فتح قيسارته
- ٦٢ - فتح نابلس
- ٦٣ - فتح الفولة
- ٦٤ - فتح تبنين
- ٦٦ - فتح صيدا
- ٦٧ - فتح بيروت
- ٧٠ - فتح جبيل
- ٧١ - هلاك القومص ودخول المراكيس الى صدور
- نؤ - فتح عسقلان
- ٧٥ - فتح القدس
- ٧٦ - كنيسة قماعة
- ٧٩ - وصف البيت المقدس

- ٦٢٤٢ -

- ٧٠ - ذكر يوم الفتح
- ٨٦ - ذكر حالي في العود الى الخدمة
- ٨٧ - حال الفرنج في خروجهم من القدس
- ٨٩ - ما أظهر السلطان في القدس
- ٩٢ - وصف الصخرة
- ٩٥ - محراب داود
- ٩٨ - ماجرى بعد فتح القدس
- ١٠٠ - حصار صور
- ١٠٥ - ما تم على الاسطول
- ١٠٨ - خروج الفرنج للقتال
- ١١٠ - ما يبروه من الرأي
- ١١٢ - فتح حصن هونين
- ١١٦ - استشهاد محمود أخي جاولي
- ١١٨ - نزول السلطان على عكا
- ١١٩ - ورود رسل
- ١٢٠ - وصول اخو العماد
- ١٢٦ - رسالة الى اليمن
- ١٣٥ - سنة اربع وثمانين وخمسمائة
- ١٣٦ - حال الكرك
- ١٣٩ - عمارة عكا على يد قراقوش
- ١٤٠ - وصول رسول سلطان الروم فليج ارسلان
- ١٤٢ - رحيل السلطان صوب دمشق
- ١٤٦ - وصول عماد الدين صاحب سنجار
- ١٥٥ - فتح جبلة
- ١٥٧ - فتح اللاذقية
- ١٦١ - فتح صهيون
- ١٦٤ - فتح بكاس والشفر
- ١٦٦ - فتح برزية
- ١٧١ - فتح دربساك
- ١٧٢ - فتح بغراس
- ١٧٣ - الهدنة مع انطاكية
- ١٧٤ - عود عماد الدين ثم عود السلطان الى دمشق
- ١٧٧ - فتح الكرك
- ١٧٨ - محاصرة صدد
- ١٧٩ - حصار كوكب
- ١٨١ - فتح كوكب
- ١٨٤ - سنة خمس وثمانين وخمسمائة
- ١٨٥ - رسول من دار الخلافة
- ١٨٧ - رسالة الى بغداد
- ١٩١ - حصار شقيف ارنون
- ١٩٤ - اقامة السلطان بمرج عيون
- ١٩٧ - استشهاد عنة من امراء العرب

- ٦٢٤٣ -

- ١٩٩ - مسير الفرنج الى عكا
- ٢٠٥ - وقعة يوم الاربعاء
- ٢٠٦ - وفاة حسام الدين طمان
- ٢٠٧ - واقعة للعرب
- ٢٠٨ - الواقعة الكبرى
- ٢١١ - نصرة بعد كسرة
- ٢١٢ - رسالة الى بعض الاطراف
- ٢١٦ - عرض المساكر
- ٢١٧ - استرجاع ما نهب من الثقل
- ٢١٨ - مشاورات حول عكا
- ٢٢١ - الرحيل الى الضروية
- ٢٢٣ - ما جرى بعد ذلك من حوادث
- ٢٢٤ - وصول ملك الالمان
- ٢٢٥ - رسالة الى دار الخلافة
- ٢٢٧ - وصول الملك العادل
- ٢٢٩ - رسالة الى بغداد
- ٢٣١ - وصول الاسطول المنصور
- ٢٣٢ - رسائل متنوعة
- ٢٣٤ - تقوية عكا
- ٢٣٥ - حال نساء الفرنج
- ٢٣٨ - ما اهداه صاحب الموصل من سلاح وعتاد
- ٢٣٩ - ذكر صاحب سنجار
- ٢٤١ - وصول رسول سلطان المعجم
- ٢٤٣ - وقعة الرمل
- ٢٤٤ - حال عكا
- ٢٤٦ - رسول من دار الخلافة
- ٢٤٨ - مقاتلة الافرنج عكا بالابراج
- ٢٥٠ - احراق الابراج الثلاثة
- ٢٥٣ - رسائل بشائر
- ٢٥٧ - تاريخ وصول الاكابر هذه السنة
- ٢٥٩ - كتاب الى صاحب الموصل .
- ٢٦٠ - وصول الاسطول من مصر
- ٢٦٠ - رسالة حول الاسطول
- ٢٦٣ - قصة ملك الالمان
- ٢٦٩ - رسالة الى بغداد عن ملك الالمان
- ٢٧٠ - كتاب استنصار
- ٧٢ - الواقعة العادلية
- ٢٧٦ - حال الفرنجة
- ٢٧٩ - وصول الكنديري
- ٢٨١ - هريق المنجنيقات
- ٢٨٢ - وصول بطسة من بيروت
- ٢٨٣ - وصول بطس الفلة من مصر .

- ٦٢٤٤ -

- ٢٨٤ - كتاب الى سيف الاسلام
- ٢٨٥ - ذكر عيسى القوام
- ٢٨٥ - وصول ولد ملك اللمان
- ٢٨٧ - برج الذبان
- ٢٩٠ - الكيش وحريقه
- ٢٩٣ هـ وادث تجددت
- ٢٩٥ - وفاة زين الدين صاحب اربل
- ٢٩٧ - ذوبة رأس الماء
- ٣٠٠ - كتاب في المعنى
- ٣٠٢ - وقعة الكمين
- ٣٠٣ - كتاب بشرح الحال
- ٣٠٤ - هجوم الشتاء
- ٣٠٦ - كتاب الى صاحب الموصل
- ٣٠٧ - ما تجدد هذه السنة
- ٣١٢ - الشهداء هذه السنة
- ٣١٥ - ما تجدد من العوادث
- ٣١٨ - جماعة وصلوا من عسكر الاسلام .
- ٣١٩ - وصول ملك الافرنسيس
- ٣٢٠ - نادرة
- ٣٢١ - وصول ملك الانكثير الى قبرص
- ٣٢٣ - قصة الرضيع
- ٣٢٥ - انتقال السلطان الى تل العياضية
- ٣٢٦ - وصول ملك الانكثير
- ٣٢٨ - غرق البطسة
- ٣٢٨ - حريق الدبابة
- ٣٢٩ - وقعات هذا الشهر
- ٣٣٣ - مفارقة المركيس القوم
- ٣٣٣ - من وصل من المساكر الاسلامية
- ٣٣٥ - ضعف عكا
- ٣٣٦ - كتاب الى صاحب الموصل
- ٣٣٨ - خروج رسل الافرنج
- ٣٣٩ - ضعف الثغر
- ٣٤١ - خروج المشطوب الى ملك الافرنسيس
- ٣٤١ - هرب جماعة من عكا
- ٣٤٢ - كتاب الى اربل
- ٣٤٣ - ماجرى من الحال
- ٣٤٥ - جماعة من العسكرية وصلوا
- ٣٤٦ - سقوط عكا
- ٣٥٢ - كتاب الى نور الدين بن قرا ارسلان
- ٣٥٢ - رسالة الى اربل
- ٣٥٦ - ماجرى عليه الحال بعد سقوط عكا
- ٣٥٨ - غدر ملك الانكثير باسرى المسلمين

- ٦٢٤٥ -

- ٣٦٠ - رحيل الفرنج هبوب عسقلان
- ٣٦٣ - كتاب الى اربل
- ٣٦٤ - وقعة قيسارية
- ٣٦٥ - مقتل اياز الطويل
- ٣٦٦ - وقعة لعز الدين بن المقدم
- ٣٦٧ - وقعة ارسوف
- ٣٧٠ - رسالة الى بغداد
- ٣٧٢ - دخول الفرنج يافا
- ٣٧٣ - خراب عسقلان
- ٣٧٥ - كتاب الى بغداد
- ٣٧٦ - ما تجدد ملك الانكثير
- ٣٧٨ - نزول السلطان بالرملة
- ٣٧٩ - وقعة الكمين
- ٣٨٠ - اجتماع العادل بملك الانكثير
- ٣٨١ - الرحيل الى القدس
- ٣٨٢ - يوم عيد الاضحى بالقدس
- ٣٨٢ - وقعة الافرنج
- ٣٨٣ - عمارة القدس
- ٣٨٤ - وفاة تقي الدين عمر
- ٣٨٨ - وفاة حسام الدين عمر
- ٣٩٣ - رسائل حول القدس
- ٣٩٤ - رسالة شكر الى صاحب الموصل
- ٣٩٨ - حوادث مع الفرنج هذه السنة
- ٣٩٩ - ثلاث سرايا
- ٣٩٩ - سرية فارس الدين ميمون القصري
- ٤٠٠ - خروج المشطوب من الاسر
- ٤٠٠ - هلاك المركيس
- ٤٠٢ - استيلاء الفرنج على الناروم
- ٤٠٤ - كبسة الفرنج عسكر مصر
- ٤٠٦ - سبب غيبة العادل والافضل
- ٤٠٧ - رحيل ملك الانكثير هبوب عكا
- ٤٠٨ - نزول السلطان على يافا
- ٤١٠ - رسالة الى بغداد
- ٤١٢ - الهيئة العامة
- ٤١٤ - رسالة الى بغداد عن نوبة يافا والهندة
- ٤١٧ - ماجرى بعد الصلح
- ٤١٨ - ما عزم عليه السلطان
- ٤١٩ - خروج السلطان نحو دمشق
- ٤٢١ - وصول السلطان الى بيروت ودخول صاحب انطاكية عليه
- ٤٢٣ - وصول السلطان الى دمشق
- ٤٢٩ - وفاة السلطان بدمشق
- ٤٣٠ - اولاد السلطان

- ٦٢٤٦ -

- ٤٣١ - من تولي ممالك الاسلطان بعنه
- ٤٣٢ - ذكر من تولي دمشق
- ٤٣٤ - ذكر حلب ومن تولوها
- ٤٣٥ - ذكر الملك العادل
- ٤٣٦ - الشامتون بوفاة صلاح الدين
- ٣٤٨ - رسالة باسم الافضل الى بغداد
- ٤٤٠ - ذكر سيف الاسلام باليمن
- ٤٤٥ - رسول الافضل الى دار الخلافة
- ٤٤٩ - بعض مناقب صلاح الدين
- ٤٥٦ - الدواشي والهوامش